

الميزان

في تفسير القرآن

ج ١٨/١

الجزء الثامن عشر

مكتاب

الميزان

في تفسير القرآن

لمؤلفه

الأستاذ العلامة

السيد محمد حسين الطباطبائي

شبكة كتب الشيعة

علم الطبع والنشر

الشيخ محمد الجوندي

مبشر

دار الكتب الإسلامية

طهران - سوق الشاهين

١٣٩٠ هـ

مطبعة الحيدري بطهران

shiaabooks.net

رابط بديل < mktba.net

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(سورة الشورى مكية و هى ثلاث و خمسون آية)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . حم (١) عسق (٢) كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ
وَ إِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٣) لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا
فِي الْأَرْضِ وَ هُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ (٤) تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ وَ
الْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَ يَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا إِنْ أَرَادَ اللَّهُ
هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥) وَ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيفٌ
عَلَيْهِمْ وَ مَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ (٦) .

﴿بيانات﴾

تتكلم السورة حول الوحي الذي هو نوع تكليم من الله سبحانه لا نبيائه ورسوله
كما يدل عليه ما في مفتحتها من قوله : « كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَ إِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ
اللَّهُ » الآية ، و ما في مختتمها من قوله : « وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا النخ
الآيات ، ورجوع الكلام إليه مرة بعد أخرى في قوله : « وكذلك أوحينا إليك قرآنا
عربيا » الآية ، وقوله : « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا » الآية ، وقوله : «اللَّهُ

الذي أنزل الكتاب بالحق والميزان» الآية وما يتكرر في السورة من حديث الرزق على ماسيجي .

فالوحي هو الموضوع الذي يجري عليه الكلام في السورة وما فيها من التعرض لآيات التوحيد وصفات المؤمنين والكفار وما يستقبل كلا من الفريقين في معادهم ورجوعهم إلى الله سبحانه مقصود بالقصد الثاني وكلام جرّه كلام .

والسورة مكّية وقد استثنى قوله : « و الذين استجابوا لربهم » إلى تمام ثلاث آيات ، وقوله : « قل لأسألكم عليه أجرا إلا المودة في القربى » إلى تمام أربع آيات وسيجيء الكلام فيها إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : « حمّ عسق » من الحروف المقطّعة الواقعة في أوائل عدّة من السور القرآنية ، وذلك من مختصات القرآن الكريم لا يوجد في غيره من الكتب السماوية .

وقد اختلف المفسرون من القدماء والمتأخرين في تفسيرها وقد نقل عنهم الطبرسي في مجمع البيان أحد عشر قولاً في معناها :

أحدها أنها من المتشابهات التي استأثر الله سبحانه بعلمها لا يعلم تأويلها إلا هو .
الثاني أن كلامها اسم للسورة التي وقعت في مفتحتها .
الثالث أنها أسماء القرآن أي لمجموعه .

الرابع أن المراد بها الدلالة على أسماء الله تعالى فقوله : « الم » معناه أنا الله أعلم ، وقوله : « المر » معناه أنا الله أعلم وأرى ، وقوله : « المص » معناه أنا الله أعلم وأفصل وقوله : « كهيعص » الكاف من الكافي ، والهاء من الهادي ، والياء من الحكيم ، والعين من العليم ، والصاد من الصادق ، وهو مروي عن ابن عباس ، والحروف المأخوذة من الأسماء مختلفة في أخذها فمنها ما هو مأخوذ من أوّل الاسم كالكاف من الكافي ، ومنها ما هو مأخوذ من وسطه كالياء من الحكيم ، ومنها ما هو مأخوذ من آخر الكلمة كاليم من أعلم .

الخامس أنها أسماء لله تعالى مقطّعة لو أحسن الناس تأليفها لعلموا اسم الله

الأعظم تقول: الرّوحمّ ونّ يكون الرحمن وكذلك سائرهما إلّا أنّنا لا نقدر على تأليفهاو هو مروي عن سعيد بن جبير .

السادس أنّها أقسام أقسم الله بها فكأنّه هو أقسم بهذه الحروف على أن القرآن كلامه ، وهي شريفة لكونها مباني كتبه المنزلة ، وأسمائه الحسنی وصفاته العليا ، أصول لغات الأمم على اختلافها .

السابع أنّها إشارات إلى آلائه تعالى وبلائه ومدّة الأقسام وأعمارهم وآجالهم . الثامن أنّ المراد بها الإشارة إلى بقاء هذه الامة على ما يدل عليه حساب الجمل .

التاسع أنّ المراد بها حروف المعجم وقد استغني بذكر ما ذكر منها عن ذكر الباقي كما يقال : اب ويراد به جميع الحروف .

العاشر أنّها تسكيت للكفار لأنّ المشركين كانوا تواصوا فيما بينهم أن لا يسمعوا للقرآن وأن يلغوا فيه كما حكاه القرآن عنهم بقوله : « لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه » الآية فربما صفروا وربما صفقوا وربما لغطوا فيه ليغلطوا النبي ﷺ في تلاوته ، فأنزل الله تعالى هذه الحروف فكانوا إذا سمعوها استغربوها و استمعوا إليها وتفكروا فيها و اشتغلوا بها عن شأنهم فوقع القرآن في مسامعهم .

الحادي عشر أنّها من قبيل تعداد حروف التهجي والمراد بها أنّ هذا القرآن الذي عجزتم عن معارضته هو من جنس هذه الحروف التي تتحاورون بها في خطبكم و كلامكم فإنّ لم تقدروا عليه فاعلموا أنّه من عند الله تعالى ، وإنّما كررت الحروف في مواضع استظهارا في الحجّة ، وهو مروي عن قطرب و اختاره أبو مسلم الإصبهاني وإليه يميل جمع من المتأخرين .

فهذه أحد عشر قولاً وفيما نقل عنهم ما يمكن أن يجعل قولاً آخر كما نقل عن ابن عباس في « الم » أنّ الألف إشارة إلى الله واللام إلى جبريل والميم إلى محمد ﷺ ، وما عن بعضهم أنّ الحروف المقطعة في أوائل السور المفتحة بها إشارة إلى الغرض المبين فيها كأن يقال : إنّ « ن » إشارة إلى ما تشتمل عليه السورة من النصر الموعود

للنبي ﷺ ، و «ق» إشارة إلى القرآن أو القهر الإلهي المذكور في السورة ، وماعن بعضهم أن هذه الحروف للإيقاظ .

والحق أن شيئاً من هذه الأقوال لا ينطمن إليه النفس :

أما القول الأول فقد تقدم في بحث المحكم والمتشابه في أوائل الجزء الثالث من الكتاب أنه أحد الأقوال في معنى المتشابه ، وعرفت أن الأحكام والتشابه من صفات الآيات التي لها دلالة لفظية على مداليلها ، وأن التأويل ليس من قبيل المداليل اللفظية بل التأويلات حقائق واقعية تنبعث منها مضامين البيانات القرآنية أعم من محكماتها ومتشابهاتها ، وعلى هذا فلا هذه الحروف المقطعة متشابهات ولا معانيها المراد بها تأويلات لها .

وأما الأقوال العشرة الأخر فإنها هي تصورات لا تعدى حد الاحتمال ولا دليل يدل على شيء منها .

نعم في بعض الروايات المنسوبة إلى النبي ﷺ وأئمة أهل البيت عليه السلام بعض التأييد للقول الرابع والسابع والثامن والعاشر وسيأتي نقلها والكلام في مفادها في البحث الروائي الآتي إن شاء الله تعالى .

والذي لا ينبغي أن يغفل عنه أن هذه الحروف تكررت في سورشتي وهي تسع وعشرون سورة افتتح بعضها بحرف واحد وهي ص و ق و ن ، وبعضها بحرفين وهي سور طه و طس ويس وحم . وبعضها بثلاثة أحرف كما في سورتي «الم» و «الر» و طسم وبعضها بأربعة أحرف كما في سورتي «المص» و «المر» وبعضها بخمسة أحرف كما في سورتي «كهيعص» و «جمعسق» .

وتختلف هذه الحروف أيضاً من حيث إن بعضها لم يقع إلا في موضع واحد مثل «ن» و بعضها واقعة في مفتتح عدة من السور مثل «الم» و «الر» و «طس» و «حم» .

ثم إنك إن تدبرت بعض التدبر في هذه السور التي تشترك في الحروف المفتتح بها مثل الميمات والآراء والطواسين والحواميم ، وجدت في السور المشتركة في

الحروف من تشابه المضامين و تناسب السياقات ما ليس بينها و بين غيرها من السور .
و يؤكد ذلك ما في مفتتح أغلبها من تقارب الألفاظ كما في مفتتح الحواميم من
قوله : « تنزيل الكتاب من الله » أو ما هو في معناه ، و ما في مفتتح الآرآت من قوله :
« تلك آيات الكتاب » أو ما هو في معناه ، و نظير ذلك واقع في مفتتح الطواسين ، و ما في
مفتتح المآيمات من نفي الريب عن الكتاب أو ما هو في معناه .

و يمكن أن يعدس من ذلك أن بين هذه الحروف المقطعة و بين مضامين السور
المفتتحة بها ارتباطا خاصا ، و يؤيد ذلك ما نجد أن سورة الأعراف المصدرة بالمص
في مضمونها كأنها جامعة بين مضامين المآيمات و ص ، و كذا سورة الرعد المصدرة بالمر
في مضمونها كأنها جامعة بين المآيمات و الرآت .

و يستفاد من ذلك أن هذه الحروف رموز بين الله سبحانه و بين رسوله ﷺ
خفية عنا لاسبيل لأفهامنا العادية إليها إلا بمقدار أن نستشعر أن بينها و بين المضامين
المودعة في السور ارتباطا خاصا .

و لعل المتدبر لو تدبر في مشتركات هذه الحروف و قايس مضامين السور التي
وقعت فيها بعضها إلى بعض تبين له الأمر أزيد من ذلك .

و لعل هذا معنى ما روته أهل السنة عن علي عليه السلام - علي ما في المجمع - أن
لكل كتاب صفوة و صفوة هذا الكتاب حروف التهجي .

قوله تعالى : « كذلك يوحى إليك و إلى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم
- إلى قوله - العلي العظيم » مقتضى كون غرض السورة بيان الوحي بتعريف حقيقته
و الإشارة إلى غايته و آثاره أن تكون الإشارة بقوله : « كذلك » إلى شخص الوحي
باللقاء هذه السورة إلى النبي ﷺ فيكون تعريفا مطلقا للوحي بتشبيهه بفرد مشار
إليه مشهود للمخاطب فيكون كقولنا في تعريف الإنسان مثلا هو كزيد .

و عليه يكون قوله : « إليك و إلى الذين من قبلك » في معنى إليكم جميعا ، وإنما
عبر بما عبر للدلالة على أن الوحي سنة إلهية جارية غير مبتدعة ، و المعنى أن
الوحي الذي نوحيه إليكم معشر الأنبياء - نبيًا بعد نبي - سنة جارية - هو كهذا الذي

تجده و تشاهده في تلقّي هذه السورة .

وقد أخذ جمهور المفسرين قوله : « كذلك » إشارة إلى الوحي لا من حيث نفسه بل من حيث ما يشتمل عليه من المفاد فيكون في الحقيقة إشارة إلى المعارف التي تشتمل عليها السورة و تتضمنها و استنتجوا من ذلك أن مضمون السورة ممّا أوحاه الله تعالى إلى جميع الأنبياء فهو من الوحي المشترك فيه ، وقد عرفت أنّه لا يوافق غرض السورة ويأباه سياق آياتها .

وقوله : « العزيز الحكيم له ما في السماوات وما في الأرض وهو العليّ العظيم » خمسة من أسمائه الحسنی ، وقوله : « له ما في السماوات وما في الأرض » في معنى المالك ، وهي واقعة موقع التعليل لأصل الوحي ولكونه سنة إلهية جارية فالذي يعطيه الوحي شرع إلهي فيه هداية الناس إلى سعادة حياتهم في الدنيا والآخرة و ليس لمانع أن يمنعه تعالى عن ذلك لأنّه عزيز غير مغلوب فيما يريد ، و لا هو تعالى يهمل أمر هداية عباده لأنّه حكيم متقن في أفعاله و من إتقان الفعل أن يساق إلى غايته .

و من حقّه تعالى أن يتصرّف فيهم و في أمورهم كيف يشاء ، لأنّه مالكهم و له أن يعبدّهم و يستعبدّهم بالأمر و النهي لأنّه عليّ عظيم فلكل من الأسماء الخمسة حظّه من التعليل ، وينتج مجموعها أنّه وليّهم من كلّ جهة لاولي غيره .

قوله تعالى : « تكاد السماوات يتفطرن من فوقهن » الخ التفطر التشقق من الفطر بمعنى الشق .

الذي يهدي إليه السياق و الكلام مسرود لبيان حقيقة الوحي و غايته و آثاره أن يكون المراد من تفطر السماوات من فوقهن تفطرها بسبب الوحي النازل من عند الله العليّ العظيم المارّ بهنّ سماء سماء حتّى ينزل على الأرض فإنّ مبدء الوحي هو الله سبحانه و السماوات طرائق إلى الأرض قال تعالى : « و لقد خلقنا فوقكم سبع طرائق و ما كنّا عن الخلق غافلين » المؤمنون : ١٧ .

و الوجه في تقييد « يتفطرن » بقوله : « من فوقهنّ » ظاهر فإنّ الوحي ينزل

عليهن من فوقهن من عند من له العلو المطلق والعظمة المطلقة فلو تفتطرن كان ذلك من فوقهن .

على ما فيه من إعظام أمر الوحي وإعلائه فإنّه كلام العلي العظيم فلكونه كلام ذي العظمة المطلقة تكاد السماوات يتفتطرن بنزوله و لكونه كلاماً نازلاً من عند ذي العلو المطلق يتفتطرن من فوقهن لو تفتطرن .

فالأية في إعظام أمر كلام الله من حيث نزوله و مروره على السماوات نظيرة قوله : « حتّى إذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق وهو العلي الكبير » سبأ : ٢٣ في إعظامه من حيث تلقّي ملائكة السماوات إيّاه ، و نظيرة قوله : « لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدّعاً من خشية الله » الحشر : ٢١ في إعظامه على فرض نزوله على جبل و نظيرة قوله : « إنا سنلقي عليك قولا ثقيلاً » المزمل : ٥ في استنقاله و استصعاب حمله . هذا ما يعطيه السياق .

وقد حمل القوم الآية على أحد معنيين آخرين :

أحدهما أن المراد تفتطرن من عظمة الله و جلاله جلّ جلاله كما يؤيّد به توصيفه تعالى قبله بالعلي العظيم .

و ثانيهما أن المراد تفتطرن من شرك المشركين من أهل الأرض و قولهم : « اتّخذ الرحمن ولداً » فقد قال تعالى فيه : « تكاد السماوات يتفتطرن منه » مريم : ٩٠ فأدّى ذلك إلى التكلف في توجيه تقييد التفتطرن بقوله : « من فوقهن » و خاصّة على المعنى الثاني ، و كذا في توجيه اتّصال قوله : « والملائكة يستغفرون لمن في الأرض » الخ بما قبله كما لا يخفى على من راجع كتبهم .

و قوله : « و الملائكة يسبحون بحمد ربهم و يستغفرون لمن في الأرض » أي ينزّهونه تعالى عمّا لا يليق بساحة قدسه و يثنون عليه بجميل فعله ، و ممّا لا يليق بساحة قدسه أن يهمل أمر عباده فلا يهديهم بدين يشرعه لهم بالوحي و هو منه فعل جميل ، و يسألونه تعالى أن يغفر لأهل الأرض ، و حصول المغفرة إنّما هو بحصول سببها و هو سلوك سبيل العبوديّة بالاهتداء بهداية الله سبحانه فسؤالهم المغفرة لهم مرجعه إلى

سؤال أن يشرع لهم ديناً يغفر لمن تدين به منهم فالمعنى والملائكة يسألون الله سبحانه أن يشرع لمن في الأرض من طريق الوحي ديناً يدينون به فيغفر لهم بذلك .
و يشهد على هذا المعنى وقوع الجملة في سياق بيان صفة الوحي وكذا تعلق الاستغفار بمن في الأرض إذ لا معنى لطلب المغفرة منهم لمطلق أهل الأرض حتى لمن قال : « اتخذ الله ولداً » وقد حكى الله تعالى عنهم : « ويستغفرون للذين آمنوا » الآية المؤمن : ٧ . فالمتعين حمل سؤال المغفرة على سؤال سببها وهو تشريع الدين لأهل الأرض ليغفر لمن تدين به .

وقوله : « ألا إن الله هو الغفور الرحيم » أي إن الله سبحانه لا تصافه بصفتي المغفرة والرحمة وتسميته باسمي الغفور الرحيم يليق بساحة قدسه أن يفعل بأهل الأرض ما ينالون به المغفرة والرحمة من عنده وهو أن يشرع لهم ديناً يهتدون به إلى سعادتهم من طريق الوحي والتكليم .

قيل : و في قوله : « ألا إن الله » الخ إشارة إلى قبول استغفار الملائكة ، وأنه سبحانه يزيدهم على ما طلبوه من المغفرة رحمة .

قوله تعالى : « و الذين اتخذوا من دونه أولياء الله حفيظ عليهم وما أنت عليهم بوكيل » لما استفيد من الآيات السابقة أن الله تعالى هو الولي لعباده لا ولي غيره وهو يتولى أمر من في الأرض منهم بتشريع دين لهم يرتضيه من طريق الوحي إلى أنبيائه على ما يقتضيه أسماؤه الحسنی و صفاته العليا ، و لازم ذلك أن لا يتخذ عباده أولياء من دونه ، أشار في هذه الآية إلى حال من اتخذ من دونه أولياء باتخاذهم شركاء له في الربوبية والألوهية فذكر أنه ليس بغافل عما يعملون وأن أعمالهم محفوظة عليهم سيؤاخذون بها ، وليس على النبي ﷺ إلا البلاغ من غير أن يكون وكيلا عليهم مسؤولاً عن أعمالهم .

فقوله : « الله حفيظ عليهم » أي يحفظ عليهم شرهم وما يتفرع عليه من الأعمال السيئة .

وقوله : « و ما أنت عليهم بوكيل » أي مفوضاً إليك أعمالهم حتى تصلحها لهم

بهدياتهم إلى الحق ، والكلام لا يخلو من نوع من التسلية للنبي ﷺ .

﴿ بحث روائي ﴾

في الدر المنثور أخرج ابن إسحاق و البخاري في تاريخه و ابن جرير بسند ضعيف عن ابن عباس عن جابر بن عبد الله بن رباب قال : مر أبو ياسر بن أخطب في رجال من يهود برسول الله ﷺ وهو يتلو فاتحة سورة البقرة « ألم ذلك الكتاب » فأتاه أخوه حيي بن أخطب في رجال من اليهود فقال : تعلمون ؟ و الله لقد سمعت محمدًا يتلو فيما أنزل عليه « ألم ذلك الكتاب » فقالوا : أنت سمعته ؟ قال : نعم .

فمشى أولئك نفر إلى رسول الله ﷺ فقالوا : يا محمد ألم تذكر أنك تتلو فيما أنزل عليك « ألم ذلك الكتاب » ؟ قال : بلى . قالوا : قد جاءك بهذا جبريل من عند الله ؟ قال : نعم . قالوا : لقد بعث الله قبلك أنبياء ما نعلمه بيّن لنبي لهم مائدة ملكه ؟ وما أجل أمته ؟ غيرك .

فقال حيي بن أخطب و أقبل على من كان معه : الألف واحدة و الالأم ثلاثون و الميم أربعون فهذه إحدى و سبعون سنة أفتدخلون في دين نبي إنما مدة ملكه و أجل أمته إحدى و سبعون سنة .

ثم أقبل على رسول الله ﷺ فقال : يا محمد هل مع هذا غيره ؟ قال : نعم . قال : ماذا ؟ قال : المص قال : هذه أثقل و أطول الألف واحدة ، و الالأم ثلاثون و الميم أربعون و الصاد تسعون فهذه مائة و إحدى و ستون سنة هل مع هذا يا محمد غيره ؟ قال : نعم . قال : ماذا ؟ قال : الر . قال : هذه أثقل و أطول الألف واحدة و الالأم ثلاثون و الراء مائتان فهذه إحدى و ثلاثون و مائتا سنة فهل مع هذا غيره ؟ قال : نعم المر قال : فهذه أثقل و أطول الألف واحدة و الالأم ثلاثون و الميم أربعون و الراء مائتان فهذه إحدى و سبعون سنة و مائتان .

ثم قال : لقد لمس علينا أمرك يا محمد حتى ماندرى أ قليلا أعطيت أم كثيرا ؟ ثم قاموا فقال أبو ياسر لأخيه حيي و من معه من الأخبار : ما يدريكم ؟ لعله قد جمع

هذا لمحمد كلاً إحدى و سبعون و إحدى و ستون و مائة و إحدى و ثلاثون ومائتان و إحدى و سبعون و مائتان فذلك سبعمائة وأربع و ثلاثون فقالوا : لقد تشابه علينا أمره فيزعمون أن هذه الآيات نزلت فيهم : « هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات » .

اقول : وروى قريباً منه عن ابن المنذر عن ابن جريح ، وروى مثله أيضاً القمي في تفسيره عن أبيه عن ابن رثاب عن محمد بن قيس عن أبي جعفر عليه السلام ، وليس في الرواية ما يدل على إمضاء النبي ﷺ لدعواهم ولا كانت لهم على ما ادّعوه حجة ، وقد تقدم أن الآيات المتشابهة غير الحروف المقطعة في فواتح السور .

و في المعاني باسناده عن جويرية عن سفيان الثوري قال : قلت لجعفر بن محمد ابن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام : يا بن رسول الله ما معنى قول الله عز وجل : الم والمص والر والمر وكهيعص وطه وطس وطسم ويس وص وحم وحمعسق وق ون ؟

قال عليه السلام : أمّا الم في أول البقرة فمعناه أنا الله الملك ، و أمّا الم في أول آل عمران فمعناه أنا الله المجيد ، والمص فمعناه أنا الله المقتدر الصادق ، والر فمعناه أنا الله الرؤف ، والمر فمعناه أنا الله المحيي المميت الرازق ، وكهيعص فمعناه أنا الكافي الهادي الولي العالم الصادق الوعد ، فأما طه فاسم من أسماء النبي ﷺ ومعناه ياطالب الحق الهادي إليه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى بل لتسعد به .

و أمّا طس فمعناه أنا الطالب السميع ، و أمّا طسم فمعناه أنا الطالب السميع المبدئ المعيد ، و أمّا يس فاسم من أسماء النبي ﷺ ومعناه يا أيها السامع للوحي والقرآن الحكيم إنك لمن المرسلين على صراط مستقيم .

وأمّا ص فعين تنبع من تحت العرش وهي التي توضح منها النبي ﷺ لمّا عرج به و يدخلها جبرئيل كل يوم دخلة فيغتمس فيها ثم يخرج منها فينفض أجنحته فليس من قطرة تقطر من أجنحته إلا خلق الله تبارك و تعالى منها ملكاً يسبح الله ويقدره و يكبره ويحمده إلى يوم القيامة .

وَأَمَّا حَمَّ فَمَعْنَاهُ الْحَمِيدُ الْمَجِيدُ ، وَأَمَّا حَمَسَقَ فَمَعْنَاهُ الْحَلِيمُ الْمُثِيبُ الْعَالِمُ السَّمِيعُ الْقَادِرُ الْقَوِيُّ ، وَأَمَّا قَ فَهُوَ الْجَبَلُ الْمَحِيطُ بِالْأَرْضِ وَخُضْرَةُ السَّمَاءِ مِنْهُ وَبِهِ يُمْسِكُ اللَّهُ الْأَرْضَ أَنْ تَمِيدَ بِأَهْلِهَا ، وَأَمَّا نَ فَهُوَ نَهْرٌ فِي الْجَنَّةِ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَجْمَدُ فَيَجْمَدُ فَصَارَ مَدَادًا ثُمَّ قَالَ عَزَّ وَجَلَّ لِلْقَلَمِ : اكْتُبْ فَسَطَرَ الْقَلَمُ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ مَا كَانَ وَ مَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ فَالْمَدَادُ مَدَادٌ مِنْ نُورٍ وَالْقَلَمُ قَلَمٌ مِنْ نُورٍ وَاللَّوْحُ لَوْحٌ مِنْ نُورٍ .

قال سفيان : فقلت له : يا بن رسول الله بيِّن لي أمر اللّوح والقلم والمداد فضل بيان وعلمني ممّا علّمك الله فقال : يا بن سعيد لولا أنّك أهل للجواب ما أجبتك فنون ملك يؤدّي إلى القلم وهو ملك ، والقلم يؤدّي إلى اللّوح وهو ملك ، واللّوح يؤدّي إلى إسرافيل ، وإسرافيل يؤدّي إلى ميكائيل ، وميكائيل يؤدّي إلى جبرئيل ، وجبرئيل يؤدّي إلى الأنبياء والرسل صلوات الله عليهم . قال : ثمّ قال لي : قم ياسفيان فلا آمن عليك .

اقول : ظاهر ما في الرواية من تفسير غالب الحروف المقطّعة بأسماء الله الحسنى أنّها حروف مأخوذة من الأسماء إمّا من أولّها كالطيم من الملك والمجيد والمقتدر ، وإمّا من بين سائر حروفها كاللّام من الله والياء من الولي فتكون الحروف المقطّعة إشارات على سبيل الرمز إلى أسماء الله تعالى ، وقد روي هذا المعنى من طرق أهل السنّة عن ابن عباس والربيع بن أنس وغيرهما لكن لا يخفى عليك أنّ الرمز في الكلام إنّما يصار إليه في الإفصاح عن الأمور التي لا يريد المتكلّم أن يطّلع عليه غير المخاطب بالخطاب فيرمز إليه بما لا يتعدّاه ومخاطبه ولا يقف عليه غيرهما وهذه الأسماء الحسنى قد أوردت وبيّنت في مواضع كثيرة من كلامه تعالى تصريحاً وتلويحاً وإجمالاً وتفصيلاً ولا يبقى مع ذلك فائدة في الإشارة إلى كلّ منها بحرف مأخوذ منه رمزاً إليه .

فالوجه - على تقدير صحّة الرواية - أن يحمل على كون هذه الأحرف دالة على هذه المعاني دلالة غير وضعيّة فتكون رموزاً إليها مستورة عنّا مجهولة لنا دالة على مراتب من هذه المعاني هي أدقّ وأرقى وأرفع من أفهامنا ، و يؤيّد ذلك بعض

التأييد تفسيره الحرف الواحد كالميم في المواضع المختلفة بمعان مختلفة ، و كذا ما ورد أنها من حروف اسم الله الأعظم .

وقوله : « و أمّا ق فهو الجبل المحيط بالأرض و خضرة السماء منه » الخ روى قريباً منه القمّي في تفسيره ، و هو مرويّ بعدّة من طرق أهل السنة عن ابن عباس و غيره ، و لفظ بعضها جبل من زمرد محيط بالدنيا عليه كنفا ^(١) السماء ، و في بعضها أنه جبل محيط بالبحر المحيط بالأرض و السماء الدنيا مترففة عليها و أن هناك سبع أرضين و سبعة أبحر و سبعة أجبل و سبع سماوات .

و في بعض ما عن ابن عباس : خلق الله جبلاً يقال له : ق محيط بالعالم و عروقه إلى الصخرة التي عليها الأرض فإذا أراد الله أن يزلزل قرية أمر ذلك الجبل فحرك العرق الذي يلي تلك القرية فيزولها و يحركها فمن ثمّ تحرك القرية دون القرية . و الروايات بظاهرها أشبه بالإسرائيليات ، ولولا قوله : « و به يمسك الله الأرض أن تميد بأهلها » لأمكن حمل قوله : « و أمّا ق فهو الجبل المحيط بالدنيا و خضرة السماء منه » على إرادة الهواء المحيط بالأرض بضرب من التأويل .

و أمّا قوله : إن طه و يس من أسماء النبي ﷺ بالمعنى الذي فسّره فينبغي أن يحمل أيضاً على ما قدّمناه و به يفسّر الروايات الكثيرة الواردة من طرق العامة و الخاصة في أن طه و يس من أسماء النبي ﷺ .

و أمّا قوله في ن أنه نهر صيّره الله مداداً كتب به القلم بأمره على اللوح ما كان و ما يكون إلى يوم القيامة ، و أن المداد و القلم و اللوح من النور ثمّ قوله : إن المداد ملك و القلم ملك و اللوح ملك فهو نعم الشاهد على أن ما ورد في كلامه تعالى من العرش و الكرسي و اللوح و القلم و نظائر ذلك و فسّر بما فسّره في كلام النبي ﷺ و أئمة أهل البيت ﷺ من باب التمثيل أريد به تقريب معارف حقيقة هي أعلى و أرفع من سطح الأفهام العامة بتنزيلها منزلة المحسوس .

و في المعاني أيضاً بائساده عن أبي بصير عن أبي عبد الله ﷺ قال : « الم » هو حرف

(١) الكنف بفتح الجان و كنفا السماء جانباً .

من حروف اسم الله الأعظم المقتطع في القرآن الذي يؤلفه النبي ﷺ والإمام فإذا دعا به أجيب . الحديث .

اقول : كون هذه الحروف المقتطعة من حروف اسم الله الأعظم المقتطع في القرآن مروي بعدة من طرق أهل السنة عن ابن عباس وغيره ، وقد تبين في البحث عن الأسماء الحسنى في سورة الأعراف أن الاسم الأعظم الذي له أثره الخاص به ليس من قبيل الألفاظ ، وأن ماورد مما ظاهره أنه اسم مؤلف من حروف ملفوظة مصروف عن ظاهره بنوع من الصرف المناسب له .

وفيه باسناده عن محمد بن زياد و محمد بن سيار عن العسكري ﷺ أنه قال : كذبت قريش واليهود بالقرآن وقالوا : سحرمين تقو له فقال الله : « الم ذلك الكتاب » أي يا محمد هذا الكتاب الذي أنزلناه عليك هو الحروف المقتطعة التي منها الف لام ميم وهو باغتكم وحروف هجاءكم فأتوا بمثله إن كنتم صادقين واستعينوا على ذلك بسائر شهدائكم . الحديث .

اقول : والحديث من تفسير العسكري وهو ضعيف .

و في تفسير القمّي و في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر ﷺ في قوله تعالى : « يتفطرون من فوقهن » أي يتصدعن .

و عن جوامع الجامع في قوله تعالى : « ويستغفرون لمن في الأرض » قال الصادق عليه السلام : لمن في الأرض من المؤمنين .

اقول : و روى ما في معناه في المجمع عنه ﷺ ورواه القمّي مضمرا .





وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا
وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي
السَّعِيرِ (٧) وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يَدْخُلُ مَنْ يَشَاءُ
فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَالَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (٨) أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ
دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَإِنَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ
شَيْءٍ قَدِيرٌ (٩) وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ
رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ (١٠) فَاطْرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ
لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذُرُّكُمْ فِيهِ لَيْسَ
كَمِثْلَهُ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (١١) لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ
يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٢) .

﴿بيان﴾

فصل ثان من الآيات يعرف فيه الوحي من حيث الغاية المترتبة عليه كما عرفناه
في الفصل السابق بالإشارة إليه نفساً .

فبيّن في هذا الفصل أن الغرض من الوحي إنذار الناس وخاصة الإذّار المتعلّق
بيوم الجمع الذي يتفرّق فيه الناس فريقين فريق في الجنّة وفريق في السعير إذ لولا
الإذّار بيوم الجمع الذي فيه الحساب والجزاء لم تنجح دعوة دينيّة ولم ينفع تبليغ .

ثمَّ يبيِّن أنَّ تفرُّقهم فريقين هو الذي شاء الله سبحانه فعقبه بتشريع الدين و إنذار الناس يوم الجمع من طريق الوحي لأنَّه وليهم الذي يحييهم بعد موتهم الحاكم بينهم فيما اختلفوا فيه .

ثمَّ ساق الكلام فانتقل إلى توحيد الربوبية وأنَّه تعالى هو الربَّ لا ربَّ غيره لاختصاصه بصفات الربوبية من غير شريك يشاركه في شيء منها .

قوله تعالى : « وكذلك أوحينا إليك قرآنا عربيا لتنذر أُمَّ القرى ومن حولها » الإشارة إلى الوحي المفهوم من سابق السياق ، و أُمَّ القرى هي مكة المشرفة والمُراد بإِنداز أُمَّ القرى إنذار أهلها ، والمراد بمن حولها سائر أهل الجزيرة ممَّن هو خارج مكة كما يؤيِّده توصيف القرآن بالعربية .

وذلك أنَّ الدعوة النبوية كانت ذات مراتب في توسُّعها فابتدأت الدعوة العلنية بدعوة العشيرة الأقربين كما قال : « وأُنذر عشيرتك الأقرنين » الشعراء : ٢١٤ ثمَّ توسَّعت فتعلَّقت بالعرب عامَّة كما قال : « قرآنا عربيا لقوم يعلمون » حم السجدة : ٣ ثمَّ بجميع الناس كما قال : « وأُنزل إلى هذا القرآن لأُنذركم به و من بلغ » .

و من الدليل على ما ذكرناه من الأمر بالتوسُّع تدريجا قوله تعالى : « قل ما أسألكم عليه من أجر - إلى أن قال - إن هو إلا ذكر للعالمين » ص : ٨٧ فإنَّ الخطاب على ما يعطيه سياق السورة لكفَّار قريش يقول سبحانه إنَّه ذكر للعالمين لا يختصَّ ببعض دون بعض ، فإذا كان للجميع فلا معنى لأنَّ يسأل بعضهم - كالنبي ﷺ - بعضا عليه أجرا .

على أنَّ تعلُّق الدعوة بأهل الكتاب وخاصة باليهود والنصارى من ضروريات القرآن ، وكذا إسلام رجال من غير العرب كسلمان الفارسي وبلال الحبشي وصهيب الرومي من ضروريات التاريخ .

وقيل المُراد بقوله : « من حولها » سائر الناس من أهل قرى الأرض كلها ويؤيِّده التعبير عن مكة بأُمَّ القرى .

والآية - كما ترى - تعرِّف الوحي بغايته التي هي إنذار الناس من طريق

الإلقاء الإلهي" وهو النبوة فالوحي إلقاء إلهي لغرض النبوة والإله نذار .

قوله تعالى : « وتنذر يوم الجمع لا ريب فيه فريق في الجنة وفريق في السعير » عطف على « تنذر » السابق وهو من عطف الخاص على العام لأهميته كأنه قيل : لتنذر الناس وتخوفهم من الله وخاصة من سخطه يوم الجمع .

وقوله : « يوم الجمع » مفعول ثان لقوله : « تنذر » وليس بظرف له وهو ظاهر ، ويوم الجمع هو يوم القيامة قال تعالى : « ذلك يوم مجموع له الناس - إلى أن قال - فريق في الجنة وفريق في السعير » هود : ١٠٥ .

وقوله : « فريق في الجنة وفريق في السعير » في مقام التعليل و دفع الدخيل كأنه قيل : لما ذابندهم يوم الجمع ؟ فقيل : « فريق في الجنة وفريق في السعير » أي إنهم يتفرقون فريقين : سعيد مثاب وشقي معذب فليندروا حتى يحترزوا سبيل الشقاء والهبوط في مهبط الهلكة .

قوله تعالى : « ولو شاء الله لجعلهم أمة واحدة » إلى آخر الآية لما كانت الآيات مسوقة لبيان لزوم الإله نذار والنبوة من جهة تفرق الناس فريقين يوم القيامة كان الأسبق إلى الذهن من جعلهم أمة واحدة مطلق رفع التفرق والتمييز من بينهم بتسويتهم جميعا على صفة واحدة من غير فرق وميز ، ولم تقع عند ذلك حاجة إلى النبوة والإله نذار .

وقوله : « ولكن يدخل من يشاء في رحمته والظالمون ما لهم من ولي ولا نصير » استدراك يبين فيه أن سنته تعالى جرت على التفريق ولم يشأ جعلهم أمة واحدة يدل على ذلك قوله : « يدخل من يشاء » الدال على الاستمرار ، ولم يقل : ولكن أدخل ونحوه .

وقد قبل في الآية قوله : « من يشاء » بقوله : « والظالمون » فالمراد بمن يشاء غير الظالمين وقد فسّر الظالمين يوم القيامة بقوله : « فأذن مؤذن بينهم أن لعنة الله على الظالمين الذين يصدون عن سبيل الله و يبعونها عوجا وهم بالآخرة كفرون » الأعراف : ٤٥ فهم المعاندون المنكرون للمعاد .

وقبل أيضا بين الإدخال في الرحمة و بين نفي الولي والنصير فامدخلون في رحمته هم الذين وليهم الله ، والذين مالهم من ولي ولا نصيرهم الذين لا يدخلهم الله في رحمته ، وأيضا الرحمة هي الجنة وانتفاء الولاية والنصرة بالازم السعير .

فمحصل معنى الآية أن الله سبحانه إنما قدر النبوة والا نذار المتفرغ على الوحي لمكان ما سيعتريهم يوم القيامة من التفرق فريقين ، ليتحرزوا من الدخول في فريق السعير .

ولو أراد الله لجعلهم أمة واحدة فاستوت حالهم ولم يتفرقوا يوم القيامة فريقين فلم يكن عند ذلك ما يقتضي النبوة والا نذار فلم يكن وحي لكنه تعالى لم يرد ذلك بل جرت سنته على أن يتولى أمر قوم منهم وهم غير الظالمين فيدخلهم الجنة وفي رحمته ، ولا يتولى أمر آخرين وهم الظالمون فيكونوا لولي لهم ولا نصير و يصيروا إلى السعير لا مخلص لهم من النار .

فقد تحصل مما تقدم أن المراد بجعلهم أمة واحدة هو التسوية بينهم بإدخال الجميع في الجنة أو إدخال الجميع في السعير أي إنه تعالى ليس بملزم بإدخال السعداء في الجنة والأشقياء في النار فلم يشأ لم يفعل لكنه شاء أن يفرق بين الفريقين وجرت سنته على ذلك و وعد بذلك وهو لا يخلف الميعاد ومع ذلك فقد رته المطلقة باقية على حالها لم تنسلب ولم تتغير فقوله : « وتذريوم الجمع لاريب فيه » إلى تمام الآيتين في معنى قوله في سورة هود : « إن في ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة ذلك يوم مجموع له الناس » إلى تمام سبع آيات فراجع وتدبر .

وقيل : المراد بجعلهم أمة واحدة جعلهم مؤمنين جميعا داخلين في الجنة قال في الكشاف : والمعنى ولو شاء ربك مشيئة قدرة لقصرهم جميعا على الإيمان ولكنه شاء مشيئة حكمة فكلفهم و بنى أمرهم على ما يختارون ليدخل المؤمنين في رحمته وهم المرادون بمن يشاء ألا ترى إلى وضعهم في مقابلة الظالمين ، ويترك الظالمين بغير ولي ولا نصير في عذابه .

واستدل على ما اختاره من المعنى بقوله تعالى : « ولو شئنا لآتينا كل نفس

هداها « آلم السجدة : ١٣ » وقوله : « ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعا »
يونس : ٩٩ والدليل على أن المعنى هو الالجاء إلى الإيمان قوله : « أفأنت تكره
الناس حتى يكونوا مؤمنين » .

وفيه أن الآيات - كما عرفت - مسوقة لتعريف الوحي من حيث غايته وأن
تفرق الناس يوم الجمع فريقين سبب يستدعي وجود النبوة والإيذار من طريق الوحي ،
وقوله : « ولو شاء الله لجعلهم أمة واحدة » مسوق لبيان أنه تعالى ليس بمجبر على ذلك
ولا ملزم به بل له أن لا يفعل ، وهذا المعنى يتم بمجرد أن لا يجعلهم متفرقين فريقين
بل أمة واحدة كيفما كانوا ، وأما كونهم فرقة واحدة مؤمنة بالخصوص فلا مقتضى له
هناك .

وأما ما استدلل به من الآيتين فسياقهما غير سياق الآية المبحوث عنها ، والمراد
بهما غير الإيمان القسري الذي ذكره وقد تقدم البحث عنهما في الكتاب .
وقيل : إن الأ نسب للسياق هو اتحادهما في الكفر بأن يراد جعلهم أمة واحدة
كافرة كما في قوله : « كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين » البقرة : ٢١٣ فالمعنى :
ولو شاء الله لجعلهم أمة واحدة متفقة على الكفر بأن لا يرسل إليهم رسولا ينذرهم
فيبقوا على ما هم عليه من الكفر ولكن يدخل من يشاء في رحمته أي شأنه ذلك فيرسل
إلى الكل من ينذرهم فيتأثر به من تأثر فيوفقهم الله للإيمان والطاعات في الدنيا
ويدخلهم في رحمته في الآخرة ، ولا يتأثر به الآخرون وهم الظالمون فيعيشون في الدنيا
كافرين ويصيرون في الآخرة إلى السعير من غير ولي ولا نصير .

وفيه أو لا أن المراد من كون الناس أمة واحدة في الآية المقيس عليها ليس
هو اتفاقهم على الكفر بل عدم اختلافهم في الأمور الراجعة إلى المعاش كما تقدم في
تفسير الآية ، ولو سلم ذلك أدّى إلى التنافي بين المقيسة والمقيس عليها لدلالة
المقيسة على التفرق وعدم الاتحاد ودلالة المقيس عليها على ثبوت الاتحاد وعدم
التفرق .

ولو أجيب عنه بأن المقيس عليها تدل على كون الناس أمة واحدة بحسب

الطبع دون الفعلية فلا تنافي بين الآيتين . ردّ بمنافاته لمادل من الآيات على كون الإنسان مؤمناً بحسب الفطرة الأصلية كقوله تعالى « ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها » الشمس : ٨ .

و ثانياً أن فيه إخراجاً لقوله : « ولكن يدخل من يشاء في رحمته » عن المقابلة مع قوله : « والظالمون » الخ من غير دليل ، ثم تكلف تقدير ما يفيد معناه ليحفظ به ما يفيد الكلام من المقابلة .

قوله تعالى : « أم اتخذوا من دونه أولياء فالله هو الولي » - إلى قوله - فحكمه إلى الله » « أم » تفيد الإنكار كما ذكره الزمخشري . ملماً أفاد في الآية السابقة أن الله سبحانه يتولى أمر المؤمنين خاصة فيدخلهم في رحمته وأن الظالمين وهم الكافرون المعاندون لوليّ لهم تعرض في هذه الآية لاتخاذهم أولياء يدينون لهم ويعبدونهم من دونه و كان يجب أن يتخذوا الله ولياً يدينون له ويعبدونه فأنكر عليهم ذلك واحتج على وجوب اتخاذه ولياً بالحجة بعد الحجة وذلك قوله : « فالله هو الولي » الخ . فقوله : « فالله هو الولي » تعليل للإنكار السابق لاتخاذهم من دونه أولياء فيكون حجة لوجوب اتخاذه ولياً ، والجملة - فالله هو الولي - تفيد حصر الولاية في الله وقد تبينّت الحجة على أصل ولايته وانحصارها فيه من قوله في الآيات السابقة : « العزيز الحكيم له ما في السماوات وما في الأرض وهو العلي العظيم » كما أشرنا إليه في تفسير الآيات .

و المعنى أنه تعالى وليّ ينعصر فيه الولاية فمن الواجب على من يتخذ ولياً أن يتخذ ولياً ولا يتعداه إلى غيره إن لوليّ غيره .

وقوله : « وهو يحيي الموتى » حجة ثانية على وجوب اتخاذه تعالى وحده ولياً ، ومحصّله أن عمدة الغرض في اتخاذ الولي والتدين له بعبوديته التخلّص من عذاب السعير والفوز بالجنة يوم القيامة والمثيب والمعاقب يوم القيامة هو الله الذي يحيي الموتى فيجمعهم فيجازيهم بأعمالهم فهو الذي يجب أن يتخذ ولياً دون أوليائهم الذين هم أموات غير أحياء ولا يشعرون أيّان يبعثون .

وقوله : « وهو على كل شيء قدير » حجة ثالثة على وجوب اتخاذه تعالى وليّادون غيره ، و محصله أن من الواجب في باب الولاية أن يكون للولي قدرة على ما يتولاه من شؤون من يتولاه وأُموره ، والله سبحانه على كل شيء قدير ولا قدرة لغيره إلا مقدار ما أقدره الله عليه وهو المالك لما ملكه والقادر على ما عليه أقدره فهو الولي لا ولي غيره تعالى وتقدس .

وقوله : « وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله » حجة رابعة على كونه تعالى ولياً لا ولي غيره ، وحكم الحاكم بين المختلفين هو إحكامه و تثبيته الحق المضطرب بينهما بسبب تخالفهما بالاثبات والنفي ، والاختلاف ربما كان في عقيدة كالاختلاف في أن الاله واحد أو كثير ، وربما كان في عمل أو ما يرجع إليه كالاختلاف في أمور المعيشة وشؤون الحياة فهو أعني الحكم يساوق القضاء مصداقاً وإن اختلفا مفهوماً .

ثم الحكم والقضاء إنما يتم إذا ملكه الحاكم بنوع من الملك والولاية وإن كان بتملك المختلفين له ذلك كالمتنازعين إذا رجعا إلى ثالث فاتخاذه حكماً ليحكم بينهما ويتسكما ما يحكم به فقد ملكاه الحكم بما يرى وأعطياه من نفسيهما القبول والتسليم فهو وليهما في ذلك .

والله سبحانه هو المالك لكل شيء لا مالك سواه لكون كل شيء بوجوده وآثار وجوده قائماً به تعالى فله الحكم والقضاء بالحق قال تعالى : « كل شيء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون » القصص : ٨٨ ، وقال : « إن الله يحكم ما يريد » المائدة : ٢٠ وقال : « الحق من ربك » آل عمران : ١٤٧ .

وحكمه تعالى إمامتكويني وهو تحقيقه وتثبيته المسببات قبال الأسباب المجتمعة عليها المتنازعة فيها بتقديم مانسميه سبباً تاماً على غيره قال تعالى حاكياً عن يعقوب عليه السلام : « إن الحكم إلا لله عليه توكلت » يوسف : ٦٧ وإما تشريعي كالتكاليف الموضوعة في الدين الإلهي الرجعة إلى الاعتقاد والعمل قال تعالى : « إن الحكم إلا لله أمر أن لا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم » يوسف : ٤٠ .

و هناك قسم ثالث من الحكم يمكن أن يعدّ من كلّ من القسمين السابقين بوجه وهو حكمه تعالى يوم القيامة بين عباده فيما اختلفوا فيه وهو إعلانه وإظهاره الحقّ يوم القيامة لأهل الجمع يشاهدونه مشاهدة عيان وإيقان فيسعد به وبآثاره من كان مع الحقّ ويشقى بالاستكبار عليه وتبعات ذلك من استكبر عليه قال تعالى : « فإلله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون » البقرة ١١٣ .

ثمّ إنّ اختلاف الناس في عقائدهم وأعمالهم اختلاف تشريعي لا يرفعهُ إلاّ الأحكام والقوانين التشريعيّة ولولا الاختلاف لم يوجد قانون كما يشير إليه قوله تعالى « كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيّين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحقّ ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه إلاّ الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحقّ بإذنه » البقرة : ٢١٣ ، وقد تبين أنّ الحكم التشريعيّ لله سبحانه فهو الوليّ في ذلك فيجب أن يتّخذ وحده وليّاً فيعبد ويدان بما أنزله من الدين .

وهذا معنى قوله : « وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله » ومحصّل الحجّة أنّ الوليّ الذي يعبد ويدان له يجب أن يكون رافعاً لاختلافات من يتولّونه مصلحاً لما فسد من شؤون مجتمعاتهم سائفاً لهم إلى سعادة الحياة الدائمة بما يضعه عليهم من الحكم وهو الدين ، والحكم في ذلك إلى الله سبحانه ، فهو الوليّ الذي يجب أن يتّخذ وليّاً لا غير .

و للقوم في تفسير الآية أعني قوله : « وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله » تفاسير آخر فقيل : هو حكاية قول رسول الله ﷺ للمؤمنين أي ما خالفكم فيه الكفار من أهل الكتاب والمشرّكين فاختلفتم أنتم وهم فيه من أمر من أمور الدين فحكم ذلك المختلف فيه مفوض إلى الله وهو إثابة المحقّقين فيه من المؤمنين ومعاقبة المبتطلين ذكره صاحب الكشف .

وقيل : معناه ما اختلفتم فيه و تنازعتم في شيء من الخصومات فتحاكموا فيه إلى رسول الله ﷺ ولا تؤثروا على حكومته حكومة غيره كقوله تعالى : « فان تنازعتم

في شيء فردّوه إلى الله والرسول».

وقيل : المعنى وما اختلفتم فيه من تأويل آية و اشتبه عليكم فارجعوا في بيانه إلى محكم كتاب الله وظاهر سنة رسول الله ﷺ .

وقيل : المعنى وما اختلفتم فيه من العلوم مما لا يتصل بتكليفكم ولا طريق لكم إلى علمه فقولوا : الله أعلم كمعرفة الروح قال تعالى : « ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي » . والآية على جميع هذه الأقوال من كلام النبي ﷺ إنما بنحو الحكاية وإما بتقدير « قل » في أولها .

وأنت بالتدبر في سياق الآيات ثم الرجوع إلى ما تقدم لا ترتاب في سقوط هذه الأقوال .

قوله تعالى : « ذلكم الله ربي عليه توكلت وإليه أُنِيب » كلام محكي للنبي صلى الله عليه وآله ، و الإشارة بذلكم إلى من أقيمت الحجج في الآيتين على وجوب اتخاذه ولياً وهو الله سبحانه ، ولازم ولايته ربوبيته .

لما أقيمت الحجج على أنه تعالى هو الولي لاولي غيره أمر ﷺ بإعلام أنه الله وأنه اتخذه ولياً بالاعتراف له بالربوبية التي هي ملك التدبير ثم عقب ذلك بالتصريح بما للاتخاذ المذكور من الآثار وهو قوله : « عليه توكلت وإليه أُنِيب » .

وذلك أن ولاية الربوبية تتعلق بنظام التكوين بتدبير الأمور وتنظيم الأسباب والمسببات بحيث يتعين بها للمخلوق المدبر كالإنسان مثلاً ما قدر له من الوجود والبقاء ، و تتعلق بنظام التشريع وهو تدبير أعمال الإنسان بجعل قوانين وأحكام يراعيها الإنسان بتطبيق أعماله عليها في مسير حياته لتنتهي به إلى كمال سعادته .

ولازم اتخاذه تعالى رباً ولياً من جهة التكوين إرجاع أمرا التدبير إليه بالانقطاع عن الأسباب الظاهرية و الركون إليه من حيث إنه سبب غير مغلوب ينتهي إليه كل سبب وهذا هو التوكل ، ومن جهة التشريع الرجوع إلى حكمه في كل واقعة يستقبله الإنسان في مسير حياته وهذا هو الإناية فقول : « عليه توكلت وإليه أُنِيب » أي أرجع في جميع أموري ، تصريح بإرجاع الأمر إليه تكويناً وتشريعاً .

قوله تعالى : « فاطر السماوات والأرض » إلى آخر الآية لما صرح بأنه تعالى هو ربّه لقيام الحجج على أنه هو الولي وحده عقب ذلك بإقامة الحجّة في هذه الآية والتي بعدها على ربوبيّته تعالى وحده .

ومحصل الحجّة أنّه تعالى موجد الأشياء وفاطرها بالآخراج من كتم العدم إلى الوجود وقد جعلكم أزواجاً فكثركم بذلك وجعل من الأنعام أزواجاً فكثّرها بذلك لتتنفّعوا بها ، وهذا خلق وتدير ، وهو سميع لما يسأله خلقه من الجوائب فيقضي لكل ما يستحقّه من الحاجة بصير لما يعمل خلقه من الأعمال فيجازيهم بما عملوا وهو الذي يملك مفاتيح خزائن السماوات والأرض التي ادّخر فيها مالها من خواص وجودها وآثاره مما يتألف منها بظهورها النظام المشهود وهو الذي يرزق المرزوقين فيوسع في رزقهم ويضيّق عن علم منه بذلك . وهذا كله من التدبير فهو الربّ المدبّر للأُمور .

فقوله : « فاطر السماوات والأرض » أي موجدّها من كتم العدم على سبيل الإبداع .

وقوله : « جعل لكم من أنفسكم أزواجاً » وذلك بخلق الذكر والأنثى اللذين يتمّ بتزواجهما أمر التوالد والتناسل وتكثر الأفراد « ومن الأنعام أزواجاً » أي وجعل من الأنعام أزواجاً « يذروكم فيه » أي يكثركم في هذا الجعل ، والخطاب في « يذروكم » للإنسان والأنعام بتغليب جانب العقلاء على غيرهم كما ذكره الزمخشري .

وقوله : « ليس كمثله شيء » أي ليس مثله شيء ، فالكاف زائدة للتأكيد وله نظائر كثيرة في كلام العرب .

وقوله : « وهو السميع البصير » أي السميع لما يرفع إليه من مسائل خلقه البصير لأعمال خلقه قال تعالى : « يسأله من في السماوات والأرض » الرحمن : ٢٩ ، وقال : « وآتاكم من كل ما سألتموه » إبراهيم : ٣٤ ، وقال « والله بما تعملون بصير » الحديد : ٤ .

قوله تعالى : « لهمقاليد السماوات والأرض » إلى آخر الآية المقاليد المفاتيح وفي إثبات المقاليد للسماوات والأرض دلالة على أنّها خزائن لما يظهر في الكون من

الحوادث والآثار الوجودية .

وقوله : « يبسط الرزق لمن يشاء و يقدر » بسط الرزق توسعته و قدره تضيقه
والرزق كل ما يمد به البقاء و يرتفع به حاجة من حوائج الوجود في استمراره .
و تذييل الكلام بقوله : « إنه بكل شيء عليم » للإشارة إلى أن الرزق و
اختلافه في موارده بالبسط والقدر ليس على سبيل المجازفة جهلا بل عن علم منه تعالى
بكل شيء فرزق كل مرزوق على علم منه بما يستدعيه المرزوق بحسب حاله والرزق
بحسب حاله و ما يحف بهما من الأوضاع والأحوال الخارجية ، و هذا هو الحكمة
فهو يبسط و يقدر بالحكمة .





سَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ (١٣) وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ (١٤) فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَاحِجَةً بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (١٥) وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتَجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ (١٦)

﴿بيان﴾

فصل ثالث من الآيات يعرف الوحي الإلهي بأثره الذي هو مفاده وما احتوى عليه من المضمون وهو الدين الإلهي الواحد الذي يجب على الناس أن يتخذوه سنة في الحياة وطريقة مسلوكة إلى سعادتهم .

وقد بين فيها بحسب مناسبة المقام أن الشريعة المحمدية أجمع الشرائع المنزلة وأن الاختلافات الواقعة في دين الله على وحدته ليست من ناحية الوحي السماوي وإنما هي من بغى الناس بعد علمهم ، وفي الآيات فوائد أخر أشير إليها في خلالها .

قوله تعالى : « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا وما أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى » يقال : شرع الطريق شرعا أي سواه طريقا واضحا بينا . قال الراغب : الوصية التقدم إلى الغير بما يعمل مقترنا بوعظ من قولهم : أرض واصمة متصلة النبات ويقال : أوصاه ووصاه انتهى وفي معناه إشعار بالأهمية فما كل أمر يوصى به وإنما يختار لذلك ما يهتم به الموصى ويعتني بشأنه .

فقوله : « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا » أي بين وأوضح لكم من الدين وهو سنة الحياة ما قدم وعهد إلى نوح مهتما به ، واللائح من السياق أن الخطاب للنبي صلى الله عليه وآله وأمه ، وأن المراد مما وصى به نوحا شريعة نوح عليه السلام .

وقوله : « وما أوحينا إليك » ظاهر المقابلة بينه وبين نوح عليه السلام أن المراد بما أوحى إليه ما اختصت به شريعته من المعارف والأحكام ، وإنما عبر عن ذلك بالإيحاء دون التوصية لأن التوصية كما تقدم إنما تتعلق من الأمور بما يهتم به ويعتني بشأنه خاصة وهو أهم العقائد والأعمال ، وشريعته صلى الله عليه وآله جامعة لكل ما جل ودق محتوية على الأهم وغيره بخلاف شرائع غيره فقد كانت محدودة بما هو الأهم المناسب لحال أممهم والموافق لمبلغ استعدادهم .

والالتفات في قوله : « وما أوحينا » من الغيبة إلى التكلم مع الغير للدلالة على العظمة فإن العظماء يتكلمون عنهم وعن خدمهم وأتباعهم .

وقوله : « وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى » عطف على قوله : « وما وصى به » والمراد به ما شرع لكل واحد منهم عليه السلام .

والترتيب الذي بينهم عليه السلام في الذكر على وفق ترتيب زمنهم فنوح ثم إبراهيم ثم موسى ثم عيسى عليه السلام ، وإنما قدم ذكر النبي صلى الله عليه وآله للتشريف والتفضيل كما في قوله تعالى : « وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى بن مريم » الأحزاب : ٧ وإنما قدم نوحا وبدء به للدلالة على قدم هذه الشريعة وطول عهدها .

و يستفاد من الآية أمور :

أحدها أن السياق بما أنه يفيد الامتنان وخاصة بالنظر إلى ذيل الآية والآية التالية يعطي أن الشريعة المحمدية جامعة للشرائع الماضية ولا ينافية قوله تعالى : « لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا » المائدة : ٤٨ لأن كون الشريعة شريعة خاصة لا ينافي جامعيتها .

الثاني أن الشرائع الإلهية المنتسبة إلى الوحي إنما هي شريعة نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد ﷺ إذ لو كان هناك لذكر قضاء لحق الجامعة المذكورة .

ولازم ذلك أو لا أن لاشريعة قبل نوح ﷺ بمعنى القوانين الحاكمة في المجتمع الإنساني الرافعة للاختلافات الاجتماعية وقد تقدم نبذة من الكلام في ذلك في تفسير قوله تعالى : « كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين » الآية البقرة : ٢١٣ .

و ثانياً أن الأنبياء المبعوثين بعد نوح كانوا على شريعته إلى بعثة إبراهيم وبعدها على شريعته إبراهيم إلى بعثة موسى وهكذا .

الثالث أن الأنبياء أصحاب الشرائع وأولي العزم هم هؤلاء الخمسة المذكورون في الآية إذ لو كان معهم غيرهم لذكر هؤلاء سادة الأنبياء وبدل على تقدمهم أيضاً قوله : « وإن أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى بن مريم » الأحزاب : ٧ .

وقوله : « أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا » أن تفسيرية ، وإقامة الدين حفظه بالاتباع والعمل ، واللام في الدين للعهد أي أقيموا هذا الدين المشروع لكم ، وعدم التفرق فيه حفظ وحدته بالاتفاق عليه وعدم الاختلاف فيه .

لما كان شرع الدين لهم في معنى أمرهم جميعاً باتباعه والعمل به من غير اختلاف فسرّه بالأمر بإقامة الدين وعدم التفرق فيه فكان محصله أن عليهم جميعاً إقامة الدين جميعاً وعدم التفرق والتشتت فيه بإقامة بعض وترك بعض ، وإقامته الإيمان بجميع ما أنزل الله والعمل بما يجب عليه العمل به .

فجميع الشرائع التي أنزلها الله على أنبيائه دين واحد يجب إقامته وعدم التفرق

فيه فأما الأحكام السماوية المشتركة فيها الباقية ببقاء التكليف فمعنى الإقامة فيها ظاهر وأما الأحكام المشتركة في بعض هذه الشرائع المنسوخة في الشريعة اللاحقة فحقيقة الحكم المنسوخ أنه حكم ذو أمد خاص بطائفة من الناس في زمن خاص ومعنى نسخه تبين انتهاء أمده لظهور بطلانه قال تعالى: «والله يقول الحق وهو يهدي السبيل» الأحزاب: ٣ فالحكم المنسوخ حق دائماً غير أنه خاص بطائفة خاصة في زمن خاص يجب عليهم أن يؤمنوا به ويعملوا به ويجب على غيرهم أن يؤمنوا به فحسب من غير عمل وهذا معنى إقامته وعدم التفرق فيه .

فتمين أن الأمر بإقامة الدين وعدم التفرق فيه في قوله: «أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه» مطلق شامل لجميع الناس في جميع الأزمان .

و بذلك يظهر فساد قول جمع إن الأمر بالإقامة وعدم التفرق إنما يشمل الأحكام المشتركة بين الشرائع دون المختصة فإنها أحكام متفاوتة مختلفة باختلاف الأمم من حيث أحوالها ومصالحها .

وذلك أنه لا موجب لتقييد إطلاق قوله: «أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه» ولو كان كما يقولون كان الأمر بالإقامة مختصاً بأصول الدين الثلاثة: التوحيد والنبوة والمعاد ، وأما غيرها من الأحكام الفرعية فلا يكاد يوجد هناك حكم واحد مشترك فيه في جميع خصوصياته بين جميع الشرائع وهذا مما يأباه قطعاً سياق قوله: «شرع لكم من الدين ما وصى به» الخ ، ومثل قوله: «وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون فتقطعوا أمرهم بينهم زبراً» المؤمنون: ٥٣ ، وقوله: «إن الدين عند الله الإسلام وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم» آل عمران: ١٩ .

وقوله: «كبر على المشركين ما تدعوهم إليه» المراد بقوله: «تدعوهم إليه» دين التوحيد الذي كان يدعوا إليه النبي ﷺ لا أصل التوحيد فحسب على ما تشهد به الآية التالية ، والمراد بكبره على المشركين تحرجهم من قبوله .

وقوله: «الله يجتبي إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب» الاجتباء هو الجمع

والاجتلاب ، و مقتضى اتساق الضمائر أن يكون ضمير « إليه » الثاني والثالث راجعاً إلى ما يرجع إليه الأول والمعنى الله يجمع ويجتلب إلى دين التوحيد - وهو ما تدعوهم إليه - من يشاء من عباده ويهدي إليه من يرجع إليه فيكون مجموع قوله : « كبر على المشركين ما تدعوهم إليه الله يجتبي إليه من يشاء » في معنى قوله : هو اجتباكم و ما جعل عليكم في الدين من حرج ملّة أبيكم إبراهيم » الحج : ٧٨ .

وقيل : الضميران لله تعالى ، ولا بأس به لكن ما تقدم هو الأنسب ، و على أي حال قوله : « الله يجتبي إليه » إلى آخر الآية موضوع موضع الاستغناء عن إيمان المشركين المستكبرين للإيمان نظير قوله تعالى : « فإن استكبروا فالذين عند ربك يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسأمون » حم السجدة : ٣٨ .

وقيل : المراد بما تدعوهم إليه ما تدعوهم إلى الإيمان به وهو الرسالة أي إن رسالتك كبرت عليهم ، وقوله : « الله يجتبي » الخ في معنى قوله : « الله أعلم حيث يجعل رسالته » الانعام : ١٢٤ ، وهو خلاف الظاهر .

قوله تعالى : « وما تفرّقوا إلّا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم » إلى آخر الآية ضمير « تفرّقوا » للناس المفهوم من السياق ، والبغي الظلم أو الحسد ، و تقييده بقوله « بينهم » للدلالة على تداوله ، والمعنى وما تفرّق الناس الذين شرعت لهم الشريعة باختلافهم وتركهم الاتفاق إلّا حال كون تفرّقهم آخذاً - أو ناشئاً - من بعد ما جاءهم العلم بما هو الحق ظلماً أو حسداً تداولوه بينهم .

وهذا هو الاختلاف في الدين المؤدّي إلى الانشعابات والتجزّيات الذي ينسبه الله سبحانه في مواضع من كلامه إلى البغي ، وأمّا الاختلاف المؤدّي إلى نزول الشريعة وهو الاختلاف في شؤون الحياة والتفرّق في أمور المعاش فهو أمر عائد إلى اختلاف طبائع الناس في مقاصدهم وهو الذريعة إلى نزول الوحي و تشريع الشرع لرفعه كما يشير إليه قوله : « كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيّين » البقرة : ٢١٣ كما تقدم في تفسير الآية .

وقوله : « ولو لا كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمى لقضي بينهم » المراد

بالكلمة مثل قوله حين إهباط آدم عليه السلام إلى الأرض : « و لكم في الأرض مستقر و متاع إلى حين » البقرة : ٣٦ .

والمعنى و لو لا أن الله قضى فيهم الاستقرار والتمتع في الأرض إلى أجل سماء و عينه لقضى بينهم إثر تفرقهم في دينه و انحرفهم عن سبيله فأهلكهم باستدعاء من هذا الذنب العظيم .

و قول القائل : إن الله قد قضى و أهلك كما يقصّه في قصص نوح و هود و صالح عليهم السلام وقد قال تعالى : « ولكل أمة رسول فإذ جاء رسولهم قضى بينهم بالقسط » يونس : ٤٧ .

مدفوع بأن ما قصّه تعالى من القضاء والإهلاك إنما هو في أمم الأنبياء في زمانهم من الملكنّ بين الرادّين عليهم و ما نحن فيه من قوله : « ولو لا كلمة سبقت من ربك » الآية في أممهم بعدهم وهو واضح من السياق .

و قوله : « وإن الذين أوتوا الكتاب من بعدهم لفي شك منه مريب » ضمير « من بعدهم » لأولئك الذين تفرّقوا من بعد علم بغيا بينهم و هم الأسلاف ، و الذين أوتوا الكتاب من بعدهم أخلافهم فمفاد الآية أن البادئين بالاختلاف المؤسسين للتفرقة كانوا على علم من الحقّ و إنما أبدعوا ما أبدعوا ، بغيا بينهم ، و أخلافهم الذين أوتوا الكتاب من بعدهم في شك مريب - موقع في الريب - منه .

و ما أوردناه في معنى الآية هو الذي يعطيه السياق ، و لهم في تفسيرها أقاويل كثيرة لاجدوى في استقصائها فليرجع في الوقوف عليها إلى كتبهم .

قوله تعالى : « فلذلك فادع و استقم كما أمرت و لا تتبع أهواءهم » إلى آخر الآية . تفريع على ما ذكر من شرع دين واحد لجميع الأنبياء و أممهم ثم انقسام أممهم إلى أسلاف اختلفوا في الدين عن علم بغيا ، و إلى أخلاف شاكّين مرتابين فيما أوتوه من الكتاب أي فلاجل أنه شرع لكم جميع ما شرع لمن قبلكم فادع و لاجل ما ذكر من تفرّق بعضهم بغيا و ارتياب آخرين فاستقم كما أمرت و لا تتبع أهواءهم . و اللام في قوله : « فلذلك » للتعليل وقيل : اللام بمعنى إلى أي إلى ما شرع

لكم من الدين فادع واستقم كما أمرت ، والاستقامة - كما ذكره الراغب - لزوم المنهاج المستقيم ، وقوله : « ولا تتبع أهواءهم » كالمفسر له .

وقوله : « وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب » تسوية بين الكتب السماوية من حيث تصديقها والإيمان بها وهي الكتب المنزلة من عند الله المشتملة على الشرائع . وقوله : « وأمرت لأعدل بينكم » قيل : اللام زائدة للتأكيد نظير قوله : « وأمرنا لنسلم لرب العالمين » الأنعام : ٧١ والمعنى وأمرت أن أعدل بينكم أي أؤدي بينكم فلا أقدم قوياً على ضعيف ولا غنياً على فقير ولا كبيراً على صغير ، ولا أفضّل أبيض على أسود ولا عربياً على عجمي ولا هاشمياً أو قرشياً على غيره فالدعوة متوجهة إلى الجميع ، والناس قبال الشرع الإلهي سواء .

فقوله : « آمنت بما أنزل الله من كتاب » تسوية بين الكتب المنزلة من حيث الإيمان بها ، وقوله : « وأمرت لأعدل بينكم » تسوية بين الناس من حيث الدعوة وتوجه ما جاء به من الشرع .

وقيل : اللام في « لأعدل بينكم » للتعليل والمعنى وأمرت بما أمرت لأجل أن أعدل بينكم ، وكذا قيل : المراد بالعدل العدل في الحكم ، وقيل : العدل في القضاء بينكم ، وقيل غير ذلك ؛ وهذه معان بعيدة لا يساعد عليها السياق .

وقوله : « الله ربنا وربكم » الخ في مقام التعليل لما ذكر من التسوية بين الكتب والشرائع في الإيمان بها وبين الناس في دعوتهم وشمول الأحكام لهم ، ولذا جيء في الكلام بالفصل من غير عطف .

فقوله : « الله ربنا وربكم » يشير إلى أن رب الكل هو الله الواحد تعالى فليس لهم أرباب كثيرون حتى يلحق كل بربه ويتفاضلوا بالأرباب ويقتصر كل منهم بالإيمان بشريعة ربه بل الله هو رب الجميع وهم جميعاً عباده المملوكون له المذنبون بأمره والشرائع المنزلة على الأنبياء من عنده فلا موجب للإيمان ببعضها دون بعض كما يؤمن اليهود بشريعة موسى دون من بعده وكذا النصارى بشريعة عيسى دون محمد ﷺ بل الواجب الإيمان بكل كتاب نازل من عنده لأنها جميعاً من عنده .

و قوله : « لنا أعمالنا ولكم أعمالكم » يشير إلى أن الأعمال وإن اختلفت من حيث كونها حسنة أو سيئة ومن حيث الجزاء ثوابا أو عقابا إلا أنها لا تعدى عاملها فلكل امرء ما عمل فلا ينتفع أحد بعمل آخر ولا يتضرر بعمل غيره فليس له أن يقدم امرء للارتفاع بعمله أو يؤخر امرء للضرر بعمله نعم في الأعمال تفاضل تختلف به درجات العاملين لكن ذلك إلى الله فيما يحاسب به عباده لا إلى الناس - النبي فمن دونه - الذين هم جميعا عباد مملوكون لا يملك منهم نفس من نفس شيئا ، وهذا هو الذي ذكره تعالى في محادثة نوح عليه السلام قومه : « قالوا أنؤمن لك واتبعك الأذلون قال وما علمي بما كانوا يعملون إن حسابهم إلا على ربّي لو تشعرون » الشعراء : ١١٣ ، وكذا قوله يخاطب النبي عليه السلام : « ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء » الأنعام : ٥٢ .

و قوله : « لا حجة بيننا وبينكم » لعل المراد أنه لا حجة تدل على تقدم بعض على بعض تكون فيما بيننا يقيمها بعض على بعض يثبت بها تقدمه عليه . ويمكن أن يكون نفي الحجة كناية عن نفي لازمها وهو الخصومة أي لا خصومة بيننا بتفاوت الدرجات لأن ربنا واحد ونحن في أننا جميعا عباده واحد ولكل نفس ما عملت فلا حجة في البين أي لا خصومة حتى تتخذ لها حجة .

و من هنا يظهر أن لا وجه لقول بعضهم في تفسير الجملة : أي لا احتجاج ولا خصومة لأن الحق قد ظهر فلم يبق للاحتجاج حاجة ولا للمخالفة محمل سوى المكابرة والعناد انتهى إذ الكلام مسوق لبيان ما أمر به النبي صلى الله عليه وآله في نفسه و في أمته من سمة التسوية لا لإثبات شيء من أصول المعارف حتى تحمل الحجة على ما حملها عليه .

و قوله : « الله يجمع بيننا » المراد بضمير التكلم فيه مجموع المتكلم والمخاطب في الجمل السابقة ، والمراد بالجمع جمعه تعالى إياهم يوم القيامة للحساب والجزاء على ما قيل .

وغير بعيد أن يراد بالجمع جمعة تعالى بينهم في الربوبية فهو ربّ الجميع والجميع عباده فيكون قوله : « الله يجمع بيننا » تأكيداً لقوله السابق : « الله ربنا وربكم » و توطئة و تمهيدا لقوله : « وإليه المصير » ويكون مفاد الجملة أن الله هو مبدئنا لا نه ربنا جميعاً وإليه منتهانا لا نه إليه المصير فلا موجد لما بيننا إلا هو عزّ اسمه .

و كان مقتضى الظاهر في التعليل أن يقال : الله ربّي وربكم لي عملي و لكم أعمالكم لاحجة بيني و بينكم على محاذاة قوله : « آمنت » و « أمرت لأعدل » لكن عدل عن المتكلم وحده إلى المتكلم مع الغير لدلالة قوله السابق : « شرع لكم من الدين ما وصّى به نوحا » الخ و قوله : « الله يجتبي إليه من يشاء و يهدي إليه من ينيب » أن هناك قوما يؤمنون بما آمن به النبي صلى الله عليه و آله و يلبّون دعوته و يتبعون شريعته .

فالمراد بالمتكلم مع الغير في « ربنا » و « لنا أعمالنا » و « بيننا » هو **رَبِّ الْمُسْلِمِينَ** والمؤمنون به ، و بالمخاطبين في قوله : « وربكم » و « أعمالكم » و « بينكم » سائر الناس من أهل الكتاب والمشرّكين ، والآية على وزان قوله تعالى : « قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا و بينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولّوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » آل عمران : ٤٤ .

قوله تعالى : « و الذين يحتاجون في الله من بعد ما استجيب له حجّتهم داخضة عند ربّهم و عليهم غضب ولهم عذاب شديد » الحجّة هي القول الذي يقصد به إثبات شيء أو إبطاله من الحجج بمعنى القصد ، والدحض البطلان والزوال .

والمعنى - على ما قيل - والذين يحتاجون في الله أي يحتاجون على نفي ربوبيته أو على إبطال دينه من بعدما استجاب الناس له ودخلوا في دينه لظهور الحجّة و وضوح الحجّة حجّتهم باطلة زائلة عند ربّهم و عليهم غضب منه تعالى ولهم عذاب شديد . والظاهر أن المراد بالاستجابة له ما هو حق الاستجابة و هو التلقّي بالقبول عن علم لا يداخله شك تضطرّ إليه الفطرة الإنسانية السليمة فإن الدين بما فيه من المعارف فطري تصدّقه وتستجيب له الفطرة الحيّة قال تعالى : « إنّما يستجيب الذين

يسمعون والموتى يبعثهم الله» الآية ٣٦ ، وقال : « ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها » الشمس : ٨ ، وقال : « فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها » الروم : ٣٠ .

و محصل الآية على هذا أن الذين يحتاجون فيه تعالى أوفى دينه بعد استجابة الفطرة السليمة له أو بعد استجابة الناس بفطرتهم السليمة له حجبتهم باطلة زائلة عند ربهم و عليهم غضب منه و لهم عذاب شديد لا يقادر قدره .

و يؤيد هذا الوجه بعض التأييد سياق الآيات السابقة حيث تذكر أن الله شرع ديناً و وصى به أنبياءه واجتبى إليه من شاء من عباده فالحاجة في أن الله ديناً يستعبد به عباده داحضة و من الممكن حينئذ أن يكون قوله : « الله الذي أنزل الكتاب بالحق والميزان » في مقام التعليل و حجة مدحضة لحجبتهم فتدبر فيه .

و قيل : ضمير « له » للرسول ﷺ ، والمستجيب أهل الكتاب ، واستجابتهم له اعترافهم بورود أوصافه و نعوته في كتبهم والمراد أن حاجتهم في الله بعد اعترافهم له بما اعترفوا حجبتهم باطلة عند ربهم .

وقيل : الضمير له ﷺ والمستجيب هو الله تعالى حيث استجاب دعاءه على صنائده قريش فقتلهم يوم بدر ، و دعاءه على أهل مكة فابتلاهم بالقحط والسنة ، و دعاءه على المستضعفين حتى خلصهم الله من يد قريش إلى غير ذلك من معجزاته ، والمعنيان بعيدان من السياق .

﴿ بحث روائي ﴾

في روح المعاني في قوله تعالى : « والذين يحتاجون في الله » الآية عن ابن عباس و مجاهد : نزلت في طائفة من بني إسرائيل هممت برد الناس عن الإسلام و إضلالهم فقالوا : كتبنا قبل كتابكم و نبينا قبل نبيكم فديننا أفضل من دينكم وفي رواية بدل « فديننا » الخ فنحن أولى بالله منكم .

و في الدر المنثور أخرج ابن المنذر عن عكرمة قال : لما نزلت إذا جاء نصر الله والفتح قال المشركون بمكة لمن بين أظهرهم من المؤمنين : قد دخل الناس في دين الله أفواجا فاخرجوا من بين أظهرنا فعلام تقيمون بين أظهرنا فنزلت : « والذين يحتاجون في الله من بعد ما استجيب له » الآية .

اقول : مضمون الآية لا ينطبق على الرواية إذ لا حاجة في القصة ، وكذا الخبر السابق لا يفي بتوجيه قوله : « من بعد ما استجيب له » .





اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ
 قَرِيبٌ (١٧) يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ
 مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ إِلَّا الَّذِينَ يَمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ
 بَعِيدٍ (١٨) اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ (١٩)
 مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا
 نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَالَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ (٢٠) أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا
 لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ
 الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢١) تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُمْ
 وَقَعُ بِهِمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ
 مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (٢٢) ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ
 عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا
 الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ
 شَكُورٌ (٢٣) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشَأِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ
 قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ
 (٢٤) وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ
 مَا تَفْعَلُونَ (٢٥) وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُمْ
 مِنْ فَضْلِهِ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ (٢٦) .

﴿بيان﴾

فصل رابع من الآيات يعرف الوحي الإلهي بأن الدين النازل به كتاب مكتوب على الناس وميزان يوزن به أعمالهم فيجزون بذلك يوم القيامة ، والجزاء الحسن من الرزق ثم يستطرد الكلام في ما يستقبلهم يوم القيامة من الثواب والعقاب ، وفيها آية المودة في القربى وما يلحق بذلك .

قوله تعالى : « الله الذي أنزل الكتاب بالحق والميزان » الخ كان مفتتح الفصول السابقة في سياق الفعل إخبارا عن الوحي و غرضه وآثاره « كذلك يوحى إليك » وكذلك أوحينا إليك « شرع لكم من الدين » وقد غير السياق في مفتتح هذا الفصل فجيء بالجملة الاسمية المتضمنة لتوصيفه تعالى بأنزال الكتاب والميزان « الله الذي أنزل الكتاب » الخ ولازمه تعريف الوحي بنزول الكتاب والميزان به .

ولعل الوجه فيه ما تقدم في الآية السابقة من ذكر الحاجة في الله « والذين يحتاجون في الله » فاستدعى ذلك تعريفه تعالى للمحتاجين فيه بأنه الذي أنزل الكتاب بالحق والميزان ، ولازمه تعريف الوحي بآثره كما عرفت .

وكيف كان فالمراد بالكتاب هو الوحي المشتمل على الشريعة والدين الحاكم في المجتمع البشري . ، وقد تقدم في تفسير قوله تعالى : « كان الناس أمة واحدة » الآية البقرة : ٢١٣ أن هذا المعنى هو المراد بالكتاب في الكتاب ، وكون إنزاله بالحق نزوله مصاحبا للحق لا يخالطه اختلاف شيطاني ولا نفساني .

والميزان ما يوزن و يقدر به الأشياء ، والمراد به بقرينة ذيل الآية والآيات التالية هو الدين المشتمل عليه الكتاب حيث يوزن به العقائد والأعمال فتحاسب عليه و يجرى بحسبه الجزاء يوم القيامة فالميزان هو الدين بأصوله وفروعه ، و يؤيده قوله تعالى : « لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان » الحديد : ٢٥ ، على ما هو ظاهر قوله : « معهم » .

وقيل : المراد به العدل وسمي العدل ميزانا لأن الميزان آلة الإنصاف والتسوية

بين الناس والعدل كذلك وأُيِّدَ بسبق ذكر العدل في قوله : « وأُمرت لأعدل بينكم » .
و فيه أنه لا شاهد يشهد عليه من اللفظ ، وقد تقدم أن المراد بالعدل في « لأعدل »
هو التسوية بين الناس في التبليغ وفي جريان الحكم دون عدل الحاكم والقاضي .

وقيل : المراد به الميزان المعروف المقدر للأثقال . وهو كما ترى .

وقيل : المراد به النبي ﷺ ويمكن إرجاعه إلى ما قد مناه من الوجه لأن
النبي مصداق كامل ومثل أعلى للدين بأصوله وفروعه ولكل فرد من أمته من الزنة
الدينية قدر ما يشابهه ويمثله لكن لا يلائم هذا الوجه ما تقدم نقله آنفاً من آية
سورة الحديد كثير ملاءمة .

وقوله : « وما يدريك لعل الساعة قريب » لما كان الميزان المشعر بالحساب
والجزاء يومي إلى البعث والقيامة انتقل إلى الكلام فيه وإنذارهم بما سيستقبلهم فيه
من الأهوال والتبشير بما أعد فيه للصالحين .

والإدراء بالإعلام ، والمراد بالساعة - على ما قيل - إتيانها ولذا جيء بالخبر
مذكراً ، والمعنى ما الذي يعلمك لعل إتيان الساعة قريب والخطاب للنبي ﷺ بعنوان
أنه سامع فيشمل كل من له أن يسمع ويعم الإنذار والتخويف .

قوله تعالى : « يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها والذين آمنوا مشفقون منها »
الخ المراد استعجالهم استعجال سخرية واستهزاء وقد تكرر في القرآن نقل قولهم :
« متى هذا الوعد إن كنتم صادقين » .

والإشفاق نوع من الخوف قال الراغب : الإشفاق عنايه مختلطة بخوف لأن
المشفق يحب المشفق عليه ويخاف ما يلحقه قال تعالى : « وهم من الساعة مشفقون »
فاذا عدي بمن فمعنى الخوف فيه أظهر ، وإذا عدي بفي فمعنى العناية فيه أظهر قال
تعالى : « إنا كنا قبل في أهلنا مشفقين » مشفقون منها انتهى .

وقوله : « ألا إن الذين يمارون في الساعة لفي ضلال بعيد » الممارسة الإصرار
على الجدال ، والمراد إلحاحهم على إنكارها بالجدال ، وإنما كانوا في ضلال بعيد لأنهم
أخطأوا طريق الحياة التي إصابتها أهم ما يتصور للإنسان فتوهموها حياة مقطوعة فانية

انكبوا فيها على شهوات الدنيا وإنما هي حياة خالدة باقية يجب عليهم أن يتزودوا من دنياهم لأخراهم لكنهم ضلوا عن سبيل الرشd فوقعوا في سبيل الغي .

قوله تعالى : « الله لطيف بعباده يرزق من يشاء وهو القوي العزيز » في معنى اللطف شيء من الرفق وسهولة الفعل و شيء من الدقة في ما يقع عليه الفعل فإذا تم الرفق والدقة و كان الفاعل يفعل برفق وسهولة و يقع فعله على الأمور الدقيقة كان لطيفا كالهواء النافذ في منافذ الأجسام برفق وسهولة المماس لدقائق أجزائها الباطنة . وإذا أُلقيت الخصوصيات المادية عن هذا المعنى صح أن يتصف به الله سبحانه فإنه تعالى ينال دقائق الأمور بأحاطته وعلمه و يفعل فيها ما يشاء برفق فهو لطيف .

وقد رتب الرزق في الآية على كونه تعالى لطيفا بعباده قويا عزيزا دلالة على أنه تعالى بلطفه لا يغيب عنه أحد ممن يشاء أن يرزق ولا يعصيه و بقوته عليه لا يعجز عنه و بعزته لا يمنعه مانع عنه .

والمراد بالرزق ما يعم موهبة الدين الذي يتلبس بها من يشاء من عباده على ما يشهد به الآية التالية ، ولذا ألحق القول فيه بقوله : « الله الذي أنزل الكتاب بالحق والميزان » .

قوله تعالى : « من كان يريد حرث الآخرة نزدله في حرثه » الخ الحرث الزرع والمراد به نتيجة الأعمال التي يؤتاها الإنسان في الآخرة على سبيل الاستعارة كأن الأعمال الصالحة بذور و ما تنتجه في الآخرة حرث .

والمراد بالزيادة له في حرثه تكثير ثوابه ومضاعفته قال تعالى : « من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها » الأنعام : ١٦٠ وقال : « والله يضاعف لمن يشاء » البقرة : ٢٦١ .

وقوله : « و من كان يريد حرث الدنيا نؤته منها و ماله في الآخرة من نصيب » أي و من كان يريد النتائج الدنيوية بأن يعمل للدنيا و يريد نتيجة ما عمله فيها دون الآخرة نؤته من الدنيا و ماله في الآخرة نصيب و في التعبير بإرادة الحرث إشاره إلى اشتراط العمل لما يريد من الدنيا والآخرة كما قال تعالى : « و أن ليس للإنسان إلا ما سعى » النجم : ٣٩ .

و قد أبهم ما يعطيه من الدنيا إذ قال : « نؤته منها » إشارة إلى أن الأمر إلى المشيئة الإلهية فربما بسطت الرزق و ربما قدرت كما قال تعالى : « من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد » أسرى : ١٨ .

والالتفات من الغيبة إلى التكلم بالغير في قوله : « نؤده » و « نؤته منها » للدلالة على العظمة التي يشعر بها قوله : « و هو القوي العزيز » .

والمحصل من معنى الآيتين أن الله سبحانه لطيف بعباده جميعاً ذو قوة مطلقة و عزة مطلقة يرزق عباده على حسب مشيئته و قد شاء في من أراد الآخرة و عملاً لها أن يرزقه منها و يزيد فيه ، و فيمن أراد الدنيا و عمل لها فحسب أن يؤتیه منها و ماله في الآخرة من نصيب .

و يظهر من ذلك أن الآية الأولى عامة تشمل الفريقين ، والمراد بالعباد ما يعم أهل الدنيا والآخرة ، وكذا الرزق وأن الآية الثانية في مقام تفصيل ما في قوله : « يرزق من يشاء » من الإجمال .

قوله تعالى : « أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله » إلى آخر الآية لما بين أن الله سبحانه هو الذي أنزل الكتاب بالحق و شرع لهم الدين الذي هو ميزان أعمالهم وأنه بلطفه وقوته وعزته يرزق من أراد الآخرة و عمل لها ما أرادها منها و يزيد ، و أن من أراد الدنيا و نسي الآخرة لا نصيب له فيها سجل على من كفر بالآخرة عدم النصيب فيها با نكار أن لادين غير ما شرعه الله يدين به هؤلاء حتى يرزقوا بالعمل به مثل ما يرزق أهل الإيمان بالآخرة فيها إن لاشريك لله حتى يشرع ديناً غير ما شرعه الله من غير إذن منه تعالى فلا دين إلا لله ولا يرزق في الآخرة رزقاً حسناً إلا من آمن بها و عمل لها .

فقوله : « أم لهم شركاء » الخ في مقام الإنكار ، و قوله : « و لو لا كلمة الفصل لقضي بينهم » إشارة إلى الكلمة التي سبقت منه تعالى أنهم يعيشون في الأرض إلى أجل مسمى ، و فيه إكبار لجرمهم و معصيتهم .

و قوله : « و إن الظالمين لهم عذاب أليم » وعيد لهم على ظلمهم ، و إشارة إلى

أَنَّهُمْ لَا يَفُوتُونَهُ تَعَالَى فَإِنْ لَمْ يَقْضَ بَيْنَهُمْ وَلَمْ يَعْذِبْهُمْ فِي الدُّنْيَا فَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ أَلِيمٌ .

قوله تعالى : « ترى الظالمين مشفقين مما كسبوا وهو واقع بهم » الخ الخطاب للنبي ﷺ بعنوان أنه سامع فيشمل كل مَنْ مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يَرَى ، والمراد بالظالمين التاركون لدين الله الذي شرعه لعباده المعرضون عن الساعة ، والمعنى يرى الراؤن هؤلاء الظالمين يوم القيامة خائفين مما كسبوا من السيئات وهو واقع بهم لا مناص لهم عنه . والآية من الآيات الظاهرة في تجسّم الأعمال، وقيل: في الكلام مضاف محذوف والتقدير مشفقين من وبال ما كسبوا . ولا حاجة إليه .

وقوله : « والذين آمنوا وعملوا الصالحات في روضات الجنّات » في المجمع : إن الروضة الأرض الخضرة بحسن النبات ، والجنة الأرض التي تحفها الشجر فروضات الجنّات الحدائق المشجرة المخضرة متونها .

وقوله : « لهم فيها ما يشاؤون عند ربهم » أي إن نظام الأسباب مطوي فيها بل السبب الوحيد هو إرادتهم وحدها يخلق الله لهم من عنده ما يشاؤون ذلك هو الفضل الكبير .

وقوله : « ذلك الذي يبشّر الله عباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات » تبشير للمؤمنين الصالحين ، وإضافة العباد تشريفة .

قوله تعالى : « قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى » الذي نفي سؤال الأجر عليه هو تبليغ الرسالة والدعوة الدينية ، وقد حكى الله ذلك عن عدة ممن قبله ﷺ من الرسل كنوح وهود وصالح ولوط وشعيب فيما حكى مما يخاطب كل منهم أمته : « وما أسألكم عليه من أجر إن أجرينى إلا على رب العالمين » الشعراء وغيرها .

وقد حكى عن النبي ﷺ ذلك إذ قال : وما تسألهم عليه من أجر « يوسف : ١٠٤ » وقد أمره النبي ﷺ أن يخاطب الناس بذلك بتعبيرات مختلفة حيث قال : « قل ما أسألكم عليه من أجر » ص : ٨٦ وقال : « قل ما سألتكم من أجر فهو لكم إن أجرينى

إِلَّا عَلَى اللَّهِ» سبأ : ٤٧ ، وقال : « قل لا أسألكم عليه أجراً إن هو إلا ذكرى للعالمين »
الأنعام : ٩٠ فأشار إلى وجه النفي وهو أنه ذكرى للعالمين لا يختص ببعض دون بعض
حتى يتخذ عليه الأجر .

و قال : « قل ما أسألكم عليه من أجر إلا من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلاً »
الفرقان : ٥٧ و معناه على ما مر في تفسير الآية إلا أن يشاء أحد منكم أن يتخذ إلى
ربه سبيلاً أي يستجيب دعوتي باختياره فهو أجري أي لا شيء هناك وراء الدعوة أي
لا أجر .

و قال تعالى في هذه السورة : « قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى »
فجعل أجر رسالته المودة في القربى ، و من المتيقن من مضامين سائر الآيات التي في هذا
المعنى أن هذه المودة أمر يرجع إلى استجابة الدعوة إما استجابة كلها و إما استجابة
بعضها الذي يهتم به و ظاهر الاستثناء على أي حال أنه متصل بدعوى كون المودة من
الأجر ولا حاجة إلى ما تمحله بعضهم بتقريب الانقطاع فيه .

و أما معنى المودة في القربى فقد اختلف فيه تفاسيرهم :

ف قيل - و نسب إلى الجمهور - أن الخطاب لقريش والأجر المسؤل هو مودتهم
للنبي ﷺ لقرباه منهنم و ذلك لأنهم كانوا يكذبونه و يبغضونه لتعرضه لآلهتهم
على ما في بعض الأخبار فأمر ﷺ أن يسألهم : إن لم يؤمنوا به فليودوه و لو كان قرابته
منهم ولا يبغضوه ولا يؤذوه فالقربى مصدر بمعنى القرابة ، و في للسببية .

و فيه أن معنى الأجر إنما يتم إذا قوبل به عمل يمتلكه معطي الأجر فيعطي
العامل ما يعادل ما امتلكه من مال و نحوه فسؤال الأجر من قريش وهم كانوا مكذبين
له كافرين بدعوته إنما كان يصح على تقدير إيمانهم به ﷺ لأنهم على تقدير تكذيبه
والكفر بدعوته لم يأخذوا منه شيئاً حتى يقابلوه بالأجر ، و على تقدير الإيمان به -
والنبوة أحد الأصول الثلاث في الدين - لا يتصور بغض حتى تجعل المودة أجراً
للمسألة و يسأل .

وبالجملة لا تحقق معنى الأجر على تقدير كفر المسؤولين و لا تحقق معنى البغض

على تقدير إيمانهم حتى يسألوا المودة .

و هذا الإشكال وارد حتى على تقدير أخذ الاستثناء منقطعا فإن سؤال الأجر منهم على أي حال إنما يتصور على تقدير إيمانهم والاستدراك على الانقطاع إنمما هو عن الجملة بجميع قيودها فأجد التأمل فيه .

وقيل : المراد بالمودة في القربى ما تقدم والخطاب للأنصار فقد قيل : إنهم أتوه بمال ليستعين به على ما ينوبه فنزلت الآية فردة ، وقد كان له منهم قرابة من جهة سلمى بنت زيد النجارية ومن جهة أخوال أمة آمنة على ما قيل .

وفيه أن أمر الأنصار في حبهم للنبي ﷺ أو ضح من أن يرتاب فيه ذوريب وهم الذين سألوه أن يهاجر إليهم ، وبوؤا له الدار ، وفدوه بالأفانفس والأموال والبنين و بذلوا كل جهدهم في نصرته وحتى في الإحسان على من هاجر إليهم من المؤمنين به ، وقد مدحهم الله تعالى بمثل قوله : « والذين تبوءوا الدار والأيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة » الحشر : ٩ وهذا مبلغ حبهم للمهاجرين إليهم لأجل النبي ﷺ والله المستقر فما هو الظن في حبهم له ؟

وإذا كان هذا مبلغ حبهم فمامعنى أن يؤمر النبي ﷺ أن يتوسل إلى مودتهم بقرابته منهم هذه القرابة البعيدة ؟

على أن العرب ماكانت تعتني بالقرابة من جهة النساء ذاك الاعتناء وفيهم القائل :
بنونا بنو أبائنا و بناتنا بنوهن أبناء الرجال الأباعد
والقائل :

وإنما أمهات الناس أوعية مستودعات و للأنسأب آباء
وإنما هوالإسلام أدخل النساء في القرابة وسأوى بين أولاد البنين وأولاد البنات
وقد تقدم الكلام في ذلك .

وقيل : الخطاب لقريش والمودة في القربى هي المودة بسبب القرابة غير أن المراد بها مودة النبي ﷺ لا مودة قريش كما في الوجه الأول ، والاستثناء منقطع ،

و محصل المعنى أنني لا أسألكم أجراً على ما أدعوكم إليه من الهدى الذي ينتهي بكم إلى روضات الجنات والخلود فيها ولا أطلب منكم جزاء لكن حبتي لكم بسبب قربتكم مني دفعني إلى أن أهديكم إليه و أدلكم عليه .

و فيه أنه لا يلائم ما يخدمه الله سبحانه له ﷺ في طريق الدعوة والهداية فإنه تعالى يسجل عليه في مواضع كثيرة من كلامه أن الأمر في هداية الناس إلى الله وليس له من الأمر شيء و أن ليس له أن يحزن لكفرهم و ردّهم دعوته و إنما عليه البلاغ فلم يكن له أن يندفع إلى هداية أحد لحبّ قرابة أو يعرض عن هداية آخرين لبغض أو كراهة و مع ذلك كلّه كيف يتصور أن يأمره الله بقوله : « قل لا أسألكم » الآية أن يخبر كفّار قريش أنه إنما اندفع إلى دعوتهم و هدايتهم بسبب حبّه لهم لقربتهم منه لا لأجر يسألهم إياه عليه .

وقيل : المراد بالمودة في القربى مودة الأقرباء والخطاب لقريش أو لعامة الناس و المعنى لا أسألكم على دعائي أجراً إلا أن تودّوا أقرباءكم .

وفيه أن مودة الأقرباء على إطلاقهم ليست ممّا يندب إليه في الإسلام قال تعالى : « لاتجد قوماً يؤمنون بالله و اليوم الآخر يوادّون من حادّ الله و رسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب في قلوبهم الإيمان و أيّدهم بروح منه » المجادلة : ٢٢ ، و سياق هذه الآية لا يلائم كونها مخصّصة أو مقيّدة لعموم قوله : « إلا المودة في القربى » أو إطلاقه حتّى تكون المودة للأقرباء المؤمنين هي أجر الرسالة - على أن هذه المودة الخاصة لا تلائم خطاب قريش أو عامّة الناس .

بل الذي يفيد سياق الآية أن الذي يندب إليه الإسلام هو الحب في الله من غير أن يكون للقراة خصوصيّة في ذلك ، نعم هناك اهتمام شديد بأمر القراة والرحم لكنّه بعنوان صلة الرحم و إيتاء المال على حبّه ذوي القربى لا بعنوان مودة القربى فلا حبّ إلا لله عزّ اسمه .

ولامساخ للقول بأن المودة في القربى في الآية كناية عن صلّتهم والإحسان إليهم بإيتاء المال إذ ليس في الكلام ما يدفع كون المراد هو المعنى الحقيقي غير الملائم لما

ندب إليه الإسلام من الحب في الله .

وقيل : معنى القربى هو التقرب إلى الله ، والمودة في القربى هي التودد إليه تعالى بالطاعة والتقرب فالمعنى لأسألكم عليه أجراً إلا أن توددوا إليه تعالى بالتقرب إليه .

وفيه أن في قوله : « إلا المودة في القربى » على هذا المعنى إبهاماً لا يصلح به أن يخاطب به المشركون فإن حاق مدلوله التودد إليه - أوودة تعالى - بالتقرب إليه والمشركون لا ينكرون ذلك بل يرون ما هم عليه من عبادة الآلهة تودداً إليه بالتقرب منه فهم القائلون على ما يحكيه القرآن عنهم : « ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى » الزمر : ٣ « هؤلاء شفعاؤنا عند الله » يونس : ١٨ .

فسؤال التودد إلى الله بالتقرب إليه من غير تقييده بكونه بعبادته وحده ، وجعل ذلك أجراً مطلوباً ممن يرى شركه نوع تودد إلى الله بالتقرب إليه ، وخطابهم بذلك على ما فيه من الإبهام -- والمقام مقام تمحيضه صلى الله عليه وسلم نفسه في دعوتهم إلى دين التوحيد لا يسألهم لنفسه شيئاً قط -- مما لا يرضيه الذوق السليم .

على أن المستعمل في الآية هو المودة دون التودد فالمراد بالمودة حبهم لله في التقرب إليه ولم يرد في كلامه تعالى إطلاق المودة على حب العباد لله سبحانه وإن ورد العكس كما في قوله : « إن ربي رحيم ودود » هود : ٩٠ ، وقوله : « وهو الغفور الودود » البروج : ١٤ و لعل ذلك لما في لفظ المودة من الإشعار بمراعاة حال المودود وتعاهده وتفقهه ، حتى قال بعضهم - على ما حكاه الراغب - إن مودة الله لعباده مراعاته لهم .

والإشكال السابق على حاله ولو فسرت المودة في القربى بمودة الناس بعضهم بعضاً ومجابتهم في التقرب إلى الله بأن تكون القربات أسباباً للمودة والحب فيما بينهم فإن للمشركين ما يماثل ذلك فيما بينهم على ما يعتقدون .

وقيل : المراد بالمودة في القربى ، مودة قرابة النبي صلى الله عليه وسلم وهم عترته من أهل بيته عليهم السلام وقد وردت به روايات من طرق أهل السنة وتكاثر الأخبار من طرق الشيعة

على تفسير الآية بمودتهم وموالاتهم ، ويؤيده الأخبار المتواترة من طرق الفريقين على وجوب موالة أهل البيت عليهم السلام ومحبتهم .

ثم التأمل الكافي في الروايات المتواترة الواردة من طرق الفريقين عن النبي صلى الله عليه وآله المتضمنة لارجاع الناس في فهم كتاب الله بما فيه من أصول معارف الدين وفروعها و بيان حقائقه إلى أهل البيت عليهم السلام كحديث الثقلين وحديث السفينة وغيرهما لا يدع ريباً في أن إيجاب مودتهم وجعلها أجراً للرسالة إنما كان ذريعة إلى إرجاع الناس إليهم فيما كان لهم من المرجعية العلمية .

فالمودّة المفروضة على كونها أجراً للرسالة لم تكن أمراً وراء الدعوة الدينية من حيث بقائها ودوامها فالآية في مؤدّاها لا تغاير مؤدّى سائر الآيات النافية لسؤال الأجر .

و يؤل معناها إلى أنني لا أسألكم عليه أجراً إلا أن الله لما أوجب عليكم مودّة عامّة المؤمنين ومن حملتهم قرايتي فأنسي أحسب مودّكم لقرايتي وأعدّها أجراً لرسالتي قال تعالى : « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا » مريم : ٩٤ وقال : « والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض » التوبة : ٧١ .

و بذلك يظهر فساد ما أورد على هذا الوجه أنه لا يناسب شأن النبوة لما فيه من التهمة فإن أكثر طلبة الدنيا يفعلون شيئاً و يسألون عليه ما يكون فيه نفع لآل و لأدهم و قراياتهم .

و أيضاً فيه منافاة لقوله تعالى « و ما تسألهم عليه من أجر » يوسف : ١٠٤ . وجه الفساد أن إطلاق الأجر عليها و تسميتها به إنما هو بحسب الدعوى و أمّا بحسب الحقيقة فلا يزيد مدلول الآية على ما يدل عليه الآيات الأخر النافية لسؤال الأجر كما عرفت و ما في ذلك من النفع عائد إليهم فلا مورد للتهمة .

على أن الآية على هذا مدنيّة خوطب بها المسلمون و ليس لهم أن يتّهموا نبيّهم المصون بعصمة الهيّة - بعد الإيمان به و تصديق عصمته - فيما يأتيهم به من ربهم و لو جاز اتّهامهم له في ذلك و كان بذلك غير مناسب لشأن النبوة لا يصلح لأن يخاطب

به ، لا طرد مثل ذلك في خطابات كثيرة قرآنية كآيات الدالة على فرض طاعته المطلقة والدالة على كون الأنفال والغنائم لله ولرسوله ، والدالة على خمس ذوي القربى ، وما أبيض له في أمر النساء وغير ذلك .

على أنه تعالى تعرض لهذه التهمة ودفعها في قوله الآتي : « أم يقولون افتري على الله كذبا فإن يشاء الله يختم على قلبك » الآية على ما سيأتي .
وهب أننا صرفنا الآية عن هذا المعنى بحملها على غيره دفعا لما ذكر من التهمة فما هو الدافع لها عن الأخبار التي لاتحصى كثرة الواردة من طرق الفريقين في أبحاث مودة أهل البيت عنه عليه السلام .

وأما منافاة هذا الوجه لقوله تعالى : « وما تسألهم عليه من أجر » فقد اتضح بطلانه مما ذكرناه ، و الآية بقياس مدلولها إلى الآيات النافية لسؤال الأجر نظيرة قوله تعالى : « قل ما أسألكم عليه من أجر إلا من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلا » الفرقان : ٥٧ .

قال في الكشف بعد اختياره هذا الوجه : فإن قلت : هلا قيل : إلا مودة القربى أو إلا المودة للقربى ، وما معنى قوله : إلا المودة في القربى ؟
قلت : جعلوا مكانا للمودة ومقرراً لها كقولك : لي في آل فلان مودة ، ولي فيهم هوى وحب شديد ، تريد أحبهم وهم مكان حبي ومحلّه .

قال : وليست في بصلة للمودة كاللام إذا قلت : إلا المودة للقربى . إنما هي متعلقة بمحذوف تعلق الطرف به في قولك : المال في الكيس ، وتقديره إلا المودة ثابتة في القربى وتمكنة فيها . انتهى .

قوله تعالى : « ومن يقترف حسنة نزد له فيها حسنا إن الله غفور شكور »
الاعتراف بالاكْتساب ، والحسنة الفعل التي يرضيها الله سبحانه ويشيب عليها ، وحسن العمل لملاءمته لسعادة الإنسان والغاية التي يقصدها كما أن مسأته وقبحه خلاف ذلك ، وزيادة حسننها إتمام ما نقص من جهاتها وإكمالها ومن ذلك الزيادة في ثوابها كما قال تعالى : « ولنجزيَنهم أحسن الذي كانوا يعملون » العنكبوت : ٧ ، وقال :

ليجزئهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله» النور : ٣٨ .

و المعنى ومن يكتسب حسنة نردله في تلك الحسنة حسناً - برفع نقائصها و زيادة أجرها - إن الله غفور يمحو السيئات شكور يظهر محاسن العمل من عامله .

وقيل : المراد بالحسنة مودة قربي النبي ﷺ و يؤيده ما في روايات أئمة أهل البيت عليهم السلام أن قوله : « قل لا أسألكم عليه أجراً » إلى تمام أربع آيات نزلت في مودة قربي النبي ﷺ ، و لازم ذلك كون الآيات مدنية و أنها ذات سياق واحد و أن المراد بالحسنة من حيث انطباقها على المورد هي المودة ، و على هذا فالإشارة بقوله : « أم يقولون افتري » الخ إلى بعض ما تفوه به المنافقون ثقافلاً عن قبوله و في المؤمنين سماعون لهم ، و بقوله : « وهو الذي يقبل التوبة » إلى آخر الآيتين إلى توبة الراجعين منهم و قبولها .

و في قوله : « إن الله غفور شكور » التفات من التكلم إلى الغيبة و الوجه فيه الإشارة إلى علّة الاتصاف بالمغفرة و الشكر فإن المعنى إن الله غفور شكور لأنه الله عز اسمه .

قوله تعالى : « أم يقولون افتري على الله كذباً » إلى آخر الآية أم منقطعة ، و الكلام مسوق للتوبيخ و لازمه إنكار كونه ﷺ مفترياً على الله كذباً .

و قوله : « فإن يشأ الله يختم على قلبك » معناه على ما يعطيه السياق أنك لست مفترياً على الله كذباً فإنه ليس لك من الأمر شيء حتى تشاء الفرية فتأتي بها وإنما هو وحي من الله سبحانه من غير أن يكون لك فيه صنع و الأمر إلى مشيئته تعالى فإن يشأ يختم على قلبك و سد باب الوحي إليك لكنّه شاء أن يوحى إليك و يبين الحق و قد جرت سنته أن يمحو الباطل و يحق الحق بكلماته .

فقوله : « فإن يشأ الله يختم على قلبك » كناية عن إرجاع الأمر إلى مشيئة الله و تنزيهه لساحة النبي ﷺ أن يأتي بشيء من عنده .

و هذا المعنى - كما ترى - أنسب للسياق بناء على كون المراد بالقربي قرابة

النبي ﷺ والتوبيخ متوجهاً إلى المنافقين و مرضى القلوب .

وقد ذكروا في معنى الجملة وجوهاً آخر :

منها ما ذكره الزمخشري في الكشف حيث فسر قوله : « فإن يشأ الله يختم على قلبك » بقوله فإن يشأ الله يجعلك من المختوم على قلوبهم حتى تقتري عليه الكذب فإنه لا يقتري على الله الكذب إلا من كان في مثل حالهم .

وهذا الأسلوب مؤداه استبعاد الافتراء من مثله وأنه في البعد مثل الشرك بالله و الدخول في جملة المختوم على قلوبهم ، و مثال هذا أن يخون بعض الأمراء فيقول : لعل الله خذلني لعل الله أعمى قلبي و هو لا يريد إثبات الخذلان و عمى القلب وإنما يريد استبعاد أن يخون مثله و التنبيه على أنه ركب من تخوينه أمر عظيم . انتهى .

و منها ما قيل : إن المعنى لو حدثت نفسك بأن تقتري على الله الكذب لطبع الله على قلبك ولأنساك القرآن فكيف تقدر أن تقتري على الله ، وهذا كقوله : « لئن أشركت ليحبطن عملك » .

و منها ما قيل : إن معناه فإن يشأ الله يربط على قلبك بالصبر على أذاهم حتى لا يشق عليك قولهم : إنه مفتر و ساحر ، وهي وجوه لا تخلو من ضعف .

و منها ما قيل : إن المعنى فإن يشأ الله يختم على قلبك كما ختم على قلوبهم وهو تسلية للنبي ﷺ ليشكر ربه على ما آتاه من النعمة .

و منها ما قيل : إن المعنى فإن يشأ الله يختم على قلوب الكفار و على ألسنتهم و يعاجلهم بالعذاب ، و عدل عن الغيبة إلى الخطاب و عن الجمع إلى الأفراد ، والمراد يختم على قلبك أيها القائل : إنه افتري على الله كذبا .

و قوله : « و يمح الله الباطل ويحق الحق بكلماته » : الإتيان بالمضارع - يمح و يحق - للدلالة على الاستمرار فمحو الباطل و إحقاق الحق بالكلمات سنة جارية له تعالى و المراد بالكلمات ما ينزل على الأنبياء من الوحي الإلهي و التكليم

الربوبيّ" و يمكن أن يكون المراد نفوس الأنبياء من حيث إنها مفصحة عن الضمير الغيبيّ .

و قوله : « إنّه عليم بذات الصدور » تعليل لقوله : « و يمح الله الباطل الخ » أي إنّّه يمحو الباطل و يحقّ الحقّ بكلماته لأنّه عليم بالقلوب و ما انطوت عليه فيعلم ما تستدعيه من هدى أو ضلال أو شرح أو ختم بإنزال الوحي و توجيه الدعوة .

قيل : و في الآية إشعار بوعد النبي ﷺ بالنصر و لا يخلو من وجه .

قوله تعالى : « و هو الذي يقبل التوبة عن عباده و يعفو عن السيئات و يعلم ما تفعلون » يقال : قبل منه و قبل عنه قال في الكشف : يقال : قبلت منه الشيء و قبلته عنه فمعنى قبلته منه أخذته منه و جعلته مبدء قبولي و منشأه ، و معنى قبلته عنه عزلته و أبنته عنه . انتهى .

و في قوله : « و يعلم ما تفعلون » تحضيض على التوبة و تحذير عن اقتراف السيئات و المعنى ظاهر .

قوله تعالى : « و يستجيب الذين آمنوا و عملوا الصالحات و يزيدهم من فضله و الكافرون لهم عذاب شديد » فاعل « يستجيب » ضمير راجع إليه تعالى و « الذين آمنوا » الخ في موضع المفعول بنزع الخافض و التقدير و يستجيب للذين آمنوا - على ما قيل - وقيل : فاعل « يستجيب » هو « الذين » و هو بعيد من السياق .

و الاستجابة إجابة الدعاء و لما كانت العبادة دعوة له تعالى عبّر عن قبولها بالاستجابة لهم ، و الدليل على هذا المعنى قوله : « و يزيدهم من فضله » فإنّ ظاهره زيادة الثواب و كذا مقابلة استجابة المؤمنين بقوله : « و الكافرون لهم عذاب شديد » .

و قيل : المراد أنّه يستجيب لهم إذا دعوه و أعطاهم ما سألوه و زادهم على ما طلبوه و هو بعيد من السياق . على أنّ استجابة الدعاء لا يختصّ بالمؤمن .



﴿ بحث روائى ﴾

في المجمع روى زاذان عن علي عليه السلام قال : فينا في آل حم آية لا يحفظ مودتنا إلا كل مؤمن . ثم قرء « قل لأسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى » .
قال الطبرسي : و إلى هذا أشار الكميت في قوله :

وجدنا لكم في آل حم آية تأولها منها تقي* و معرب

و فيه وصح عن الحسن بن علي عليه السلام أنه خطب الناس فقال في خطبته : إننا من أهل البيت الذين افترض الله مودتهم على كل مسلم فقال : « قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى » .

و في الكافي بإسناده عن عبدالله بن عجلان عن أبي جعفر عليه السلام في قوله تعالى :
« قل لأسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى » قال : هم الأئمة .
أقول : و الأخبار في هذا المعنى من طرق الشيعة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام كثيرة جداً مروية عنهم .

و في الدر المنثور أخرج أحمد و عبد بن حميد و البخاري و مسلم و الترمذي و ابن جرير و ابن مردويه من طريق طاوس عن ابن عباس أنه سئل عن قوله : « إلا المودة في القربى » فقال سعيد بن جبیر : هم قريبي آل محمد فقال ابن عباس : عجّلت إن النبي صلى الله عليه وآله لم يكن بطن من قريش إلا كان له فيهم قرابة فقال : إلا أن تصلحوا ما بيني وبينكم من القرابة .

أقول : و رواه أيضاً عن ابن عباس بطرق أخرى غير هذا الطريق ، و قد تقدم في بيان الآية أن هذا المعنى غير مستقيم و لا منطبق على سياق الآية ، و من العجيب ما في بعض هذه الطرق أن الآية منسوخة بقوله تعالى : « قل ما سألتكم عليه من أجر فهو لكم إن أجري إلا على الله » .

و فيه أخرج أبو نعيم و الديلمي من طريق مجاهد عن ابن عباس قال : قال رسول

اللَّهُ ﷻ : لا أسألكم علية أجراً إلا المودة في القربى أن تحفظوني في أهل بيتي و تودّوهم لي .

و فيه أخرج ابن المنذر ، و ابن أبي حاتم و الطبراني و ابن مردويه بسند ضعيف من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : لما نزلت هذه الآية « قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى » قالوا : يا رسول الله من قرابتك هؤلاء الذين وجبت مودّتهم قال : عليّ و فاطمة و ولداها .

أقول : و رواها الطبرسي في المجمع و فيها « وولداها » مكان « وولداها » . و فيه أخرج ابن جرير عن أبي الديلم قال : لما جيء بعليّ بن الحسين أسيراً فأقيم على درج دمشق قام رجل من أهل الشام فقال : الحمد لله الذي قتلكم واستأصلكم فقال له عليّ بن الحسين : أقرأت القرآن ؟ قال : نعم . قال : أقرأت آل حم ؟ قال : نعم قال : أما قرأت « قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى » ؟ قال : فأنسكم لأنتم هم ؟ قال : نعم .

و فيه أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس « و من يقترب حسنة » قال : المودة لآل محمد .

أقول : و روى ما في معناه في الكافي بإسناده عن محمد بن مسلم عن أبي جعفر ﷻ . و في تفسير القميّ حدّثني أبي عن ابن أبي نجران عن عاصم بن حميد عن محمد بن مسلم قال : سمعت أبا جعفر ﷻ يقول : في قول الله عزّ وجلّ : « قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى » يعني في أهل بيته .

قال : جاءت الأنصار إلى رسول الله ﷺ فقالوا : إنّنا قد آوينا و نصرنا فخذ طائفة من أموالنا فاستعن بها على ما نأبىك فأنزل الله عزّ وجلّ « قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى » أي في أهل بيته .

ثمّ قال : ألا ترى أنّ الرجل يكون له صديق و في نفس ذلك الرجل شيء على أهل بيته فلا يسلم صدره فأراد الله عزّ وجلّ أن لا يكون في نفس رسول الله ﷺ شيء على أمّته ففرض الله عليهم المودة في القربى فإن أخذوا أخذوا مفروضاً ، و إن تركوا

تركوا مفروضا .

قال : فانصرفوا من عنده و بعضهم يقول : عرضنا عليه أموالنا فقال : لا . قاتلوا
عن أهل بيتي من بعدي ، و قال طائفة : ما قال هذا رسول الله و جحدوه و قالوا كما حكى
الله عزّ وجلّ : « أم يقولون افتري على الله كذبا » فقال عزّ وجلّ : « فإن يشأ الله يختم
على قلبك » قال : لو افتريت « ويمح الله الباطل » يعني يبطله « و يحقّ الحقّ بكلماته »
يعني بالاثمّة و القائم من آل محمد ﷺ « إنّه عليم بذات الصدور » ،
أقول و روى قصّة الأنصار السيوطي في الدر المنثور عن الطبراني و ابن مردويه
من طريق ابن جبير وضعفه .





وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنْزِلُ بِقَدَرِ
 مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ (٢٧) وَهُوَ الَّذِي يُنْزِلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ
 مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ (٢٨) وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ
 السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ
 قَدِيرٌ (٢٩) وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ
 كَثِيرٍ (٣٠) وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ
 وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (٣١) وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ (٣٢)
 إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ
 صَابِرٍ شَكُورٍ (٣٣) أَوْ يُوقِعْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ (٣٤) وَ
 يَعْلَمُ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ (٣٥) فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ
 شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَ
 عَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٣٦) وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ
 وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ (٣٧) وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا
 الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣٨) وَالَّذِينَ
 إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ (٣٩) وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ

عَفَا وَ أَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (٤٠) وَلَمَنِ انْتَصَرَ
بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ (٤١) إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ
يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ
أَلِيمٌ (٤٢) وَلَمَنِ صَبَرَ وَ غَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (٤٣) وَ مَنْ
يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ وَ تَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ
يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ (٤٤) وَ تَرِيَهُمْ يَعْزُضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ
مِنَ الذَّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ وَ قَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ
الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَ أَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ
مُتَقِيمٍ (٤٥) وَ مَا كَانَ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءَ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ مَنْ
يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ (٤٦) اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ
يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ وَ مَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ (٤٧)
فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا أَنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ وَ أَنَا
إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَحَرَّحْنَا بِهَا وَ إِن تَصِبْهُمْ سَيِّئَةً بِمَا قَدَّمْتَ
أَيْدِيَهُمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ (٤٨) لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا
يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذَّكَورَ (٤٩) أَوْ يَزْوَجَهُمْ
ذُكْرَانًا وَ إِنَاثًا وَ يَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (٥٠) .

﴿بيان﴾

صدر الآيات متصل بحديث الرزق المذكور في قوله : « و الله لطيف بعباده يرزق من يشاء » وقد سبقه قوله « له مقاليد السموات والأرض يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر » وقد تقدمت الإشارة إلى أن من الرزق نعمة الدين التي آتاها الله سبحانه عباده المؤمنين و بهذه العناية دخل الكلام فيه في الكلام على الوحي الذي سقت لبيانه آيات السورة و انعطف عليه انعطافا بعد انعطاف .

ثم يذكر بعض آيات التوحيد المتعلقة بالرزق كخلق السماوات والأرض وبث الدواب فيهما والسفائن الجوارى في البحر وإيتاء الأولاد الذكور والإناث وإحداهما لمن يشاء وجعل من يشاء عقيما .

ثم يذكر أن من الرزق ما آتاهموه في الدنيا و هو متاعها الفاني بفنائها و منه ما يخص المؤمنين في الآخرة و هو خير و أبقي ، و ينتقل الكلام من هنا إلى صفات المؤمنين و حسن عقبتهم و إلى وصف ما يلقاه الظالمون و هم غيرهم في عقابهم من أهوال القيامة و عذاب الآخرة .

ووراء ذلك في خلال الآيات من إجمال بعض الأحكام والإشارات والتخويف والدعوة إلى الحق و حقائق المعارف شيء كثير .

قوله تعالى : « و لو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض و لكن ينزل بقدر ما يشاء إته بعباده خبير بصير » القدر مقابل البسط معناه التضييق و منه قوله السابق : « يبسط الرزق لمن يشاء و يقدر » والقدر بفتح الدال وسكونها كميتة الشيء وهندسته و منه قوله : « و لكن ينزل بقدر ما يشاء » أو جعل الشيء على كميتة معينة و منه قوله : « فقد رنا فنعم القادرون » المرسلات : ٢٣ .

والبغي الظلم ، و قوله : « بعباده » من وضع الظاهر موضع الضمير و النكتة فيه الإشارة إلى بيان كونه خبيراً بصيراً بهم و ذلك أنهم عباده المخلوقون له القائمون به

فلا يكونون محجوبين عنه مجهولين له ، و كذا قوله السابق : « بعباده » لا يخلو من إشارة إلى بيان إيتاء الرزق و ذلك أنهم عباده ورزق العبد على مولاه .
و معنى الآية ولو وسّع الله الرزق على عباده فأشبع الجميع بايتائه لظلموا في الأرض - لما أن من طبع سعة المال الأشر والبطر والاستكبار والطغيان كما قال تعالى « إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى » العلق : ٧ - و لكن ينزل ما يشاء من الرزق بقدر و كمية معينة إنه بعباده خبير بصير فيعلم ما يستحقه كل عبد و ما يصلحه من غنى أو فقر فيؤتيه ذلك .

ففي قوله : « و لكن ينزل بقدر ما يشاء » بيان للسنة الإلهية في إيتاء الرزق بالنظر إلى صلاح حال الناس أي إن صلاح حالهم أثراً في تقدير أرزاقهم ، ولا ينال في ذلك ما نشاهد من طغيان بعض المثرين و نماء رزقهم على ذلك فإن هناك سنة أخرى حاكمة على هذه السنة و هي سنة الابتلاء والامتحان قال تعالى : « إنما أموالكم وأولادكم فتنة » التغابن : ١٥ و سنة أخرى هي سنة المكر والاستدراج قال تعالى : « سنستدرجهم من حيث لا يشعرون وأُملي لهم إن كيدي متين » الأعراف : ١٨٣ .
فسنة الإصلاح بتقدير الرزق سنة ابتدائية يصلح بها حال الإنسان إلا أن يمتحنه الله كما قال : « وليبتلي الله ما في صدوركم وليمحص ما في قلوبكم » آل عمران : ١٥٤ أو يغيّر النعمة و يكفر بها فيغيّر الله في حقه سنته فيعطيه ما يطغيه قال تعالى : « إن الله لا يغيّر ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » الرعد : ١١ .

و كما أن إيتاء المال والبنين وسائر النعم الصورية من الرزق المقسوم كذلك المعارف الحقيقة والشرائع السماوية المنتهية إلى الوحي من حيث إنزالها و من حيث الابتلاء بها والتلبس بالعمل بها من الرزق المقسوم .

فلو نزلت المعارف والأحكام عن آخرها دفعة واحدة - على مالها من الإحاطة والشمول لجميع شؤون الحياة الإنسانية - لشقت على الناس و لم يؤمن بها إلا الأوحدي منهم لكن الله سبحانه أنزلها على رسوله ﷺ تدريجاً وعلى مكث وهياً بذلك الناس بقبول بعضها لقبول بعض قال تعالى : « و قرآنا فرقناه لتقرأه على الناس

على مكث « أسرى : ١٠٦ .

و كذا المعارف العالية التي هي في بطون المعارف الساذجة الدينية لو لم يضرب عليها بالحجاب و بيّنت لعامة الناس على حدّ الظواهر المبيّنة لهم لم يتحمّلوا و دفعته أفهامهم إلاّ الأوحديّ منهم لكنّ الله سبحانه كلمهم في ذلك نوع تكليم يستفيد منه كلّ على قدر فهمه وسعة صدره كما قال في مثل ضربه في ذلك : « أنزل من السماء ماءً فسالت أودية بقدرها » الرعد : ١٧ .

و كذلك الأحكام والتكاليف الشرعيّة لو كلّف بجميعها جميع الناس لتحرّجوا منها ولم يتحمّلوها لكنّه سبحانه قسمها بينهم حسب تقسيم الابتلاءات المقتضية لتوجّه التكليف المتنوّعة بينهم .

فالرزق بالمعارف والشرائع من أيّ جهة فرض كالرزق الصوريّ مفروز بين الناس مقدّر على حسب صلاح حالهم .

قوله تعالى : « وهو الذي ينزل الغيث من بعد ما قنطوا وينشر رحمته وهو الوليّ الحميد » القنوط اليأس ، والغيث المطر قال في مجمع البيان : الغيث ما كان نافعاً في وقته ، والمطر قد يكون نافعاً وقد يكون ضاراً في وقته و غير وقته . انتهى ، و نشر الرحمة تفريق النعمة بين الناس بأنبات النبات وإخراج الثمار التي يكون سببها المطر . وفي الآية انتقال من حديث الرزق إلى آيات التوحيد التي لها تعلق ما بالأرزاق ، و يتلوها في هذا المعنى آيات ، و تذييل الآية بالاسمين : الوليّ الحميد و هما من أسمائه تعالى الحسنى للثناء عليه في فعله الجميل .

قوله تعالى : « ومن آياته خلق السماوات والأرض و ما بثّ فيهما من دابة » إلخ البثّ التفريق و يقال : بثّ الريح الثراب إذا أثاره ، والدابة كلّ ما يدبّ على الأرض فيعمّ الحيوانات جميعاً ، والمعنى ظاهر .

و ظاهر الآية أنّ في السموات خلقاً من الدوابّ كالأرض ، وقول بعضهم : إنّ ما في السموات من دابة هي الملائكة يدفعه أنّ إطلاق الدوابّ على الملائكة غير معهود . وقوله : « وهو على جمعهم إذا يشاء قدير » إشارة إلى حشر ما بثّ فيهما من دابة

وقد عبّر بالجمع لمقابلته البتة الذي هو التفريق ، ولا دلالة في قوله : « على جمعهم » حيث أتى بضمير أولي العقل على كون ما في السموات من الدواب أولي عقل كالأإنسان لقوله تعالى : « وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ما فرطنا في الكتاب من شيء ثم إلى ربهم يحشرون » الأنعام : ٣٨ .

والقدير من أسمائه تعالى الحسنى وهو الذي أركزت فيه القدرة وثبتت قال الراغب : القدرة إذا وصف بها الإنسان فاسم لهيئة له بها يتمكن من فعل شيء ما وإذا وصف الله بها فهي نفى العجز عنه ، ومحال أن يوصف غير الله بالقدرة المطلقة معنى وإن أطلق عليه لفظاً بل حقه أن يقال : قادر على كذا ومتى قيل : هو قادر فعلى سبيل معنى التقييد ، ولهذا لا أحد غير الله يوصف بالقدرة من وجه إلا وبصح أن يوصف بالعجز من وجه والله تعالى هو الذي ينتفى عنه العجز من كل وجه .

والقدير هو الفاعل لما يشاء على قدر ما تقتضى الحكمة لازئداً عليه ولا ناقصاً عنه ولذلك لا يصح أن يوصف به إلا الله تعالى قال : « إنه على ما يشاء قدير » ، والمقتدر يقاربه نحو « عند مليك مقتدر » لكن قد يوصف به البشر ، وإذا استعمل في الله فمعناه معنى القدير وإذا استعمل في البشر فمعناه المتكلف والمكتسب للقدرة ، انتهى . وهو حسن غير أن في قوله : « إن القدرة إذا وصف به الله فهي نفى العجز عنه » مساهلة ظاهرة فإن صفاته تعالى الذاتية كالحياة والعلم والقدرة لها معان إيجابية هي عين الذات لا معان سلبية حتى تكون الحياة بمعنى انتقاء الموت والعلم بمعنى انتقاء الجهل والقدرة بمعنى انتقاء العجز على ما يقوله الصابون . ولازمه خلوا الذات عن صفات الكمال .

فالحق أن معنى قدرته تعالى كونه بحيث يفعل ما يشاء ، ولازم هذا المعنى الإيجابي انتقاء مطلق العجز عنه تعالى .

قوله تعالى : « وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير » المصيبة النابتة تصيب الإنسان كأنها تقصده ، والمراد بما كسبت أيديكم المعاصي والسيئات وقوله : « ويعفو عن كثير » أي عن كثير مما كسبت أيديكم وهي السيئات .

والخطاب في الآية اجتماعي موجه إلى المجتمع غير منحل إلى خطابات جزئية ولازمه كون المراد بالمصيبة التي تصيبهم المصائب العامة الشاملة كالقحط والغلاء والوباء والزلازل وغير ذلك .

فيكون المراد أن المصائب والنوائب التي تصيب مجتمعكم ويصابون بها إنما تصيبكم بسبب معاصيكم والله يصفح عن كثير منها فلا يأخذ بها .

فلا آية في معنى قوله تعالى : « ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون » الروم : ٤١ ، وقوله : « ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا » الأعراف : ٩٦ ، وقوله : « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » الرعد : ١١ وغير ذلك من الآيات الدالة على أن بين أعمال الإنسان وبين النظام الكوني ارتباطاً خاصاً فلو جرى المجتمع الإنساني على ما يقتضيه الفطرة من الاعتقاد والعمل لنزلت عليه الخيرات وفتحت عليه البركات ولو أفسدوا أفسد عليهم .

هذا ما تقتضيه هذه السنة الإلهية إلا أن ترد عليه سنة الابتلاء أو سنة الاستدراج والاملاء فينقلب الأمر قال تعالى : « ثم بدّلنا مكان السيئة الحسنة حتى غفوا » وقالوا قد مسّ آباءنا السراء والضراء فأخذناهم بغتة وهم لا يشعرون » الأعراف : ٩٥ . ويمكن أن يكون الخطاب في الآية عاماً منحلاً إلى خطابات الأفراد فيكون ما يصاب كل إنسان بمصيبة في نفسه أو ماله أو ولده أو عرضه وما يتعلق به مستنداً إلى معصية أتى بها وسيئة عملها ويعفو الله عن كثير منها .

وكيف كان فالخطاب في الآية لعامة الناس من المؤمنين والكافرين وهو الذي يفيد السياق وتأييده الآية التالية هذا أولاً ، والمراد بما كسبته الأيدي المعاصي والسيئات دون مطلق الأعمال ، وهذا ثانياً ؛ والمصائب التي تصيب إنما هي آثار الأعمال في الدنيا لما بين الأعمال وبينها من الارتباط والتداعي دون جزاء الأعمال وهذا ثالثاً .

وبما ذكر يندفع أولاً ما استشكل على عموم الآية بالمصائب النازلة على الأنبياء عليهم السلام وهم معصومون لا معصية لهم ، والمصائب النازلة على الأطفال والمجانين

وهم غير مكلفين بتكليف فلا معصية لهم فيجب تخصيص الآية بمصائب الأنبياء ومصائب الأطفال والمجانين .

وجه الاندفاع أن إثبات المعصية لهم في قوله : « فبما كسبت أيديكم » دليل على أن الخطاب في الآية لمن يجوز عليه صدور المعصية فلا يشمل المعصومين وغير المكلفين من رأس فعدم شمول الآية لهم من باب التخصص دون التخصيص .

وثانياً ما قيل: إن مقتضى الآية مغفرة ذنوب المؤمنين جميعاً فإنها بين ما يجوزون عليها باصابتهم بالمصائب وما يعفى عنها .

وجه الاندفاع أن الآية مسوقة لبيان ارتباط المصائب بالمعاصي وكون المعاصي ذوات آثار دينوية سيئة منها ما يصيب الإنسان ولا يخطيء ومنها ما يعفى عنه فلا يصيب لأسباب صارفة وحكم مانعة كصلة الرحم والصدقة ودعاء المؤمن والتوبة وغير ذلك مما وردت به الأخبار ، وأما جزاء الأعمال فالآية غير ناظرة إليه كما تقدم .

على أن الخطاب في الآية يعم المؤمن والكافر كما تقدمت الإشارة إليه ، ولا معنى لتبعيضها في الدلالة فتدل على المغفرة في المؤمن وعدمها في الكافر .
و بعد هذا كله فالوجه الأول هو الوجه .

قوله تعالى : « وما أنتم بمعجزين في الأرض وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير » معنى الآية ظاهر وهي باتصالها بما قبلها تفيد أنكم لا تعجزون الله حتى لا تصيبكم المصائب لذنوبكم وليس لكم من دونه من ولي يتولى أمركم فيدفع عنكم المصائب ولا نصير ينصركم ويعينكم على دفعها .

قوله تعالى : « ومن آية الجوار في البحر كالأعلام » الجواري جمع جارية وهي السفينة ، والأعلام جمع علم وهو العلامة ويسمى به الجبل وشبهت السفائن بالجبال لعظمها وارتفاعها والباقي ظاهر .

قوله تعالى : « إن يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره » إلخ ضمير « يشأ » لله تعالى ، وظل بمعنى صار ، و « رواكد » جمع راكدة وهي الثابتة في محلها والمعنى إن يشأ الله يسكن الريح التي تجري بها الجواري فيصرن أي الجواري ثوابت

على ظهر البحر .

وقوله : « إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور » أصل الصبر الحبس و أصل الشكر إظهار نعمة المنعم بقول أو فعل ، والمعنى إن فيما ذكر من أمر الجواري من كونها جارية على ظهر البحر بسبب جريان الرياح ناقلة للناس وأمتعته من ساحل إلى ساحل لآيات لكل من حبس نفسه عن الاشتغال بما لا يعنيه و اشتغل بالتفكير في نعمه والتفكير في النعمة من الشكر .

وقيل المراد بكل صبار شكور المؤمن لأن المؤمن لا يخلو من أن يكون في الضراء أو في السراء فإن كان في الضراء كان من الصابرين و إن كان في السراء كان من الشاكرين .

قوله تعالى : « أو يوبقهن بما كسبوا و يعف عن كثير » الا يباق الإهلاك ، و ضمير التأنيت للجواري و ضمير التذكير للناس ، و يوبقهن و يعف معطوفان على « يسكن » والمعنى إن يشأ يهلك الجواري بإغراقها بسبب ما كسبوا من السيئات و يعف عن كثير منها أي إن بعضها كان في اقتضاء الإهلاك و إن عفى عن كثير منها .

وقيل : المراد بإهلاكها إهلاك أهلها إما مجازاً أو بتقدير مضاف و « يوبقهن » بالعطف على « يسكن » في معنى يرسل الرياح العاصفة فيوبقهم والمعنى إن يشأ يسكن الرياح إلخ و إن يشأ يرسلها فيهلكهم بالإغراق و ينج كثيرا منهم بالعفو والمحصّل إن يشأ يسكن الرياح أو يرسلها فيهلك ناساً بذنوبهم و ينج ناساً بالعفو عنهم . ولا يخفى وجه التكلف فيه .

وقيل : إن « يعف » عطف على قوله : « يسكن الرياح » إلى قوله : « بما كسبوا » و لذا عطف بالواو لأبأ والمعنى إن يشأ يعاقبهم بالإسكان أو الأعصاف و إن يشأ يعف عن كثير . و هو في التكلف كسابقه .

قوله تعالى : « و يعلم الذين يجادلون في آياتنا ما لهم من محيص » قيل : هو غاية معطوفة على أخرى محذوفة والتقدير نحو من قولنا : ليظهر به قدرته و يعلم الذين يجادلون في آياتنا ما لهم من مفر و لا مخلص ، و هذا كثير الورد في القرآن الكريم

غير أن المعطوف فيما ورد فيه مقارن للام الغاية كقوله : « و ليعلم الله الَّذِينَ آمَنُوا »
آل عمران : ١٤٠ .

وقوله : « و لِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ » الأ نعام : ٧٥ .

و جَوَزَ بعضهم أن يكون معطوفاً على جزاء الشرط بتقدير أن نحو إن جئتنى
أكرمك و أعطيتك كذا و كذا بنصب أعطيتك ، والمسألة نحويّة خلافيّة فليرجع إلى
ما ذكره فيه .

قوله تعالى : « فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » إلخ تفصيل لما تقدّم
ذكره من الرزق و تقسيم له إلى ما عند الناس من رزق الدنيا الشامل للمؤمن والكافر
و ما عند الله من رزق الآخرة المختصّ بالمؤمنين ، وفيه تخلص إلى ذكر صفات المؤمنين
و ذكر بعض ما يلقاه الظالمون يوم القيامة .

فقوله : « فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » الخطاب للناس على ما يفيد
السياق دون المشركين خاصّة ، والمراد بما أُوتِيتُمْ من شيء جميع ما أعطيه الناس ورزقوه
من النعم ، و إضافة المتاع إلى الحياة للإشارة إلى انقطاعه وعدم ثباته ودوامه ، والمعنى
فكل شيء أعطيتموه ممّا عندكم متاع تتمتعون به في أيّام قلائل .

وقوله : « و ما عند الله خير و أبقي للَّذِينَ آمَنُوا و على ربّهم يتوكّلون » المراد
بما عند الله ما أدّخره الله ثواباً ليثيب به المؤمنين ، واللام في « للَّذِينَ آمَنُوا » للملك
والظرف لغو ، و قيل اللام متعلّق بقوله : « أبقي » والأوّل أظهر ، و كون ما عند الله
خيّراً لكونه خالصاً من الأثم والكدر و كونه أبقي لكونه أدام غير منقطع الآخر .

قوله تعالى : « وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ
يَغْفِرُونَ » عطف على قوله : « الَّذِينَ آمَنُوا » والآية و آيتان بعدها تعدّ صفات المؤمنين
الحسنة و قول بعضهم أنّه كلام مستأنف لا يساعد عليه السياق .

و كَبَائِرُ الْإِثْمِ المعاصي الكبيرة التي لها آثار سوء عظيمة و قد عدّ تعالى منها
شرب الخمر والميسر قال تعالى : « قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ » البقرة : ٢١٩ والفواحش جمع
فاحشة وهي المعصية الشنيعة المنكرات و قد عدّ تعالى منها الزنا واللواط قال : « وَلَا

تقربوا إلينا إنّه كان فاحشة « أسرى : ٣٢ ، و قال حاكيا عن لوط : « أتأتون الفاحشة و أنتم تبصرون » النمل : ٥٤ .

و قوله : « يجتنبون كبائر الإثم و الفواحش » و هو في سورة مكيّة إشارة إلى إجمال ما سيفصل من تشريع تحريم كبائر المعاصي و الفواحش .

و في قوله : « و إذا غضبوا هم يغفرون » إشارة إلى العفو عند الغضب و هو من أخصّ صفات المؤمنين و لذا عبّر عنه بما عبّر و لم يقل : و يغفرون إذا غضبوا ففي الكلام جهات من التأكيد و ليس قصراً للمغفرة عند الغضب فيهم .

قوله تعالى : « و الذين استجابوا لربهم و أقاموا الصلاة » الخ الاستجابة هي الإجابة و استجابتهم لربهم إجابتهم لما يكلفهم به من الأعمال الصالحة - على ما يفيد السياق - و ذكر إقامة الصلاة بعدها من قبيل ذكر الخاص بعد العام لشرفه .

على أن الظاهر أن الآيات مكيّة و لم يشرّع يومئذ أمثال الزكاة و الخمس و الصوم و الجهاد ، و في قوله : « و الذين استجابوا لربهم » من الإشارة إلى إجمال الأعمال الصالحة المشروعة نظير ما تقدّم في قوله : « و الذين يجتنبون » الخ و نظير الكلام جار في الآيات التالية .

و قوله : « و أمرهم شورى بينهم » قال الراغب : و التشاور و المشاورة و المشورة استخراج الرأي بمراجعة البعض إلى البعض من قولهم : شيرت العسل إذا أخذته من موضعه و استخراجته منه قال تعالى : « و شاورهم في الأمر » و الشورى الأمر الذي يتشاور فيه قال تعالى : « و أمرهم شورى بينهم » . انتهى . فالمعنى الأمر الذي يعزمون عليه شورى بينهم يتشاورون فيه ، و يظهر من بعضهم أنه مصدر و المعنى و شأنهم المشاورة بينهم .

وكيف كان ففيه إشارة إلى أنهم أهل الرشد و إصابة الواقع يُمعنون في استخراج صواب الرأي بمراجعة العقول فالآية قريبة المعنى من قوله تعالى : « الذين يستمعون القول فيستنبعون أحسنه » الزمر : ١٨ .

و قوله : « و ممّا رزقناهم ينفقون » إشارة إلى بذل المال لمَرْضات الله .

قوله تعالى : « و الَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ » قال الراغب : الانتصار والاستنصار طلب النصرة . انتهى فالمعنى الَّذِينَ إِذَا أَصَابَ الظلم بعضهم طلب النصرة من الآخرين و إِذْ كَانُوا مُتَّفَقِينَ عَلَى الْحَقِّ كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَكَأَنَّ الظلم أَصَابَ جَمِيعَهُمْ فَطَلَبُوا الْمَقَاوِمَةَ قِبَالِهِ وَأَعَدُّوا عَلَيْهِ النَّصْرَةَ .

و عن بعضهم أَنَّ الانتصار بمعنى التناصر نظير اختصم و تخاصم و استبق و تسابق و المعنى عليه ظاهر .

و كيف كان فالمراد مقاومتهم لرفع الظلم فلا ينافي المغفرة عند الغضب المذكورة في جملة صفاتهم فَإِنَّ الْمَقَاوِمَةَ دُونَ الظلم و سدَّ بَابَهُ عَنِ الْمُجْتَمَعِ لِمَنْ اسْتَطَاعَهُ وَالْإِنْتِصَارَ وَ التَّنَاصُرَ لِأَجْلِهِ مِنَ الْوَاجِبَاتِ الْفُطْرِيَّةِ قَالَ تَعَالَى : « وَإِنْ اسْتَنْصَرُواكَ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ » الْأَنْفَالُ : ٧٢ ، وقال : فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ » الْحَجَرَاتُ : ٩ .

قوله تعالى : « وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا » إِلَى آخِرِ الْآيَةِ بَيَانٌ لِمَا جَعَلَ لِلْمُتَنَصِّرِ

فِي إِنْتِصَارِهِ وَهُوَ أَنْ يَقَابِلَ الْبَاغِيَ بِمَا يُمِثِّلُ فَعَلَهُ وَ لَيْسَ بِظَلَمٍ وَ بَغْيٍ .

قيل : و سَمِيَّتِ الثَّانِيَّةُ وَهِيَ مَا يَأْتِي بِهَا الْمُتَنَصِّرُ سَيِّئَةً لَا نَتَبَّهَ فِي مَقَابِلَةِ الْأُولَى كَمَا قَالَ تَعَالَى : « فَمَنْ أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ » الْبَقَرَةُ : ١٩٤ ، و قَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ : كِلْتَا الْفَعْلَتَيْنِ : الْأُولَى وَ جَزَاؤُهَا سَيِّئَةٌ لَا نَتَبَّهَ تَسْوَاءٌ مِنْ تَنْزِلِ بِهِ فِيهِ رِعَايَةٌ لِحَقِيقَةِ مَعْنَى اللَّفْظِ وَ إِيضًا إِلَى أَنَّ مَجَازَاةَ السَّيِّئَةِ بِمِثْلِهَا إِنَّمَا تَحْدُثُ بِشَرْطِ الْمُمِثَالَةِ مِنْ غَيْرِ زِيَادَةٍ .

و قوله : « فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ » وَعَدَ جَمِيلٌ عَلَى الْعَفْوِ وَ الْإِصْلَاحِ ، وَ الظَّاهِرُ أَنَّ الْمُرَادَ بِالْإِصْلَاحِ إِصْلَاحُهُ أَمْرُهُ فِيمَا بَيْنَهُ وَ بَيْنَ رَبِّهِ ، وَقِيلَ : الْمُرَادُ إِصْلَاحُهُ مَا بَيْنَهُ وَ بَيْنَ ظَالِمِهِ بِالْعَفْوِ وَ الْإِغْضَاءِ .

و قوله : « إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ » قِيلَ : فِيهِ بَيَانٌ أَنَّهُ تَعَالَى لَمْ يَرْغَبِ الْمَظْلُومَ فِي الْعَفْوِ عَنِ الظَّالِمِ لِمِيلِهِ إِلَى الظَّالِمِ أَوْ لِحُبِّهِ إِيَّاهُ وَ لَكِنْ لِيَعْرِضَ الْمَظْلُومُ بِذَلِكَ لِجَزِيلِ الثَّوَابِ ، وَ لِحُبِّهِ تَعَالَى الْإِحْسَانَ وَ الْفَضْلَ .

و قيل : المراد أنه لا يحب الظالم في قصاص و غيره بتعديّه عمّا هوله إلى ما ليس هوله .

و الوجهان وإن كانا حسنين في نفسيهما لكن سياق الآية لا يساعد عليهما وخاصة مع حيولة قوله : « فمن عفا و أصلح فأجره على الله » بين التعليل و المعلن .
و يمكن أيضاً أن يكون قوله : « إنه لا يحب الظالمين » تعليلاً لأصل كون جزاء السيئة سيئة من غير نظر إلى المماثلة و المساواة .

قوله تعالى : « و لمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل - إلى قوله - من عزم الأمور » ضمير « ظلمه » راجع إلى المظلوم . و الإضافة من إضافة المصدر إلى مفعوله .

الآيات الثلاث تبين و رفع لبس من قوله في الآية السابقة : « فمن عفى و أصلح فأجره على الله » فمن الجائز أن يتوهم المظلوم أن في ذلك إلغاء لحق انتصاره فيبين سبحانه بقوله أولاً : « و لمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل » أن لا سبيل على المظلومين و لا مجوز لا يبطال حقهم في الشرع الإلهي ، و إرجاع ضمير الأفراد إلى الموصول أولاً باعتبار لفظه ، و ضمير الجمع ثانياً باعتبار معناه .

و بين بقوله ثانياً : إنما السبيل على الذين يظلمون الناس و يبغون في الأرض بغير الحق » أن السبيل كله على الظالمين في الانتقام منهم للمظلومين ، و أكد ذلك ذيلاً بقوله : « أولئك لهم عذاب أليم » .

و بين بقوله ثالثاً : « و لمن صبر و غفر إن ذلك لمن عزم الأمور » أن الدعوة إلى الصبر و العفو ليست إبطالا لحق الانتصار و إنما هي إرشاد إلى فضيلة هي من أعظم الفضائل فإن في المغفرة الصبر الذي هو من عزم الأمور ، و قد أكد الكلام بلام القسم أولاً و باللام في خبر إن ثانياً لإفادة العناية بمضمونه .

قوله تعالى : « و من يضل الله فماله من ولي من بعده » الخ لما ذكر المؤمنين بأوصافهم و أن لهم عند الله رزقهم المدخر لهم و فيه سعادة عقابهم التي هداهم الله إليها التفت إلى غيرهم و هم الظالمون الآثمون من تلك الهداية الموصلة إلى السعادة المحرومون

من هذا الرزق الكريم فيبين أن الله سبحانه أظلمهم لكفرهم و تكذيبهم فلا ينتهون إلى ما عنده من الرزق ولا يسعدهم به و ليس لهم من دونه من ولي حتى يتولى أمرهم و يرزقهم ما حرّمهم الله من الرزق ، فهم صفر الأكف يتمنون عند مشاهدة العذاب الرجوع إلى الدنيا ليعملوا صالحا فيكونوا أمثال المؤمنين .

فقوله : « و من يضل الله » الخ من قبيل وضع السبب و هو إضلال الله لهم وعدم ولي آخر يتولى أمرهم فيهديهم ويرزقهم موضع المسبب و هو الهداية و الرزق .
و قوله : « و ترى الظالمين لِمَا رَأَوْا العذاب يقولون هل إلى مرد من سبيل » إشارة إلى تمنّسهم الرجوع إلى الدنيا بعد اليأس عن السعادة و مشاهدة العذاب .
و « ترى » خطاب عام وجهه إلى النبي ﷺ بما أُنذراء ومعناه و ترى و يرى كل من هوراء ، و فيه إشارة إلى أنّهم يتمنون ذلك على رؤس الأشهاد ، و المرد هو الرد .

قوله تعالى : « و تراهم يعرضون عليها خاشعين من الذل ينظرون من طرف خفي » ضمير « عليها » لل نار لدلالة المقام عليها وخفي الطرف ضعيفه وإنّما ينظر من طرف خفي . إلى المكاره الموهلة من ابتلي بها فهو لا يريد أن ينصرف فيفعل عنها و لا يجترئ أن يمتليء بها بصره كالمصبور ينظر إلى السيف ، و الباقي ظاهر .
و قوله : « و قال الذين آمنوا إنّ الخاسرين الذين خسروا أنفسهم و أهلهم يوم القيامة » أي إنّ الخاسرين كل الخسران و بحقيقته هم الذين خسروا أنفسهم بحرمانها عن النجاة و أهلهم بعدم الانتفاع بهم يوم القيامة . و قيل : أهلهم أزواجهم من الحور و خدمهم في الجنة لو آمنوا و لا يخلو من وجه نظراً إلى آيات و رائة الجنة .

و هذا القول المنسوب إلى المؤمنين إنّما يقولونه يوم القيامة - و التعبير بلفظ الماضي لتحقيق الوقوع - لا في الدنيا كما يظهر من بعضهم فليس لاستناد تعالى إلى مقالة المؤمنين في الدنيا وجه في مثل المقام ، و ليس القائلون به جميع المؤمنين كائنين من كانوا و إنّما هم الكاملون منهم المأذون لهم في الكلام الناطقون بالصواب محضاً كأصحاب الأعراف و شهداء الأعمال قال تعالى : « يوم يأت لاتكلم نفس إلاّ بما ذنه » هود : ١٠٥

و قال : « لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا » النبأ : ٣٨ .

فلا يصغى إلى ما قيل : إن القول المذكور إنما نسب إلى المؤمنين للدلالة على ابتهاجهم بما رزقوا يومئذ من الكرامة و نجوا من الخسران و إلا فالقول قول كل من يتأتى منه القول من أهل الجمع كما أن الرؤية المذكورة قبله رؤية كل من تتأتى منه الرؤية .

و قوله : « ألا إن الظالمين في عذاب مقيم » تسجيل عليهم بالعذاب و أنه دائم غير منقطع ، و جواز أن يكون من تمام كلام المؤمنين .

قوله تعالى : « و ما كان لهم من أولياء ينصرونهم من دون الله » الخ هذا التعبير أعني قوله : « و ما كان لهم » الخ دون أن يقال : و ما لهم من ولي كما قيل أو لا للدلالة على ظهور بطلان دعواهم ولاية أوليائهم في الدنيا و أن ذلك كان باطلا من أول الأمر .

و قوله : « و من يضل الله فبإله من سبيل » صالح لتعليل صدر الآية و هو كالنتيجة لجميع ما تقدم من الكلام في حال الظالمين في عقابهم ، و نوع انعطاف إلى ماسبق من حديث تشريع الشريعة والسبيل بالوحي .

فهو كناية عن أنه لا سبيل إلى السعادة إلا سبيل الله الذي شرعه لعباده من طريق الوحي و الرسالة فمن أضله عن سبيله لكفره و تكذيبه بسبيله فلا سبيل له يهتدي به إلى سعادة العقبي و التخلص من العذاب و الهلاك .

قوله تعالى : « استجبوا لربكم من قبل أن يأتي يوم لا مرد له من الله ما لكم من ملجأ يومئذ و ما لكم من نكير » دعوة و إنذار بيوم القيامة المذكور في الآيات السابقة على ما يعطيه السياق و قول بعضهم : إن المراد باليوم يوم الموت غير وحيه .

و في قوله : « لا مرد له من الله » « لا » لنفي الجنس و « مرد » اسمه و « له » خبره و « من الله » حال من « مرد » و المعنى يوم لا رد له من قبل الله أي إنه مقضي محتوم لا يردّه الله البتة فهو في معنى ما تكرر في كلامه تعالى من وصف يوم القيامة بأنه لا ريب فيه .

و قد ذكروا للجملة أعني قوله : « يوم لامرء له من الله » وجوها أخر من الإعراب لاجدوى في نقلها .

وقوله : « مالكم من ملجاء يومئذ و مالكم من نكير » الملجأ الملاذ الذي يلتجأ إليه و النكير - كما قيل - مصدر بمعنى الإنكار ، والمعنى مالكم من ملاذ تلتجئون إليه من الله و مالكم من إنكار لما صدر منكم لظهور الأمر من كل جهة .

قوله تعالى : « فإن أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظا إن عليك إلا البلاغ » عدول من خطابهم إلى خطاب النبي ﷺ لا إلام أن ما حمله من الأمر إنما هو التبليغ لا أزيد من ذلك فقد أرسل مبلغا لدين الله إن عليه إلا البلاغ و لم يرسل حفيظا عليهم مسؤولا عن إيمانهم و طاعتهم حتى يمنعهم عن الإعراض و يتعب نفسه لا قباليهم عليه .

قوله تعالى : « و إنما إذا أذقنا الإنسان منا رحمة فرح بها و إن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم فإن الإنسان كفور » الفرح بالرحمة كناية عن الاشتغال بالنعمة و نسيان المنعم ، و المراد بالسيئة المصيبة التي تسوء الإنسان إذا أصابته ، و قوله : « فإن الإنسان كفور » من وضع الظاهر موضع الضمير و النكتة فيه تسجيل الذم و اللوم عليه بذكره باسمه .

و في الآية استشعار بإعراضهم و توبيخهم بعنوان الإنسان المشتغل بالدنيا فإنه بطبعه حليف الغفلة إن ذكر بنعمة يؤتاها صرفه الفرح بها عن ذكر الله ، و إن ذكر بسيئة تصيبه بما قدمت يدها شغله الكفران عن ذكر ربه فهو في غفلة عن ذكر ربه في نعمة كانت أو في نقمة فكاد أن لا تنجح فيه دعوة و لا تنفع فيه موعظة .

قوله تعالى : « لله ملك السماوات و الأرض يخلق ما يشاء » إلى آخر الآيتين للآيتين نوع اتصال بما تقدم من حديث الرزق لما أن الأولاد المذكورين فيها من قبيل الرزق .

و قيل : إنهما متصلتان بالآية السابقة حيث ذكر فيها إفاقة الرحمة و إصابة السيئة و أن الإنسان يفرح بالرحمة و يكفر في السيئة فذكر تعالى في هاتين الآيتين أن ملك السماوات و الأرض لله سبحانه يخلق ما يشاء فليس لمن يذوق رحمته أن يفرح بها و

يشتغل به ولا لمن أصابته السيئة أن يكفر و يعترض بل له الخلق و الأمر فعلى المرحوم أن يشكر و على المصاب أن يرجع إليه .

و يبعده أنه تعالى لم ينسب السيئة في الآية السابقة إلى نفسه بل إلى تقديم أيديهم فلا يناسبه نسبة القسمين جميعا في هذه الآية إلى مشيئته و دعوتهم إلى التسليم لها .

و كيف كان فقوله : « لله ملك السماوات و الأرض يخلق ما يشاء » فيه قصر الملك و السلطنة فيه تعالى على جميع العالم و أن الخلق منوط بمشيئته من غير أن يكون هناك أمر يوجب عليه المشيئة أو يضطره على الخلق .

و قوله : « يهب لمن يشاء إناثا و يهب لمن يشاء الذكور » الإناث جمع أنثى و الذكور و الذكران جمعا ذكر ، و ظاهر التقابل أن المراد هبة الإناث فقط لمن يشاء و هبة الذكور فقط لمن يشاء و لذلك كررت المشيئة ، قيل : وجه تعريف الذكور أنهم المطلوبون لهم المعهودون في أذهانهم و خاصة العرب .

و قوله : « أو يزوجهم ذكرا و إناثا » أي يجمع بينهم حال كونهم ذكرا و إناثا معاً فالتزويج في اللغة الجمع ، و قوله : « و يجعل من يشاء عقيما » أي لا يلد ولا يولد له ، و لما كان هذا أيضاً قسما برأسه قيده بالمشيئة كالقسمين الأولين ، و أما قسم الجمع بين الذكران و الإناث فإنه بالحقيقة جمع بين القسمين الأولين فاكتفي بما ذكر من المشيئة فيهما .

و قوله : « إنه عليم قدير » تعليل لما تقدم أي إنه عليم لا يزيد ما يزيد لجهل قدير لا ينقص ما ينقص عن عجز .

﴿ بحث روائي ﴾

في الدر المنثور أخرج الحاكم و صححه و البيهقي عن علي قال : إنما أنزلت هذه الآية في أصحاب الصفة : « و لو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض » و ذلك أنهم قالوا : لو أن لنا ، فتمنوا الدنيا .

أقول : و الآية على هذا مدنية لكن الرواية أشبهه بالتطبيق منها بسبب النزول .

وفي تفسير القمي قوله : « و لو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض » قال الصادق عليه السلام : لو فعل لفعلوا و لكن جعلهم محتاجين بعضهم إلى بعض و استعبدتهم بذلك و لو جعلهم أغنياء لبغوا » و لكن ينزل بقدر ما يشاء مما يعلم أنه يصلحهم في دينهم و دنياهم « إنه بعباده خير بصير » .

و في المجمع روى أنس عن النبي صلى الله عليه وآله عن جبرئيل عن الله جل ذكره : إن من عبادي من لا يصلحه إلا السقم و لو صحته لا فسده ، و إن من عبادي من لا يصلحه إلا الصحة و لو أسقمته لا فسده ، و إن من عبادي من لا يصلحه إلا الغنى و لو أفقرته لا فسده ، و إن من عبادي من لا يصلحه إلا الفقر و لو أغنيته لا فسده ، و ذلك أني أدبر عبادي لعلمي بقلوبهم .

و في تفسير القمي حدثني أبي عن ابن أبي عمير عن منصور بن يونس عن أبي حمزة عن الأصبع بن نباتة عن أمير المؤمنين عليه السلام قال : إنني سمعته يقول : إنني أحدكم بحديث ينبغي لكل مسلم أن يعيه . ثم أقبل علينا فقال : ما عاقب الله عبداً مؤمناً في هذه الدنيا إلا أن كان الله أحكم و أجود و أمجد من أن يعود في عقابه يوم القيامة . ثم قال : و قد يتلى الله عز وجل المؤمن بالبلية في بدنه أو ماله أو ولده أو أهله ثم تلا هذه الآية « و ما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم و يعفو عن كثير » و حدثنا بيده ثلاث مرات .

و في الكافي بإسناده عن هشام بن سالم عن أبي عبد الله عليه السلام قال : أما إنه ليس من عرق يضرب و لا نكبة و لا صداع و لا مرض إلا بذنب و ذلك قول الله عز وجل في كتابه : « و ما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم و يعفو عن كثير » قال : ثم قال : و ما يعفو الله أكثر مما يؤاخذ به .

أقول : و روى هذا المعنى بطريق آخر عن مسمع عنه عليه السلام ، و روى مثله في الدر المنثور عن الحسن عن النبي صلى الله عليه وآله و لفظه : لما نزلت هذه الآية « و ما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم » قال رسول الله صلى الله عليه وآله : و الذي نفسي بيده ما من خدش عود و لا اختلاج عرق و لا نكبة حجر و لا عثرة قدم إلا بذنب ، و ما يعفو الله عنه أكثر .

و في الكافي أيضاً بإسناده عن علي بن رثاب قال : سألت أبا عبد الله عن قول الله عز وجل : « وما أصابكم من مصيبة فيما كسبت أيديكم » أرايت ما أصاب علياً وأهل بيته عليهم السلام من بعده أهو بما كسبت أيديهم وهم أهل بيت طهارة معصومون ؟ فقال : إن رسول الله صلى الله عليه وآله كان يتوب إلى الله و يستغفر في كل يوم و ليلة مائة مرة من غير ذنب إن الله يخص أوليائه بالمصائب ليأجرهم عليها .

و في المجمع روي عن علي عليه السلام أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : خير آية في كتاب الله هذه الآية . يا علي ما من خدش عود ولا نكبة قدم إلا بذنب ، و ما عفى الله عنه في الدنيا فهو أكرم من أن يعود فيه ، و ما عاقب عليه في الدنيا فهو أعدل من أن يثني على عبده .

أقول : و رواه في الدر المنثور عن عدة من أرباب الجوامع عن علي عليه السلام عنه عليه السلام ، و فحوى الرواية أن قوله تعالى : « وما أصابكم » الآية خاص بالمؤمنين والخطاب لهم و أن مفاده غفران ذنوبهم كافة فلا يعاقبون عليها في برزخ ولا قيامة لأن الآية تقصر الذنوب في مأخوذ به بإصابة المعصية و معفو عنه ومفاد الرواية نفى المؤاخذة بعد المؤاخذة و نفى المؤاخذة بعد العفو .

فيشكل الأمر أولاً من جهة ما عرفت أن الآية في سياق يفيد عموم الخطاب للمؤمن والكافر .

و ثانياً من جهة معارضة الرواية لما ورد في أخبار متكاثرة لعلها تبلغ حد التواتر المعنوي من أن المؤمنين من يعذب في قبره أو في الآخرة .

و ثالثاً من جهة مخالفة الرواية لظواهر ما دلت من الآيات على أن موطن جزاء الأعمال هي الدار الآخرة كقوله تعالى : « ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك عليها من دابة ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون عنه ساعة ولا يستقدمون » النحل : ٦١ و غيره من الآيات الدالة على أن كل مظلمة و معصية مأخوذ بها وأن موطن الأخذ هو ما بعد الموت و في القيامة إلا ما غفرت بالتوبة أو تذهب بحسنة أو بشفاعة في الآخرة أو نحو ذلك .

على أن الآية أعني قوله : « وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير » - كما تقدمت الإشارة إليه - غير ظاهرة في كون إصابة المصيبة جزاء للعمل ولا في كون العفو بمعنى إبطال الجزاء وإنما هو الأثر الديني للسيئة يصيب مرة ويمحى أخرى .

فالحري أن تحمل الرواية - لو قبلت - على الأخذ بحسن الظن بالله سبحانه .
و في المجمع في قوله تعالى : « وأمرهم شورى بينهم » وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال : ما من رجل يشاور أحداً إلا أهدي إلى الرشد .

و في تفسير القمي في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قوله عز وجل : « يهب لمن يشاء إناثاً » يعني ليس معهن ذكور « و يهب لمن يشاء الذكور » يعني ليس معهم أنثى « أو يزوجهن ذكرانا وإناثاً » أي يهب لمن يشاء ذكرانا وإناثاً جميعاً يجمع له البنين والبنات أي يهبهم جميعاً لواحد .

و في التهذيب بإسناده عن الحسين بن علوان عن زيد بن علي عن آبائه عن علي عليه السلام قال : أتى النبي ﷺ رجل فقال : يا رسول الله إن أبي عمد إلى مملوك لي فأعتقه كهيئة المضرة لي فقال رسول الله ﷺ : أنت و مالك من هبة الله لا بيبك أنت سهم من كنانته « يهب لمن يشاء إناثاً و يهب لمن يشاء الذكور أو يزوجهن ذكرانا وإناثاً و يجعل من يشاء عقيماً » جازت عتاقة أبيك يتناول والدك من مالك و بدنك و ليس لك أن تتناول من ماله ولا من بدنه شيئاً إلا باذنه .

أقول : و هذا المعنى مروى عن الرضا عليه السلام في جواب مسائل محمد بن سنان في العلل و مروى من طرق أهل السنة عن عائشة عنه ﷺ .





وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحِيًّا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ
يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بآيَاتِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٍ (٥١) وَكَذَلِكَ
أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ
وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ
صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٥٢) صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ
إِلَّا إِلَىٰ اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ (٥٣).

﴿بيان﴾

تتضمن الآيات آخر ما يفيد سبحانه في تعريف الوحي في هذه السورة و هو
تقسيمه إلى ثلاثة أقسام : وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحي بآياته ما
يشاء ثم يذكر أنه يوحي إليه ﷺ ما يوحي ، على هذه الوتيرة وأن ما أوحى إليه
منه تعالى لم يكن النبي ﷺ يعلم ذلك من نفسه بل هو نور يهدي به الله من يشاء
من عباده و يهدي به النبي ﷺ بآياته .

قوله تعالى : « وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب أو
يرسل رسولا فيوحي بآياته ما يشاء » الخ قد تقدم البحث عن معنى كلامه تعالى في
الجزء الثاني من الكتاب ، و إطلاق الكلام على كلامه تعالى والتكليم على فعله الخاص
سواء كان إطلاقاً حقيقياً أو مجازياً واقع في كلامه تعالى قال : « يا موسى إني اصطفيتك

على الناس برسالاتي و بكلامي « الأعراف : ١٤٤ و قال : « و كلم الله موسى تكليماً » النساء : ١٦٤ و من مصاديق كلامه ما يتلقاه الأنبياء ﷺ منه تعالى بالوحي .
و على هذا لا موجب لعد الاستثناء في قوله : « إلّا وحياً » منقطعاً بل الوحي والقسمان المذكوران بعده من تكليمه تعالى للبشر سواء كان إطلاق التكليم عليها إطلاقاً حقيقياً أو مجازياً فكل واحد من الوحي و ما كان من وراء حجاب و ما كان بإرسال رسول نوع من تكليمه للبشر .

فقوله : « وحياً » - والوحي الإشارة السريعة على ما ذكره الراغب - مفعول مطلق نوعي و كذا المعطوفان عليه في معنى المصدر النوعي ، والمعنى ما كان لبشر أن يكلمه الله نوعاً من أنواع التكليم إلّا هذه الأنواع الثلاثة أن يوحي وحياً أو يكون من وراء حجاب أو أن يرسل رسولا فيوحي بإذنه ما يشاء .

ثم إن ظاهر التردد في الآية بأو هو التقسيم على مغايرة بين الأقسام و قد قيّد القسمان الأخيران بقيد كالحجاب والرسول الذي يوحي إلى النبي ولم يقيّد القسم الأول بشيء فظاهر المقابلة يفيد أن المراد به التكليم الخفي من دون أن يتوسط واسطة بينه تعالى و بين النبي أصلاً ، و أمّا القسمان الآخران ففيهما قيد زائد و هو الحجاب أو الرسول الموحى و كل منهما واسطة غير أن الفارق أن الواسطة الذي هو الرسول يوحي إلى النبي بنفسه والحجاب واسطة ليس بموح و إنما الوحي من ورائه .

فحصل أن القسم الثالث « أو يرسل رسولا فيوحي بإذنه ما يشاء » وحي بتوسط الرسول الذي هو ملك الوحي فيوحي ذلك الملك بإذن الله ما يشاء الله سبحانه قال تعالى : « نزل به الروح الأمين على قلبك » الشعراء : ١٩٤ و قال : « قل من كان عدواً لجبريل فإنه نزل به على قلبك بإذن الله » البقرة : ٩٧ ، والموحي مع ذلك هو الله سبحانه كما قال : « بما أوحينا إليك هذا القرآن » يوسف : ٣ .

و أمّا قول بعضهم : إن المراد بالرسول في قوله : « أو يرسل رسولا فيوحي بإذنه ما يشاء » هو النبي يبلغ الناس الوحي فلا يلائمه قوله : « يوحي » إذ لا يطلق الوحي على تبليغ النبي .

و أن القسم الثاني « أو من وراء حجاب » وحي مع واسطة هو الحجاب غير أن الواسطة لا يوحي كما في القسم الثالث وإنّما يبتديء الوحي ممّا وراءه لمكان من ، و ليس وراء بمعنى خلف وإنّما هو الخارج عن الشيء المحيط به قال تعالى : « والله من ورائهم محيط » البروج : ٢٠ و هذا كتكليم موسى ﷺ في الطور قال تعالى : « فلمّا أتاهم نودي من شاطئ الوادي الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة » القصص : ٣٠ و من هذا الباب ما أُوحي إلى الأنبياء في مناماتهم

و أن القسم الأوّل تكليم إلهي للنبي من غير واسطة بينه و بين ربه من رسول أو أي حجاب مفروض .

ولمّا كان للوحي في جميع هذه الأقسام نسبة إليه تعالى على اختلافها صحّ إسناد مطلق الوحي إليه بأيّ قسم من الأقسام تحقيق و بهذه العناية أسند جميع الوحي إليه في كلامه كما قال : « إنّنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده » النساء : ١٦٣ ، و قال : « وما أرسلنا من قبلك إلّا رجالاً نوحى إليهم » النحل : ٥٣ . هذا ما يعطيه التدبّر في الآية الكريمة ، و للمفسّرين فيها أبحاث طويلة الذيل و مشاجرات أضربنا عن الاشتغال بها من أرادها فليراجع المفصّلات .

و قوله : « إنّّه على حكيم » تعليل لمضمون الآية فهو تعالى لعلوّه عن الخلق والنظام الحاكم فيهم يجلّ أن يكلمهم كما يكلم بعضهم بعضاً ، و لعلوّه و حكمته يكلمهم بما اختار من الوحي و ذلك أن هداية كلّ نوع إلى سعادته من شأنه تعالى كما قال : « الذي أعطى كلّ شيء خلقه ثمّ هدى » طه : ٥٠ ، و قال : « و على الله قصد السبيل » النحل : ٩ و سعادة الإنسان الذي يسلك سبيل سعادته بالشعور والعلم في إعلام سعادته و الدلالة إلى سنّة الحياة التي تنتهي إليها و لا يكفي في ذلك العقل الذي من شأنه الإخطاء والإصابة فاختار سبحانه لذلك طريق الوحي الذي لا يخطئ البتّة ، و قد فصلنا القول في هذه الحجّة في موارد من هذا الكتاب .

قوله تعالى : « وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب

ولا الإيمان ، النخ ظاهر السياق كون « كذلك » إشارة إلى ما ذكر في الآية السابقة من الوحي بأقسامه الثلاث ، ويؤيده الروايات الكثيرة الدالة على أنه ﷺ كما كان يوحى إليه بتوسط جبريل وهو القسم الثالث كان يوحى إليه في المنام وهو من القسم الثاني ويوحى إليه من دون توسط واسطة وهو القسم الأول .

وقيل : الإشارة إلى مطلق الوحي النازل على الأنبياء وهذا متعين على تقدير كون المراد بالروح هو جبريل أو الروح الأُمري كما سيأتي .

والمراد بإيحاء الروح - على ما قيل - إيهاء القرآن وأُيِّدَ بقوله : « ولكن جعلناه نوراً » النخ ومن هنا قيل : إن المراد بالروح القرآن .

لكن يبقى عليه أو لا أنه لا ريب أن الكلام مسوق لبيان أن ما عندك من المعارف والشرائع التي تتلبس بها وتدعو الناس إليها ليس مما أدركته بنفسك وأبديته بعلمك بل أمر من عندنا منزل إليك بوحينا ، وعلى هذا فلو كان المراد بالروح الموحى القرآن كان من الواجب الاختصار على الكتاب في قوله : « ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان » لأن المراد بالكتاب القرآن فيكون الإيمان زائداً مستغنى عنه .

وثانياً أن القرآن وإن أمكن أن يسمى روحاً باعتبار إحيائه القلوب بهداه كما قال تعالى : « إذا دعاكم لما يحييكم » الأنفال : ٢٤ وقال : « أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس » الأنعام : ١٢٢ لكن لا وجه لتقيده حينئذ بقوله : « من أمرنا » والظاهر من كلامه تعالى أن الروح من أمره خلق من العالم العلوي يصاحب الملائكة في نزولهم قال تعالى : « تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر » القدر : ٤ ، وقال : « يوم يقوم الروح والملائكة صفاً » النبأ : ٣٨ وقال : « قل الروح من أمر ربي » أسرى : ٨٥ ، وقال : « وأيئذنا بروح القدس » البقرة : ٨٧ ، وقد سمى جبريل الروح الأمين وروح القدس حيث قال : « نزل به الروح الأمين » الشعراء : ١٩٤ ، وقال : « قل نزله روح القدس من ربك » النحل : ١٠٢ .

ويمكن أن يجاب عن الأول بأن مقتضى المقام وإن كان هو الاختصار على ذكر الكتاب فقط لكن لما كان إيمانه ﷺ بتفاصيل ما في الكتاب من المعارف والشرائع

من لوازم نزول الكتاب غير المنفكة عنه و آثاره الحسنة صح أن يذكر مع الكتاب فالمعنى و كذلك أوحينا إليك كتاباً ما كنت تدري ما الكتاب ولا ما تجده في نفسك من أثره الحسن الجميل و هو إيمانك به .

و عن الثاني أن المعهود من كلامه في معنى الروح وإن كان ذلك لكن حمل الروح في الآية على ذلك المعنى و إرادة الروح الأمرى أو جبريل منه يوجب أخذ «أوحينا» بمعنى أرسلنا إذ لا يقال : أوحينا الروح الأمرى أو الملك فلا مفر من كون الإيحاء بمعنى الإرسال و هو كما ترى فأخذ الروح بمعنى القرآن أهون من أخذ الإيحاء بمعنى الإرسال والجوابان لا يخلوان عن شيء .

وقيل : المراد بالروح جبريل فإن الله سمّاه في كتابه روحاً قال : « نزل به الروح الأمين على قلبك » الشعراء : ١٩٤ و قال : « قل نزله روح القدس من ربك » .

وقيل : المراد بالروح الروح الأمرى الذي ينزل مع ملائكة الوحي على الأنبياء كما قال تعالى : « ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا » النحل : ٢ فالمراد بإيحاؤه إليه إنزاله عليه .

و يمكن أن يوجه التعبير عن الإنزال بالإيحاء بأن أمره تعالى على ما يعرفه في قوله : « إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن » يس : ٨٣ هو كلمته ، والروح من أمره كما قال : « قل الروح من أمر ربي » أسرى : فهو كلمته ، و يصدق ذلك قوله في عيسى بن مريم عليه السلام : « إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله و كلمته ألقاها إلى مريم و روح منه » النساء : ١٧١ ، و إنزال الكلمة تكليم فلا خير في التعبير عن إنزال الروح بإيحاؤه ، والآنبياء مؤيدون بالروح في أعمالهم كما أنهم يوحى إليهم الشرائع به قال تعالى : « و أيدناه بروح القدس » وقد تقدّمت الإشارة إليه في تفسير قوله تعالى : « و أوحينا إليهم فعل الخيرات و إقام الصلاة و إيتاء الزكاة » الأنبياء : ٧٣ .

و يمكن رفع إشكال كون الإيحاء بمعنى الإنزال والإرسال بالقول بكون قوله : « روحاً » منصوباً بنزع الخافض و رجوع ضمير « جعلناه » إلى القرآن المعلوم من السياق أو الكتاب والمعنى و كذلك أوحينا إليك القرآن بروح منّا ما كنت تدري ما الكتاب

وما الايمان و لكن جعلنا القرآن أو الكتاب نوراً الخ هذا وما أذكر أحداً من المفسرين قال به .

وقوله : « ما كنت تدري ما الكتاب ولا الايمان » قد تقدم أن الآية مسوقة لبيان أن ما عنده ﷺ الذي يدعو إليه إنما هو من عند الله سبحانه لا من قبله نفسه وإنما أوتي ما أوتي من ذلك بالوحي بعد النبوة فالمراد بعدم درايته بالكتاب عدم علمه بما فيه من تفاصيل المعارف الاعتقادية والشرائع العملية فإن ذلك هو الذي أوتي العلم به بعد النبوة والوحي ، و بعدم درايته بالايمان عدم تلبسه بالالتزام التفصيلي بالعقائد الحقة والأعمال الصالحة وقد سمى العمل إيماناً في قوله : « وما كان الله ليضيع إيمانكم » البقرة : ١٤٣ .

فالمنعنى ما كان عندك قبل وحي الروح الكتاب بما فيه من المعارف والشرائع ولا كنت متلبساً بما أنت متلبس به بعد الوحي من الالتزام الاعتقادي والعملي بمضامينه وهذا لاينا في كونه ﷺ مؤمناً بالله موحداً قبل البعثة صالحاً في عمله فإن الذي تنفيه الآية هو العلم بتفاصيل ما في الكتاب والالتزام بها اعتقاداً وعملاً ونفي العلم والالتزام التفصيليين لا يلزم نفي العلم والالتزام الاجماليين بالايمان بالله والخضوع للحق .
وبذلك يندفع ما استدل بعضهم بالآية على أنه ﷺ كان غير متلبس بالايمان قبل بعثته .

ويندفع أيضاً ما عن بعضهم أنه ﷺ لم يزل كاملاً في نفسه علماً وعملاً وهونافي ظاهر الآية أنه ما كان يدري ما الكتاب ولا الايمان .

وجه الاندفاع أن من الضروري وجود فرق في حاله ﷺ قبل النبوة وبعدها والآية تشير إلى هذا الفرق ، وأن ما حصل له بعد النبوة لا صنع له فيه وإنما هو من الله من طريق الوحي .

وقوله : « ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا » ضمير « جعلناه » للروح والمراد بقوله : « من نشاء » على تقدير أن يراد بالروح القرآن هو النبي ﷺ ومن آمن به فإنيهم جميعاً مهتدون بالقرآن .

وعلى تقدير أن يراد به الروح الأمرى فالمراد بمن نشأ جميع الأنبياء ومن آمن بهم من أممهم فإنه يهدي بالوحي الذي نزل به ، الأنبياء والمؤمنين من أممهم ويسد الأنبياء خاصة ويهديهم إلى الأعمال الصالحة ويشير عليهم بها .

و على هذا تكون الآية في مقام تصديق النبي ﷺ تصدقه في دعواه أن كتابه من عند الله بوحى منه ، و تصدقه في دعواه أنه مؤمن بما يدعو إليه فيكون في معنى قوله تعالى : « إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ » يس : ٥ . وقوله : « و إِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » إشارة إلى أن الذي يهدي إليه صراط مستقيم وأن الذي يهديه من الناس هو الذي يهديه الله سبحانه فهدايته عَلَيْهِ السَّلَام هداية الله .

قوله تعالى : « صراط الله الذي له ما في السماوات وما في الأرض » إلخ بيان للصراط المستقيم الذي يهدي إليه النبي ﷺ ، و توصيفه تعالى بقوله : « الذي له ما في السماوات وما في الأرض » للدلالة على الحجّة على استقامة صراطه فإنه تعالى لما ملك كل شيء ملك الغاية التي تسير إليها الأشياء والسعادة التي تتوجه إليها ، فكانت الغاية والسعادة هي التي عينها ، و كان الطريق إليها والسبيل الذي عليهم أن يسلكوه لنيل سعادتهم هو الذي شرعه و بينه ، و ليس يملك أحد شيئاً حتى ينصب له غاية و نهاية أو يشرع له إليها سبيلاً ، فالسعادة التي يدعو سبحانه إليها حق السعادة والطريق الذي يدعو إليه حق الطريق و مستقيم الصراط .

و قوله : « ألا إلى الله تصير الأمور » تنبيه على لازم ملكه لما في السماوات وما في الأرض فإنّ لازمه رجوع أمورهم إليه ولازمه كون السبيل الذي يسلكونه - وهو من جملة أمورهم - راجعاً إليه فالصراط المستقيم هو صراطه فالضارع أعني قوله : « تصير » للاستمرار .

و فيه إشعار بلمّ الوحي والتكليم الإلهي . إن لما كان مصير الأشياء إليه تعالى كان لكل نوع إليه تعالى سبيل يسلكه و كان عليه تعالى أن يهديه إليه و يسوقه إلى غايته كما قال : « و على الله قصد السبيل » النحل : ٩ و هو تكليم كل نوع بما يناسب ذاته

و هو في الإنسان التكليم المسمى بالوحي والإرسال .

و قيل : المضارع للاستقبال و المراد مصيرها جميعاً إليه يوم القيامة ، و قد سبقت الجملة لوعده المهتدين إلى الصراط المستقيم ووعيد الضالين عنه وأول الوجهين أظهر .

﴿ بحث روائى ﴾

في الدر المنثور أخرج البخاري و مسلم والبيهقي عن عائشة أن الحارث بن هشام سأل رسول الله ﷺ كيف يأتيك الوحي ؟ قال : أحياناً يأتيني الملك في مثل صلصلة الجرس فيفصم عني و قد وعيت عنه ما قال و هو أشده علي ، و أحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول .

قالت عائشة : و لقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم و إن جبينه ليتفصد عرقاً .

وفي التوحيد بإسناده عن زرارة قال : قلت لأبي عبد الله عليه السلام : جعلت فداك الغشية التي كانت تصيب رسول الله ﷺ إذا نزل عليه الوحي ؟ قال : فقال : ذلك إذا لم يكن بينه و بين الله أحد ذاك إذا تجلى الله له . قال : ثم قال : تلك النبوة يازرارة و أقبل يتخشع .

وفي العلل بإسناده عن ابن أبي عمير عن عمرو بن جميع عن أبي عبد الله عليه السلام قال : كان جبرئيل إذا أتى النبي صلى الله عليه وآله فعد بين يديه قعدة العبد ، و كان لا يدخل حتى يستأذنه .

و في أمالي الشيخ بإسناده عن ابن أبي عمير عن هشام بن سالم عن أبي عبد الله عليه السلام قال : قال بعض أصحابنا : أصلحك الله كان رسول الله ﷺ يقول : قال جبرئيل ، وهذا جبرئيل يأمرني ثم يكون في حال أخرى يغمى عليه فقال أبو عبد الله عليه السلام : إنّه إذا كان الوحي من الله إليه ليس بينهما جبرئيل أصابه ذلك لثقل الوحي من الله ، و إذا كان بينهما جبرئيل لم يصبه ذلك فقال : قال لي جبرئيل وهذا جبرئيل . و في البصائر علي بن حسان عن ابن بكير عن زرارة قال : سألت أبا جعفر عليه السلام

من الرسول ؟ من النبي ؟ من المحدث ؟ فقال : الرسول الذي يأتيه جبرئيل فيكلمه قبلأه كما يرى أحدكم صاحبه الذي يكلمه فهذا الرسول ، والنبي الذي يؤتى في النوم نحو رؤيا إبراهيم عليه السلام ، ونحو ما كان يأخذ رسول الله صلى الله عليه وآله من السبات إذا أتاه جبرئيل في النوم فهكذا النبي ، ومنهم من يجمع له الرسالة والنبوة فكان رسول الله صلى الله عليه وآله وآله رسولاً نبيّاً يأتيه جبرئيل قبلأه فيكلمه ويراه ، ويأتيه في النوم وأما المحدث فهو الذي يسمع كلام الملك فيحدثه من غير أن يراه ومن غير أن يأتيه في النوم .

أقول : وفي معناه روايات أخر .

وفي التوحيد بإسناده عن محمد بن مسلم ومحمد بن مروان عن أبي عبد الله عليه السلام قال : ما علم رسول الله صلى الله عليه وآله أن جبرئيل من قبل الله إلا بالتوفيق .
وفي تفسير العياشي عن زرارة قال : قلت لأبي عبد الله عليه السلام : كيف لم يخف رسول الله صلى الله عليه وآله فيما يأتيه من قبل الله أن يكون ذلك مما ينزغ به الشيطان ؟ قال : فقال : إن الله إذا اتخذ عبداً رسولاً أنزل عليه السكينة والوقار فكان يأتيه من قبل الله مثل الذي يراه بعينه .

وفي الكافي بإسناده عن أبي بصير قال : سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله تبارك و تعالى : « وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان » قال : خلق من خلق الله أعظم من جبرئيل وميكائيل كان مع رسول الله صلى الله عليه وآله يخبره ويسدده ، وهو مع الأئمة من بعده .

أقول : وفي معناها عدة روايات وفي بعضها أنه من الملائكة ، قال في روح المعاني : ونقل الطبرسي عن أبي جعفر وأبي عبد الله أن المراد من هذا الروح ملك أعظم من جبرائيل وميكائيل كان مع رسول الله صلى الله عليه وآله ولم يصعد إلى السماء ، وهذا القول في غاية الغرابة ولعله لا يصح عن هذين الإمامين . انتهى والذي في مجمع البيان : عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليه السلام قالوا : ولم يصعد إلى السماء وإنه لفينا . انتهى واستغرابه فيما لا دليل له على نفيه غريب . على أنه يسلم تسديد هذا الروح لبعض

الأمّة غير النبي" كما هو ظاهر لمن راجع قسم الاشارات من تفسيره .
 وفي النهج و لقد قرن الله به ﷺ من لدن كان فطيماً أعظم ملك من ملائكته
 يسلك به طريق المكارم و محاسن أخلاق العالم ليله و نهاره .
 و في الدر المنثور أخرج أبو نعيم في الدلائل و ابن عساكر عن عليّ قال : قيل
 للنبي ﷺ : هل عبادت وثناً قط ؟ قال : لا . قالوا : فهل شربت خمرأ قط ؟ قال :
 « لا و مازلت أعرف أن الذي هم عليه كفر و ما كنت أدري ما الكتاب ولا الايمان ،
 و بذلك نزل القرآن » ما كنت تدري ما الكتاب ولا الايمان » .
 و في الكافي بإسناده عن أبي عمرو الزيري عن أبي عبد الله عليه السلام في حديث ، و
 قال في نبيه ﷺ : « و إنك لتهدي إلى صراط مستقيم » يقول : تدعو .
 و في الكافي بإسناده عن جابر عن أبي جعفر عليه السلام قال : سمعته يقول : وقع مصحف
 في البحر فوجدوه و قد ذهب ما فيه إلا هذه الآية : « ألا إلى الله تصير الأمور » .



﴿سورة الزخرف وهي تسع وثمانون آية﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ حَمْ (١) وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) إِنَّا جَعَلْنَاهُ
 قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٣) وَ إِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيَّ
 حَكِيمٌ (٤) أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمْ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ (٥) وَ
 كَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيِّ فِي الْأَوَّلِينَ (٦) وَ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ
 يَسْتَهْزِئُونَ (٧) فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَ مَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ (٨) وَ
 لَنْ نَسْأَلَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لِيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ (٩)
 الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا وَ جَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٠)
 وَ الَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ (١١)
 وَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَ جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفَلَكَ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ (١٢)
 لَتَسْتَخْسَبُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَ تَقُولُوا
 سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَ مَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ (١٣) وَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا
 لَمُنْقَلِبُونَ (١٤) .

﴿بيان﴾

السورة موضوعة الإيذار كما تشهد به فاتحتها وخاتمتها والمقاصد المتخلفة بينهما
 «إلا ما في قوله: «إِلَّا الْمُتَّقِينَ يَا عِبَادِ لَا خَوْفَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ» إلى تمام ست آيات
 استطرادية .

تذكر أن السنة الإلهية إنزال الذكر وإرسال الأنبياء والرسل ولا يصدّ عن ذلك إسراف الناس في قولهم و فعلهم بل يرسل الأنبياء والرسل و يهلك المستهزئين بهم والمكذّبين لهم ثم يسوقهم إلى نار خالدة .

وقد ذكرت إرسال الأنبياء بالإجمال أو لا ثم سمّي منهم إبراهيم ثم موسى ثم عيسى عليه السلام ، وذكرت من إسراف الكفار أشياء ومن عمدتها قولهم بأنّ الله سبحانه ولداً وأنّ الملائكة بنات الله ففيها عناية خاصة بنفي الولد عنه تعالى فكررّت ذلك وردّته وأوعدهم بالعذاب ، وفيها حقائق متفرقة أخرى .

والسورة مكّية بشهادة مضامين آياتها إلّا قوله : « واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا » الآية ولم يثبت كما سيأتي إن شاء الله .

قوله تعالى : « والكتاب المبين » ظاهره أنّه قسم و جوابه قوله : « إنّنا جعلناه قرآناً عربياً » إلى آخر الآيتين ، وكون القرآن مبيناً هو إبانته وإظهاره طريق الهدى كما قال تعالى : « ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء » النحل : ٨٩ ، أو كونه ظاهراً في نفسه لا يرتاب فيه كما قال : « ذلك الكتاب لا ريب فيه » البقرة : ٢ .

قوله تعالى : « إنّنا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون » الضمير للكتاب ، و « قرآنًا عربياً » أي مقرواً باللغة العربية و « لعلكم تعقلون » غاية الجعل و غرضه . وجعل رجاء تعقله غاية للجعل المذكور يشهد بأنّ له مرحلة من الكينونة والوجود لا ينالها عقول الناس ، و من شأن العقل أن ينال كلّ أمر فكريّ وإن بلغ من اللطافة والدقّة ما بلغ فمفاد الآية أن الكتاب بحسب موطنه الذي له في نفسه أمر وراء الفكر أجنبيّ عن العقول البشريّة وإنّما جعله الله قرآنًا عربياً وألّسه هذا اللباس رجاء أن يستأنس به عقول الناس فيعقلوه ، والرجاء في كلامه تعالى قائم بالمقام أو المخاطب دون المتكلّم كما تقدّم غير مرّة .

قوله تعالى : « وإنّه في أم الكتاب لدينا لعليّ حكيم » تأكيد وتبيين لما تدلّ عليه الآية السابقة أن الكتاب في موطنه الأصليّ وراء تعقل العقول . والضمير للكتاب ، والمراد بأمّ الكتاب اللوح المحفوظ كما قال تعالى : « بل

هو قرآن مجيد في لوح محفوظ « البروج : ٢٢ ، و تسميته بأُم الكتاب لكونه أصل الكتب السماوية يستنسخ منه غيره ، و التقييد بأُم الكتاب و « لدينا » للتوضيح للاحتراز والمعنى أنه حال كونه في أُم الكتاب لدينا - حالاً لازمة - لعليّ حكيم ، و سيجيء في أواخر سورة الباقية كلام في أُم الكتاب إن شاء الله .

والمراد بكونه عليّاً على ما يعطيه مفاد الآية السابقة أنه رفيع القدر والمنزلة من أن تناله العقول ، و بكونه حكيماً أنه هناك محكم غير مفصل ولا مجزئى إلى سور و آيات و جمل و كلمات كما هو كذلك بعد جعله قرآناً عربياً كما استفدناه من قوله تعالى : « كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير » هود : ٢ .

وهذان النعتان أعني كونه عليّاً حكيماً هما الموجبان لكونه وراء العقول البشرية فإنّ العقل في فكرته لا ينال إلا ما كان من قبيل المفاهيم والألفاظ أوّلاً و كان مؤلفاً من مقدّمات تصديقية يترتب بعضها على بعض كما في الآيات والجمل القرآنية ، و أما إذا كان الأمر وراء المفاهيم والألفاظ وكان غير متجزئ إلى أجزاء و فصول فلا طريق للعقل إلى نبيله .

فمحصّل معنى الآيتين أن الكتاب عندنا في اللوح المحفوظ ذو مقام رفيع وإحكام لا تناله العقول لذينك الوصفين وإنما أنزلناه بجعله مقرواً عربياً رجاء أن يعقله الناس .

فإن قلت : ظاهر قوله : « لعلكم تعقلون » إمكان تعقل الناس هذا القرآن العربيّ النازل تعقلاً تاماً فهذا الذي نقرؤه و نعقله إما أن يكون مطابقاً لما في أُم الكتاب كل المطابقة أو لا يكون والثاني باطل قطعاً كيف ؟ و هو تعالى يقول : « وإنه في أُم الكتاب » و « بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ » البروج : ٢ و « إنه لقرآن كريم في كتاب مكنون » الواقعة : ٧٨ . فتعيّن الأول و مع مطابقته لأُم الكتاب كل المطابقة ما معنى كون القرآن العربيّ الذي عندنا معقولاً لنا و ما في أُم الكتاب عند الله غير معقول لنا ؟

قلت : يمكن أن تكون النسبة بين ما عندنا وما في أُم الكتاب نسبة المثل والممثل

فالمثل هو الممثل بعينه لكن الممثل له لا يفقه إلا المثل فافهم ذلك .

و بما مرّ يظهر ضعف الوجوه التي أوردوها في تفسير الوصفين كقول بعضهم : إن المراد بكونه عليماً أنه عال في بلاغته مبين لما يحتاج إليه الناس ، و قول بعضهم معناه أنه يعلو كل كتاب بما اختص به من الإعجاز وهو ينسخ الكتب غيره ولا ينسخه كتاب ، و قول بعضهم يعني أنه يعظمه الملائكة والمؤمنون .

وكقول بعضهم في معنى « حكيم » أنه مظهر للحكمة البالغة ، و قول بعضهم معناه أنه لا ينطق إلا بالحكمة ولا يقول إلا الحق والصواب ، ففي توصيفه بالحكيم تجوز لغرض المبالغة . و ضعف هذه الوجوه ظاهر بالتدبر في مفاد الآية السابقة و ظهور أن جعله قرآناً عربياً بالنزول عن أم الكتاب .

قوله تعالى : « أفنضرب عنكم الذكر صفحاً أن كنتم قوماً مسرفين » الاستفهام للإنكار ، و الفاء للتفريع على ما تقدم ، و ضرب الذكر عنهم صرفه عنهم قال في المجمع : و أصل ضربت عنه الذكر أن الراكب إذا ركب دابةً فأراد أن يصرفه عن جهة ضربه بعضي أوسط ليعدل به إلى جهة أخرى ثم وضع الضرب موضع الصرف والعدل . انتهى والصفح بمعنى الإعراض فصفحاً مفعول له ، و احتمال أن يكون بمعنى الجانب « و أن كنتم » محذوف الجار والتقدير لأن كنتم و هو متعلق بقوله : « أفنضرب » .

والمعنى أفنصرف عنكم الذكر - وهو الكتاب الذي جعلناه قرآناً لتعقلوه - للإعراض عنكم لكونكم مسرفين أو أفنصرفه عنكم إلى جانب لكونكم مسرفين أي إننا لا نصرفه عنكم لذلك .

قوله تعالى : « و كم أرسلنا من نبي في الأولين و ما يأتيهم من نبي إلا كانوا به يستهزؤن » « كم » للتكثير ، والأولون هم الأمم المدارجة و « و ما يأتيهم » الخ حال والعامل فيها « أرسلنا » .

والآيتان وما يتلوها في مقام التعليل لعدم صرف الذكر عنهم ببيان أن كونكم قوماً مسرفين لا يمنعنا من إجراء سنة الهداية من طريق الوحي فإننا كثيراً ما أرسلنا من نبي في الأمم الماضية والحال أنه ما يأتيهم من نبي إلا استهزؤا به و انجر الأمر

إلى أن أهلكنا من أولئك من هو أشدّ بطشاً منكم .

فكما كانت عاقبة إسرائفهم واستهزائهم الهلاك دون الصرف فكذلك عاقبة إسرائفكم ففي الآيات الثلاث كما ترى وعد للنبي ﷺ وعيد لقومه .

قوله تعالى : « فأهلكنا أشدّ منهم بطشاً ومضى مثل الأولين » قال الراغب : البطش تناول الشيء بصولة . انتهى وفي الآية التفات في قوله : « منهم » من الخطاب إلى الغيبة ، وكأنّ الوجه فيه العدول عن خطابهم إلى خطاب النبي ﷺ لعدم اعتبارهم بهذه القصص والعبر و ليكون تمهيداً لقوله بعد : « ومضى مثل الأولين » ويؤيده قوله بعد : « ولئن سألتهم خطاباً للنبي ﷺ . ومعنى قوله : « ومضى مثل الأولين » ومضى في السور النازلة قبل هذه السورة من القرآن وصف الأمم الأولين وأنه كيف حاق بهم ما كانوا به يستهزؤن .

قوله تعالى : « ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولنّ خلقهنّ العزيز العليم » في الآية وما يتلوها إلى تمام ست آيات احتجاج على ربوبيته تعالى وتوحيده فيها مع إشارة ما إلى المعاد وتبكيّت لهم على إسرائفهم مأخوذ من اعترافهم بأنّه تعالى هو خالق الكل ثمّ الأخذ بجهاث من الخلق هي بعينها تدبير لأموال العباد كجعل الأرض لهم مهدياً وجعله فيها سبلاً وإنزال الأمطار فينتج أنّه تعالى وحده مالك مدبر لأموالهم فهو الرب لا رب غيره .

وبذلك تبيّن أنّ الآية تقدمة وتوطئة لما تتضمنه الآيات التالية من الحجّة وقد تقدّم في هذا الكتاب مراراً أنّ الوثنيّة لا تنكر رجوع الصنع والإيجاد إليه تعالى وحده وإنّما تدّعي رجوع أمر التدبير إلى غيره .

قوله تعالى : « الذي جعل لكم الأرض مهدياً وجعل لكم فيها سبلاً لعلكم تهتدون » أي جعل لكم الأرض بحيث تربون فيها كما يربّي الأطفال في المهد ، وجعل لكم في الأرض سبلاً وطرقاً تسلكونها وتهتدون بها إلى مقاصدكم .

وقيل : معنى « لعلكم تهتدون » رجاء أن تهتدوا إلى معرفة الله وتوحيده في العبادة والأوّل أظهر .

وفي الكلام التفات إلى خطاب القوم بعد صرف الخطاب عنهم إلى النبي ﷺ ولعل الوجه فيه إظهار العناية بهذا المعنى في الخلقة وهو أن التدبير بعينه من الخلق فاعتراهم بكون الخلق مختصاً بالله سبحانه وقولهم برجوع التدبير إلى غيره من خلقه من التفات في القول جهلاً فقررهم بهذا الخطاب من غير واسطة .

قوله تعالى : « والذي نزل من السماء ماء بقدر فأنشRNA به بلدة ميتاً كذلك تخرجون » قيد تنزيل الماء بقدر للإشارة إلى أنه عن إرادة و تدبير لا كيف اتفق والآنشار الإحياء ، والميت مخفف الميتة بالتشديد ، و توصيف البلدة به باعتبار أنها مكان لأن البلدة أيضاً إنما تتصف بالموت والحياة باعتبار أنها مكان ، والالتفات عن الغيبة إلى التكلم مع الغير في « أنشRNA » لإظهار العناية .

ولما استدلّ بتنزيل الماء بقدر وإحياء البلدة الميتة على خلقه و تدبيره استنتج منه أمراً آخر لا يتم التوحيد إلا به وهو المعاد الذي هو رجوع الكل إليه تعالى فقال : « كذلك تخرجون » أي كما أحيا البلدة الميتة كذلك تبعثون من قبوركم أحياء .

قيل : في التعبير عن إخراج النبات بالإنشRNA الذي هو إحياء الموتى وعن إحيائهم بالإنشRNA فتيخم لشأن الإنشRNA وتهوين لأمر البعث لتقويم سنن الاستدلال و توضيح منهاج القياس .

قوله تعالى : « والذي خلق الأزواج كلها وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون » قيل : المراد بالأزواج أصناف الموجودات من ذكر و أنثى و أبيض و أسود وغيرها ، وقيل : المراد الزوج من كل شيء فكل ما سوى الله كالفوق و تحت واليمين واليسار والذكر والأنثى زوج .

وقوله : « وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون » أي تركبونه ، والركوب إذا نسب إلى الحيوان كالفرس والابل تعدى بنفسه فيقال : ركب الفرس وإذا نسب إلى مثل الفلك والسفينة تعدى بفي فيقال ركب فيه قال تعالى : و « إذا ركبوا في الفلك » ففي قوله : « ما تركبون » أي تركبونه تغليب لجانب الأنعام .

قوله تعالى : « لتستوا على ظهوره ثم تذكروا نعمت ربكم إذا استويتم عليه و

تقولوا - إلى قوله - لمنقلبون» الاستواء على الظهور الاستقرار عليها ، والضمير في «ظهوره» راجع إلى لفظ الموصول في « ما تركبون » ، والضمير في قوله : « إذا استويتم عليه » للموصول أيضاً فكما يقال : استويت على ظهر الدابة يقال : استويت على الدابة . والمراد بذكر نعمة الرب سبحانه بعد الاستواء على ظهر الفلك والأُنعام ذكر النعم التي ينتفع بها الإنسان بتسخيره تعالى له هذه المراكب كالانتقال من مكان إلى مكان و حمل الأثقال قال تعالى : « و سَخَّرَ لَكُمُ الْفَلَكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ » إبراهيم : ٣٢ و قال : « والأُنعام خلقها - إلى أن قال - و تحمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بِالْغِيَةِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ » النحل : ٧ ، أو المراد ذكر مطلق نعمه تعالى بالانتقال من ذكر هذه النعم إليه .

و قوله : « و تقولوا سبحان الذي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ » أي مطيقين والاقتران الإِطاقة .

و ظاهر ذكر النعمة عند استعمالها والانتفاع بها شكر منعمها و لازم ذلك أن يكون ذكر النعمة غير قول : «سبحان الذي» إلخ فإن هذا القول تسبيح و تنزيه له عما لا يليق بساحة كبريائه وهو الشريك في الربوبية والأُلوهية ، و ذكر النعمة شكر - كما تقدّم - والشكر غير التنزيه .

و يؤيد هذا ما ورد عن النبي ﷺ و أئمة أهل البيت ع في ما يقال عند الاستواء على المركوب فإن الروايات على اختلافها تتضمن التحميد وراء التسبيح يقول «سبحان الذي» إلخ .

و روى في الكشاف عن الحسن بن علي ع أنه رأى رجلاً يركب دابة فقال : سبحان الذي سَخَّرَ لَنَا هَذَا فقال : أبهذا أمرتم ؟ فقال : و بم أمرنا ؟ قال : أن تذكروا نعمة ربكم .

و قوله : « و إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ » أي صائرون شهادة بالمعاد .





وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ (١٥) أَمْ اتَّخَذَ
مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفِيكُمْ بِالْبَنِينَ (١٦) وَإِذَا بَشَّرَ أَحَدَهُمْ بِمَا ضَرَبَ
لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (١٧) أَوْ مَنْ يُنشِئُ فِي
الْحَلِيمَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ (١٨) وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ
الرَّحْمَنِ أَنْثَىٰ أَشْهَدُوا خَلَقَهُمْ سَتَكَبَّ شَهَادَتُهُمْ وَيَسْأَلُونَ (١٩) وَ قَالُوا
لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (٢٠)
أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ (٢١) بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا
آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ (٢٢) وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ
قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ
وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ (٢٣) قَالَ أَوْ لَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ
عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (٢٤) فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَانْظُرْ
كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ (٢٥).

﴿بيان﴾

حكاية بعض أقوالهم التي دعاهم إلى القول بها الإسراف والكفر بالنعيم وهو قولهم بالولد وأن الملائكة بنات الله سبحانه ، واحتجاجهم على عبادتهم الملائكة وردّه عليهم.
قوله تعالى : « وجعلوا له من عبادِهِ جزءاً إن الإنسان لكفور مبين » المراد بالجزء الولد فإن الولادة إنما هي بالاشتقاق فالولد جزء من والده منفصل منه متصور بصورته.

وإنما عبّر عن الولد بالجزء للإشارة إلى استحالة دعواهم ، فإنّ جزئية شيء من شيء كيفما تصوّرت لا تتمّ إلاّ بتركّب في ذلك الشيء والله سبحانه واحد من جميع الجهات .

وقد بان بما تقدّم أنّ « من عباده » بيان لقوله : « جزء » ولا ضير في تقدّم هذا النوع من البيان على المبيّن ولا في جمعيّة البيان وإفراد المبيّن .

قوله تعالى : « أم اتّخذ ممّا يخلق بنات و أفصاكن بالبنين » أي أخلصكن للبنين فلكم بنون وليس له إلاّ البنات وأنتم ترون أنّ البنات أخسّ من الابن فتثبتون له أخسّ الصنفين وتخصّصون أنفسكم بأشرفهما ، وهذا مع كونه قولاً محالاً في نفسه إزاء وإهانة ظاهرة وكفران .

و تقييد اتّخاذ البنات بكونه ممّا يخلق لكونهم قائلين بكون الملائكة - على ربوبيّتهم وألوهيّتهم - مخلوقين لله ، والاتّفات في الآيات إلى خطابهم لتأكيد الإلزام وتثبيت التوبيخ ، والتشكيك والتعريف في « بنات » و « البنين » للتحقير والتفخيم .

قوله تعالى : « وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلاً ظلّ وجهه مسوداً و هو كظيم » المثل هو المثل والشبه المجانس للشيء و ضرب الشيء مثلاً أخذه مجانساً للشيء « و ما ضرب للرحمن مثلاً » الأنثى ، والكظيم المملوء كرباً و غيظاً .

والمعنى و حالهم أنّه إذا بشر أحدهم بالأنثى الذي جعلها شهباً مجانساً للرحمن صار وجهه مسوداً من الغمّ و هو مملوء كرباً و غيظاً لعدم رضاهم بذلك و عداؤهم لكنّهم يرضونه له .

والاتّفات في الآية إلى الغيبة لحكاية شنيع سيرتهم و قبيح طريقتهم للغير حتّى يتعجّب منه .

قوله تعالى : « أو من ينشؤ في الحلية و هو في الخصام غير مبين » أي أوجعلوا لله سبحانه من ينشؤ في الحلية أي يتربّى في الزينة و هو في المخاصمة و المحاجّة غير مبين لحجّته لا يقدر على تقرير دعواه .

وإنما ذكر هذين النعتين لأنّ المرأة بالطبع أقوى عاطفة و شفقة و أضعف

تَعْقَلًا بِالْقِيَاسِ إِلَى الرَّجُلِ وَهُوَ بِالْعَكْسِ وَمِنْ أَوْضَحِ مَظَاهِرِ قُوَّةِ عَوَاطِفِهَا تَعَلُّقُهَا الشَّدِيدُ بِالْحَلِيقَةِ وَالزَّيْنَةِ وَضَعْفُهَا فِي تَقْرِيرِ الْحِجَّةِ الْمُبْنِيِّ عَلَى قُوَّةِ التَّعْقُلِ .

قوله تعالى : « وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنِثَاءً إِنْج » هذا معنى قولهم : « إِنِ الْمَلَائِكَةُ بَنَاتُ اللَّهِ وَقَدْ كَانَ يَقُولُ بِهِ طَوَائِفُ مِنْ عَرَبِ الْجَاهِلِيَّةِ وَأَمَّا غَيْرُهُمْ مِنَ الْوَثْنِيَّةِ فَرُبَّمَا عَدَّوْا فِي آلِهَتِهِمْ إِلَهَةً هِيَ أُمُّ إِلَهٍ أَوْ بَنَتْ إِلَهًا لَكِنْ لَمْ يَقُولُوا بِكَوْنِ جَمِيعِ الْمَلَائِكَةِ إِنِثَاءً كَمَا هُوَ ظَاهِرُ الْمُحْكَمِيِّ فِي الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ .

وَإِنَّمَا وَصَفَ الْمَلَائِكَةَ بِقَوْلِهِ : « الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ » رَدًّا لِقَوْلِهِمْ بِأَنُوثَتِهِمْ لِأَنَّ الْإِنِثَاءَ لَا يُطْلَقُ عَلَيْهِنَّ الْعِبَادُ ، وَلَا يُلْزَمُ مِنْهُ اتِّصَافُهُنَّ بِالذِّكُورَةِ بِالْمَعْنَى الَّتِي يَتَّصِفُ بِهِ الْحَيَوَانُ فَإِنَّ الذِّكُورَةَ وَالْأُنُوثَةَ اللَّتَيْنِ فِي الْحَيَوَانِ مِنْ لَوَازِمِ وَجُودِهِ الْمَادِّي الْمَجْهُزِ لِلتَّنَاسُلِ وَتَوَلِيدِ الْمِثْلِ ، وَالْمَلَائِكَةُ فِي مَعْزَلٍ مِنْ ذَلِكَ .

وَقَوْلِهِ : « أَشْهَدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيَسْأَلُونَ » رَدًّا لِدَعْوَاهُمْ الْأُنُوثَةَ فِي الْمَلَائِكَةِ بِأَنَّ الطَّرِيقَ إِلَى الْعِلْمِ بِذَلِكَ الْحَسِّ وَهُمْ لَمْ يَرَوْهُمْ حَتَّى يَعْلَمُوا بِهَا فَلَمْ يَكُونُوا حَاضِرِينَ عِنْدَ خَلْقِهِمْ حَتَّى يَشَاهِدُوا مِنْهُمْ ذَلِكَ .

فَقَوْلِهِ : « أَشْهَدُوا خَلْقَهُمْ إِنْج » اسْتِفْهَامُ إِنْكَارِيٍّ وَوَعِيدٌ عَلَى قَوْلِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمِ أَيْ لَمْ يَشْهَدُوا خَلْقَهُمْ وَسُكُتَ فِي صَحَائِفِ أَعْمَالِهِمْ هَذِهِ الشَّهَادَةُ عَلَيْهِمْ وَيَسْأَلُونَ عَنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ .

قوله تعالى : « وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ » حِجَّةٌ عَقْلِيَّةٌ دَاحِضَةٌ مُحْكِمَةٌ عَنْهُمْ يُمْكِنُ أَنْ تَقَرَّرَ تَارَةً لَا ثَبَاتَ صَحَّةِ عِبَادَةِ الشُّرَكَاءَ بِأَنْ يَقَالَ : لَوْ شَاءَ اللَّهُ أَنْ لَا نَعْبُدَ الشُّرَكَاءَ مَا عَبَدْنَاهُمْ ضَرُورَةٌ لَاسْتِحَالَةِ تَخَلُّفِ مَرَادِهِ تَعَالَى عَنْ إِرَادَتِهِ لَكِنَّا نَعْبُدُهُمْ فَهَوْلَمْ يَشَأْ ذَلِكَ وَعَدَمَ مَشِيئَتِهِ عَدَمَ عِبَادَتِهِمْ إِذْنٌ فِي عِبَادَتِهِمْ فَلَا مَنَعَ مِنْ قَبْلِهِ تَعَالَى عَنْ عِبَادَةِ الشُّرَكَاءَ وَالْمَلَائِكَةَ مِنْهُمْ ، وَهَذَا الْمَعْنَى هُوَ الْمُنْسَاقُ إِلَى الذَّهْنِ مِنْ قَوْلِهِ فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ : « سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ الْأَنْعَامُ : ١٣٨ عَلَى مَا يُعْطِيهِ سِيَاقُ مَا قَبْلَهُ وَمَا بَعْدَهُ .

وتقرّر تارة لا يبطال النبوة القائلة أن الله يوجب عليكم كذا وكذا ويحرّم عليكم كذا وكذا بأن يقال لو شاء الله أن لا نعبد الشركاء ولا نحل ولا نحرّم شيئاً لم نعبد الشركاء ولم نضع من عندنا حكماً لاستحالة تخلف مراده تعالى عن إرادته لكننا نعبدهم ونحلّ ونحرّم أشياء فلم يشأ الله سبحانه منّا شيئاً فقول إن الله يأمركم بكذا وينهاكم عن كذا وبالبجملّة إنّه شاء كذا باطل .

و هذا المعنى هو الظاهر المستفاد من قوله تعالى في سورة النحل : « وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولا آباؤنا ولا حرمنا من دونه من شيء » النحل : ٣٥ بالنظر إلى السياق .

وقولهم في محكي الآية المبحوث عنها : « لو شاء الرحمن ما عبدناهم » على ما يفيد سباق الآيات السابقة واللاحقة مسوق للاحتجاج على المعنى الأول وهو تصحيح عبادتهم للملائكة فيكون في معنى آية سورة الأنعام وأخص منها .

وقوله : « ما لهم بذلك من علم » أي هو منهم قول مبني على الجهل فإنّه مغالطة خلطوا فيها بين الإرادة التكوينية والإرادة التشريعية وأخذ الأولى مكان الثانية فمقتضى الحجّة أن لا إرادة تكوينيّة منه تعالى متعلّقة بعدم عبادتهم الملائكة وانتفاء تعلّق هذا النوع من الإرادة بعدم عبادتهم لهم لا يستلزم انتفاء تعلّق الإرادة التشريعيّة به .

فهو سبحانه لم يشأ أن لا يعبدوا الشركاء بالإرادة التكوينية كانوا مختارين غير مضطرين على فعل أو ترك فأراد منهم بالإرادة التشريعية أن يوحّدوه ولا يعبدوا الشركاء ، والإرادة التشريعية لا يستحيل تخلف المراد عنها لكونها اعتباريّة غير حقيقيّة ، وإنّما تستعمل في الشرائع والقوانين والتكاليف المولوية ، والحقيقة التي تبني عليها هي اشتغال الفعل على مصلحة أو مفسدة .

و بما تقدّم يظهر فساد ما قيل : إن حجّتهم مبنيّة على مقدّمتين : الأولى أن عبادتهم للملائكة بمشيئته تعالى ، والثانية أن ذلك مستلزم لكونها مرضيّة عنده تعالى وقد أصابوا في الأولى وأخطأوا في الثانية حيث جهلوا أن المشيئة عبارة عن ترجيح

بعض الممكّنات على بعض كائنا ما كان من غير اعتبار الرضا والسخط في شيء من الطرفين .

وجه الفساد أن مضمون الحجّة عدم تعلّق المشيئة على ترك العبادة و عدم تعلّق المشيئة بالترك لا يستلزم تعلّق المشيئة بالفعل بل لازمه الإذن الذي هو عدم المنع من الفعل . ثم إن ظاهر كلامه قصر الإرادة في التكوينية وإهمال التشريعية التي عليها المدار في التكليف المولوية و هو خطأ منه .

ويظهر أيضاً فساد ما نسب إلى بعضهم أن المراد بقولهم : «لوشاء الرحمن ما عبدناهم» الاعتذار عن عبادة الملائكة بتعلّق مشيئة الله بها مع الاعتراف بكونها قبيحة .

و ذلك أنهم لم يكونوا مسلمين لقبح عبادة آلهتهم حتّى يعتذروا عنها و قد حكى عنهم ذيلاً قولهم : « إنا وجدنا آباءنا على أمة و إنا على آثارهم مهتدون » . و قوله : « إن هم إلّا يخرصون » الخرص - على ما يظهر من الراغب - القول على الظنّ والتخمين ، و فسر أيضاً بالكذب .

قوله تعالى : « أم آتيناهم كتاباً من قبله فهم به مستمسكون » ضمير « من قبله » للقرآن ، و في الآية نفي أن يكون لهم حجّة من طريق النقل كما أن في الآية السابقة نفي حجّتهم من طريق العقل ، و محصل الآيتين أن لا حجّة لهم على عبادة الملائكة لا من طريق العقل ولا من طريق النقل فلم يأذن الله فيها .

قوله تعالى : « بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة و إنا على آثارهم مهتدون » الأمة الطريقة التي تؤمّ و تقصد ، والمراد بها الدين ، والإضراب عما تحصل من الآيتين والمعنى لا دليل لهم على حقيقة عبادتهم بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على دين و إنا على آثارهم مهتدون أي إنهم متشبّهون بتقليد آبائهم فحسب .

قوله تعالى : « و كذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلّا قال مترفوها إنا وجدنا » إلخ أي إن التشبّه بتقليد ليس ممّا يختصّ بهؤلاء فقد كان ذلك دأب أسلافهم من الأمم المشركين و ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير وهو النبي إلّا تشبّهت متنعّموها بتقليد وقالوا : إنا وجدنا أسلافنا على دين و إنا على آثارهم

مقتدون لن نتركها ولن نخالفهم .

و نسبة القول إلى مترفيهم للإشارة إلى أن الإتراف والتنعّم هو الذي يدعوههم إلى التقليد و يصرفهم عن النظر في الحق .

قوله تعالى : « قال أو لوجئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم » إلخ القائل هو النذير ، والخطاب للمترفين و يشمل غيرهم بالتبعية ، والعطف في « أولوجئتكم » على محذوف يدلّ عليه كلامهم ، والتقدير إنكم على آثارهم مقتدون و لوجئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم ؟ والمحصّل هل أنتم لازمون لدينهم حتّى لو كان ما جئتكم به من الدين أهدى منه ؟ وعدّ النذير ما جاءهم به أهدى من دينهم مع كون دينهم باطلا لاهدى فيه من باب مجازاة الخصم .

وقوله : « قالوا إنّنا بما أرسلتم به كافرون » جواب منهم لقول النذير : « أولوجئتكم » إلخ و هو تحكّم من غير دليل .

قوله تعالى : « فانتقمنا منهم فانظر كيف كان عاقبة المكذّبين » أي تفرّع على ذلك الإرسال والردّ بالتقليد والتحكّم أنّا أهلكتناهم بتكذيبهم فانظر كيف كان عاقبة أولئك السابقين من أهل القرى ، وفيه تهديد لقوم النبي ﷺ .





وَ إِذِ قَالَ اِبْرَاهِيْمُ لَآبِيهِ وَ قَوْمِهِ اِنِّى بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ (٢٦)
 اِلَّا الَّذِى فَطَرَنِي فَانَّهُ سَيَهْدِينِ (٢٧) وَ جَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِى عَقْبِهِ لَعَلَّهُمْ
 يَرْجِعُونَ (٢٨) بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءِ وَ آبَاءَهُمْ حَتَّى جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَ رَسُوْلُ
 مُبِيْنٍ (٢٩) وَ لَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوْا هَذَا سِحْرٌ وَ اِنَّا بِهٖ كَافِرُوْنَ (٣٠)
 وَ قَالُوْا لَوْلَا نَزَلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلٰى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيْمٍ (٣١) اَهُمْ
 يَقْسِمُوْنَ رَحْمَةً رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَّعِيْشَتَهُمْ فِى الْحَيٰوةِ الدُّنْيَا وَ
 رَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سَخِرِيًّا وَ رَحْمَةً
 رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُوْنَ (٣٢) وَ لَوْلَا اَنْ يَّكُوْنَ النَّاسُ اُمَّةً وَّاحِدَةً لَّجَعَلْنَا
 لِمَنْ يَّكْفُرْ بِالرَّحْمٰنِ لِبُيُوْتِهِمْ سُقْفًا مِّنْ فِصَّةٍ وَ مَعَارِجَ عَلَيَّهَا يَظْهَرُوْنَ (٣٣)
 وَ لِبُيُوْتِهِمْ اَبْوَابًا وَ سُرُرًا عَلَيَّهَا يَتَّكُوْنَ (٣٤) وَ زُخْرَفًا وَ اِنْ كُلِّ ذٰلِكَ
 لَمَّا مَتَاعُ الْحَيٰوةِ الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِيْنَ (٣٥) وَ مَنْ يَعِشْ
 عَنِ ذِكْرِ الرَّحْمٰنِ نَقِيْضٌ لَّهٗ شَيْطٰنًا فَهٗوَ لَّهُ قَرِيْنٌ (٣٦) وَ اِنَّهُمْ لَيَصُدُّوْنَهُمْ
 عَنِ السَّبِيْلِ وَ يَحْسَبُوْنَ اَنَّهُمْ مُّهْتَدُوْنَ (٣٧) حَتَّى اِذَا جَاءَنَا قَالَ يٰلَيْتَ
 بَيْنِي وَ بَيْنَكَ بَعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِيْنُ (٣٨) وَلَنْ يَنْفَعَكُمْ الْيَوْمَ اِذْ
 ظَلَمْتُمْ اَنْكُمُ فِى الْعَذَابِ مُشْتَرِكُوْنَ (٣٩) اَفَاَنْتَ تَسْمِعُ الصَّمَّ اَوْ تَهْدِى الْعُمْى

وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٤٠) فَمَا نَنْهَيْنَ بِكَ فَاثًا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ (٤١)
 أَوْ نُزِيلَنَّا الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَاثًا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ (٤٢) فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي
 أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٤٣) وَ إِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ
 وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ (٤٤) وَ سَأَلَ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ
 دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ (٤٥) .

﴿ بيان ﴾

لَمَّا انْجَزَ الْكَلَامُ إِلَى رَدِّهِمْ رِسَالَةَ الرَّسُولِ وَكَفَرَهُمْ بِهَا تَحَكُّمًا وَتَشْبِثُهُمْ فِي الشَّرْكِ
 بِذِيلِ تَقْلِيدِ الْآبَاءِ وَالْأَسْلَافِ مِنْ غَيْرِ دَلِيلِ عَقَبِ ذَلِكَ بِالْإِشَارَةِ إِلَى قِصَّةِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ
 وَرَفْضِهِ تَقْلِيدَ آبِيهِ وَقَوْمِهِ وَتَبَرُّيهِ عَنْهُمْ يَعْبُدُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَاسْتِهْدَائِهِ هَدَى رَبِّهِ
 الَّذِي فَطَرَهُ .

ثم يذكر تمتيعه لهم بنعمه و كفرانهم بها بالكفر بكتاب الله وطعنهم فيه و في
 رسوله بما هو مردود عليهم . ثم يذكر تبعة الإعراض عن ذكر الله و ما تنتهي إليه من
 الشقاء والخسران ، و يعطف عليه إِيَّاسُ النَّبِيُّ ﷺ من إيمانهم و تهديدهم بالعذاب
 و يؤكِّد الأمر للنبي ﷺ أن يستمسك بالقرآن و أنه لذكر له و لقومه و سوف
 يسألون عنه ، و أن الذي فيه من دين التوحيد هو الذي كان عليه الأنبياء السابقون
 عليه .

قوله تعالى : « و إذ قال إبراهيم لأبيه و قومه إنني براء مما تعبدون » البراء
 مصدر من برىء فهو بريء فمعنى «إنني براء» إنني ذو براء أو بريء على سبيل

المبالغة مثل زيد عدل .

وفي الآية إشارة إلى تبرّي إبراهيم عليه السلام مما كان يعبده أبوه وقومه من الأصنام والكواكب بعد ما حاجّهم فيها فاستندوا فيها إلى سيرة آبائهم على ما ذكر في سور الأنعام والأنبياء والشعراء وغيرها .

والمعنى واذكر لهم إن تبرّء إبراهيم عن آلهة أبيه وقومه إن كانوا يعبدونها تقليداً لا بائهم من غير حجة وقام بالنظر وحده .

قوله تعالى : « إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ » أي إلّا الذي أوجدني وهو الله سبحانه ، وفي توصيفه تعالى بالفطر إشارة إلى الحجة على ربوبيته وألوهيته فإنّ الفطر والإيجاد لا ينفك عن تدبير أمر الموجود المفطور فالذي فطر الكل هو الذي يدبّر أمرهم فهو الحقيق أن يعبد .

وقوله : « فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ » أي إلى الحق الذي أطلبه ، وقيل : أي إلى طريق الجنة ، وفي هذه الجملة إشارة إلى خاصّة أخرى ربوبيّة وهي الهداية إلى السبيل الحق يجب أن يسلكه الإنسان فإنّ السوق إلى الكمال من تمام التدبير فعلى الربّ المدبّر لأمر مربوبه أن يهديه إلى كماله وسعاده قال تعالى : « رَبَّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى » طه : ٥٠ وقال : « وَ عَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ » النحل : ٩ فالرجوع إلى الله بتوحيد العبادة يستتبع الهداية كما قال تعالى : « وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا » العنكبوت : ٦٩ .

والاستثناء في قوله : « إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي » منقطع لأنّ الوثنيين لا يعبدون الله كما مرّ مراراً فقول بعضهم : « إِنَّهُ مُتَّصِلٌ ، وَأَنْتُمْ كَانُوا يَقُولُونَ : اللَّهُ رَبُّنَا مَعَ عِبَادَتِهِمِ الْاَوْثَانِ » كما ترى .

قوله تعالى : « وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقْبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ » الظاهر أن ضمير الفاعل المستتر في « جعلها » لله سبحانه ، والضمير البارز - على ما قيل - لكلمة البراءة التي تكلم بها إبراهيم عليه السلام ومعناها معنى كلمة التوحيد فإنّ مفاد « لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ »

نفى الآلهة غير الله لا نفى الآلهة وإثبات الإله تعالى^(١) وهو ظاهر فلا حاجة إلى ما تكلف به بعضهم أن الضمير لكلمة التوحيد المعلوم مما تكلم به إبراهيم عليه السلام .

والمراد بعقبه ذريته وولده ، وقوله : «لعلهم يرجعون» أي يرجعون من عبادة آلهة غير الله إلى عبادته تعالى أي يرجع بعضهم - وهم العابدون لغير الله بدعوة بعضهم وهم العابدون لله - إلى عبادته تعالى ، وبهذا يظهر أن المراد ببقاء الكلمة في عقبه عدم خلوقهم عن الموحّد ماداموا ، ولعلّ هذا عن استجابة دعائه عليه السلام إن يقول : « واجنبنى وبنى أن نعبد الأصنام » إبراهيم : ٣٥ .

وقيل : الضمير في « جعل » لإبراهيم عليه السلام فهو الجاعل هذه الكلمة باقية في عقبه رجاء أن يرجعوا إليها والمراد بجعلها باقية فيهم وصيته لهم بذلك كما قال تعالى : « وصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون » البقرة : ١٣٢ .

وأنت خير بأن الوصية بكلمة التوحيد لا تسمى جعلاً للكلمة باقية في العقب وإن صح أن يقال : أراد بها ذلك لكنّه غير جعلها باقية فيهم !

وقيل : المراد أن الله جعل الإمامة كلمة باقية في عقبه وسيجيء الكلام فيه في البحث الروائي الآتي إن شاء الله .

ويظهر من الآية أن ذرية إبراهيم عليه السلام لا تخلو من هذه الكلمة إلى يوم القيامة .

قوله تعالى : « بل متعت هؤلاء وآباءهم حتى جاءهم الحق ورسول مبين » إضراب عما يفهم من الآية السابقة والمعنى أن رجوعهم عن الشرك إلى التوحيد كان هو الغاية المرجوة منهم لكنّهم لم يرجعوا بل متعت هؤلاء من قومك وآباءهم فتمتعوا بنعمي حتى جاءهم الحق ورسول مبين .

ولعلّ الالتفات إلى التكلّم وحده في قوله : « بل متعت » للإشارة إلى تفخيم

(١) وذلك أن د الله ، فيها مرفوع على البدلية لامنصوب على الاستثناء .

جرمهم وأنهم لا يقصدون في كفرانهم للنعمة وكفرهم بالحق ورميه بالسحر إلا إياه تعالى وحده .

والمراد بالحق الذي جاءهم هو القرآن ، و بالرسول المبين محمد ﷺ .

قوله تعالى : « ولما جاءهم قالوا هذا سحر وإنا به كافرون » هذا طعنهم في الحق الذي جاءهم و هو القرآن و يستلزم الطعن في الرسول . كما أن قولهم الآتي : « لو لا نزل » إنح كذلك .

قوله تعالى : « وقالوا لو لا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم » المراد بالقريتين مكة والطائف ، ومرادهم بالعظمة - على ما يفيد السياق - ما هو من حيث المال والجاه اللذين هما ملاك الشرافة و علو المنزلة عند أبناء الدنيا ، والمراد بقوله : « رجل من القريتين عظيم » رجل من إحدى القريتين حذف المضاف إيجازا . ومرادهم أن الرسالة منزلة شريفة إلهية لا ينبغي أن يتلبس به إلا رجل شريف في نفسه عظيم مطاع في قومه ، والنبي ﷺ فقير فاقد لهذه الخصلة فلو كان القرآن الذي جاء به وحياً نازلاً من الله فلو لا نزل على رجل عظيم من مكة أو الطائف كثير المال رفيع المنزلة .

و في المجمع : و يعنون بالرجل العظيم من إحدى القريتين الوليد بن المغيرة من مكة و أبا مسعود عروة بن مسعود الثقفي من الطائف . عن قتادة ، و قيل : عتبة بن أبي ربيعة من مكة و ابن عبد ياليل من الطائف . عن مجاهد ، و قيل : الوليد بن المغيرة من مكة و حبيب بن عمر الثقفي من الطائف . عن ابن عباس . انتهى .
والحق أن ذلك من تطبيق المفسرين وإنما قالوا ما قالوا على الإبهام و أرادوا أحد هؤلاء من عظماء القريتين على ما هو ظاهر الآية .

قوله تعالى : « أ هم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا » إنح المراد بالرحمة - على ما يعطيه السياق - النبوة .

و قال الراغب : العيش الحياة المختصة بالحيوان ، و هو أخص من الحياة لأن الحياة تقال في الحيوان وفي الباري تعالى و في الملك ، و يشق منه المعيشة لما يتعيش

به انتهى ، وقال : التسخير سياقة إلى الغرض المختص قهراً - إلى أن قال : والسخري هو الذي يقهر فيتسخّر بإرادته . انتهى .

والآية والآيتان بعدها في مقام الجواب عن قولهم : لو لا نزل هذا القرآن على رجل « إلخ ومحصلها أن قولهم هذا تحكّم ظاهر ينبغي أن يتعجب منه فإنهم يحكمون فيما لا يملكون . هذه معيشتهم في الحياة الدنيا يعيشون بها ويرتزقون وهي رحمة منّا لا قدر لها ولا منزلة عندنا وليست إلا متاعاً زائلاً نحن نقسمها بينهم وهي خارجة عن مقدرتهم ومشيئتهم فكيف يقسمون النبوة التي هي الرحمة الكبرى وهي مفتاح سعادة البشر الدائمة والفلاح الخالد فيعطونها لمن شاؤا ويمنعونها ممن شاؤا .

فقوله : « أهم يقسمون رحمة ربك » الاستفهام للإنكار ، والاتفات إلى الغيبة في قوله : « رحمة ربك » ولم يقل : رحمتنا ، للدلالة على اختصاص النبي ﷺ بعناية الربوبية في النبوة .

والمعنى أنهم لا يملكون النبوة التي هي رحمة لله خاصة به حتى يمنعوك منها ويعطوها لمن هوّوا .

وقوله : « نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا » بيان لوجه الإنكار في الجملة السابقة بأنهم عاجزون عن قسمة ما هو دون النبوة بمراحل ولا منزلة له وهو معيشتهم في الحياة الدنيا فنحن قسمناها بينهم فكيف يقسمون ما هو أرفع منزلة منها بما لا يقدر قدره وهو النبوة التي هي رحمة ربك الخاصة به .

والدليل على أن الأرزاق والمعاش ليست بيد الإنسان اختلاف أفراده بالغنى والفقر والعافية والصحة وفي الأولاد وسائر ما يعدّ من الرزق ، وكلّ يريد أن يقتني منها ما لا مزيد عليه ، ولا يكاد يتيسر لأحد منهم جميع ما يتمناه ويرضيه فلو كان ذلك بيد الإنسان لم يوجد معدم فقير في شيء منها بل لم يختلف اثنان فيها باختلافهم فيها أوضح دليل على أن الرزق مقسوم بمشيئة من الله دون الإنسان .

على أن الإرادة والعمل من الإنسان بعض الأسباب الناقصة لحصول المطلوب الذي هو الرزق ووراءهما أسباب كونية لا تحصى خارجة عن مقدرة الإنسان لا يحصل

المطلوب إلا بحصولها جميعاً واجتماعها عليه وليست إلا بيد الله الذي إليه تنتهي الأسباب. هذا كلف في المال و أما الجاه فهو أيضاً مقسوم من عند الله فإنه يتوقف على صفات خاصة بها ترتفع درجات الإنسان في المجتمع فيتمكن من تسخير من هو دونه كالقطة والدواء والشجاعة وعلو الهمة وإحكام العزيمة وكثرة المال والعشيرة وشيء من ذلك لا يتم إلا بصنع من الله سبحانه ، و ذلك قوله : « و رفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً » .

فيتبين بمجموع القولين أغنى قوله : « نحن قسمنا » إلخ وقوله : « و رفعنا بعضهم فوق بعض » إلخ أن القاسم للمعيشة والجاه بين الناس هو الله سبحانه لا غير ، وقوله : « و رحمة ربك خير مما يجمعون » أي النبوة خير من المال فكيف يملكون قسمها وهم لا يملكون قسم المال فيما بينهم .

و من الممكن أن يكون قوله : « و رفعنا بعضهم فوق بعض » عطف تفسير على قوله : « نحن قسمنا بينهم معيشتهم » إلخ بين قسم المعيشة بينهم بيان علل انقسامها في المجتمع الإنساني بيان ذلك أن كثرة حوائج الإنسان في حياته الدنيا بحيث لا يقدر على رفع جميعها في عيش انفرادي أحوجته إلى الاجتماع مع غيره من الأفراد على طريق الاستخدام والاستدراار أولاً وعلى طريق التعاون والتعاقد ثانياً كما مر في مباحث النبوة من الجزء الثاني من الكتاب .

فآل الأمر إلى المعاوضة العامة المفيدة لنوع من الاختصاص بأن يعطي كل مما عنده من حوائج الحياة ما يفضل من حاجته و يأخذ به من الغير ما يعادله مما يحتاج إليه فيعطي مثلاً ما يفضل من حاجته من الماء الذي عنده وقد حصله واخص به و يأخذ من غيره ما يزيد على قوته من الغذاء ، و لازم ذلك أن يسعى كل فرد بما يستعد له و يحسنه من السعي فيقتني مما يحتاج إليه ما يختص به ، و لازم ذلك أن يحتاج غيره إليه فيما عنده من متاع الحياة فيتسخر له فيفيده ما يحتاج إليه كالخباز يحتاج إلى ما عند السقاء من الماء و بالعكس فيتعاونان بالمعاوضة و كالمخدوم يتسخر للخادم لخدمته والخادم يتسخر للمخدوم لماله وهكذا فكل بعض من المجتمع مستخر

لآخرين بما عنده والآخرون متسخرون له بلا واسطة أو بواسطة أو وسائط لما أن كلاً يرتفع على غيره بما يختص به مما عنده بدرجات مختلفة باختلاف تعلق الهمم والقصود به .

و على ما تقدم فالمراد بالمعيشة كل ما يعاش به أعم من المال والجاه أو خصوص المال وغيره تبع له كما يؤيده قوله ذيلًا : « ورحمة ربك خير مما يجمعون » فإن المراد به المال وغيره من لوازم الحياه مقصود بالتبع .

قوله تعالى : « و لو لا أن يكون الناس أمة واحدة - إلى قوله - و معارج عليها يظهرون » الآية وما يتلوها لبيان أن متاع الدنيا من مال وزينة لا قدر لها عند الله سبحانه ولا منزلة .

قالوا : المراد بكون الناس أمة واحدة كونهم مجتمعين على سنة واحدة هي الكفر بالله لو رأوا أن زينة الدنيا بحذافيرها عند الكافر بالله والمؤمن صفر الكف منها مطلقا ، والمعارج الدرجات والمصاعد .

والمعنى و لو لا أن يجتمع الناس على الكفر لو رأوا تنعم الكافرين و حرمان المؤمنين لجعلنا لمن يكفر بالرحمان لبيوتهم سققاً من فضة و درجات عليها يظهرون لغيرهم .

ويمكن أن يكون المراد بكون الناس أمة واحدة كونهم جميعاً على نسبة واحدة تجاه الأسباب العاملة في حظوظ العيش من غير فرق بين المؤمن والكافر فمن سعى سعيه للرزق و وافقته الأسباب والعوامل الموصلة الأخرى نال منه مؤمناً كان أو كافراً و من لم يجتمع له حرم ذلك و قتر عليه الرزق مؤمناً أو كافراً .

والمعنى لو لا ما أردنا أن يتساوى الناس تجاه الأسباب الموصلة إلى زخارف الدنيا ولا يختلفوا فيها بالإيمان والكفر لجعلنا لمن يكفر الخ .

قوله تعالى : « و لبيوتهم أبواباً و سرراً عليها يتكئون و زخرفاً » تنكير «أبواباً» و « سرراً » للتفخيم ، و الزخرف الذهب أو مطلق الزينة قال في المجمع : الزخرف كمال حسن الشيء و منه قيل للذهب ، و يقال : زخرفه زخرفة إذا حسنه وزينه ، و منه

قيل للنقوش والتساوير : زخرف ، وفي الحديث إنه ﷺ لم يدخل الكعبة حتى أمر بالزخرف فنحى . انتهى . والباقي ظاهر .

قوله تعالى : « وإن كل لما متاع الحياة الدنيا والآخرة عند ربك للمتقين » « إن » للنفي و « لما » بمعنى إلا أي ليس كل ما ذكر من مزايا المعيشة إلا متاع الحياة الدنيا الزائلة الفانية التي لا تدوم .

وقوله : « والآخرة عند ربك للمتقين » المراد بالآخرة بقرينة المقام الحياة الآخرة السعيدة كأن الحياة الآخرة الشقية لا تعد حياة .

والمعنى أن الحياة الآخرة السعيدة بحكم من الله تعالى وقضاء منه مختصة بالمتقين ، وهذا التخصيص والقصر يؤيد ما قد مناه من معنى كون الناس أمة واحدة في الدنيا بعض التأيد .

قوله تعالى : « ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين » يقال : عشي يعشى عشا من باب علم يعلم إذا كان يبصره آفة لا يبصر مطلقا أو بالليل فقط وعشا يعشو عشواً وعشواً من باب نصر ينصر إذا تعامى وتعشى بلا آفة ، والتقويض التقدير والإتيان بشيء إلى شيء يقال : قيض له إذا جاء به إليه .

لما انتهى الكلام إلى ذكر المتقين وأن الآخرة لهم عند الله قرنه بعاقبة أمر المعرضين عن الحق المتعامين عن ذكر الرحمن مشيراً إلى أمرهم من أوله وهو أن تعامهم عن ذكر الله يورثهم ملازمة قرناء الشياطين فيلازمونهم مضكين لهم حتى يردوا عذاب الآخرة معهم .

فقوله : « ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا » أي من تعامى عن ذكر الرحمن ونظر إليه نظر الأعمى جئنا إليه بشيطان ، وقد عبر تعالى عنه في موضع آخر بالإرسال فقال : « ألم تر أننا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزا » مريم : ٨٣ . وإضافة الذكر إلى الرحمن للإشارة إلى أنه رحمة .

وقوله : « فهو له قرين » أي مصاحب لا يفارقه .

قوله تعالى : « وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون » ضمير

«أنهم» للشياطين ، و ضمائر الجمع الباقية للعاشين عن الذكر ، و اعتبار الجمع نظراً إلى المعنى في « و من يعش» الخ ، و الصدّ الصرف ، و المراد بالسبيل ما يدعو إليه الذكر من سبيل الله الذي هو دين التوحيد .

و المعنى و إن الشياطين ليصرفون العاشين عن الذكر و يحسب العاشون أنهم أي العاشين أنفسهم - مهتدون إلى الحق .

و هذا أعني حسبانهم أنهم مهتدون عند انصادادهم عن سبيل الحق أمارة تقيض القرين و دخولهم تحت ولاية الشيطان فإن الإنسان بطبعه الأتولى مفضول على الميل إلى الحق و معرفته إذا عرض عليه ثم إذا عرض عليه فأعرض عنه اتباعاً للهوى و دام عليه طبع الله على قلبه و أعمى بصره و قيّض له القرين فلم ير الحق الذي تراى له و طبق الحق الذي يميل إليه بالفطرة على الباطل الذي يدعو إليه الشيطان فيحسب أنه مهتد و هو ضال و يخيّل إليه أنه على الحق و هو على الباطل .

و هذا هو الغطاء الذي يذكر تعالى أنه مضروب عليهم في الدنيا و أنه سينكشف عنهم يوم القيامة قال تعالى : « الذين كانت أعينهم في غطاء عن ذكرى - إلى أن قال - قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً الذين ضلّ سعيهم في الحياة الدنيا و هم يحسبون أنهم يحسنون صنعا » الكهف : ١٠٤ ، و قال فيما يخاطبه يوم القيامة و معه قرينه : « لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد » - إلى أن قال - و قال قرينه ربنا ما أطغيته و لكن كان في ضلال بعيد » ق ٢٧ .

قوله تعالى « حتّى إذا جاءنا قال يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين فبئس القرين حتّى » غاية لاستمرار الفعل الذي يدلّ عليه قوله في الآية السابقة : « يصدّونهم » وقوله : « يحسبون » أي لا يزال القرناء يصدّونهم ولا يزالون يحسبون أنهم مهتدون حتّى إذا جاءنا الواحد منهم .

و المراد بالمجيء إليه تعالى البعث ، و ضمير « جاء » و « قال » راجع إلى الموصول باعتبار لفظه ، و المراد بالمشرقين المشرق و المغرب غلب فيه جانب المشرق .
و المعنى و إنهم يستمرون على صدهم عن السبيل و يستمرّ العاشون عن الذكر

على حساب أنهم مهتدون في انصدادهم حتى إذا حضر الواحد منهم عندنا و معه قرينه و كشف له عن ضلاله و ما يستتبعه من العذاب الأليم قال مخاطباً لقرينه متأثراً من صحابته : يا ليت بيني و بينك بعد المشرق و المغرب فبئس القرين أنت .

و يستفاد من السياق أنهم معذبون بصحابة القرناء وراء عذابهم بالنار ، و لذا يتمنون التباعده عنهم و يخصّونه بالذكر و ينسون سائر العذاب .

قوله تعالى : « و لن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنكم في العذاب مشتركون » الظاهر أنه معطوف على ما قبله من وصف حالهم ، و المراد باليوم يوم القيامة ، و قوله : « أنكم في العذاب مشتركون » فاعل « لن ينفعكم » و المراد بضمير جمع المخاطب العاشون عن الذكر و قرناؤهم ، و « إذ ظلمتم » واقع موقع التعليل .

و المراد - و الله أعلم - أنكم إذا أساء بعضكم إلى بعض في الدنيا فأوقعه في مصيبة ربّما تسليتم بعض التسلي لو ابتلي هو نفسه بمثل ما ابتلاكُم به فينفعكم ذلك تسلياً و تشفيّاً لكن لا ينفعكم يوم القيامة اشتراك قرنائكم معكم في العذاب فان اشتراكهم معكم في العذاب و كونهم معكم في النار هو بعينه عذاب لكم .

و ذكر بعض المفسرين أن فاعل « لن ينفعكم » ضمير راجع إلى تمنّيتهم المذكور في الآية السابقة ، و قوله : « إذ ظلمتم » أي لأجل ظلمكم أنفسكم في الدنيا باتّباعكم إيّاهم في الكفر و المعاصي ، و قوله : « أنكم في العذاب مشتركون » تعليل لنفي النفع و المعنى و لن ينفعكم تمنّي التباعده عنكم لأنّ حقكم أن تشاركوا أنتم و قرناؤكم في العذاب .

و فيه أن فيه تدافعاً فإنّه أخذ قوله : « إذ ظلمتم » تعليلاً لنفي نفع التمنّي أوّلاً و قوله : « أنكم في العذاب مشتركون » تعليلاً ثانياً و لازم التطابق بين التعليلين أن يذكر ثانياً القضاء على المتمعنين التابعين بالعذاب لا باشتراك التابعين و المتبوعين فيه .

و قال بعضهم : معنى الآية أنّه لا يخفّف الاشتراك عنكم شيئاً من العذاب لأنّ

لكل واحد منكم و من قرنائكم العظا الأوفر من العذاب .

و فيه أن ما ذكر من سبب عدم النفع و إن فرض صحيحاً في نفسه لكن لا دلالة عليه من جهة لفظ الآية و لا سياق الكلام .

و قال بعضهم : المعنى لا ينفعكم اشتراككم في العذاب كما ينفع الواقعين في شذائد الدنيا اشتراكهم فيها لتعاونهم في تحمّل أعبائها و تقسّمهم لعنائها لأن لكل منكم و من قرنائكم من العذاب ما لا تبلغه طاقته .

و فيه ما في سابقه من الكلام ، ورد أيضاً بأن الانتفاع بذلك الوجه ليس مما يخطر ببالهم حتى يرد عليهم بنفيه .

قوله تعالى : « فأنت تسمع الصم أو تهدي العمي ومن كان في ضلال مبين » لما ذكر تقييذه القرناء لهم و تقليبهم إدراكهم بحيث يرون الضلال هدى و لا يقدرّون على معرفة الحق فرع عليه أن نبّه تعالى أن هؤلاء صم عمي لا يقدر هو على إسماعهم كلمة الحق و هدايتهم إلى سبيل الرشدا فلا يتجشّم و لا يتكلّف في دعوتهم و لا يحزن لإعراضهم ، و الاستفهام للإنكار ، و الباقي ظاهر .

قوله تعالى : « فأما نذهب بك فأنا منهم منتقمون أو نريناك الذي وعدناهم فأنا عليهم مقتدرون » المراد بالإنهاب به توفيه عليه السلام قبل الانتقام منهم ، و قيل : المراد إنهابه بإخراجه من بينهم و قوله : « فأنا منهم منتقمون » أي لامحالة و المراد بإراءته ما وعدهم الانتقام منهم قبل توفيه عليه السلام أو حال كونه بينهم ، و قوله : « فأنا عليهم مقتدرون » أي اقتدارنا يفوق عليهم .

و قوله في الصدر : « فأما نذهب بك » أصله إن نذهب بك زيدت عليه ما والنون للتأكيد ، و محصّل الآية أنا منتقمون منهم بعد توفيك أو قبلها لامحالة .

قوله تعالى : « فاستمسك بالذي أوحى إليك إنك على صراط مستقيم » الظاهر أنه تفريع لجميع ما تقدّم من أن إنزال الذكر من طريق الوحي و النبوة من سننه تعالى و أن كتابه النازل عليه حق و هو رسول مبين لا يستجيب دعوته إلا المتّقون و لا يعرض عنها إلا قرناء الشياطين ، و لا مطمع في إيمانهم و سينتقم الله منهم .

فأكد عليه الأمر بعد ذلك كله أن يجد في التمسك بالكتاب الذي أوحى إليه لا تد على صراط مستقيم .

قوله تعالى : « وإنه لذكر لك ولقومك » وسوف تسألون « الظاهر أن المراد بالذكر ذكر الله ، و بهذا المعنى تكرر مراراً في السورة ، و اللام في « لك ولقومك » للاختصاص بمعنى توجهه ما فيه من التكاليف إليهم ، و يؤيده بعض التأييد قوله : « وسوف تسألون » أي عنه يوم القيامة .

و عن أكثر المفسرين أن المراد بالذكر الشرف الذي يذكر به و المعنى وإنه لشرف عظيم لك ولقومك من العرب تذكرون به بين الأمم .

قوله تعالى : « و اسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون » قيل : المراد بالسؤال منهم السؤال من أممهم و علماء دينهم كقوله تعالى : « فاسأل الذين يقرؤون الكتاب من قبلك » يونس : ٩٤ و فائدة هذا المجاز أن المسؤل عنه السؤال منهم عين ما جاءت به رسلهم لا ما يجيبونه من تلقاء أنفسهم .

و قيل : المراد السؤال من أهل الكتابين : التوراة و الإنجيل فإنهم وإن كفروا لكن الحجّة تقوم بتواتر خبرهم ، و الخطاب للنبي ﷺ و التكليف لأمته . و بعد الوجهين غير خفي و يزيد الثاني بعداً التخصيص بأهل الكتابين من غير مخصص ظاهر .

وقيل : الآية مما خوطب به النبي ﷺ ليلة المعراج أن يسأل أرواح الأنبياء ﷺ و قد اجتمع بهم أن يسألهم هل جاؤا بدين وراء دين التوحيد .

و قد وردت به غير واحدة من الروايات عن أئمة أهل البيت ﷺ و سيوافيك في البحث الروائي الآتي إن شاء الله .

﴿ بحث روائي ﴾

في المجمع في قوله تعالى : « وجعلها كلمة باقية في عقبه » و قيل : الكلمة الباقية في عقبه هي الإمامة إلى يوم الدين . عن أبي عبد الله ﷺ .

أقول : وفي هذا المعنى روايات أخر وقد طبقت الآية في بعضها على الإمامة في عقب الحسين عليه السلام .

والتأمل في الروايات يعطي أن بناءها على إرجاع الضمير في « جعلها » إلى الهداية المفهومة من قوله : « سيهدين » وقد تقدم في تفسير قوله تعالى : « إني جاعلك للناس إماما » أن الإمام وظيفته هداية الناس في ملكوت أعمالهم بمعنى سوقهم إلى الله سبحانه بارشادهم وإبرادهم درجات القرب من الله سبحانه وإنزال كل ذي عمل منزله الذي يستدعيه عمله ، وحقيقة الهداية من الله سبحانه وتنسب إليه بالتبع أو بالعرض .

وفعلية الهداية النازلة من الله إلى الناس تشملها أو لا ثم تفيض عنه إلى غيره فله أتم الهداية ولغيره ماهي دونها وما ذكره إبراهيم عليه السلام في قوله : « فانه سيهدين » هداية مطلقة تقبل الانطباق على أتم مراتب الهداية التي هي حظ الإمام منها فهي الإمامة وجعلها كلمة باقية في عقبه جعل الإمامة كذلك .

وفي الاحتجاج عن العسكري عن أبيه عليه السلام قال : إن رسول الله صلوات الله عليه وآله كان قاعداً ذات يوم بفناء الكعبة إذ قال له عبد الله بن أمية المخزومي : لو أراد الله أن يبعث إلينا رسولاً لبعث أجلاً من فيما بيننا مالاً وأحسنه حالاً فهلاً نزل هذا القرآن الذي تزعم أن الله أنزله عليك وابتعثك به رسولاً ، على رجل من القرينتين عظيم : إما الوليد بن المغيرة بمكة وإما عروة بن مسعود الثقفي بالطائف .

ثم ذكر عليه السلام في كلام طويل جواب رسول الله صلوات الله عليه وآله عن قوله بما في معنى الآيات .

ثم قال : وذلك قوله تعالى : « وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القرينتين عظيم » قال الله : « أهما يقسمون رحمة ربك » يا محمد « نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا » فأحوجنا بعضنا إلى بعض أحوج هذا إلى مال ذلك وأحوج ذلك إلى سلعته هذا وإلى خدمته .

فترى أجلاً الملوك وأغنى الأغنياء محتاجاً إلى أفقر الفقراء في ضرب من الضروب إما سلعته معه ليست معه ، وإما خدمة يصلح لها لايتهايئاً لذلك الملك أن يستغني إلا به

و إما باب من العلوم والحكم هو فقير إلى أن يستفيد ها من هذا الفقير الذي يحتاج إلى مال ذلك الملك الغني ، وذلك الملك يحتاج إلى علم هذا الفقير أو رأيه أو معرفته . ثم ليس للملك أن يقول : هلاً اجتمع إلى مالي علم هذا الفقير ولا للفقير أن يقول : هلاً اجتمع إلى رأيي ومعرفتي و علمي و ما أتصرف فيه من فنون الحكم مال هذا الملك الغني ، ثم قال تعالى : « ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً » .

ثم قال : يا محمد « ورحمة ربك خير مما يجمعون » أي ما يجمعه هؤلاء من أموال الدنيا .

وفي الكافي بإسناده عن سعيد بن المسيب قال : سألت علي بن الحسين عليه السلام عن قول الله عز وجل : « و لو لا أن يكون الناس أمة واحدة » قال : غنى بذلك أمة محمد أن يكونوا على دين واحد كفاراً كلهم « لجعلنا لمن يكفر بالرحمان » إلى آخر الآية .

وفي تفسير القمي بإسناده عن يحيى بن سعيد عن أبي عبد الله عليه السلام قال : « فإمّا نذهبن بك » يا محمد من مكة إلى المدينة فإنّا رادوك إليها ومنتقمون منهم بعلي بن أبي طالب عليه السلام .

وفي الدر المنثور أخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و الحاكم و صححه عن قتادة في قوله : « فإمّا نذهبن بك فإنّا منهم منتقمون » قال : قال أنس ذهب رسول الله ﷺ و بقيت النعمة ولم ير الله نبيه في أمته شيئاً يكرهه حتى قبض ولم يكن نبي قط إلا و قد رأى العقوبة في أمته إلا نبيكم رأى ما يصيب أمته بعده فما رؤي ضاحكاً منبسطاً حتى قبض .

أقول : و روى فيه هذا المعنى عنه وعن علي بن أبي طالب وعن غيرهما بطرق أخرى .

وفيه أخرج ابن مردويه من طريق محمد بن مروان عن الكلبي عن أبي صالح عن جابر بن عبد الله عن النبي ﷺ في قوله تعالى : « فإمّا نذهبن بك فإنّا منهم منتقمون »

نزلت في عليّ بن أبي طالب أنّه ينتقم من الناكثين والقاسطين بعدي .
أقول : ظاهر الرواية ومقابلها وما في معناهما أنّ الوعيد في الآيتين للمنحرفين
 عن الحقّ من أهل القبلة دون كفّار قريش .

وفي الاحتجاج عن أمير المؤمنين عليه السلام في حديث طويل يقول فيه : و أمّا قوله
 تعالى : « و اسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا » فهذا من براهين نبينا صلّى الله عليه وآله التي
 آتاه الله إياها و أوجب به الحجة على سائر خلقه لأنّه لمّا ختم به الأنبياء و جعله
 الله رسولاّ إلى جميع الأمم و سائر الملل خصّه بالارتقاء إلى السماء عند المعراج و جمع
 له يومئذ الأنبياء فعلم منهم ما أرسلوا به و حملوه من عزائم الله و آياته و براهينه .
 الحديث .

أقول : و روى هذا المعنى القميّ في تفسيره بإسناده عن أبي الربيع عن أبي -
 جعفر عليه السلام في جواب ما سأله نافع بن الأزرق ، ورواه في الدر المنثور بطرق عن سعيد
 ابن جبير و ابن جريح و ابن زيد .





وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٦) فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ (٤٧) وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٤٨) وَقَالُوا يَا أَيُّهَ السَّاحِرِ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّا لَمُهْتَدُونَ (٤٩) فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ (٥٠) وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٥١) أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ (٥٢) فَلَوْلَا ائْتَىٰ عَلَيْهِ أَسُورَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَأُكَةُ مُقْتَرِنِينَ (٥٣) فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (٥٤) فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ (٥٥) فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ (٥٦).

﴿بيان﴾

لَمَّا ذَكَرَ طَعْيَانَهُمْ بَعْدَ تَمَتُّعِهِمْ بِنِعْمِهِ وَرَمِيهِمُ الْحَقَّ الَّذِي جَاءَهُمْ بِهِ رَسُولُ مَبِينٍ بِأَنَّهُ سِحْرٌ وَأَنَّهُمْ قَالُوا : لَوْ لَا نَزَلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرِيبَيْنِ عَظِيمٍ فَرَجَحُوا الرَّجُلَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ بِكَثْرَةِ مَالِهِ مِثْلَ لَهُمْ بِقِصَّةِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَفِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ

حيث أرسله الله إليهم بآياته الباهرة فضحكوا منها واستهزؤا بها ، واحتج فرعون فيما خاطب به قومه على أنه خير من موسى بملك مصر وأنهار تجري من تحتة فاستخفهم فأطاعوه قال أمر استكبارهم أن انتقم الله منهم فأغرقهم .

قوله تعالى : « ولقد أرسلنا موسى بآياتنا إلى فرعون وملأه فقال إني رسول رب العالمين » اللام في « لقد » للقسم ، والباء في قوله : « بآياتنا » للمصاحبة ، والباقي ظاهر .

قوله تعالى : « فلمّا جاءهم بآياتنا إذا هم منها يضحكون » المراد بمجيئهم بالآيات إظهار المعجزات للدلالة على الرسالة ، والمراد بالضحك ضحك الاستهزاء استخفافاً بالآيات .

قوله تعالى : « وما نريهم من آية إلا هي أكبر من أختها » إلخ الأخت المثل وقوله : « هي أكبر من أختها » كناية عن كون كل واحدة منها بالغة في الدلالة على حقيقة الرسالة ، وجملة « وما نريهم من آية » إلخ حال من ضمير « منها » ، والمعنى فلمّا أتاهم بالمعجزات إذا هم منها يضحكون والحال أن كلّاً منها تامّة كاملة في إعجازها ودالتها من غير نقص ولا قصور .

وقوله : « وأخذناهم بالعذاب لعلمهم يرجعون » أي رجاء أن يرجعوا عن استكبارهم إلى قبول رسالته ، والمراد بالعذاب الذي أخذوا به آيات الرجز التي نزلت عليهم من السنين ونقص من الثمرات والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات كما في سورة الأعراف .

قوله تعالى : « وقالوا يا أيّها الساحر ادع لنا ربك بما عهد عندك إننا لمهتدون » ما في « بما عهد عندك » مصدريّة أي بعهد عندك والمراد به عهده أن يكشف عنهم العذاب لو آمنوا كما قيل أو أن يستجيب دعاءه إذا دعا كما احتمله بعضهم .

وقولهم : يا أيّها الساحر خطاب استهزاء استكباراً منهم كما قالوا : ادع ربك ولم يقولوا : ادع ربنا أو ادع الله استكباراً ، والمراد أنهم طلبوا منه الدعاء لكشف العذاب عنهم ووعده الإهداء .

وقيل : معنى الساحر في عرفهم العالم و كان الساحر عندهم عظيما يعظمونه و لم يكن صفة ذم . وليس بذلك بل كانوا ساخرين على استكبارهم كما يشهد به قولهم : ادع لنا ربك .

قوله تعالى : « فلما كشفنا عنهم العذاب إذا هم ينكثون » النكث نقض العهد و خلف الوعد ، و وعدهم هو قولهم : « إننا لمهتدون » .

قوله تعالى : « و نادى فرعون في قومه قال يا قوم أليس لي ملك مصر و هذه الأنهار تجري من تحتي أفلا تبصرون » أي ناداهم و هو بينهم ، و فصل « قال » لكونه في موضع جواب السؤال كأنه قيل : فما ذا قال ؟ فقيل : قال كذا .

و قوله : « و هذه الأنهار تجري من تحتي » أي من تحت قصري أو من بستاني الذي فيه قصري المرتفع العالي البناء ، والجملة أعني قوله : « و هذه الأنهار » إلخ حالية أو « و هذه الأنهار » معطوف على « ملك مصر » و قوله : « تجري من تحتي » حال من الأنهار ، والأنهار أنهار النيل .

و قوله : « أفلا تبصرون » في معنى تكرير الاستفهام السابق في قوله « أليس لي ملك مصر » إلخ .

قوله تعالى : « أم أنا خير من هذا الذي هو مهين ولا يكاد يبين » المهين المحقير الضعيف من المهانة بمعنى الحقارة ، و يريد بالمهين موسى عليه السلام لما به من الفقر و رثالة الحال .

و قوله : « ولا يكاد يبين » أي يفصح عن مراده و لعله كان يصف موسى عليه السلام به باعتبار ما كان عليه قبل الرسالة لكن الله رفع عنه ذلك لقوله : « قال قد أوتيت سؤالك يا موسى » طه : ٣٦ بعد قوله عليه السلام : « و احلل عقدة من لساني يفقهوا قولي » طه : ٢٨ .

وقوله في صدر الآية : « أم أنا خير » إلخ أم فيه إما منقطعة لتقرير كلامه السابق والمعنى بل أنا خير من موسى لأنه كذا و كذا ، و إما متصلة و أحد طرفي الترديد محذوف مع همزة الاستفهام والتقدير أهذا خير أم أنا خير إلخ و في المجمع قال سيبويه

والخليل : عطف أنا بأم على « أفلا تبصرون » لأن معنى « أنا خير » معنى أم تبصرون فكأنه قال : أفلا تبصرون أم تبصرون لأنهم إذا قالوا له : أنت خير منه فقد صاروا بصراء عنده انتهى أي إن وضع « أم أنا خير » موضع أم تبصرون من وضع المسبب موضع السبب أو بالعكس .

وكيف كان فالإشارة إلى موسى بهذا من دون أن يذكره باسمه للتحقير وتوصيفه بقوله : « أَلَدِي هُوَ مِهِنْ وَلَا يَكَادُ يَمِيزُ » للتحقير وللدلالة على عدم خيريته .

قوله تعالى : « فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أُوجَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ » الأسورة جمع سوار بالكسر وقال الراغب : هو معرب دستواره قالوا : كان من دأبهم أنهم إذا سوتوا رجلاً سوتوه بسوار من ذهب و طوقوه بطوق من ذهب فالمعنى لو كان رسولاً وساد الناس بذلك لألقي إليه أسورة من ذهب .

وقوله : « أُوجَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ » الظاهر أن الاقتران بمعنى التقارن كالاستباق والاستواء بمعنى التسابق والتساوي ، والمراد إتيان الملائكة معه متقارنين لتصديق رسالته ، وهذه الكلمة مما تكررت على لسان مكدّي الرسل كقولهم : « لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا » الفرقان : ٧ .

قوله تعالى : « فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ » أي استخفّ عقول قومه وأحلامهم ، والباقي ظاهر .

قوله تعالى : « فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ » الإيساف الإغصاب أي فلما أغضبونا بفسوقهم انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين ، والغضب منه تعالى إرادة العقوبة .

قوله تعالى : « فَجَعَلْنَاهُمْ سُلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ » السلف المتقدم والظاهر أن المراد بكونهم سلفاً للآخرين تقدمهم عليهم في دخول النار، والمثل الكلام السائر الذي يتمثل به ويعتبر به ، والظاهر أن كونهم مثلاً لهم كونهم بما يعتبر به الآخرون لو اعتبروا واتعظوا .

﴿ بحث روائي ﴾

في تفسير القمي في قوله تعالى : « ولا يكاديبين » قال : لم يبين الكلام .
وفي التوحيد بإسناده إلى أحمد بن أبي عبد الله رفعه إلى أبي عبد الله عليه السلام في قول الله عز وجل « فلمّا آسفونا انتقمنا منهم » قال : إن الله لا يأسف كأسفنا ولكنّه خلق أولياء لنفسه يأسفون و يرضون وهم مخلوقون مدبرون فجعل رضاهم لنفسه رضى وسخطهم لنفسه سخطاً وذلك لأنّه جعلهم الدعاة إليه والأدلاء عليه فلذلك صاروا كذلك .
و ليس أن ذلك يصل إلى الله كما يصل إلى خلقه ولكن هذا معنى ما قال من ذلك ، وقد قال أيضاً من أهان لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة ودعاني إليها ، وقال أيضاً : « من يطع الرسول فقد أطاع الله » ، وقال أيضاً : « إن الذين يبايعونك إنّما يبايعون الله » و كل هذا وشبهه على ما ذكرت لك ، وهكذا الرضا والغضب وغيرهما من الأشياء ممّا يشاكل ذلك .

ولو كان يصل إلى المكوّن الأسف والضجر وهو الذي أحدثهما وأنشأهما لجاز لقائل أن يقول : إن المكوّن يبدي يوماً لأنّه إذا دخله الضجر والغضب دخله التغيير فإذا دخله التغيير لم يؤمن عليه الإبادة ، و لو كان ذاك كذلك لم يعرف المكوّن من المكوّن ولا القادر من المقدور ولا الخالق من المخلوقين تعالى الله عن هذا القول علواً كبيراً .

هو الخالق للأشياء لا حاجة فإذا كان لا حاجة استحال الحد والكيف فيه فافهم ذلك إن شاء الله .

أقول و روى مثله في الكافي بإسناده عن محمد بن إسماعيل بن بزيع عن عمه حمزة بن بزيع عنه عليه السلام .





وَلَمَّا ضَرَبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُونَ (٥٧) وَقَالُوا ءِآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ (٥٨) إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَءِيلَ (٥٩) وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ مِنْكُمْ مَلَكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُقُونَ (٦٠) وَ إِنَّهُ لَعَلَّمُ لِلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَ بِهَا وَاتَّبِعُونَ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (٦١) وَلَا يَصُدُّكُمْ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (٦٢) وَ لَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا (٦٣) إِنْ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (٦٤) فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابٍ يَوْمَ أَلِيمٍ (٦٥) .

﴿بيان﴾

إشارة إلى قصة عيسى بعد الفراغ عن قصة موسى عليه السلام وقد تم عليها مجادلتهم النبي صلى الله عليه وآله في عيسى عليه السلام وأُجيب عنها .

قوله تعالى : « وَلَمَّا ضَرَبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُونَ - إلى قوله : - خَصِمُونَ » الآية إلى تمام أربع آيات أو ست آيات حول جدال القوم فيما ضرب من مثل ابن مريم ، والذي يتحصل بالتدبر فيها نظراً إلى كون السورة مكية ومع قطع النظر عن الروايات هو أن المراد بقوله : « وَلَمَّا ضَرَبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا » هو ما أنزله

الله من وصفه في أول سورة مريم فإنها السورة المكيّة الوحيدة التي وردت فيها قصة عيسى بن مريم عليه السلام تفصيلا ، و السورة تقصّ قصص عدّة من النبيّين بما أن الله أنعم عليهم كما تختتم قصصهم بقوله : « أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيّين » مريم : ٥٨ وقد وقع في هذه الآيات قوله : « إن هو إلّا عبد أنعمنا عليه » و هو من الشواهد على كون قوله : « ولما ضرب ابن مريم مثلا » إشارة إلى ما في سورة مريم .

و المراد بقوله : « إذا قومك منه يصدّون » بكسر الصاد أي يضجّون ويضحكون ذمّ لقريش في مقابلتهم المثل الحقّ بالتهكّم و السخرية ، و قرىء « يصدّون » بضمّ الصاد أي يعرضون و هو أنسب للجملة التالية .

و قوله : « و قالوا آلهتنا خير أم هو » الاستفهام للإيثار أي آلهتنا خير من ابن مريم كأنهم لما سمعوا اسمه بما يصفه القرآن به من النعمة والكرامة أعرضوا عنه بما يصفه به القرآن و أخذوه بماله من الصفة عند النصارى أنّه إله ابن إله فردّوا على النبيّ ﷺ بأنّ آلهتنا خير منه و هذا من أسخف الجدل كأنهم يشيرون بذلك إلى أنّ الذي في القرآن من وصفه لا يعتنى به و ما عند النصارى لا ينفع فإنّ آلهتهم خير منه .

و قوله : « ما ضربوه لك إلّا جدلا » أي ما وجهوا هذا الكلام : « آلهتنا خير أم هو » إليك إلّا جدلا يريدون به إبطال المثل المذكور و إن كان حقّا « بل هم قوم خصمون » أي ثابتون على خصومتهم مصرّون عليها .

و قوله : « إن هو إلّا عبد أنعمنا عليه » ردّ لما استفاد من قولهم : « آلهتنا خير أم هو » أنّه إله النصارى كما سيجيء .

و قال الزمخشريّ في الكشاف و كثير من المفسّرين و نسب إلى ابن عبّاس و غيره في تفسير الآية : إنّ النبيّ ﷺ لما قرء قوله تعالى : « إنكم و ما تعبدون من دون الله حصب جهنّم » على قريش امتعضوا من ذلك امتعاضا شديدا فقال ابن الزبيريّ :

يا محمد أخاصّة لنا ولا لهتنا أم لجميع الأمم ؟ فقال ﷺ : هو لكم ولا لهتكم ولجميع الأمم .

فقال : خصمتك ورب الكعبة ألسنت تزعم أن عيسى بن مريم نبي وتثني عليه خيراً وعلى أمّه ؟ وقد علمت أن النصارى يعبدونهما ، وعزير يعبد والملائكة يعبدون فإن كان هؤلاء في النار فقد رضينا أن نكون نحن وآلهتنا معهم ففرحوا وضحكوا وسكت النبي ﷺ فأ نزل الله : « إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون » ونزلت هذه الآية .

والمعنى ولما ضرب ابن الزبيري عيسى بن مريم مثلاً وجادل رسول الله ﷺ بعبادة النصارى إياه إذا قومك يعني قريشاً من هذا المثل يضجون فرحاً وضحكاً بما سمعوا منه من إسكات رسول الله ﷺ ، وقالوا : آلهتنا خير أم هو أي إن عيسى عندك خير من آلهتنا وإذا كان هو حصب جهنم فأمر آلهتنا هيّن . ما ضربوا هذا المثل لك إلا جدلاً وغلبة في القول لالميز الحق من الباطل .

وفيه أنه تقدّم في تفسير (١) قوله : « إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم » الأنبياء : ٩٨ أن هذه الرواية بما فيها من وجوه الوهن والخلل ضعيفة لا يعابها حتى نقل عن الحافظ ابن حجر أن الحديث لا أصل له ولم يوجد في شيء من كتب الحديث لأمسنداً ولا غير مسند . وقصة ابن الزبيري هذه وإن رويت من طرق الشيعة على وجه سليم عن المناقشة لكن لم يذكر فيها نزول قوله : « ولما ضرب ابن مريم » الآية هناك .

على أن ظاهر قوله : « ضرب ابن مريم مثلاً » وقوله : « آلهتنا خير أم هو » لا يلائم ما فسّرت به تلك الملاءمة .

وقيل : إنهم لما سمعوا قوله تعالى : « إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه

من تراب ثم قال له كن فيكون» آل عمران : ٥٩ قالوا : نحن أهدى من النصارى لأنهم يعبدون آدميًّا ونحن نعبد الملائكة - يريدون أرباب الأصنام - فألهتنا خير من إلههم فالذي ضرب المثل بابن مريم هو الله سبحانه وقولهم : «ءآلهتنا خير أم هو» لتفضيل آلهتهم على عيسى لا بالعكس كما في الوجه السابق .

وفيه أن قوله تعالى : «إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم» مدنيّة . وهذه الآيات أعني قوله : «ولما ضرب ابن مريم» الخ آيات مكّيّة من سورة مكّيّة .

على أن الأساس في قولهم - على هذا الوجه - تفضيلهم أنفسهم على النصارى فلا يرتبط على هذا قوله : «إن هو إلا عبد أنعمنا عليه» الخ بما تقدّمه .

وقيل : إنهم لمّا سمعوا قوله : «إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم» ضجّوا وقالوا : ما يريد محمد بهذا إلا أن نعبد كما يعبد النصارى المسيح ، وآلهتنا خير منه أي من محمد .

وفيه ما في سابقه .

وقيل : مرادهم بقولهم : «ءآلهتنا خير أم هو» التّصلّ والتّخلّص عمّا أنكر عليهم من قولهم : الملائكة بنات الله ، ومن عبادتهم لهم كأنهم قالوا : ما كان ذلك منّا بدعاً فإنّ النصارى يعبدون المسيح وينسبونه إلى الله وهو بشر ونحن نعبد الملائكة وننسبهم إلى الله وهم أفضل من البشر .

وفيه أنّه لا يفي بتوجيه قوله : «ولما ضرب ابن مريم مثلاً إذا قومك منه يصدّون» على أن قوله : «إن هو إلا عبد أنعمنا عليه» على هذا الوجه لا يرتبط بما قبله كما في الوجهين السابقين .

وقيل : معنى قولهم : «ءآلهتنا خير أم هو» أن مثلنا في عبادة الآلهة مثل النصارى في عبادة المسيح فأيهما خير ؟ عبادة آلهتنا أم عبادة المسيح ؟ فإن قال : عبادة المسيح خير فقد اعترف بعبادة غير الله وإن قال : عبادة الآلهة فكذلك ، وإن قال : ليس في عبادة المسيح خير فقد قصر به عن منزلته وجوابه أن اختصاص المسيح بضرب من التشريف

والإِنْعَام من الله تعالى لا يوجب جواز عبادته .

وفيه أنه في نفسه لا بأس به لكن الشأن في دلالة قوله تعالى : « آلهتنا خير أم هو » على هذا التفصيل .

وقال في المجمع في الوجوه التي أوردتها في معنى الآية : و رابعها ما رواه سادة أهل البيت عن علي عليه السلام أنه قال : جئت إلى رسول الله صلى الله عليه وآله يوماً فوجدته في ملائ من قريش فنظر إلي ثم قال : يا علي إنما مثلك في هذه الأمة مثل عيسى بن مريم أحبه قوم فأفراطوا في حبه فهلكوا ، وأبغضه قوم فأفراطوا في بغضه فهلكوا ، واقتصد فيه قوم فنجوا . فعظم ذلك عليهم فضحكوا وقالوا : يشبهه بالأنبياء والرسل فنزلت الآية .

أقول : والرواية غير متعوضة لتوجيه قولهم : « آلهتنا خير أم هو » ولئن كانت القصة سبباً للنزول فمعنى الجملة : لئن نتبع آلهتنا ونطيع كبراءنا خير من أن نتولى علينا فيتحكم علينا أو خير من أن نتبع محمداً فيحكم علينا ابن عمه .

ويمكن أن يكون قوله : « وقالوا آلهتنا خير أم هو » إلخ استثناءً والنازل في القصة هو قوله : « ولما ضرب ابن مريم مثلاً » الآية .

قوله تعالى : « إن هو إلا عبد أعبدنا عليه وجعلناه مثلاً لبنى إسرائيل » الذي يستدعيه السياق أن يكون الضمير لابن مريم ، والمراد بكونه مثلاً - على ما قيل - كونه آية عجيبة إلهية يسير ذكره كالأمثال السائرة .

والمعنى ليس ابن مريم إلا عبداً متظاهراً بالعبودية أنعمنا عليه بالنبوة وتأييده بروح القدس وإجراء المعجزات الباهرة على يديه وغير ذلك وجعلناه آية عجيبة خارقة نصف به الحق لبنى إسرائيل .

وهذا المعنى كما ترى رد لقولهم : « آلهتنا خير أم هو » الظاهر في تفضيلهم آلهتهم في ألوهيتها على المسيح عليه السلام في ألوهيته ومحصّله أن المسيح لم يكن إلهاً حتى ينظر في منزلته في ألوهيته وإنما كان عبداً أنعم الله عليه بما أنعم ، وأما آلهتهم

فنظر القرآن فيهم ظاهر .

قوله تعالى : « ولو شئنا لجعلنا منكم ملائكة في الأرض يخلفون » الظاهر أن الآية متصلة بما قبلها مسرودة لرفع استبعاد أن يتلبس البشر من الكمال ما يقصه القرآن عن عيسى عليه السلام فيخلق الطير ويحيي الموتى ويكلم الناس في المهدي غير ذلك فيكون كالملائكة المتوسطين في الأحياء والإماتة والرزق وسائر أنواع التدبير ويكون مع ذلك عبداً غير معبود و مألوها غير إله فإن هذا النوع من الكمال عند الوثنية مختص بالملائكة وهو ملاك ألوهيتهم ومعبوديتهم وبالجملة هم يحلون تلبس البشر بهذا النوع من الكمال الذي يخصونه بالملائكة .

فأجيب بأن لله أن يزكي الإنسان ويطهره من أدناس المعاصي بحيث يصير باطنه باطن الملائكة فظاها ظاهر البشر و باطنه باطن الملك يعيش في الأرض يخلف مثله و يخلفه مثله ويظهر منه ما يظهر من الملائكة ^(١) .

و على هذا فمن في قوله : « منكم » للتبويض وقوله : « يخلفون » أي يخلف بعضهم بعضاً .

و في المجمع أن « من » في قوله : « منكم » تفيد معنى البدلية كما في قوله :

فليت لنا من ماء زمزم شربة مبردة باتت على الطهيان ^(٢)

وقوله : « يخلفون » أي يخلفون بني آدم و يكونون خلفاء لهم ، والمعنى ولو نشاء أهلكناكم وجعلنا بدلکم ملائكة يسكنون الأرض ويعمرونها و يعبدون الله .

و فيه أنه لا يلائم النظم تلك الملازمة .

قوله تعالى : « وإنه لعلم للساعة فلا تمترن بها واتبعون هذا صراط مستقيم »

(١) وليس هذا من الانقلاب المحال في شيء بل نوع من التكامل الوجودي بالخروج

من حد منه أدنى إلى حد منه أعلى كما بين في محله .

(٢) الطهيان قلة الجبل ومعنى البيت ليت لنا بدلا من ماء زمزم شربة من الماء مبردة

بقيت ليلة على قلة الجبل .

ضمير «إنه» لعيسى ﷺ والمراد بالعلم ما يعلم به ، و المعنى وإن عيسى يعلم به الساعة في خلقه من غير أب وإحيائه الموتى فيعلم به أن الساعة ممكنة فلا تشكوا في الساعة ولا تترابوا فيها البتة .

وقيل : المراد بكونه علما للساعة كونه من أشراتها ينزل على الأرض فيعلم به قرب الساعة .

وقيل : الضمير للقرآن وكونه علما للساعة كونه آخر الكتب المنزلة من السماء . وفي الوجهين جميعاً خفاء التفريع الذي في قوله : « فلا تمترن بها » .

وقوله : « واتبعون هذا صراط مستقيم » قيل : هو من كلامه تعالى والمعنى اتبعوا هداي أو شرعي أو رسولي ، وقيل : من كلام الرسول بأمر منه تعالى .

قوله تعالى : « ولا يصدنكم الشيطان إنه لكم عدو مبين » الصد الصرف والباقي ظاهر .

قوله تعالى : « ولما جاء عيسى بالبينات قال قد جئتكم بالحكمة » إلخ المراد بالبينات الآيات البينات من المعجزات ، و بالحكمة المعارف الإلهية من العقائد الحقّة والأخلاق الفاضلة .

وقوله : « ولا يبين لكم بعض الذي تختلفون فيه » أي في حكمه من الحوادث والأفعال ، والذي يختلفون فيه وإن كان أعم من الاعتقادات التي يختلف في كونها حقّة أو باطلة والحوادث والأفعال التي يختلف في مشروع حكمها لكن المناسب لسبق قوله : « قد جئتكم بالحكمة » أن يختص ما اختلفوا فيه بالحوادث والأفعال والله أعلم .
وقيل : المراد بقوله : « بعض الذي تختلفون فيه » كل الذي تختلفون فيه . و هو كما ترى .

وقيل : المراد لا يبين لكم أمور دينكم دون أمور دنياكم ولا دليل عليه من لفظ الآية ولا من المقام .

وقوله : « فاتقوا الله وأطيعون » نسب التقوى إلى الله والطاعة إلى نفسه ليسجل أنه لا يدعي إلا الرسالة .

قوله تعالى : « إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ » دعوة منه إلى عبادة الله وحده وأنه هو ربه وربهم جميعاً وإتمام للحجة على من يقول بأُلوهيته. **قوله تعالى :** « فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابٍ يَوْمَ أَلِيمٍ » ضمير «من بينهم» لمن بعث إليهم عيسى عليه السلام والمعنى فاختلف الأحزاب المتشعبة من بين أمته في أمر عيسى من كافر به قال فيه ، ومن مؤمن به غال فيه ، و من مقتصد لزم الاعتدال .

و قوله : « فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابٍ يَوْمَ أَلِيمٍ » تهديد و وعيد للقالى منهم والغالى .





هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٦٦)
 الْآخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ (٦٧) يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ
 عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ (٦٨) الَّذِينَ آمَنُوا بَايَاتِنَا وَكَانُوا
 مُسْلِمِينَ (٦٩) ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَزُوجُكُمْ تُخْبِرُونَ (٧٠) يُطَافُ
 عَلَيْهِمْ بِصُحُفٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ
 الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٧١) وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا
 كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٧٢) لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ (٧٣) إِنَّ
 الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (٧٤) لَا يَفْتَرُّ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ
 مُبْسَوْنَ (٧٥) وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ (٧٦) وَنَادَوْا
 يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَا كُنْتُمْ (٧٧) لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ
 وَلَكِنْ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ (٧٨).

﴿بيان﴾

رجوع إلى إنذار القوم وفيه تخويفهم بالساعة والإشارة إلى ما يؤل إليه حال
 المتقين والمجرمين فيها من الثواب والعقاب .
 قوله تعالى : « هل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة وهم لا يشعرون »

النظر الانتظار ، والبغته الفجأة ، والمراد بعدم شعورهم بها غفلتهم عنها لاشتغالهم بأُمور الدنيا كما قال تعالى : « ما ينظرون إلاَّ صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون » يس: ٣٩ فلا يتكرّر المعنى في قوله : « بغته وهم لا يشعرون » .

والمعنى ما ينتظر هؤلاء الكفار بكفرهم و تكذيبهم لآيات الله إلاَّ أن تأتيهم الساعة مباغتة لهم وهم غافلون عنها مشغولون بأُمور دنياهم أي إن حالهم حال من هدده الهلاك فلم يتوسّل بشيء من أسباب النجاة وقد ينتظر الهلاك ففي الكلام كناية عن عدم اعتنائهم بالإيمان بالحق . ليتخلصوا به عن أليم العذاب .

قوله تعالى : « الأُخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدوٌ إلاَّ المتّقين » الأُخلاء جمع خليل وهو الصديق حيث يرتفع خلّة صديقه وحاجته ، والظاهر أن المراد بالأُخلاء المطلق الشامل للمخالّة والتحاب في الله كما في مخالّة المتّقين أهل الآخرة والمخالّة في غيره كما في مخالّة أهل الدنيا فاستثناء المتّقين متصل .

والوجه في عداوة الأُخلاء غير المتّقين أن من لوازم المخالّة إعانة أحد الخليلين الآخر في مهام أُموره فإذا كانت لغير وجه الله كان فيها الإعانة على الشقوة الدائمة والعذاب الخالد كما قال تعالى حاكياً عن الظالمين يوم القيامة : « يا ويلتى ليتنى لم أتخذ فلاناً خليلاً لقد أضلّني عن الذكر بعد إذ جاءني » الفرقان : ٢٩ ، وأما الأُخلاء من المتّقين فإن مخالّتهم تتأكّد وتنفعهم يومئذ .

وفي الخبر النبوي إذا كان يوم القيامة انقطعت الأرحام وقلت الأُنساب وذهبت الأُخوة إلاَّ الأُخوة في الله وذلك قوله : « الأُخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدوٌ إلاَّ المتّقين » (١) .

قوله تعالى : « يا عباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون » من خطابه تعالى لهم يوم القيامة كما يشهد به قوله بعد : « ادخلوا الجنة » إلخ ، وفي الخطاب تأمين لهم من كل مكروه محتمل أو مقطوع به فإنّ مورد الخوف المكروه المحتمل و مورد الحزن المكروه المقطوع به فإنّ ارتفع ارتفعاً .

قوله تعالى : « الَّذِينَ آمَنُوا بآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ » الموصول بدل من المنادى المضاف في « يا عباد » أو صفة له ، والآيات كل ما يدل عليه تعالى من نبي و كتاب و أي آية أخرى دالة ، والمراد بالإسلام التسليم لإرادة الله وأمره .

قوله تعالى : « ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تحبرون » ظاهر الأمر بدخول الجنة أن المراد بالأزواج هي النساء المؤمنات في الدنيا دون الحور العين لأنهن في الجنة غير خارجات منها .

والحبرون - على ما قيل - السرور الذي يظهر أثره وحُبارِه في الوجه والحبرة الزينة وحسن الهيئة ، والمعنى ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم المؤمنات والحال أنكم تسرون سروراً يظهر أثره في وجوهكم أو تزيّنون بأحسن زينة .

قوله تعالى : « يطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب » إلخ الصحاف جمع صحيفة وهي القصعة أو أصغر منها ، والأكواب جمع كوب وهو كوز لا عروة له ، وفي ذكر الصحاف والأكواب إشارة إلى تنعمهم بالطعام والشراب .

وفي الالتفات إلى الغيبة في قوله : « يطاف عليهم » بين الخطابين «ادخلوا الجنة» و « أنتم فيها خالدون » تفخيم لا إكرامهم وإنعامهم أن ذلك بحيث ينبغي أن يذكر لغيرهم ليزيد به اغتباطهم ويظهر به صدق ما وعدوا به .

و قوله : « وفيها ما تشتهيها الأنفس وتلذ الأعين » الظاهر أن المراد بما تشتهيها الأنفس ما تتعلق به الشهوة الطبيعية من مذوق ومشوم ومسموع وملموس مما يتشارك فيه الإنسان و عامة الحيوان ، والمراد بما تلذّه الأعين الجمال والزينة وذلك مما الالتذاز به كالمختص بالإنسان كما في المناظر البهجة والوجه الحسن واللباس الفاخر ، ولذا غير التعبير فعبّر عما يتعلق بالأنفس بالاشتواء فيما يتعلق بالأعين باللذّة وفي هذين القسمين تنحصر اللذائذ النفسانية عندنا .

و يمكن أن تندرج اللذائذ الروحية العقلية فيما تلذّه الأعين فإن الالتذاز الروحي يعدّ من رؤية القلب .

قال في المجمع : وقد جمع الله سبحانه في قوله : « ما تشتهيها الأنفس وتلذ الأعين »

ما لو اجتمع الخلائق كلهم على أن يصفوا ما في الجنة من أنواع النعيم لم يزيدوا على ما انتظمته هاتان الصفتان . انتهى .

وقوله : « وأنتم فيها خالدون » إخبار ووعد وتبشير بالخلود و لهم في العلم به من اللذة الروحية ما لا يقاس بغيره ولا يقدر بقدر .

قوله تعالى : « و تلك الجنة التي أوتتموها بما كنتم تعملون » قيل : المعنى أعطيتموها بأعمالكم ، وقيل : أوتتموها من الكفار و كانوا داخلها لو آمنوا وعملوا صالحاً ، وقد تقدم الكلام في المعنيين في تفسير قوله تعالى : « أولئك هم الوارثون » المؤمنون : ١٠ .

قوله تعالى : « لكم فيها فاكهة كثيرة منها تأكلون » أضاف الفاكهة إلى ما مرّت الإشارة إليه من الطعام والشراب لإحصاء النعمة ، و « من » في « منها تأكلون » للتبعض ولا يخلو من إشارة إلى أنها لا تنفذ بالأكل .

قوله تعالى : « إنّ المجرمين في عذاب جهنم خالدون لا يفتر عنهم و هم فيها مبلسون » المراد بالمجرمين المتلبسون بالإجرام فيكون أعمّ من الكفار ويؤيده إيراد في مقابلة المتقين و هو أخصّ من المؤمنين .

والتفتير التخفيف والتقليل ، والابلاس اليأس ويأسهم من الرحمة أو من الخروج من النار .

قوله تعالى : « وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين » وذلك أنّه تعالى جازاهم بأعمالهم لكنّهم ظلموا أنفسهم حيث أوردوها بأعمالهم مورد الشقوة والهلكة .

قوله تعالى : « و قالوا يا مالك ليقض علينا ربك قال إنكم ما كنون » مالك هو الملك الخازن للنار على ما وردت به الأخبار من طرق العامة والخاصة .

و خطا بهم مالكاً بما يسألونه من الله سبحانه لكونهم محجوبين عنه كما قال تعالى : « كلاّ إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون » المطففين : ١٥ ، و قال : « قال اخسؤا فيها ولا تكلمون » المؤمنون : ١٠٨ .

فالمعنى أنّهم يسألون مالكاً أن يسأل الله أن يقضي عليهم .

والمراد بالقضاء عليهم إمامتهم ، ويريدون بالموت الانعدام والبطلان لينجوا بذلك عما هم فيه من الشقوة وأليم العذاب ، وهذا من ظهور ملكاتهم الدنيوية فإنهم كانوا يرون في الدنيا أن الموت انعدام وفوت لا انتقال من دار إلى دار فيسألون الموت بالمعنى الذي ارتكز في نفوسهم وإلا فهم قد ماتوا و شاهدوا ما هي حقيقته .

وقوله : « قال إنكم ماكثون » أي فيما أنتم فيه من الحياة الشقية والعذاب الأليم ، والقائل هو مالك جواباً عن مسألتهم .

قوله تعالى : « لقد جئناكم بالحق » ولكن أكثركم للحق كارهون » ظاهره أنه من تمام كلام مالك يقول عن لسان الملائكة وهو منهم ، وقيل : من كلامه تعالى و يبعده أنهم محبوبون يومئذ عن ربهم لا يكلمهم الله تعالى .

والخطاب لأهل النار بما أنهم بشر فالمعنى لقد جئناكم معشر البشر بالحق و لكن أكثركم وهم المجرمون كارهون للحق .

وقيل : المراد بالحق مطلق الحق أي حق كان فهم يكرهونه وينفرون منه وأما الحق المعهود الذي هو التوحيد أو القرآن فكلهم كارهون له مشتمزون منه .

والمراد بكرهاتهم للحق الكراهة بحسب الطبع الثاني المكتسب بالمعاصي والذنوب لا بحسب الطبع الأول الذي هو الفطرة التي فطر الناس عليها إذ لو كرهوه بحسبها لم يكلفوا بقبوله قال تعالى : « لا تبديل لخلق الله » الروم : ٣٠ ، وقال : « و نفس وما سوّاها فألهمها فجورها وتقواها » الشمس : ٨ .

و يظهر من الآية أن الملاك في السعادة والشقاء قبول الحق و رده .





أَمْ أَمْرًا أَمَرْنَا مُبْرِمُونَ (٧٩) أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ
وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ (٨٠) قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ
فَأَنَّا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ (٨١) سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا
يَصِفُونَ (٨٢) فَذَرَهُمْ يَخَوْضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي
يُوعَدُونَ (٨٣) وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهُ وَهُوَ
الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ (٨٤) وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا
بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٥) وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ
يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٨٦) وَ
لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ (٨٧) وَقِيلِ يَا رَبِّ
إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ (٨٨) فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَ قُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ
يَعْلَمُونَ (٨٩) .

﴿ بيان ﴾

رجوع إلى سابق الكلام وفيه توبيخهم على ما يريدون من الكيد برسول الله
صلّى الله عليه وآله وتهديدهم بأن الله يكيدهم ، ونفي الولد الذي يقولون به ، و
إبطال القول بمطلق الشريك وإثبات الربوبية المطلقة لله وحده وتختتم السورة بالتهديد
والوعيد .

قوله تعالى : « أم أبرموا أمراً فأننا مبرمون » الإبرام خلاف النقض و هو الإحكام ، و أم منقطعة .

والمعنى على ما يفيد سياق الآية والآية التالية : بل أحكموا أمراً من الكيد بك يا محمد فأننا محكمون الكيد بهم فالآية في معنى قوله تعالى : « أم يريدون كيدا فالذين كفروا هم المكيدون » الطور : ٤٢ .

قوله تعالى : « أم يحسبون أننا لا نسمع سرهم و نجواهم بلى و رسلنا لديهم يكتبون » السر ما يستسر و نه في قلوبهم والنجوى ما يناجيه بعضهم بعضاً بحيث لا يسمعه غيرهما ، و لما كان السر حديث النفس عبر عن العلم بالسر والنجوى جميعاً بالسمع . و قوله : « بلى و رسلنا لديهم يكتبون » أي بلى نحن نسمع سرهم و نجواهم و رسلنا الموكلون على حفظ أعمالهم عليهم يكتبون ذلك .

قوله تعالى : « قل إن كان للرحمان ولد فأنا أول العابدين » إبطال لألوهية الولد بإبطال أصل وجوده من جهة علمه بأنه ليس ، والتعبير بأن الشرطية دون لو الدالة على الامتناع - و كان مقتضى المقام أن يقال : لو كان للرحمان ولد - ، لاستنزالهم عن رتبة المكابرة إلى مرحلة الانتصاف .

والمعنى قل لهم إن كان للرحمان ولدكما يقولون ، فأنا أول من يعبد أداؤه لحق بنوته و مسانخته لوالده ، لكنني أعلم أنه ليس ولذلك لا أعبده لا لبغض و نحوه . و قد أوردوا للآية معاني أخرى :

منها أن المعنى لو كان لله ولد كما تزعمون فأنا أعبد الله وحده ولا أعبد الولد الذي تزعمون . ومنها أن « إن » نافية والمعنى قل ما كان لله ولد فأنا أول العابدين الموحدين له من بينكم .

و منها أن « العابدين » من عبد بمعنى أنف والمعنى قل لو كان للرحمان ولداً فأنا أول من أنف و استنكف عن عبادته لأن الذي يلد لا يكون إلا جسماً والجسمية تنافي الألوهية .

و منها أن المعنى كما أنني لست أول من عبد الله كذلك ليس لله ولد أي لوجاز

لكم أن تدعوا ذاك المحال جاز لي أن أدعي هذا المحال . إلى غير ذلك مما قيل لكن الظاهر من الآية ما قدّمناه .

قوله تعالى : « سبحان رب السماوات والأرض رب العرش عما يصفون » تسبيح له سبحانه عما ينسبون إليه ، والظاهر أن « رب العرش » عطف بيان لرب السماوات والأرض لأن المراد بالسماوات والأرض مجموع العالم المشهود وهو عرش ملكه تعالى الذي استوى عليه وحكم فيه ودبر أمره .

ولا يخلو من إشارة إلى حجة على الوجدانية إذ لما كان الخلق مختصاً به تعالى حتى باعتراف الخصم وهو من شؤون عرش ملكه ، والتدبير من الخلق والايجاد فأنه إيجاد النظام الجاري بين المخلوقات فالتدبير أيضاً من شؤون عرشه ربوبيته للعرش ربوبية لجميع السماوات والأرض .

قوله تعالى : « فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون » وعيد إجمالي لهم بأمر النبي ﷺ بالإعراض عنهم حتى يلاقوا يومهم منه من عذاب يوم القيامة .

والمعنى فاتركهم يخوضوا ويلعبوا في دنياهم ويشغلوا بذلك حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدونه وهو يوم القيامة كما ذكر في الآيات السابقة : « هل ينظرون إلا الساعة » إلخ .

قوله تعالى : « وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله وهو الحكيم العليم » أي هو الذي هو في السماء إله مستحق للمعبودية وهو في الأرض إله أي هو المستحق لمعبودية أهل السماوات والأرض وحده ، ويفيد تكرار « إله » كما قيل التأكيد والدلالة على أن كونه تعالى إلهاً في السماء والأرض بمعنى تعلقاً لوهيته بهما لا بمعنى استقراره فيهما أو في أحدهما .

وفي الآية مقابلة لما يثبت الوثنية لكل من السماء والأرض إلهاً أو آلهة ، وفي تذييل الآية بقوله : « وهو الحكيم العليم » الدال على الحصر إشارة إلى وحدانيته في الربوبية التي لازمها الحكمة والعلم .

قوله تعالى : « وتبارك الذي له ملك السماوات والأرض وما بينهما وعنده علم الساعة وإليه يرجعون » ثناء عليه تعالى بالتبارك وهو مصدريته للخير الكثير .
وكل من الصفات الثلاث المذكورة حجة على توحده في الربوبية أما ملكه للجميع فظاهر فإن الربوبية لمن يدبّر الأمر والتدبير للملك ، وأما اختصاص علم الساعة به فلأن الساعة هي المنزل الأقصى إليه سير الكل وكيف يصح أن يرب الأشياء من لا علم له بمنتهى مسيرها فهو تعالى رب الأشياء لا من يدعونه ، وأما رجوع الناس إليه فإن الرجوع للحساب والجزاء وهو آخر التدبير فمن إليه الرجوع فإليه التدبير ومن إليه التدبير له الربوبية .

قوله تعالى : « ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة إلا من شهد بالحق وهم يعلمون » السياق سياق العموم فالمراد بالذين يدعون ، أي يعبدونهم من دونه ، كل معبود غيره تعالى من الملائكة والجن والبشر وغيرهم .
والمراد « بالحق » الحق الذي هو التوحيد والشهادة به الاعتراف به ، والمراد بقوله : « وهم يعلمون » حيث أطلق العلم علمهم بحقيقة حال من شفّعوا له و حقيقة عمله كما قال : « لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً » النبأ : ٣٨ وإذا كان هذا حال الشفّعاء لا يملكونها إلا بعد الشهادة بالحق فما هم بشافعين إلا لأهل التوحيد كما قال : « ولا يشفعون إلا لمن ارتضى » .
والآية مصرحة بوجود الشفاعة .

قوله تعالى : « ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله فأنتى يؤفكون » أي إلى متى يصرفون عن الحق الذي هو التوحيد إلى الباطل الذي هو الشرك ، وذلك أنهم معترفون أن لا خالق إلا الله والتدبير الذي هو ملاك الربوبية غير منفك عن الخلق كما اتضح مراراً فالرب المعبود هو الذي بيده الخلق وهو الله سبحانه .

قوله تعالى : « وقيله يا رب إن هؤلاء قوم لا يؤمنون » ضمير « قيله » للنبي صلى الله عليه وآله بلا إشكال ، والقليل مصدر كالقول والقال ، و« قيله » معطوف على ما قبل - على الساعة في قوله : « وعنده علم الساعة » والمعنى وعنده علم قوله : « يارب »

إن هؤلاء قوم لا يؤمنون .

قوله تعالى : « فاصفح عنهم وقل سلام فسوف يعلمون » أمر بالاعراض عنهم وإقنات من إيمانهم ، وقوله : « قل سلام » أي وادعهم موادعة ترك من غيرهم لك فيهم ، وفي قوله « فسوف يعلمون » تهديد ووعيد .

﴿ بحث روائي ﴾

في الاحتجاج عن علي عليه السلام في حديث طويل يقول فيه : قوله : « إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين » أي الجاحدين ، والتأويل في هذا القول باطنه مضاد لظاهره .
أقول : الظاهر أن المراد أنه خلاف ما ينصرف إليه لفظ عابد عند الإطلاق .
وفي الكافي بإسناده عن هشام بن الحكم قال : قال أبو شاعر الديصاني : إن في القرآن آية هي قولنا . قلت : وما هي ؟ قال : هو الذي في السماء إله وفي الأرض إله فلم أدر بما أجيبه فحججت فخبرت أبا عبد الله عليه السلام فقال : هذا كلام زنديق خبيث إذا رجعت إليه فقل : ما اسمك بالكوفة ؟ فإنه يقول : فلان فقل : ما اسمك بالبصرة ؟ فإنه يقول : فلان ، فقل كذلك الله ربنا في السماء إله ، وفي الأرض إله ، وفي البحار إله ، وفي القفار إله ، وفي كل مكان إله .

قال : فقدمت فأثبت أبا شاعر فأخبرته فقال : هذه نقلت من الحجاز .

وفي تفسير القمي في قوله تعالى : « ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة » قال : هم الذين عبدوا في الدنيا لا يملكون الشفاعة لمن عبدهم .

وفي الكافي بإسناده عن أبي هاشم الجعفري قال : سألت أبا جعفر الثاني عليه السلام : ما معنى الواحد ؟ فقال : إجماع الألسن عليه بالوحدانية لقوله : « ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله » .



﴿سورة الدخان مكيّة وهي تسع وخمسون آية﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ حَمَّ (١) وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ
فِي لَيْلَةٍ مَبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ (٣) فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ (٤)
أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (٥) رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ
الْعَلِيمُ (٦) رَبَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ (٧)
لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَ رَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (٨).

﴿بيان﴾

يتلخص غرض السورة في إنذار المرتابين في الكتاب بعذاب الدنيا وعذاب الآخرة
وقد سبق بيان ذلك بأنه كتاب مبين نازل من عند الله على من أرسله إلى الناس لا نذارهم
وقد نزل رحمة منه تعالى لعباده خير نزول في ليلة القدر التي فيها يفرق كل أمر حكيم.
غير أن الناس وهم الكفار ارتابوا فيه لاعبين في هوساتهم وسيغشاهم أليم
عذاب الدنيا ثم يرجعون إلى ربهم فينتقم منهم بعد فصل القضاء بعذاب خالد .

ثم يذكر لهم تنظيراً لأول الوعידين قصة إرسال موسى عليه السلام إلى قوم فرعون
لا نجاء بني إسرائيل و تكذيبهم له وإغراقهم نكلاً منه .

ثم يذكر إنكارهم لثاني الوعيدين وهو الرجوع إلى الله في يوم الفصل فيقيم
الحجة على أنه آت لا محالة ثم يذكر طرفاً من أخباره وما سيجري فيه على المجرمين
و يصيبهم من ألوان عذابه ، وما سيثاب به المتقون من حياة طيبة ومقام كريم .

والسورة مكيّة بشهادة سياق آياتها .

قوله تعالى : « حم والكتاب المبين » الواو للقسم والمراد بالكتاب المبين القرآن .

قوله تعالى : « إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ » المراد بالليلة المباركة التي نزل فيها القرآن ليلة القدر على ما يدل عليه قوله تعالى : « إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ » القدر : ١ ، و كونها مباركة ظرفيتها للخير الكثير الذي ينسبط على الخلق من الرحمة الواسعة وقد قال تعالى : « وما أدراك ما ليلة القدر ليلة القدر خير من ألف شهر » القدر : ٣ .

و ظاهر اللفظ أنها إحدى الليالي التي تدور على الأرض و ظاهر قوله : « فيها يفرق » الدال على الاستمرار أنها تتكرر و ظاهر قوله تعالى : « شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن » البقرة : ١٨٥ أنها تتكرر بتكرر شهر رمضان فهي تتكرر بتكرر السنين القمرية و تقع في كل سنة قمرية مرة واحدة في شهر رمضان ، و أما أنها أي ليلة هي ؟ فلا إشعار في كلامه تعالى بذلك ، و أما الروايات فستوافيك في البحث الروائي التالي .

و المراد بنزول الكتاب في ليلة مباركة على ما هو ظاهر قوله : « إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ » و قوله : « إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ » القدر : ١ ، و قوله : « شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس و بينات من الهدى و الفرقان » البقرة : ١٨٥ أن النازل هو القرآن كله .

و لا يدفع ذلك قوله : و قرآنًا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث و نزلناه تنزيلاً أسرى : ١٠٦ و قوله : « و قال الذين كفروا لو لا أنزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلاً » الفرقان : ٣٢ ، الظاهرين في نزوله تدريجاً ، و يؤيد ذلك آيات أخر كقوله : « فإذا أنزلت سورة محكمة » سورة محمد : ٢٠ ، و قوله : « و إذا ما أنزلت سورة نظر بعضهم إلى بعض » التوبة : ١٢٧ و غير ذلك و يؤيد ذلك أيضاً ما لا يحصى من الأخبار المتضمنة لأسباب النزول .

و ذلك أنه يمكن أن يحمل على نزول القرآن مرتين مرة مجموعاً و جملة في ليلة واحدة من ليالي شهر رمضان ، و مرة تدريجاً و نجوماً في مدة ثلاث و عشرين سنة و هي مدة دعوته ﷺ .

لكن الذي لا ينبغي الارتياح فيه أن هذا القرآن المؤلف من السور والآيات بما فيه من السياقات المختلفة المنطبقة على موارد النزول المختلفة الشخصية لا يقبل النزول دفعة فإِنَّ الآيات النازلة في وقائع شخصية وحوادث جزئية مرتبطة بأزمنة وأمكنة وأشخاص وأحوال خاصة لا تصدق إلا مع تحقق موارد المتفرقة زمانا ومكانا وغير ذلك بحيث لو اجتمعت زمانا ومكانا وغير ذلك انقلبت عن تلك الموارد وصارت غيرها فلا يمكن احتمال نزول القرآن وهو على هيئته وحاله بعينها مرة جملة، ومرة نجوما.

فلو قيل بنزوله مرتين كان من الواجب أن يفرق بين المراتين بالإجمال والتفصيل فيكون نازلاً مرة إجمالاً ومرة تفصيلاً ونعني بهذا الإجمال والتفصيل ما يشير إليه قوله تعالى: «كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير» هود: ١ وقوله: «إنا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون وإنه في أم الكتاب لدينا لعلي حكيم» الزخرف: ٤ وقد مر: الكلام في معنى الأحكام والتفصيل في تفسير سورتي هود والزخرف.

وقيل: المراد بنزول الكتاب في ليلة مباركة افتتاح نزوله التدريجي في ليلة القدر من شهر رمضان فأول ما نزل من آيات القرآن - وهو سورة العلق أو سورة الحمد - نزل في ليلة القدر.

وهذا القول مبني على استبعاد منافاة نزول الكتاب كله في ليلة ونزوله التدريجي الذي تدل عليه الآيات السابقة وقد عرفت أن لامنافاة بين الآيات. على أنك خير بأنه خلاف ظاهر الآيات.

وقيل: إنه نزل أولاً جملة على السماء الدنيا في ليلة القدر ثم نزل من السماء الدنيا على الأرض تدريجاً في ثلاث وعشرين سنة مدة الدعوة النبوية.

وهذا القول مأخوذ من الأخبار الواردة في تفسير الآيات الظاهرة في نزوله جملة و ستمر بك في البحث الروائي التالي إن شاء الله.

وقوله: «إنا كنا منذرين» واقع موقع التعليل، وهو يدل على استمرار

الإِ نذار منه تعالى قبل هذا الإِ نذار ، فبدلَ على أنْ نزول القرآن من عنده تعالى ليس ببدع ، فإنّما هو إِ نذار و الإِ نذار سنّة جارية له تعالى لم تزل تجري في السابقين من طريق الوحي إلى الأنبياء والرسل و بعثهم لإِ نذار الناس .

قوله تعالى : « فيها يفرق كلّ أمر حكيم » ضمير « فيها » لليلة و الفرق فصل الشيء من الشيء بحيث يتمايزان و يقابله الأحكام فالأمر الحكيم ما لا يتميز بعض أجزائه من بعض ولا يتعيّن خصوصياته وأحواله كما يشير إلى ذلك قوله تعالى : « وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم » الحجر : ٢١ .

فللأمر بحسب القضاء الإلهي مرحلتان : مرحلة الإجمال و الإبهام و مرحلة التفصيل ، و ليلة القدر - على ما يدلّ عليه قوله : « فيها يفرق كلّ أمر حكيم - ليلة يخرج فيها الأمور من مرحلة الأحكام إلى مرحلة الفرق و التفصيل ، و قد نزل فيها القرآن و هو أمر من الأمور المحكمة فرق في ليلة القدر .

و لعلّ الله سبحانه أطلع نبيّه على جزئيات الحوادث التي ستقع في زمان دعوته و ما يقارن منها نزول كلّ آية أو آيات أو سورة من كتابه فيستدعي نزولها و أطلعه على ما ينزل منها فيكون القرآن نازلا عليه دفعة و جملة قبل نزوله تدريجا و مفرقا . و مآل هذا الوجه اطلاع النبي ﷺ على القرآن في مرحلة نزوله إلى القضاء التفصيلي قبل نزوله على الأرض و استقراره في مرحلة العين ، و على هذا الوجه لا حاجة إلى تفريق المرتبتين بالإجمال و التفصيل كما تقدّم في الوجه الأوّل .

و ظاهر كلام بعضهم أن المراد بقوله : « فيها يفرق كلّ أمر حكيم » تفصيل الأمور المبيّنة في القرآن من معارف و أحكام و غير ذلك . و يدفعه أن ظاهر قوله : « فيها يفرق » الاستمرار والذي يستمرّ في هذه الليلة بتكرّرها تفصيل الأمور الكونية بعد إحكامها و أمّا المعارف و الأحكام الإلهية فلا استمرار في تفصيلها فلو كان المراد فرقها كان الأنسب أن يقال : « فيها فرق » .

و قيل : المراد بكون الأمر حكيمًا إحكامه بعد الفرق لا الإحكام الذي قبل التفصيل ، و المعنى يقضى في الليلة كلّ أمر محكم لا يتغيّر بزيادة أو نقصان أو غير ذلك

هذا ، و الأظهر ما قد مناه من المعنى .

قوله تعالى : « أمراً من عندنا إنّا كنّا مرسلين » المراد بالأمر الشأن و هو حال من الأمر السابق و المعنى فيها يفرق كل أمر حال كونه أمراً من عندنا و مبتدئاً من لدنا ، و يمكن أن يكون المراد به ما يقابل النهي و المعنى يفرق فيها كل أمر بامر منّا ، و هو على أي حال متعلق بقوله : « يفرق » .

و يمكن أن يكون متعلقاً بقوله : « أنزلناه » أي حال كون الكتاب أمراً أو بامر من عندنا ، و قوله : « إنّا كنّا مرسلين » لا يخلو من تأييد لذلك ، و يكون تعليلاً له و المعنى إنّا أنزلناه أمراً من عندنا لأنّ سنّتنا الجارية إرسال الأنبياء و الرسل .

قوله تعالى : « رحمة من ربك » إنّه هو السميع العليم ، أي إنزاله رحمة من ربك أو أنزلناه لأجل إفاضة الرحمة على الناس أو لاقتضاء رحمة ربك إنزاله فقوله : « رحمة » حال على المعنى الأوّل و مفعول له على الثاني و الثالث .

و في قوله : « من ربك » التفات من التكلم مع الغير إلى الغيبة و وجهه إظهار العناية بالنبي ﷺ لأنّه هو الذي أنزل عليه القرآن و هو المُنذر المرسل إلى الناس . و قوله : « إنّه هو السميع العليم ، أي السميع للمسائل و العليم بالحوادث فيسمع مسألتهم و يعلم حاجتهم إلى الاهتداء بهدى ربك فينزل الكتاب و يرسل الرسول رحمة منه لهم .

قوله تعالى : « ربّ السماوات و الأرض و ما بينهما إن كنتم موقنين » لما كانت الوثنيّة يرون أنّ لكلّ صنف من الخلق إلهاً أو أكثر و ربّما اتّخذ قوم منهم إلهاً غير ما يتّخذونه غيرهم عقّب قوله : « من ربك » بقوله : « ربّ السماوات » الخ لئلاّ يتوهّم متوهّم منهم أنّ ربوبيّته للنبي ﷺ ليست بالاختصاص كالتي بينهم بل هو تعالى ربّه و ربّ السماوات و الأرض و ما بينهما ، و لذلك عقّبهُ أيضاً في الآية التالية بقوله : « لا إله إلا هو » .

و قوله : « إن كنتم موقنين » هذا الاشتراط كما ذكره الزمخشريّ من قبيل قولنا هذا إنعام زيد الذي تسامع الناس بكرمه و اشتهروا سخاءه إن بلغك حديثه و حدثت

بقصته فالمعنى هو الذي يعرفه الموقنون بأنه رب السماوات والأرض وما بينهما إن كنتم منهم عرفتموه بأنه رب كل شيء .

قوله تعالى . « لا إله إلا هو يحيى ويميت ربكم ورب آبائكم الأولين »
لما كان مدلول الآية السابقة انحصار الربوبية وهي الملك والتدبير فيه تعالى والألوهية وهي المعبودية بالحق من لوازم الربوبية عقبه بكلمة التوحيد النافية لكل إله دونه تعالى .

وقوله : « يحيى ويميت » من أخص الصفات به تعالى وهما من شؤون التدبير ، وفي ذكرهما نوع تمهيد لما سيأتي من إنذارهم بالمعاد .

وقوله : « ربكم ورب آبائكم الأولين » فيه كمال التصريح بأنه ربهم ورب آبائهم فليعبدوه ولا يتعللوا باتباع آبائهم في عبادة الأصنام ، ولتكميل التصريح سقت الجملة بالخطاب فقل : « ربكم ورب آبائكم » .

وهما أعني قوله : « يحيى ويميت » وقوله : « ربكم » خبران لمبتدء محذوف والتقدير هو يحيى ويميت الخ .

﴿ بحث روائي ﴾

في المجمع في قوله تعالى : « إنا أنزلناه في ليلة مباركة » : واللييلة المباركة هي ليلة القدر ، وهو المروي عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليه السلام .

وفي الكافي بإسناده عن علي بن إبراهيم عن أبيه عن ابن أبي عمير عن عمر بن أذينة عن الفضيل وزرارة ومحمد بن مسلم عن حمران أنه سأل أبا جعفر عليه السلام عن قول الله تعالى : « إنا أنزلناه في ليلة مباركة » قال : نعم ليلة القدر وهي في كل سنة في شهر رمضان في العشر الأواخر فلم ينزل القرآن إلا في ليلة القدر قال الله تعالى : « فيها يفرق كل أمر حكيم » قال : يقدر في ليلة القدر كل شيء يكون في تلك السنة إلى مثلها من قابل : خير وشر وطاعة ومعصية ومولود وأجل وبرزق فما قدر في تلك السنة وقضي

فهو المحتوم والله تعالى فيه المشيئة .

أقول : قوله : «فهو المحتوم والله فيه المشيئة» أي أنه محتوم من جهة الأسباب والشرائط فلا شيء يمنع عن تحققه إلا أن يشاء الله ذلك .

و في البصائر عن عباس بن معروف عن سعدان بن مسلم عن عبد الله بن سنان قال : سألته عن النصف من شعبان فقال : ما عندي فيه شيء ولكن إذا كانت ليلة تسع عشرة من شهر رمضان قسم فيها الأرزاق وكتب فيها الآجال وخرج فيها صلك الحاج واطلع الله إلى عباده فغفر الله لهم إلا شارب خمر مسكر .

فإذا كانت ليلة ثلاث وعشرين فيها يفرق كل أمر حكيم ثم ينهى ذلك ويمضى ذلك . قلت : إلى من؟ قال : إلى صاحبكم ولولا ذلك لم يعلم .

و في الدر المنثور أخرج محمد بن نصر وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله تعالى : « فيها يفرق كل أمر حكيم » قال : يكتب من أم الكتاب في ليلة القدر ما يكون في السنة من رزق أو موت أو حياة أو مطر حتى يكتب الحاج : يحج فلان ويحج فلان .

أقول : والأخبار في ليلة القدر وما يقضى فيها وفي تعيينها كثيرة جداً وسيأتي عمدتها في تفسير سورة القدر إن شاء الله تعالى .





بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ (٩) فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ
 مُبِينٍ (١٠) يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (١١) رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ
 إِنَّا مُؤْمِنُونَ (١٢) أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ (١٣)
 ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلِّمٌ مِثْلَهُمْ مَجْنُونٌ (١٤) إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابَ قَلِيلًا أَنْتُمْ
 عَائِدُونَ (١٥) يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ (١٦) وَلَقَدْ
 فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ (١٧) أَنْ أَدِّا إِلَى عِبَادِ
 اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٨) وَ أَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُمْ
 بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (١٩) وَ إِنِّي عُدْتُ بِرَبِّي وَ رَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ (٢٠)
 وَ أَنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَرِضُونِ (٢١) فَدَعَا رَبَّهُ أَنْ هُوَ لَا يَوْمَ
 مُجْرِمُونَ (٢٢) فَاسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ (٢٣) وَ انْزُكَّ الْبَحْرَ
 رَهَوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ (٢٤) كَمْ تَرَكَوْا مِنْ جَنَاتٍ وَ عُيُونٍ (٢٥)
 وَ زُرُوعٍ وَ مَقَامٍ كَرِيمٍ (٢٦) وَ نَعْمَةً كَانُوا فِيهَا فَاسْكِينَ (٢٧) كَذَلِكَ
 وَ أَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ (٢٨) فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَ الْأَرْضُ
 وَ مَا كَانُوا مُنْظَرِينَ (٢٩) وَ لَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ
 الْمُهِينِ (٣٠) مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَلِيًّا مِنَ الْمُسْرِفِينَ (٣١) وَ لَقَدْ

اخْتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَىٰ الْعَالَمِينَ (٣٢) وَآتَيْنَاهُمْ مِنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ
بَلَاءٌ مُّبِينٌ (٣٣) .

﴿بيان﴾

تذكر الآيات ارتيابهم في كتاب الله بعد ما ذكرت أنه كتاب مبين نازل في خير ليلة على رسوله لغرض الإذار رحمة من الله ، ثم تهددهم بعذاب الدنيا و بطش يوم القيامة وتمثّل لهم بقصة إرسال موسى إلى قوم فرعون و تكذيبهم له و إغراقهم .
ولا تخلو القصة من إيماء إلى أنه تعالى سينجّي النبي ﷺ والمؤمنين به من عتاة قريش بإخراجهم من مكّة ثم إهلاك صنديد قريش في تعقيبهم النبي ﷺ والمؤمنين به .
قوله تعالى : « بل هم في شك » يلعبون « ضمير الجمع لقوم النبي ﷺ ، والاضراب عن محذوف يدل عليه السياق السابق أي إنهم لا يوقنون ولا يؤمنون بما ذكر من رسالة الرسول و صفة الكتاب الذي أنزل عليه بل هم في شك » و ارتياب فيه يلعبون بالاشتغال بدنياهم ، و ذكر الزمخشري أن « الاضراب عن قوله : « إن كنتم موقنين » .
قوله تعالى : « فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين يغشى الناس » الارتقاب الانتظار و هذا وعيد بالعذاب و هو إتيان السماء بدخان مبين يغشى الناس » .
و اختلف في المراد بهذا العذاب المذكور في الآية :

ف قيل : المراد به المجاعة التي ابتلي بها أهل مكّة فإنهم لما أصرّوا على كفرهم و أذاهم النبي ﷺ والمؤمنين به دعا عليهم النبي ﷺ فقال : اللهم سنين كسني يوسف فأجذبت الأرض و أصابت قريشا مجاعة شديدة ، و كان الرجل لما به من الجوع يرى بينه و بين السماء كالدخان و أكلوا الميتة والعظام ثم جاؤا إلى النبي ﷺ و قالوا : يا محمد جئت تأمر بصلة الرحم و قومك قد هلكوا ، و وعدوه إن كشف الله عنهم الجذب أن يؤمنوا فدعا وسأل الله لهم بالخصب والسعة فكشف عنهم ثم عادوا إلى كفرهم و نقضوا عهدهم .

وقيل : إن الدخان المذكور في الآية من أشراط الساعة وهو لم يأت بعد وهو يأتي قبل قيام الساعة فيدخل أسماع الناس حتى أن رؤسهم تكون كالرأس الحنيد . و يسبب المؤمن منه مثل الزكمة وتكون الأرض كلها كبيت أوقد فيه ليس فيه خصاص^(١) و يمكن ذلك أربعين يوماً .

وربما قيل : إن المراد بيوم الدخان يوم فتح مكة حين دخل جيش المسلمين مكة فارتفع الغبار كال دخان المظلم ، و ربما قيل : المراد به يوم القيامة ، والقولان كما ترى .

وقوله : « يغشى الناس » أي يشملهم و يحيط بهم ، والمراد بالناس أهل مكة على القول الأول ، و عامة الناس على القول الثاني .

قوله تعالى : « هذا عذاب أليم ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون » حكاية قول الناس عند نزول عذاب الدخان أي يقول الناس يوم تأتي السماء بدخان مبين : هذا عذاب أليم و يسألون الله كشفه بالاعتراف ببروبيته و إظهار الإيمان بالدعوة الحقّة فيقولون : ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون .

قوله تعالى : « أنسى لهم الذكري و قد جاءهم رسول مبين » أي من أين لهم أن يتذكروا و يذعنوا بالحقّ والحال أنّه قد جاءهم رسول مبين ظاهر في رسالته لا يقبل الارتياب و هو محمد ﷺ ، و في الآية ردّ صدقهم في وعدهم .

قوله تعالى : « ثمّ تولّوا عنه وقالوا معلّم مجنون » التولّي الإعراض ، و ضمير « عنه » للرسول و « معلّم مجنون » خبران لمبتدأ محذوف هو ضمير راجع إلى الرسول والمعنى ثمّ أعرضوا عن الرسول وقالوا هو معلّم مجنون فرموه أوّلاً بأنّه معلّم يعلمه غيره فيسند ما تعلمه إلى الله سبحانه قال تعالى : « ولقد نعلم أنّهم يقولون إنّما يعلمه بشر » النحل : ١٠٣ ، و ثانياً بأنّه مجنون مختلّ العقل .

قوله تعالى : « إنّنا كشفوا العذاب قليلاً إنّكم عائدون » أي إنّنا كشفون

للعذاب زمانا إنكم عائدون إلى ما كنتم فيه من الكفر والتكذيب هذا بناء على القول الأول والآية تأكيد لرد صدقهم فيما وعدوه من الإيمان .

و أما على القول الثاني فالأقرب أن المعنى إنكم عائدون إلى العذاب يوم القيامة .

قوله تعالى : « يوم نبطش البطشة الكبرى إننا منتقمون » البطش - على ما ذكره الراغب - تناول الشيء بصولة ، وهذا اليوم بناء على القول الأول المذكور يوم بدر و بناء على القول الثاني يوم القيامة ، وربما أيد توصيف البطشة بالكبرى هذا القول الثاني فإن بطش يوم القيامة وعذابه أكبر البطش والعذاب قال تعالى : « فيعذب به الله العذاب الأكبر » العاشية : ١٤ كما أن أجره أكبر الأجر قال تعالى : « ولا أجر الآخرة أكبر » النحل : ٤١ .

قوله تعالى : « ولقد فتننا قبلهم قوم فرعون وجاءهم رسول كريم » الفتنة الامتحان والابتلاء للحصول على حقيقة الشيء . وقوله : « وجاءهم رسول كريم » الخ تفسير للامتحان ، والرسول الكريم موسى عليه السلام ، والكريم هو المتصف بالخصال الحميدة قال الراغب : الكرم إذا وصف الله تعالى به فهو اسم لإحسانه وإنعامه المتظاهر نحو قوله : « إن ربّي غنيّ كريم » وإذا وصف به الإنسان فهو اسم للأخلاق والأفعال المحمودة التي تظهر منه ، ولا يقال : هو كريم حتى يظهر ذلك منه ، قال : وكل شيء شرف في بابه فإنه يوصف بالكرم قال تعالى « وأنبئنا فيها من كل زوج كريم » وزروع ومقام كريم « إنه لقرآن كريم » « و قل لهما قولا كريما » انتهى .

قوله تعالى : « أن أدّوا إليّ عباد الله إنني لكم رسول أمين » تفسير لمجيء الرسول فإن معنى مجيء الرسول تبليغ الرسالة و كان من رسالة موسى عليه السلام إلى فرعون وقومه أن يرسلوا معهم بني إسرائيل ولا يعذبوهم ، والمراد بعباد الله بنو إسرائيل وعبر عنهم بذلك استرحاما وتلويحا إلى أنهم في استكبارهم وتعتديهم عليهم إنما يستكبرون على الله لأنهم عباد الله .

وفي قوله : « إنني لكم رسول أمين » حيث وصف نفسه بالأمانة دفع لاحتمال أن

يخونهم في دعوى الرسالة و إنجاء بني إسرائيل من سيطرتهم فيخرج معهم عليهم فيخرجهم من أرضهم كما حكى تعالى عن فرعون إذ قال للملأ حوله : « إن هذا لساحر عليم يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره » الشعراء : ٢٥ .

وقيل : « عباد الله » نداء لفرعون وقومه والتقدير أن أدوا إليّ ما أمركم به يا عباد الله ، ولا يخلو من التقدير المخالف للظاهر .

قوله تعالى : « و أن لا تعلوا على الله إني آتيكم بسلطان مبين » أي لا تتجبروا على الله بتكذيب رسالتي والإعراض عما أمركم الله فإن تكذيب الرسول في رسالته استعلاء وتجبر على من أرسله والدليل على أن المراد ذلك تعليل النهي بقوله : « إني آتيكم بسلطان مبين » أي حجة بارزة من الآيات المعجزة أو حجة المعجزة و حجة البرهان .

قيل : و من حسن التعبير الجمع بين التأدية والأمين وكذا بين العلو والسلطان .
قوله تعالى : « و إني عدت بربي وربكم أن ترجمون » أي التجأت إليه تعالى من رجحكم إيتاي فلا تقدرّون على ذلك ، والظاهر أنه إشارة إلى ما آمنه ربه قبل المجيء إلى القوم كما في قوله تعالى : « قالوا ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى قال لا تخافا إني معكما أسمع وأرى » طه : ٤٦ .

وبما مرّ يظهر فساد ما قيل : إن هذا كان قبل أن يخبره الله بعجزهم عن رجحه بقوله سبحانه : « فلا يسلون إليكما » .

قوله تعالى : « و إن لم تؤمنوا لي فاعتزلون » أي إن لم تؤمنوا لي فكونوا بمعزل مني لالي ولا علي ولا تعرتضوا لي بخير أو شر ، وقيل : المراد تنحّوا عني وانقطعوا ، و هو بعيد .

قوله تعالى : « فدع ربه أن هؤلاء قوم مجرمون » أي دعاه بأن هؤلاء قوم مجرمون وقد ذكر من دعائه السبب الداعي له إلى الدعاء وهو إجرامهم إلى حدّ يستحقّون معه الهلاك ويعلم ما سأله ممّا أجاب به ربه تعالى إذ قال : « فأسرعبادي ، إلخ و هو الإهلاك » .

قوله تعالى : « فأسر بعبادي ليلاً إنكم متبعون » الاسراء : السير بالليل فيكون قوله : « ليلاً » تأكيداً له و تصريحاً به ، والمراد بعبادي بنو إسرائيل ، وقوله : « إنكم متبعون » أي يتبعكم فرعون وجنوده ، وهو استئناف يخبر عما سيقع عقيب الاسراء . وفي الكلام إيجاز بالحذف والتقدير فقال له : أسر بعبادي ليلاً إنكم متبعون يتبعكم فرعون وجنوده .

قوله تعالى : « و اترك البحر رهواً إنهم جند مغرقون » قال في المفردات : و اترك البحر رهواً أي ساكناً ، وقيل : سعة من الطريق و هو الصحيح . انتهى وقوله : « إنهم جند مغرقون » تعليل لقوله : « و اترك البحر رهواً » .

وفي الكلام إيجاز بالحذف اختصاراً والتقدير أسر بعبادي ليلاً يتبعكم فرعون وجنوده حتى إذا بلغت البحر فاضربه بعصاك لينفتح طريق لجوازكم فجاوزوه و اتركه ساكناً أو مفتوحاً على حاله فيدخلونه طمعاً في إدراككم فهم جند مغرقون .

قوله تعالى : « كم تركوا من جنّات و عيون و زروع و مقام كريم و نعمة كانوا فيها فاكهين كذلك » « كم » للتكثير أي كثيراً ما تركوا ، وقوله : « من جنّات » إلخ بيان لما تركوا ، والمقام الكريم المساكن الحسنة الزاهية ، والنعمة بفتح النون التمتع و بناؤها بناء المرأة كالضربة و بكسر النون قسم من التمتع و بناؤها بناء النوع كالجلسة و فسروا النعمة ههنا بما يتنعم به و هو أنسب للترك ، و فاكهين من الفكاهة بمعنى حديث الأُنس و لعل المراد به ههنا التمتع كما يتمتع بالفواكه و هي أنواع الثمار . وقوله : « كذلك » قيل : معناه الأمر كذلك ، وقيل : المعنى نفعل فعلاً كذلك لمن نريد إهلاكه ، وقيل : الإشارة إلى الإخراج المفهوم من الكلام السابق والمعنى مثل ذلك الإخراج أخرجناهم منها .

و يمكن أن يكون حالاً من مفعول « تركوا » المحذوف والمعنى كثيراً ما تركوا أشياء كذلك أي على حالها والله أعلم .

قوله تعالى : « و أورثناها قوماً آخرين » الضمير لمفعول « تركوا » المحذوف المبيّن بقوله : « من جنّات » إلخ والمعنى ظاهر .

قوله تعالى : « فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين » بكاء السماء والأرض على شيء فائت كناية تخيلية عن تأثرهما عن فوته وفقده فعدم بكائهما عليهما بعد إهلاكهم كناية عن هوان أمرهم على الله و عدم تأثر هلاكهم في شيء من أجزاء الكون .

وقوله : « وما كانوا منظرين » كناية عن سرعة جريان القضاء الإلهي والقهر الربوبي في حقهم وعدم مصادفته لموانع يمنعه أو يحتاج إلى علاج في رفعه حتى يتأخر به .

قوله تعالى : « ولقد نجينا بني إسرائيل من العذاب المهين » وهوما يصيبهم وهم في أسارة فرعون من ذبح الأبناء واستحياء النساء وغير ذلك .

قوله تعالى : « من فرعون إنه كان عالياً من المسرفين » « من فرعون » بدل من قوله : « من العذاب » إما بحذف مضاف والتقدير من عذاب فرعون ، أو من غير حذف بجعل فرعون عين العذاب دعوى للمبالغة ، وقوله : « إنه كان عالياً من المسرفين » أي متكبراً من أهل الإسراف والتعدي عن الحد .

قوله تعالى : « ولقد اخترناهم على علم على العالمين » أي اخترناهم على علم منّا باستحقاقهم الاختيار على ما يفيد السياق .

والمراد بالعالمين جميع العالمين من الأمم إن كان المراد بالاختيار الاختيار من بعض الوجوه ككثرة الأنبياء فانهم يمتازون من سائر الأمم بكثرة الأنبياء المطبوعين منهم و يمتازون بأن مرّ عليهم دهر طويل في التيه وهم يتظللون بالغمام و يأكلون المن والسلوى إلى غير ذلك .

وعالموا أهل زمانهم إن كان المراد بالاختيار مطلقه فانهم لم يختاروا على الأمة الإسلامية التي خاطبهم الله تعالى بمثل قوله : « كنتم خير أمة أخرجت للناس » البقرة : ١٢٣ ، وقوله : « هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج » الحج : ٧٨ .

قوله تعالى : « وآتيناهم من الآيات ما فيه بلاء مبين » البلاء الاختبار والامتحان

أي وأعطينا بني إسرائيل من الآيات المعجزات ما فيه امتحان ظاهر ولقد أوتوا من الآيات المعجزة ما لم يعهد في غيرهم من الأمم وابتلوا بذلك ابتلاء مبيناً .
 قيل : و في قوله : « فيه » إشارة إلى أن هناك أموراً أخرى ككونه معجزة .
 و في تذييل القصة بهذه الآيات الأربع أعني قوله : « ولقد نجينا بني إسرائيل - إلى قوله - بلاء مبين » نوع تطيب لنفس النبي ﷺ وإيماء إلى أن الله تعالى سينجيهم والمؤمنين به من فراعنة مكة و يختارهم و يمكنهم في الأرض فينظر كيف يعملون .

﴿ بحث روائي ﴾

عن جوامع الجامع في قوله تعالى : « فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين » و اختلف في الدخان فقيل : إنه دخان يأتي من السماء قبل قيام الساعة يدخل في أسمع الكفرة حتى يكون رأس الواحد كالرأس الحنيد^(١) و يعتري المؤمن منه كهشة الزكام و يكون الأرض كلها كبيت أوقد فيه ليس فيه خصاص يمد ذلك أربعين يوماً ، وروي ذلك عن علي^ع و ابن عباس والحسن .

أقول : و رواه في الدر المنثور عنهم و أيضاً عن حذيفة بن اليمان و أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ ، و رواه أيضاً عن ابن عمر موقوفاً .

و في تفسير القمي في الآية قال : ذلك إذا خرجوا في الرجعة من القبر يغشى الناس كلهم الظلمة فيقولون : هذا عذاب أليم ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون . و في المجمع و روى زرارة بن أعين عن أبي عبد الله ﷺ أنه قال : بكت السماء على يحيى بن زكريا والحسين بن علي^ع أربعين صباحاً . قلت : فما بكاؤها قال : كانت تطلع حمراء و تغيب حمراء .

و في الدر المنثور أخرج ابن أبي حاتم عن عبيد الملك عن إبراهيم قال : ما بكت

السماء منذ كانت الدنيا إلا على اثنين . قيل لعبيد : أليس السماء والأرض تبكي على المؤمن ؟ قال : ذاك مقامه و حيث يصعد عمله . قال : و تدري ما بكاء السماء ؟ قال : لا . قال : تحمرّ و تصير وردة كالدهان . إن يحيى بن زكريّا لما قتل احرّت السماء و قطرت دما ، و إن الحسين بن عليّ يوم قتل احرّت السماء .

و في الفقيه عن الصادق عليه السلام قال : إذا مات المؤمن بكّت عليه بقاع الأرض التي كان يعبد الله عزّ وجلّ فيها والباب الذي كان يصعد منه عمله و موضع سجوده .
أقول : و في هذا المعنى ومعنى الروایتين السابقتين روايات أخر من طرق الشيعة و أهل السنة .

و لو بني في معنى بكاء السماء والأرض على ما يظهر من هذه الروايات لم يحتاج إلى حمل بكائهما على الكناية التخيلية .
و في تفسير القميّ في قوله تعالى : « و قالوا معكم مجنون » قال : قالوا ذلك لما نزل الوحي على رسول الله صلّى الله عليه وآله فأخذ الغشي فقالوا : هو مجنون .





اِنَّ هٰؤُلَاءِ لَيَقُولُوْنَ (٣٤) اِنْ هِيَ اِلَّا مَوْتَتُنَا الْاُولٰى وَ مَا نَحْنُ
 بِمُنْشَرِّينَ (٣٥) فَاْتُوا بِآبَاتِنَا اِنْ كُنْتُمْ صَادِقِيْنَ (٣٦) اَهُمْ خَيْرٌ اَم
 قَوْمٌ تَبِعَ وَالَّذِيْنَ مِنْ قَبْلِهِمْ اَهْلَكْنَاهُمْ اِنَّهُمْ كَانُوْا مُجْرِمِيْنَ (٣٧) وَمَا
 خَلَقْنَا السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضَ وَ مَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِيْنَ (٣٨) مَا خَلَقْنَاهُمَا اِلَّا
 بِالْحَقِّ وَ لٰكِنْ اَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُوْنَ (٣٩) اِنْ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ
 اَجْمَعِيْنَ (٤٠) يَوْمَ لَا يُغْنِيْ مَوْلٰى عَنْ مَوْلٰى شَيْئًا وَّلَا هُمْ يُنْصَرُوْنَ (٤١)
 اِلَّا مَنْ رَحِمَ اللّٰهُ اِنَّهٗ هُوَ الْعَزِيْزُ الرَّحِيْمُ (٤٢) اِنْ شَجَرَتِ الزَّقٰوْمِ (٤٣)
 طَعَامُ الْاٰثِيْمِ (٤٤) كَالْمُهْلِ يَغْلِيْ فِي الْبُطُوْنِ (٤٥) كَغَلِي الْحَمِيْمِ (٤٦)
 خُذُوْهُ فَاَعْتَٰلُوْهُ اِلٰى سَوَآءِ الْجَحِيْمِ (٤٧) ثُمَّ صُبُّوْا فَوْقَ رَاسِهٖ مِنْ عَذَابِ
 الْحَمِيْمِ (٤٨) ذُقْ اِنَّكَ اَنْتَ الْعَزِيْزُ الْكَرِيْمُ (٤٩) اِنْ هٰذَا مَا كُنْتُمْ
 بِهِ تَمْتَرُوْنَ (٥٠) اِنَّ الْمُتَّقِيْنَ فِيْ مَقَامٍ اَمِيْنٍ (٥١) فِيْ جَنٰتٍ وَعُيُوْنٍ (٥٢)
 يَلْبَسُوْنَ مِنْ سُنْدُسٍ وَ اسْتَبْرَقٍ مُّتَقَابِلِيْنَ (٥٣) كَذٰلِكَ وَ زَوْجَانَهُمْ
 بِحُوْرٍ عِيْنٍ (٥٤) يَدْعُوْنَ فِيْهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ اٰمِنِيْنَ (٥٥) لَا يَذُوْقُوْنَ
 فِيْهَا الْمَوْتَ اِلَّا الْمَوْتَةَ الْاُولٰى وَ وَقِيَهُمْ عَذَابُ الْجَحِيْمِ (٥٦) فَضَلَّامٍ
 رَبَّكَ ذٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيْمُ (٥٧) فَاِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ
 يَتَذَكَّرُوْنَ (٥٨) فَاَرْتَقِبْ اِنَّهُمْ مُّرْتَقِبُوْنَ (٥٩) .

﴿ بيان ﴾

لمّا أنذرا القوم بالعذاب الدنيوي ثم بالعذاب الأخروي وتمثّل للعذاب الدنيوي بما جرى على قوم فرعون إذ جاءهم موسى عليه السلام بالرسالة من ربّه فكذبوه فأخذهم الله بعذاب الإغراق فاستأصلهم .

رجع إلى الكلام في العذاب الأخروي فذكر إنكار القوم للمعاد و قولهم أن ليس بعد الموتة الأولى حياة فاحتجّ على إثبات المعاد بالبرهان ثم أنبأ عن بعض ما سيلقاه المجرمون من العذاب في الآخرة و بعض ما سيلقاه المتّقون من النعيم المقيم و عند ذلك تختتم السورة بما بدئت به و هو نزول الكتاب للتذكّر و أمره عليه السلام بالارتقاب .

قوله تعالى : « إن هؤلاء ليقولون إن هي إلا موتتنا الأولى وما نحن بمنشرين » رجوع إلى أوّل الكلام من قوله : « بل هم في شكّ يلعبون » والإشارة بهؤلاء إلى قريش و من يلحق بهم من العرب الوثنيين المنكرين للمعاد ، و قولهم : « إن هي إلا موتتنا الأولى » يريدون به نفي الحياة بعد الموت الملازم لنفي المعاد بدليل قولهم بعده : « وما نحن بمنشرين » أي بمبعوثين قال في الكشف يقال : أنشر الله الموتى و نشرهم إذا بعثهم انتهى .

فقولهم : « إن هي إلا موتتنا الأولى » الضمير فيه للعاقبة و النهاية أي ليست عاقبة أمرنا و نهاية وجودنا و حياتنا إلا موتتنا الأولى فنعدم بها ولا حياة بعدها أبداً . ووجه تقييد الموتة في الآية بالأولى ، بأنّه ليس بقيد احترازيّ إذ لا ملازمة بين الأوّل والآخِر أو بين الأوّل والثاني فمن الجائز أن يكون هناك شيء أوّل ولا ثاني له ولا في قبالة آخر ، كذا قيل .

و هناك وجه آخر ذكره الزمخشريّ في الكشف فقال : فإن قلت : كان الكلام واقعاً في الحياة الثانية لا في الموت فهلاًّ قيل : « إن حياتنا الأولى و ما نحن بمنشرين » كما قيل : إن هي إلا حياتنا الدنيا و ما نحن بمبعوثين و ما معنى قوله : « إلا موتتنا

الأولى» ؟ و ما معنى ذكر الأولى ؟ كأنهم وعدوا مودة أخرى حتى نفوها وجحدوها وأثبتوا الأولى .

قلت: معناه - والله الموفق للصواب - أنهم قيل لهم: إنكم تموتون مودة تتبعها حياة كما تقدمتكم مودة قد تعقبها حياة وذلك قوله عز وجل: « و كنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميّتكم ثم يحييكم » فقالوا: إن هي إلا موتتنا الأولى يريدون ما المودة التي من شأنها أن تعقبها حياة إلا المودة الأولى دون المودة الثانية ، و ما هذه الصفة التي تصفون بها المودة من تعقب الحياة لها إلا للمودة الأولى خاصة فلا فرق إذاً بين هذا و بين قوله: « إن هي إلا حياتنا الدنيا » في المعنى انتهى .

و يمكن أن يوجه بوجه ثالث و هو أن يقولوا: « إن هي إلا موتتنا الأولى » بعد ما سمعوا قوله تعالى: « قالوا ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين » الآية و قد تقدم في تفسير الآية أن الأمانة الأولى هي المودة بعد الحياة الدنيا ، والأمانة الثانية هي التي بعد الحياة البرزخية فهم في قولهم: « إن هي إلا موتتنا الأولى » ينفون المودة الثانية الملازمة للحياة البرزخية التي هي حياة بعد الموت فإنهم يرون موت الإنسان انعداماً له و بطلاناً لذاته .

ويمكن أن يوجه بوجه رابع وهو أن يرجع التقييد بالأولى إلى الحكاية دون المحكي و ذلك بأن يكون الذي قالوا إنما هو « إن هي إلا موتتنا » و يكون معنى الكلام أن هؤلاء ينفون الحياة بعد الموت ويقولون: إن هي إلا موتتنا يريدون المودة الأولى من الموتين اللتين ذكرنا في قولنا: « قالوا ربنا أمتنا اثنتين » الآية .

والوجوه الأربع مختلفة في القرب من الفهم فأقربها ثالثها ثم الرابع ثم الأول .
قوله تعالى: « فأتوا بآبائنا إن كنتم صادقين » تتمّة كلام القوم و خطاب منهم للنبي ﷺ والمؤمنين به حيث كانوا يذكرون لهم البعث والحياء فاحتجوا لردّ الإحياء بعد الموت بقولهم: « فأتوا بآبائنا إن كنتم صادقين » أي فليحي آباؤنا الماضون بدعائكم أو بأي وسيلة اتخذتموها حتى نعلم صدقكم في دعواكم أن الأموات سيحيون

و أن الموت ليس بانعدام .

قوله تعالى : « أهم خير أم قوم تبّع والذين من قبلهم أهلكناهم إنهم كانوا مجرمين » تهديد للقوم بالإهلاك كما أهلك قوم تبّع والذين من قبلهم من الأمم .
وتبّع هذا ملك من ملوك الحمير باليمن واسمه على ما ذكروا أسعد أبو كرب
قيل : سعد أبو كرب و سيأتي في البحث الروائي نبذة من قصته و في الكلام نوع تلويح
إلى سلامة تبّع نفسه من الإهلاك .

قوله تعالى : « و ما خلقنا السماوات والأرض و ما بينهما لاعبين ما خلقناهما
إلا بالحق و لكن أكثرهم لا يعلمون » ضمير التثنية في قوله : « و ما بينهما » لجنسي
السماوات والأرض ولذا لم يجمع ، والباء في قوله : « بالحق » للملابسة أي ما خلقناهما
إلا متلبستين بالحق ، وجوز بعضهم كونها للسببية أي ما خلقناهما بسبب من الأسباب
إلا بسبب الحق الذي هو الإيمان والطاعة والبعث والجزاء ، ولا يخفى بعده .

و مضمون الآيتين حجة برهانية على ثبوت المعاد و تقريرها أنه لو لم يكن
وراء هذا العالم عالم ثابت باق بل كان الله لا يزال يوجد أشياء ثمّ يعدمها ثمّ يوجد
أشياء أخرى ثمّ يعدمها ويحيي هذا ثمّ يميتة ويحيي آخر و هكذا كان لاعباً في فعله
عابثاً به واللعب عليه تعالى محال ففعله حق له غرض صحيح فهناك عالم آخر باق دائم
ينتقل إليه الأشياء و ما في هذا العالم الدنيوي الفاني البائد مقدّمة للانتقال إلى ذلك
العالم و هو الحياة الآخرة .

وقد فصلنا القول في هذا البرهان في تفسير الآية ١٦ من سورة الأنبياء ، والاية -
٢٧ من سورة ص فليراجع .

و قوله : « و لكن أكثرهم لا يعلمون » تقرير لهم بالجهل .

قوله تعالى : « إن يوم الفصل ميقاتهم أجمعين » بيان لصفة اليوم الذي يثبته
البرهان السابق و هو يوم القيامة الذي فيه يقوم الناس لرب العالمين .
وسمّاه الله يوم الفصل لأنّه يفصل فيه بين الحق والباطل و بين المحق والمبطل

والمُتَّقِينَ والمُجْرِمِينَ أو لَأَنَّهُ يَوْمَ الْقَضَاءِ الْفَصْلُ مِنْهُ تَعَالَى .

و قوله : « مِيقَاتِهِمْ أَجْمَعِينَ » أي موعد الناس أَجْمَعِينَ أو موعد من تقدّم ذكره من قوم تبع و قوم فرعون و من تقدّمهم و قريش و غيرهم .

قوله تعالى : « يَوْمَ لَا يَغْنِي مَوْلَى عَنْ مَوْلَى شَيْءٌ وَلَا هُمْ يَنْصُرُونَ » بيان ليوم الفصل ، والمولى هو صاحب الذي له أن يتصرّف في أمور صاحبه و يطلق على من يتوكّل الأمر و على من يتوكّل أمره والمولى الأوّل في الآية هو الأوّل والثاني هو الثاني .

والآية تنفي أو لا إغناء مولى عن مولاه يومئذ ، و تخبر ثانياً أنّهم لا ينصرون والفرق بين المعنيين أن الإغناء يكون فيما استقلّ المغني في عمله ولا يكون لمن يغني عنه صنع في ذلك ، والنصرة إنّما تكون فيما كان للمنصور بعض أسباب الظفر الناقصة و يتمّ له ذلك بنصرة الناصر .

والوجه في انتفاء الإغناء والنصر يومئذ أن الأسباب المؤثرة في نشأة الحياة الدنيا تسقط يوم القيامة قال تعالى : « وَ تَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ » البقرة : ١٦٦ و قال : « فزِيلْنَا بَيْنَهُمْ » يونس : ٢٨ .

قوله تعالى : « إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ » استثناء من ضمير « لا ينصرون » والآية من أدلة الشفاعة يومئذ و قد تقدّم تفصيل القول في الشفاعة في الجزء الأوّل من الكتاب .

هذا على تقدير رجوع ضمير « لا ينصرون » إلى الناس جميعاً على ما هو الظاهر . و أمّا لو رجع إلى الكفّار كما قيل فالاستثناء منقطع والمعنى لكن من رحمه الله و هم المتمعّنون فإنّهم في غنى عن مولى يغني عنهم و ناصر ينصرهم .

و أمّا ما جوزه بعضهم من كونه استثناء متصلاً من « مولى » فقد ظهر فساد مما قدّمناه فإنّ الإغناء إنّما هو فيما لم يكن عند الإنسان شيء من أسباب النجاة و من كان على هذه الصفة لم يغن عنه مغن ولا استثناء و الشفاعة نصرة تحتاج إلى بعض أسباب النجاة و هو الدين المرضي و قد تقدّم في بحث الشفاعة ، نعم يمكن أن يوجّه بما سيحجى

في رواية الشَّحَام .

وقوله : « إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ » أي الغالب الذي لا يغلبه شيء حتَّى يمنعهُ من تعذيب من يريد عذابه ، ومفيض الخير على من يريد أن يرحمه ويفيض الخير عليه ومناسبة الاسمين الكريمين لمضامين الآيات ظاهرة .

قوله تعالى : « إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ طَعَامُ الْأُنْثِمِ » تقدّم الكلام في شجرة الزقوم في تفسير سورة الصافات ، والأنثيم من استقرّ فيه الأنثيم إمّا بالمداومة على معصية أو بالاكثار من الطعاصي والآية إلى تمام ثمان آيات بيان حال أهل النار .

قوله تعالى : « كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ كَغَلِي الْحَمِيمِ » المهل هو المذاب من النحاس والرصاص وغيرهما ، والغلي والغليان معروف ، والحميم الماء الحارّ الشديد الحرارة ، وقوله : « كَالْمُهْلِ » خبر ثان لقوله : « إِنَّ » ، كما أن قوله : « طَعَامُ الْأُنْثِمِ » خبر أول ، وقوله : « يَغْلِي فِي الْبُطُونِ كَغَلِي الْحَمِيمِ » خبر ثالث ، والمعنى ظاهر .

قوله تعالى : « خُذُوهُ فَاعْتَلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ » الاعتلاء الزعزعة والدفع بعنف وسواء الجحيم وسطه ، والخطاب للملائكة الموكّلين على النارأي نقول للملائكة خذوا الأنثيم وادفعوه بعنف إلى وسط النار لتحيط به قال تعالى : « وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ » التوبة : ٤٩ .

قوله تعالى : « ثُمَّ صَبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ » كأن المراد بالعذاب ما يعذب به وإضافته إلى الحميم بيانية والمعنى ثم صبّوا فوق رأسه من الحميم الذي يعذب به .

قوله تعالى : « ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ » خطاب يخاطب به الأنثيم وهو يقاسي العذاب بعد العذاب ، وتوصيفه بالعزّة والكرامة على ما هو عليه من الذلّة واللامّة استهزاء به تشديداً لعذابه وقد كان يرى في الدنيا لنفسه عزّة وكرامة لا تفارقه كما يظهر ممّا حكى الله سبحانه من قوله : « وَلَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رَجَعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لِلْإِحْسَنِ » حم السجدة : ٥٠ .

قوله تعالى : « إنَّ هذا ما كنتم به تمترون » الامتراء الشك والارتياب والآية تتممة قولهم له : « ذق » إلخ وفيها تأكيد وإعلام لهم بخطائهم وزلّتهم في الدنيا حيث ارتابوا فيما يشاهدونه اليوم من العذاب مشاهدة عيان ، ولذا عبّر عن تحمّل العذاب بالذوق لما أنّه يعبّر عن إدراك ألم الموطات ولذّة الملذّات إدراكاً تامّاً بالذوق .

و يمكن أن تكون الآية استثناء من كلام الله سبحانه يخاطب به الكفّار بعد ذكر حالهم في يوم القيامة ، وربما أيّده قوله : « كنتم به تمترون » بخطاب الجمع والخطاب في الآيات السابقة بالافراد .

قوله تعالى : « إنَّ المتّقين في مقام أمين » اطلاق محلّ القيام بمعنى الثبوت والركوز ولذا فسر أيضاً بموضع الإقامة ، والأمن صفة من الأمن بمعنى عدم إصابة المكروه والمعنى إنَّ المتّقين - يوم القيامة - ثابتون في محلّ ذي أمن من إصابة المكروه مطلقاً .

و بذلك يظهر أن نسبة الأمن إلى المقام بتوصيف المقام بالأمن من المجاز في النسبة .

قوله تعالى : « في جنّات وعيون » بيان لقوله : « في مقام أمين » وجعل العيون ظرفاً لهم باعتبار المجاورة ووجودها في الجنّات التي هي ظرف ، و جمع الجنّات باعتبار اختلاف أنواعها أو باعتبار أن لكلّ منهم وحده جنّة أو أكثر .

قوله تعالى : « يلبسون من سندس واستبرق متقابلين » السندس الرقيق من الحرير والاستبرق الغليظ منه وهما معرّبان من الفارسيّة .

وقوله : « متقابلين » أي يقابل بعضهم بعضاً للاستيناس إذ لا شرّ ولا مكروه عندهم لكونهم في مقام أمين .

قوله تعالى : « كذلك و زوّجناهم بحور عين » أي الاًمر كذلك أي كما وصفناه والمراد بتزويجهم بالحور جعلهم قرناء لهم من الزوج بمعنى القرين وهو أصل التزويج في اللغة ، والحور جمع حوراء بمعنى شديدة سواد العين و بياضها أو ذات المقلة السوداء كالظباء ، والعين جمع عيناء بمعنى عظيمة العينين ، و ظاهر كلامه تعالى أن الحور العين

غير نساء الدنيا الداخلة في الجنة .

قوله تعالى : « يدعون فيها بكل فاكهة آمنين » أي آمنين من ضررها .

قوله تعالى : « لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى » وقاهم عذاب الجحيم

أي إنهم في جنّة الخلد أحياء بحياة أبدية لا يعترىها موت .

وقد استشكل في الآية بأن استثناء الموتة الأولى من قوله : « لا يذوقون فيها

الموت » يفيد أنهم يذوقون الموتة الأولى فيها ، والمراد خلافه قطعاً ، و بتقرير آخر

الموتة الأولى هي موة الدنيا وقدمت بالنسبة إلى أهل الجنة ، والتلبس في المستقبل

بأمر ماض محال قطعاً فما معنى استثناء الموتة الأولى من عدم الذوق في المستقبل ؟

وهنا إشكال آخر لم يعترضوا له وهو أنه قد تقدّم في قوله تعالى : « ربنا أمتنا

اثنتين وأحييتنا اثنتين » المؤمن : ١١ أن بين الحياة الدنيا والساعة موتتين : موة

بالانتقال من الدنيا إلى البرزخ وموة بالانتقال من البرزخ إلى الآخرة ، والظاهر أن

المراد بالموتة الأولى في الآية هي موة الدنيا الناقلة للإنسان إلى البرزخ فهب أننا

أصلحنا استثناء الموتة الأولى بوجه فما بال الموتة الثانية لم تستثن ؟ وما الفرق بينهما

وهما موتتان ذاقوهما قبل الدخول في جنّة الخلد ؟

وأجيب عن الإشكال الأول بأن الاستثناء منقطع والمعنى لكنهم قد ذاقوا

الموتة الأولى في الدنيا وقد مضت فعموم قوله : « لا يذوقون فيها الموت » على حاله .

و على تقدير عدم كون الاستثناء منقطعاً « إلا » بمعنى سوى و « إلا الموتة الأولى »

بدل من « الموت » وليس من الاستثناء في شيء والمعنى لا يذوقون فيها سوى الموتة الأولى

من الموت أمّا الموتة الأولى فقد ذاقوها ومحال أن تعود وتذاق وهي أولى .

وأجيب ببعض وجوه آخر لا يعابها ، وأنت خبير بأن شيئاً من الوجهين لا يوجبه

اتصاف الموتة بالأولى وقد تقدّم في تفسير قوله : « إن هي إلا موتتنا الأولى » الآية

وجوه في ذلك .

و أمّا الإشكال الثاني فيمكن أن يجاب عنه بالجواب الثاني المتقدم لما أن

هناك موتتين الموتة الأولى وهي الناقلة للإنسان من الدنيا إلى البرزخ والموتة الثانية

وهي الناقلة له من البرزخ إلى الآخرة فإذا كان «إِلَّا» في قوله : «إِلَّا المَوْتَةُ الْأُولَى» بمعنى سوى والمجموع بدلاً من الموت كانت الآية مسوقة لنفي غير الموتة الأولى وهي الموتة الثانية التي هي موتة البرزخ فلا موت في جنّة الآخرة لا موتة الدنيا لأنّها تحقّقت لهم قبلاً ولا غير موتة الدنيا التي هي موتة البرزخ ، ويتبيّن بهذا وجه تقييد الموتة بالأولى .

وقوله : « ووقاهم عذاب الجحيم » الوقاية حفظ الشيء مما يؤذيه و يضرّه فالمعنى وحفظهم من عذاب الجحيم ، وذكر وقايتهم من عذاب الجحيم مع نفي الموت عنهم تميم لقسمة المسكاره أي إنهم مصونون من الانتقال من دار إلى دار ومن نشأة الجنة إلى نشأة غيرها وهو الموت ومصونون من الانتقال من حال سعيدة إلى حال شقية وهي عذاب الجحيم .

قوله تعالى : « فضلاً من ربك ذلك هو الفوز العظيم » حال ممّا تقدّم ذكره من الكرامة والنعمة ، ويمكن أن يكون مفعولاً مطلقاً أو مفعولاً له ، وعلى أي حال هو تفضّل منه تعالى من غير استحقاق من العباد استحقاقاً يوجب عليه تعالى ويلزمه على الإثابة فإنّه تعالى مالك غير مملوك لا يتحكّم عليه شيء ، وإنّما هو وعد وعده لعباده ثم أخبر أنّه لا يخلف وعده ، وقد تقدّم تفصيل القول في هذا المعنى في الأبحاث السابقة .

وقوله : « ذلك هو الفوز العظيم » الفوز هو الظفر بالمراد و كونه فوزاً عظيماً لكونه آخر ما يسعد به الإنسان .

قوله تعالى : « فإِنَّمَا يَسْتَرْاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ » تفرّيع على جميع ما تقدّم من أوّل السورة إلى هنا وفذلكة للجميع ، والتيسير التسهيل ، والضمير للكتاب والمراد بلسان النبي ﷺ العربية .

والمعنى فإنّما سهّلنا القرآن - أي فهم مقاصده - بالعربية لعلمهم - أي لعلّ قومك - يتذكّرون فتكون الآية قريبة المعنى من قوله : « إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ » الزخرف : ٣ .

وقيل : المراد من تيسير الكتاب بلسان النبي ﷺ إجراؤه على لسانه و هو
أُمِّي لا يقرأ ولا يكتب ليكون آية لصدق نبوته ، و هو بعيد من سياق الفذلكة .

قوله تعالى : « فارتقب إنهم مرتقبون » كأنه متفرع على ما يتفرع على الآية
السابقة ، و محصل المعنى أننا يسرناه بالعريضة رجاء أن يتذكروا فلم يتذكروا بل هم
في شك يلعبون و ينتظرون العذاب الذي لا مرد له من المكذبين فانتظر العذاب إنهم
منتظرون له .

فاطلاق المرتقبين على القوم من باب التهكم ، و من سخييف القول قول من يقول
إن في الآية أمراً بالمشاركة و هي منسوخة بآية السيف .

﴿ بحث روائي ﴾

في المجمع في قوله تعالى : « أهم خير أم قوم تبسّع » روى سهل بن ساعد عن
النبي ﷺ أنه قال : لا تسبوا تبسّعاً فإنه كان قد أسلم .

أقول : و روى هذا المعنى في الدر المنثور عن ابن عباس أيضاً ، و أيضاً عن ابن
عساكر عن عطاء بن أبي رباح عن النبي ﷺ .

و فيه و روى الوليد بن صبيح عن أبي عبد الله عليه السلام قال : إن تبسّعاً قال للأوس
والخزرج : كونوا ههنا حتى يخرج هذا النبي ، أما أنا فلو أدركته لخدمته و
خرجت معه .

و في الدر المنثور أخرج أبو نعيم في الدلائل عن عبد الله بن سلام قال : لم يمت
تبسّع حتى صدق بالنبي ﷺ لما كان يهود يثرب يخبرونه .

أقول : والأخبار في أمر تبسّع كثيرة ، و في بعضها أنه أول من كسى الكعبة .

و في الكافي بإسناده عن زيد الشحام قال : قال لي أبو عبد الله عليه السلام و نحن في
الطريق في ليلة الجمعة : إقرأ فإنها ليلة الجمعة قرأنا فقرأت « إن يوم الفصل ميقاتهم
أجمعين يوم لا يغني مولى عن مولى شيئاً ولا هم ينصرون إلا من رحم الله » فقال أبو عبد الله

عليه السلام : نحن والله الذي استثنى الله فكنتما نغني عنهم .

أقول : يشير عليه السلام إلى الشفاعة وقد أخذ الاستثناء عن « مولى » الأول .

و في تفسير القمي : ثم قال : « إن شجرة الزقوم طعام الأثيم » نزلت في أبي-

جهل بن هشام ، و قوله : « كالمهل » قال : المهل الصفر المذاب « يغلي في البطون كغلي

الحميم » و هو الذي قد حمي و بلغ المنة .

أقول : « و من طرق أهل السنة أيضاً روايات تؤيد نزول الآية في أبي جهل .



﴿سورة الجاثية مكيّة وهي ست وثلاثون آية﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ حم (١) تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ
 الْحَكِيمِ (٢) إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ (٣) وَفِي خَلْقِكُمْ
 وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٍ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٤) وَاختِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ
 وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَ
 تَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ آيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٥) تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ
 بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ (٦) وَيَلُّ لِكُلِّ أَفَّاكٍ
 أَثِيمٍ (٧) يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا
 فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٨) وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا
 أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ (٩) مَنْ وَرَّاهُمْ جَهَنَّمَ وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا
 شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠)
 هَذَا هُدًى وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ (١١)
 اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَ لَتَبْتَغُوا مِنْ
 فَضْلِهِ وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢) وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي
 الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (١٣) .

﴿بيان﴾

غرض السورة دعوة عامة على الإنذار تفتتح بآيات الوجدانية ثم تذكر تشريع الشريعة للنبي ﷺ وتشير إلى لزوم اتباعها له ولغيره بما أن أمامهم يوماً يحاسبون فيه على أعمالهم الصالحة من الإيمان واتباع الشريعة واجترأهم السيئات بالإعراض عن الدين ، ثم تذكر ما سيجري على الفريقين في ذلك اليوم وهو يوم القيامة .
وفي خلال مقاصدها إنذار ووعيد شديد للمستكبرين المعرضين عن آيات الله والذين اتخذوا إلههم هواهم وأضلهم الله على علم .

و من طرائف مطالعها بيان معنى كتابة الأعمال واستنساخها .
والسورة مكتبة بشهادة سياق آياتها واستثنى بعضهم قوله تعالى : « قل للذين آمنوا » الآية ولا شاهد له .

قوله تعالى : « حم تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم » : الظاهر أن « تنزيل الكتاب » من إضافة الصفة إلى الموصوف والمصدر بمعنى المفعول ، و « من الله » متعلق بتنزيل ، والمجموع خبر لمبتدأ محذوف .

والمعنى هذا كتاب منزل من الله العزيز الحكيم ، وقد تقدم الكلام في مفردات الآية فيما تقدم .

قوله تعالى : « إن في السماوات والأرض لآيات للمؤمنين » آية الشيء علامته التي تدل عليه وتشير إليه ، والمراد بكون السماوات والأرض فيها آيات كونها بنفسها آيات له فليس وراء السماوات والأرض و سائر ما خلق الله أمر مظروف لها هو آية دالة عليه تعالى .

و من الدليل على ما ذكرنا اختلاف التعبير فيها في كلامه تعالى فتارة يذكر أن « في الشيء آية له وأخرى يعده بنفسه آية كقوله تعالى : « إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات » آل عمران : ١٩٠ وقوله : « ومن آياته

خلق السماوات والأرض « الروم : ٢٢ ونظائرهما كثيرة ، ويستفاد من اختلاف التعبير الذي فيها أن معنى كون الشيء فيه آية هو كونه بنفسه آية كما يستفاد من اختلاف التعبير في مثل قوله : « إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار آيات » وقوله : « إن في السماوات والأرض آيات » الآية أن المراد من خلق السماوات والأرض نفسها لا غير .

والعناية في أخذ الشيء ظرفاً للآية مع كونه بنفسه آية اعتبار جهات وجوده و أن لوجوده جهة أو جهات كل واحدة منها آية من الآيات و لو أخذت نفس الشيء لم يستقم إلا أخذها آية واحدة كما في قوله تعالى : « و في الأرض آيات للموقنين » الذاريات : ٢٠ و لو أخذت الآية نفس الأرض لم يستقم إلا أن يقال : والأرض آية للموقنين و ضاع المراد و هو أن في وجود الأرض جهات كل واحدة منها آية وحدها . فمعنى قوله : « إن في السماوات والأرض » إلخ أن لوجود السماوات والأرض جهات دالة على أن الله تعالى هو خالقها المدبر لها وحده لا شريك له فانها بحاجتها الذاتية إلى من يوجودها و عظمة خلقتها و بداعة تركيبها و اتصال وجود بعضها ببعض و ارتباطه على كثرتها الهائلة و اندراج أنظمتها الجزئية الخاصة بكل واحد تحت نظام عام يجمعها و يحكم فيها تدل على أن لها خالقاً هو وحده ربها المدبر أمرها فلولا أن هناك من يوجودها لم توجد من رأس ، ولولا أن مدبرها و احدلثناقت النظامات و تدافعت و اختلف التدبير .

و مما تقدم يظهر أن قول بعضهم : إن قوله : « في السماوات » بتقدير مضاف محذوف و التقدير في خلق السماوات ، تكلف من غير ضرورة تدعو إليه .

قوله تعالى : « و في خلقكم و ما يبت من دابة آيات لقوم يوقنون » البث التفريق و الإثارة و بثه تعالى للدواب خلقها و تفريقها و نشرها على الأرض كما قال في خلق الإنسان : « ثم إذا أنتم بشر تنتشرون » الروم : ٢٠ .

و معنى الآية و فيكم من حيث وجودكم المخلوق و فيما يفرقه الله من دابة من حيث خلقها آيات لقوم يسلكون سبيل اليقين .

و خلق الإنسان على كونه موجوداً أرضياً له ارتباط بالمادة نوع آخر من الخلق
يغاير خلق السماوات والأرض لأنه مركّب من بدن أرضي مؤلف من مواد كونية
عنصرية تفسد بالموت بالتفرق والتلاشي وأمر آخر وراء ذلك علوي غير مادي لا
يفسد بالموت بل يتوقى ويحفظ عند الله ، وهو الذي يسميه القرآن بالروح قال تعالى :
« و نفخت فيه من روحي » الحجر ٢٩ ، وقال بعد ذكر خلق الإنسان من نقطة ثم من
علقة ثم مضغة ثم : « ثم أنشأناه خلقاً آخر » المؤمنون : ١٤ ، وقال
« قل يتوفّاكم ملك الموت الذي وكل بكم » الم السجدة : ١١ .

فالناظر في خلق الإنسان ناظر في آية ملكوتية وراء الآيات المادية وكذا
الناظر في خلق الدواب ولها نفوس ذوات حياة وشعور وإن كانت دون الإنسان في حياتها
وشعورها كما أنها دونه في تجهيزاتها البدنية ففي جميع آيات لأهل اليقين يعرفون
بها الله سبحانه بأنه واحد لا شريك له في ربوبيته وألوهيته .

قوله تعالى : « واختلاف الليل والنهار » إلى آخر الآية هذا القبيل من الآيات
آيات ما بين السماء والأرض .

وقوله : « واختلاف الليل والنهار » يريد به اختلافهما في الطول والقصر اختلافاً
منظماً باختلاف الفصول الأربعة بحسب بقاع الأرض المختلفة ويتكرر بتكرّر السنين
يدبّر سبحانه بذلك أقوات أهل الأرض ويربّيهم بذلك تربية صالحة قال تعالى :
« وقد ر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين » حم السجدة : ١٠ .

وقوله : « وما أنزل الله من السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها » المراد
بالرزق الذي ينزل له الله من السماء هو المطر تسمية للسبب باسم المسبب مجازاً أو لأن
المطر أيضاً من الرزق فإن مياه الأرض من المطر ، والمراد بالسماء جهة العلو أو السحاب
مجازاً ، وإحياء الأرض به بعد موتها هو إحياء ما فيها من النبات بالأخذ في الرشد و
النمو ولا يخلو التعرّض للإحياء بعد الموت من تلويح إلى المعاد .

وقوله : « و تصريف الرياح » أي تحويلها وإرسالها من جانب إلى جانب ، و

لتصريفها فوائد عامّة كثيرة من أهمّها سوق السحب إلى أفطار الأرض و تلقيح النباتات و دفع العفونات والروائح المنتنة .

وقوله : « آيات لقوم يعقلون » أي يميّزون بين الحقّ والباطل والحسن والقبيح بالعقل الذي أودعه الله سبحانه فيهم .

و قد خصّ كلّ قبيل من الآيات بقوم خاصّ فخصّت آية السماوات والأرض بالمؤمنين و آية الإنسان و سائر الحيوان بقوم يوقنون ، و آية اختلاف الليل و النهار والأُمطار و تصريف الرياح بقوم يعقلون .

و لعلّ الوجه في ذلك أن آية السماوات والأرض تدلّ بدلالة بسيطة ساذجة على أنّها لم توجد نفسها بنفسها ولا عن اتفاق وصدفة بل لها موجد أوجدها مع مالها من الآثار والأفعال التي يتحصّل منها النظام المشهود فخالقها خالق الجميع و ربّ الكلّ ، والإنسان يدرك ذلك بفهمه البسيط الساذج والمؤمنون بجميع طبقاتهم يفهمون ذلك و ينتفعون به .

و أمّا أنّه خلق الإنسان و سائر الدوابّ التي لها حياة و شعور فإنّها من حيث أرواحها و نفوسها الحيّة الشاعرة من عالم وراء عالم المادّة و هو المسمّى بالملكوت و قد خصّ القرآن كمال إدراكه ومشاهدته بأهل اليقين كما قال : « و كذلك نرى إبراهيم ملكوت السماوات والأرض و ليكون من الموقنين » الأنعام : ٧٥ .

و أمّا آية اختلاف الليل والنهار والأُمطار المحيطية للأرض و تصريف الرياح فإنّها لتتنوّع أقسامها و تعدّد جهاتها و ارتباطها بالأرض والأرضيات و كثرة فوائدها و سعة منافعتها تحتاج إلى تعقّل فكريّ تفصيليّ عميق ولا تنال بالفهم البسيط الساذج و لذلك خصّت بقوم يعقلون والآيات آيات لجميع الناس لكن لما كان المنتفع بها بعضهم خصّت بهم .

و قد عبّر عن أهل اليقين والعقل بقوم يوقنون وبقوم يعقلون وعن أهل الإيمان بالمؤمنين لأنّ بساطة آية أهل الإيمان تفيد أنّ المراد بالإيمان أصله و هو ثابت فيهم

فناسب التعبير عنهم بالوصف بخلاف آيتي أهل اليقين و العقل فإنهما لدقتهما و علو منالهما تدركان شيئاً فشيئاً فناسبنا التعبير بالفعل المضارع الدال على الاستمرار التجددي .

و قيل في وجه ما في الآيات الثلاث من الترتيب بين أهلها حيث ذكر أولاً أهل الإيمان ثم الإيقان ثم العقل أنه على ترتيب الترتيبي فإن الإيقان مرتبة خاصة في الإيمان فهو بعد الإيمان والعقل مدار الإيمان والإيقان ونعني العقل المؤيد بنور البصيرة فبسببه يخلص اليقين من اعتراء الشكوك من كل وجه و في استحكامه كل خير . وروعي في ترتيب الآيات ما روعي في ترتيب المراتب الثلاث ^(١) .

و فيه أن مقتضى ما وصفه من أمر العقل وقوعه قبل الثاني بل قبل أول المراتب على أن ما ذكره من إمكان اعتراء الشكوك على اليقين مما لا سبيل إلى تصوّره . و قيل في وجه الترتيب : أن تمام النظر في الثاني يضطر إلى النظر في الأول لأن السماوات والأرض من أسباب تكون الحيوان بوجه فيجب أن تذكر قبله ، و كذلك النظر في الثالث يضطر إلى النظر في الأولين أما الأول فظاهر ، و أما الثاني فلا أنه العلة الغائية فلا بد أن يكون جامعاً أي إن الثالث و هو المعلول يتوقف في معرفته على ذكر علمته الغائية قبله .

و فيه أنه على تقدير صحته وجه لترتيب الآيات دون مراتب الصفات الثلاث أعني الإيمان والإيقان والعقل . على أن الثالث أيضاً كالأول من أسباب تكون الحيوان فيجب أن يتقدم على الثاني ، و بوجه آخر الثاني علة غائية للأول فيجب أن يتقدم على الأول كما تقدم على الثالث .

و قيل : إن السبب في ترتيب هذه الفواصل أنه قيل : إن كنتم مؤمنين فافهموا هذه الدلائل ، و إن كنتم لستم بمؤمنين و كنتم من طلاب الجزم و اليقين فافهموا هذه

(١) هذا الوجه مستفاد من الكشاف ، و ما ينلوه لصاحب الكشف ، والوجه الآخر

الدلائل ، و إن كنتم لستم بمؤمنين و لاموقنين فاجتهدوا في معرفة هذه الدلائل .
 وفيه أنه على تقدير صحته وجه لترتيب الصفات الثلاث دون أقسام الآيات الثلاثة
 على أن لازمه أن لا يختص شيء من الآيات الثلاث بواحدة من الصفات الثلاث بل يكون
 الجميع للجميع و السياق لا يساعد عليه . على أن ظاهر كلامه أنه فسراليقين بالجزم
 و هو العلم فلا يبقى للعقل إلا الحكم الظني و لا يعبأ به في المعارف الاعتقادية .

قوله تعالى : « تلك آيات الله تتلوهَا عليك بالحق فبأي حديث بعد الله وآياته
 يؤمنون » الإيمان بأمر هو العلم به مع الالتزام به عملاً فلو لم يلتزم لم يكن إيماناً و
 إن كان هناك علم قال تعالى : « و جحدوا بها و استيقنتها أنفسهم » النمل : ١٤ ، وقال :
 « و أضله الله على علم » البجائية : ٢٣ .

و الآيات هي العلامات الدالة فآيات الله الكونية هي الأمور الكونية الدالة
 بوجودها الخارجي على كونه تعالى واحداً في الخلق متصفاً بصفات الكمال منزهاً عن
 كل نقص و حاجة ، و الإيمان بهذه الآيات هو الإيمان بدلائلها عليه تعالى و لازمه
 الإيمان به تعالى كما تدل هي عليه .

و الآيات القرآنية آيات له تعالى بما تدل على الآيات الكونية الدالة عليه
 سبحانه أو على معارف اعتقادية أو أحكام عملية أو أخلاق يرتضيها الله سبحانه و يأمر
 بها فإن مضامينها دالة عليه و من عنده ، و الإيمان بهذه الآيات أيضاً إيمان بدلائلها
 و يلزمه الإيمان بمدلولها .

و الآيات المعجزة أيضاً إما آيات كونية و دلالتها دلالة الآيات الكونية وإما
 غير كونية كالقرآن في إعجازه و مرجع دلالتها إلى دلالة الآيات الكونية .

و قوله : « تلك آيات الله تتلوهَا عليك » الإشارة إلى الآيات القرآنية المتلوّة
 عليه ﷺ ، و يمكن أن تكون إشارة إلى الآيات الكونية المذكورة في الآيات الثلاث
 السابقة بعناية الاتحاد بين الدال والمدلول .

و قوله : فبأي حديث بعد الله و آياته يؤمنون » قيل : هو من قبيل قولك :

أعجبنى زيد و كرمه ، و إنما أعجبك كرمه و المعنى بحسب النظر الدقيق أعجبنى كرم زيد و زيد من حيث كرمه ، فمعنى الآية فبأي حديث بعد آيات الله يعنى الآيات القرآنية يؤمنون ؟ يعنى إذا لم يؤمنوا بهذا الحديث فبأي حديث بعده يؤمنون ؟

و قيل : الكلام بتقدير حديث أي إذا لم يؤمنوا فبأي حديث بعد حديث الله و آياته يؤمنون ، و الأنسب على هذا المعنى أن يكون المراد بالآيات الآيات الكونية و لذا قال الطبرسي بعد ذكر هذا المعنى : و الفرق بين الحديث الذي هو القرآن و بين الآيات أن الحديث قص يستخرج منه عبرتين الحق من الباطل ، و الآيات هي الأدلة الفاصلة بين الصحيح و الفاسد . انتهى و أول الوجهين ألطف .

قوله تعالى : « ويل لكل أفكأثم » الويل الهلاك ، و الأفكأثم مبالغة من الأفك و هو الكذب ، و الأثم من الإثم بمعنى المعصية و المعنى ليكن الهلاك على كل كذاب ذي معصية .

قوله تعالى : « يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصر مستكبراً كأن لم يسمعها » النخ صفة لكل أفكأثم ، و « ثم » للتراخي الربوي و تفيد معنى الاستبعاد ، و الإصرار على الفعل ملازمته و عدم الانفكاك عنه .

و المعنى يسمع آيات الله - و هي آيات القرآن - تقرأ عليه ثم يلازم الكفر و الحال أنه مستكبر لا يتواضع للحق كأن لم يسمع تلك الآيات فبشره بعذاب أليم .
قوله تعالى : « و إذا علم من آياتنا شيئاً اتخذها هزواً » النخ ظاهر السياق أن ضمير « اتخذها » للآيات ، و جعل الهزء متعلقاً بالآيات دون ما علم منها يفيد كمال جهله و المعنى و إذا علم ذلك الأفكأثم المصر المستكبر بعض آياتنا استهزء بآياتنا جميعاً .

و قوله : « أولئك لهم عذاب مهين » أي مذل مخز ، و توصيف العذاب بالإهانة مقابلة لاستكبارهم و استهزائهم ، و الإشارة بأولئك إلى كل أفكأثم ، و قيل في الآية بوجوه أخر أعرضنا عنها لعدم الجدوى فيها .

قوله تعالى : « من ورائهم جهنم ولا يغني عنهم ما كسبوا شيئاً ولا ما اتخذوا من دون الله أولياء » إلخ لما كانوا مشغولين بالدنيا معرضين عن الحق غير ملتفتين إلى تبعات أعمالهم جعلت جهنم ورائهم مع أنها قد أمهم وهم سائرون نحوها متوجهون إليها .

وقيل : ورائهم بمعنى قد أمهم قال في المجمع : وراء اسم يقع على القدام والخلف فما توارى عنك فهو وراءك خلفك كان أو أمامك . انتهى وفي قوله : « من ورائهم جهنم » قضاء حتم .

وقوله : « ولا يغني عنهم ما كسبوا شيئاً » المراد بما كسبوا ما حصلوه في الدنيا من مال ونحوه ، و تنكير « شيئاً » للتحقير أي ولا يغني عنهم يوم الحساب ما كسبوه من مال وجاء وأنصار في الدنيا شيئاً يسيراً حقيراً .

وقوله : « ولا ما اتخذوا من دون الله أولياء » « ما » مصدرية والمراد بالأولياء أرباب الأصنام الذين اتخذوهم أرباباً آلهة وزعموا أنهم لهم شفعاء أو الأصنام . وقوله : « ولهم عذاب عظيم » تأكيد لو عيدهم وقد أوعدهم الله سبحانه أو لا بقوله : « ويل لكل أفلاك » إلخ ، و ثانياً بقوله : « فبشره بعذاب أليم » وثالثاً بقوله : « أولئك لهم عذاب مهين » ورابعاً بقوله « من ورائهم جهنم » إلخ وخامساً بقوله : « ولهم عذاب عظيم » ، و وصف عذابهم في خلالها بأنه أليم مهين عظيم .

قوله تعالى : « هذا هدى والذين كفروا بآيات ربهم لهم عذاب من رجز أليم » الإشارة بقوله : « هذا هدى » إلى القرآن وصفه بالهدى للمبالغة نحو زيد عدل والرجز - كما قيل - أشد العذاب وأصله الاضطراب .

والآية في مقام الرد لما رموا به القرآن وعدوه مهاناً بالهزاء والسخرية و خلاصة وعيد من كفر بآياته .

قوله تعالى : « الله الذي سخر لكم البحر لتجري الفلك فيه بأمره » إلخ لما ذكر سبحانه حال الأفلاك من الاستكبار عن الإيمان بالآيات إذ أتليت عليهم والاستهزاء

بما علموا منها وأوعدهم أبلغ الإيعاد بأشدّ العذاب رجع إليهم بخطاب الجميع ممن يؤمن ويكفر ، وذكر بعض آيات ربوبيّته التي فيها من عظيم عليهم وليس في وسعهم إنكارها فذكر أولاً تسخير البحر لهم ثم ما في السماوات والأرض جميعاً ففيها آيات لا يكفر بها إلا من انسلاخ عن الفطرة الإنسانية ونسي التفكير الذي هو من أجلى خواص الإنسان .

فقوله : « الله الذي سخّر لكم البحر » اللام في « لكم » للغاية أي سخّرلاً جلّكم البحر بأن خلقه على نحو يحمل الفلك ويقبل أن تجري فيه فينتفع به الإنسان ، ويمكن أن تكون للتعدية فيكون الإنسان يسخّر البحر بإذن الله .

وقوله : « لتجري الفلك فيه بأمره » غاية لتسخير البحر ، و جريان الفلك فيه بأمره ، هو إيجاد الجريان بكلمة كن فأثار الأشياء كنفس الأشياء منسوبة إليه تعالى وقوله : « ولتبتغوا من فضله » أي و لتطلبوا بركوبه عطيته تعالى وهو رزقه .

وقوله : « ولعلكم تشكرون » أي رجاء أن تشكروه تعالى قبال هذه النعمة التي هي تسخير البحر .

قوله تعالى : « و سخّر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعاً منه » إلخ هذا من الترقّي بعطف العام على الخاص ، والكلام في « لكم » كالكلام في مثله في الآية السابقة ، وقوله : « جميعاً » تأكيد لما في السماوات والأرض أحوال منه .

وقوله : « سخّر لكم ما في السماوات والأرض جميعاً » معنى تسخيرها للإنسان أن أجزاء العالم المشهود تجري على نظام واحد يحكم فيها ويربط بعضها ببعض ويربط الجميع بالإنسان فينتفع في حياته من علويتها وسفليتها ولا يزال المجتمع البشري يتوسّع في الانتفاع بها والاستفادة من توطئتها والتوسّل بشتاتها في الحصول على مزايا الحياة فالكل مسخّر له .

وقوله : « منه » من للابتداء ، والضمير لله تعالى وهو حال ممّا في السماوات والأرض ، والمعنى سخّر لكم ما في السماوات والأرض جميعاً حال كونه مبتدئ منه

حاصلاً من عنده فذوات الأشياء تبتدىء منه بإيجاده لها من غير مثال سابق وكذلك خواصّها وآثارها بخلقه و من خواصّها وآثارها ارتباط بعضها ببعض و هو النظام الجارى فيها المترابط بالإنسان قال تعالى : « الله يبدؤا الخلق ثم يعيده » الروم : ١١ وقال : « إنه هو يبدىء و يعيد » البروج : ١٣ .

و قد ذكروا لقوله : « منه » معاني أخر لا يخلو شيء منها عن التكلف تركنا التعرّض لها .

و قوله : « إنّ في ذلك لآيات لقوم يتفكّرون » وجه تعلّقها بالتفكّر ظاهر .





قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا
بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٤) مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَ مَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا
ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ (١٥) وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَآئِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ
وَالنُّبُوَّةَ وَ رَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَ فَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ الْعَالَمِينَ (١٦)
وَ آتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ النِّعَمُ
بَغْيًا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ
يَخْتَلِفُونَ (١٧) ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ
أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (١٨) إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ
الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ (١٩) .

﴿بيان﴾

لمَّا ذكر آيات الوحدا نية و أشار فيها بعض الإشارة إلى المعداد و كذا إلى النبوة
في ضمن ذكر تنزيل الكتاب و إبعاد المستكبرين المستهزئين به ذكر في هذه الآيات
تشريع الشريعة للنبي ﷺ ، و توسل إلى ذلك بمقدمتين تربطانه بما تقدم من
الكلام إحداها دعوة المؤمنين إلى أن يكفوا عن التعرض لحال الكفار الذين لا
يرجون أيام الله فإن الله مجازيهم لأن الأعمال مسؤل عنها صالحة أو طالحة ، وهذا
هو السبب لتشريع الشريعة ، والثانية أن إنزال الكتاب والحكم والنبوة ليس بيدع
فقد آتى الله بني إسرائيل الكتاب والحكم والنبوة و آتاهم البينات التي لا يبقى معها

في دين الله ريب لم رتاب إلا أن علماءهم اختلفوا فيه بغياً منهم وسيقضي الله بينهم .
ثم ذكر سبحانه تشريع الشريعة له وأمره باتباعها ونهاه عن اتباع أهواء
الجاهلين .

قوله تعالى : « قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله » إلخ أمر
منه تعالى لنبيه ﷺ بأن يأمر المؤمنين أن يغفروا للكفار فيصير تقدير الآية قل لهم:
اغفروا يغفروا فهي كقوله تعالى : « قل لعبادي الذين آمنوا يقيموا الصلاة »
إبراهيم : ٣١ .

والآية مكشّفة واقعة في سياق الآيات السابقة الواصفة لحال المستكبرين
المستهزئين بآيات الله المهددة لهم بأشدّ العذاب وكان المؤمنين بالنبي ﷺ كانوا
إذا رأوا هؤلاء المستهزئين يبالغون في طعنهم وإهانتهم للنبي ﷺ واستهزائهم بآيات الله
لم يتمالكوا أنفسهم دون أن يدافعوا عن كتاب الله ومن أرسله به ويدعوهم إلى رفض
ما هم فيه والإيمان مع كونهم ممن حققت عليهم كلمة العذاب كما هو ظاهر الآيات
السابقة فأمر الله سبحانه نبيه ﷺ أن يأمرهم بالعفو والصفح عنهم وعدم التعرض
لحالهم فإن وبال أعمالهم سيلحق بهم وجزاء ما كسبوه سينالهم .

وعلى هذا فالمراد بالمغفرة في قوله : « قل للذين آمنوا يغفروا » الصفح والإعراض
عنهم بترك مخاصمتهم ومجادلتهم ، والمراد بالذين لا يرجون أيام الله هم الذين ذكروا
في الآيات السابقة فإنهم لا يتوقعون لله أياماً لا حكم فيها ولا ملك إلا له تعالى كيوم
الموت والبرزخ ويوم القيامة ويوم عذاب الاستئصال .

وقوله : « ليجزي قوماً بما كانوا يكسبون » تعليل للأمر بالمغفرة أو للأمر
بالأمر بالمغفرة ومحصله ليصفحوا عنهم ولا يتعرضوا لهم ، فلا حاجة إلى ذلك لأن
الله سيجزيهم بما كانوا يكسبون فتكون الآية نظيرة قوله : « فذرني والمكذّبين أولي
النعمة ومهلهم قليلاً إن لدينا أنكلاً وجحيماً » المزمل : ١٣ ، وقوله : « ثم ذرهم
في خوضهم يلعبون » الأنعام : ٩١ ، وقوله : « فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا
يومهم الذي يوعدون » المعارج : ٤٢ ، وقوله : « فاصفح عنهم وقل سلام فسوف

يعلمون ، الزخرف : ٨٩ .

و معنى الآية : مر الذين آمنوا أن يعفوا و يصفحوا عن أولئك المستكبرين المستهزئين بآيات الله الذين لا يتوقعون أيام الله ليجزيهم الله بما كانوا يكسبون ويوم الجزاء يوم من أيامه أي ليصفحوا عن هؤلاء المنكرين لأن أيام الله حتى يجزيهم بأعمالهم في يوم من أيامه .

وفي قوله : « ليجزى قوماً » وضع الظاهر موضع الضمير ، وكان مقتضى الظاهر أن يقال : ليجزيهم ، والنكتة فيه مع كون « قوماً » نكرة غير موصوفة بتحقيق أمرهم و عدم العناية بشأنهم كأنهم قوم منكرون لا يعرف شخصهم ولا يهتم بشيء من أمرهم .

و بما تقدم من تقرير معنى الآية تتصل الآية و ما بعدها بما قبلها و تندفع الإشكالات التي أوردوها عليها و اهتموا بالجواب عنها ، و يظهر فساد المعاني المختلفة التي ذكروها لها و من أراد الاطلاع عليها فليراجع المطبوعات .

قوله تعالى : « من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها ثم إلى ربكم ترجعون » في موضع التعليل لقوله : « ليجزى قوماً » إلخ و لذا لم يعطف وليس من الاستئناف في شيء .

و محصل المعنى ليجزيهم الله بما كسبوا فإن الأعمال لا تذهب سدى و بلا أثر بل من عمل صالحاً انتفع به و من أساء العمل تضر به ثم إلى ربكم ترجعون فيجزىكم حسب أعمالكم إن خيراً فخيراً و إن شراً فشرّاً .

قوله تعالى : « و لقد آتينا بني إسرائيل الكتاب والحكم والنبوة » إلخ لما بين أن للأعمال آثاراً حسنة أو سيئة تلحق صاحبها أراد التنبيه على تشريع شريعة للنبي ﷺ إن كان على الله سبحانه أن يهدي عباده إلى ما فيه خيرهم و سعادتهم كما قال تعالى : « و على الله قصد السبيل و منها جائز » النحل : ٩ .

فنبه على ذلك بقوله الآتى : « ثم جعلناك على شريعة من الأمر » إلخ و قدم على ذلك الإشارة إلى ما آتى بني إسرائيل من الكتاب والحكم والنبوة و رزقهم من الطيبات و تفضيلهم وإيتائهم البينات ليؤذن به أن الإفاضة الإلهية بالشريعة والنبوة

والكتاب لست ببدع لم يسبق إليه بل لها نظير في بني إسرائيل وهم بمرآهم ومسمعهم. فقله : « ولقد آتينا بني إسرائيل الكتاب والحكم والنبوة » المراد بالكتاب التوراة المشتملة على شريعة موسى ﷺ وأما الانجيل فلا يتضمن الشريعة و شريعته شريعة التوراة ، وأما زبور داود فهي أدعية وأذكار ، و يمكن أن يراد بالكتاب جنسه الشامل للتوراة والانجيل والزبور كما قيل لكن يبعده أن الكتاب لم يطلق في القرآن إلا على ما يشتمل على الشريعة .

والمراد بالحكم بقرينة ذكره مع الكتاب ما يحكم ويقضي به الكتاب من وظائف الناس كما يذكره قوله تعالى : « وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه » البقرة : ٢١٣ وقال في التوراة : « يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأخبار بما استحفظوا من كتاب الله » المائدة : ٤٤ فالحكم من لوازم الكتاب كما أن النبوة من لوازمه .

والمراد بالنبوة معلوم وقد بعث الله من بني إسرائيل جمعا غيراً من الأنبياء كما في الأخبار وقص في كتابه جماعة من رسلهم .

وقوله : « و رزقناهم من الطيبات » أي طيبات الرزق ومن ذلك المن والسلوى. وقوله : « و فضلناهم على العالمين » إن كان المراد جميع العالمين فقد فضلها من بعض الجهات ككثرة الأنبياء المطبوعين والمعجزات الكثيرة الظاهرة من أنبيائهم ، وإن كان المراد عالمي زمانهم فقد فضلوا من جميع الجهات .

قوله تعالى : « و آتيناهم بينات من الأمر » إلى آخر الآية المراد بالبينات الآيات البينات التي تزيل كل شك وريب وتمحوه عن الحق و يشهد بذلك تفریع قوله : « فما اختلفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم » .

والمراد بالأمر قيل : هو أمر الدين ، و « من » بمعنى في والمعنى وأعطيناهم دلائل بيينة في أمر الدين و يندرج فيه معجزات موسى ﷺ .

وقيل : المراد به أمر النبي ﷺ والمعنى آتيناهم آيات من أمر النبي و علامات مبيينة لصدقه كظهوره في مكة و مهاجرة منه إلى يثرب و نصره أهله وغير ذلك

مما كان مذكوراً في كتبهم .

و قوله : « فما اختلفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم » يشير إلى أن ما ظهر بينهم من الاختلاف في الدين واختلاط الباطل بالحق لم يكن عن شبهة أو جهل وإنما أوجدها علماؤهم بغياً وكان البغي دائراً بينهم .

و قوله : « إن ربك يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون » إشارة إلى أن اختلافهم الذي لا يخلو من اختلاط الباطل بالحق لا يذهب سدى و سيؤثر أثره و يقضي الله بينهم يوم القيامة فيجزون على حسب ما يستدعيه أعمالهم .

قوله تعالى : « ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون » الخطاب للنبي ﷺ و يشاركه فيه أمته ، و الشريعة طريق ورود الماء والأمر أمر الدين ، والمعنى بعد ما آتينا بني إسرائيل ما آتيناك على طريقة خاصة من أمر الدين الإلهي وهي الشريعة الإسلامية التي خص الله بها النبي صلى الله عليه وآله و آله و أمته .

و قوله : « فاتبعها » إلخ أمر للنبي ﷺ باتباع ما يوحى إليه من الدين و أن لا يتبع أهواء الجاهلين المخالفة للدين الإلهي .

و يظهر من الآية أو لا أن النبي ﷺ مكلف بالدين كسائر الأمة .
و ثانياً أن كل حكم عملي لم يستند إلى الوحي الإلهي ولم ينته إليه فهو هوى من أهواء الجاهلين غير منتسب إلى العلم .

قوله تعالى : « إنهم لن يغنوا عنك من الله شيئاً » إلخ ، تعليل للنهي عن اتباع أهواء الذين لا يعلمون ، والإغناء من شيء رفع الحاجة إليه ، والمحصّل أن لك إلى الله سبحانه حوائج ضرورية لا يرفعها إلا هو والذريعة إلى ذلك اتباع دينه لا غير فلا يغني عنك هؤلاء الذين اتبعت أهواءهم شيئاً من الأشياء إليها الحاجة أو لا يغني شيئاً من الإغناء .

و قوله : « وإن الظالمين بعضهم أولياء بعض والله ولي المتقين » الذي يعطيه السياق أنه تعليل آخر للنهي عن اتباع أهواء الجاهلين ، وأن المراد بالظالمين المتبوعون

لأهوائهم المبتدعة و بالمتقين المتبعون لدين الله .

والمعنى أن الله وليّ الذين يتبعون دينه لأنهم متقون والله وليّهم ، والذين يتبعون أهواء الجهلة ليس هو تعالى وليّاً لهم بل بعضهم أولياء بعض لأنهم ظالمون والظالمون بعضهم أولياء بعض فاتبع دين الله يكن لك وليّاً ولا تتبع أهواءهم حتى يكونوا أولياء لك لا يغنون عنك من الله شيئاً .

و تسمية المتبعين لغير دين الله بالظالمين هو الموافق لما يستفاد من قوله : « أن لعنة الله على الظالمين الذين يصدّون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً وبالأخرة هم كفرون » الأعراف : ٤٥ .





هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٢٠) أَمْ
حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (٢١) وَخَلَقَ اللَّهُ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا
يُظْلَمُونَ (٢٢) أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَ
خَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَغَشَاوَهُ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ
بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٢٣) وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ
وَنَحْيَا وَ مَا يَهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا
يَظُنُّونَ (٢٤) وَ إِذَا تَنَلَّىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَا كَانَ حُجَّتُهُمْ إِلَّا
أَنْ قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢٥) قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ
ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا
يَعْلَمُونَ (٢٦) وَ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَ يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ
يَوْمَئِذٍ يَخْسِرُ الْمُبْطِلُونَ (٢٧) وَ تَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَائِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ
إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٨) هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ
عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنْ كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٩) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا

وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيَدْخُلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ (٣٠)
وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تَتْلَىٰ عَلَيْهِمْ فَاستَكْبَرْتُمْ وَكُنْتُمْ
قَوْمًا مُّجْرِمِينَ (٣١) وَ إِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ
فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَنْدَرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُتَّبِعِينَ (٣٢)
وَبَدَأَهُمْ سَيِّئَاتٍ مَا عَمِلُوا وَ حَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٣٣)
وَ قِيلَ الْيَوْمَ نَنْسِفُكُمْ كَمَا نَسِفْنَا لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوِيَكُمْ النَّارُ
وَ مَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (٣٤) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّخَذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَ
غَرَّتْكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لَا يَخْرُجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (٣٥)
فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَ رَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٣٦) وَ لَهُ
الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٣٧) .

﴿بيان﴾

لمَّا أشار إلى جعل النبي ﷺ على شريعة من الأمر و هو تشريع الشريعة
الاسلامية أشار في هذه الآيات إلى أنَّها بصائر للناس يبصرون بها ما يجب عليهم أن
يسلكوه من سبيل الحياة الطيبة في الدنيا و تتلوها سعادة الحياة الآخرة ، و هدى ورحمة
لقوم يوقنون بآيات الله .

و أشار إلى أن الذي يدعو مجترحي السيئات أن يستنكفوا عن التشريع بالشريعة
إنكارهم المعاد فيحسبون أنَّهم و المتشرعون بالدين سواء في الحياة و الممات وأن لا أثر

للتشريع بالشرعية فلا ثمرة للعمل الصالح الذي تهدي إليه الشريعة إلا إعتاب النفس بالتقيّد من غير موجب . فبرهن تعالى على بطلان حسابهم بإثبات المعاد ثم أردفه بوصف المعاد وما يثيب به الصالحين يومئذ وما يعاقب به الصالحين أهل الجحود والإجرام ، وعند ذلك تختتم السورة بالتحميد والتسبيح .

قوله تعالى : « هذا بصائر للناس وهدى ورحمة لقوم يوقنون » الإشارة بهذا إلى الأمر المذكور الذي هو الشريعة أو إلى القرآن بما يشتمل على الشريعة، والبصائر جمع بصيرة وهي الإدراك المصيب للواقع ، والمراد بها ما يبصر به ، وإثما كانت الشريعة بصائر لأنّها تتضمن أحكاماً وقوانين كلّ منها يهدي إلى واجب العمل في سبيل السعادة .

والمعنى هذه الشريعة المشرّعة أو القرآن المشتمل عليها وظائف عملية يتبصّر بكلّ منها الناس ويهتدون إلى السبيل الحقّ وهو سبيل الله وسبيل السعادة فقوله بعد ذكر تشريع الشريعة « هذا بصائر للناس » كقوله بعد ذكر آيات الوحداية في أوّل السورة : « هذا هدى والذين كفروا » إلخ .

وقوله : « وهدى ورحمة لقوم يوقنون » أي دلالة واضحة وإفاضة خير لهم ، والمراد بقوم يوقنون : الذين يوقنون بآيات الله الدالة على أصول المعارف فإنّ المعهود في القرآن تعلّق الإيقان بالأصول الاعتقادية .

وتخصيص الهدى والرحمة بقوم يوقنون مع التصريح بكونه بصائر للناس لا يخلو من تأييد لكون المراد بالهدى الوصول إلى المطلوب دون مجرد التبصّر ، وبالرحمة الرحمة الخاصة بمن اتقى وآمن برسوله بعد الإيمان بالله قال تعالى : « يا أيّها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نوراً تمشون به و يغفر لكم » الحديد : ٢٨ ، وقال : « ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب - إلى أن قال - وبالأخرة هم يوقنون » البقرة : ٤ ، وللرحمة درجات كثيرة تختلف سعة وضيقاتها للرحمة الخاصة بأهل الإيمان أيضاً مراتب مختلفة باختلاف مراتب الإيمان فلكلّ مرتبة من مراتبه ما يناسبها منها .

وَأَمَّا الرَّحْمَةُ بِمَعْنَى مُطْلَقِ الْخَيْرِ الْفَائِضِ مِنْهُ تَعَالَى فَانَّ الْقُرْآنَ بِمَا يَشْتَمِلُ عَلَى الشَّرِيعَةِ رَحْمَةً لِلنَّاسِ كَافَّةً كَمَا أَنَّ الرَّسُولَ الْمُبْعُوْثَ بِهِ رَحْمَةً لَهُمْ جَمِيعاً قَالَ تَعَالَى : « وَ مَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ » الْأَنْبِيَاءُ : ١٠٧ وَ قَدْ أوردنا بعض الكلام في هذا المعنى في بعض المباحث السابقة .

قوله تعالى : « أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ » الخ قَالَ فِي الْمَجْمَعِ : الْاجْتِرَاحُ الْاِكْتِسَابُ يُقَالُ : جَرَحَ وَ اجْتَرَحَ وَ كَسَبَ وَ اِكْتَسَبَ وَ أَصْلُهُ مِنَ الْجَرَّاحِ لِأَنَّ لَذَلِكَ تَأْثِيراً كَتَأْثِيرِ الْجَرَّاحِ . قَالَ : وَ السَّيِّئَةُ الْفَعْلَةُ الْقَبِيحَةُ الَّتِي يَسُوءُ صَاحِبُهَا بِاسْتِحْقَاقِ الذَّمِّ عَلَيْهَا . انْتَهَى .

وَ الْجَعْلُ بِمَعْنَى التَّصْيِيرِ ، وَ قَوْلُهُ : « كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ » فِي مَجْلٍ الْمَفْعُولِ الثَّانِي لِلْجَعْلِ وَالتَّقْدِيرِ كَانَيْنِ كَالَّذِينَ آمَنُوا الخ .

وَ جَزَمَ الزَّمَخْشَرِيُّ فِي الْكَشَّافِ عَلَى كَوْنِ الْكَافِ فِي « كَالَّذِينَ » اسماً بِمَعْنَى الْمِثْلِ هُوَ مَفْعُولُ ثَانٍ لِقَوْلِهِ : « نَجْعَلُهُمْ » وَ قَوْلُهُ : « سَوَاءً » بَدَلًا مِنْهُ .

وَقَوْلُهُ : « سَوَاءً » بِالنَّصْبِ عَلَى الْقِرَاءَةِ الدَّائِرَةِ وَهُوَ مُصَدَّرٌ بِمَعْنَى اسْمِ الْفَاعِلِ أَيْ مُسْتَوِيًّا أَوْ مُتَسَاوِيًّا ، وَقَوْلُهُ : « مَحْيَاهُمْ » مُصَدَّرٌ مِمِّيّ وَ فَاعِلٌ « سَوَاءً » وَ ضَمِيرُهُ رَاجِعٌ إِلَى مَجْمُوعِ الْمُجْتَرِحِينَ وَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَ « مَمَاتُهُمْ » مَعْطُوفٌ عَلَى « مَحْيَاهُمْ » وَ حَالُهُ كَحَالِهِ .

وَالْآيَةُ مَسْوَقةٌ سَوْقِ الْإِنْكَارِ وَ « أَمْ » مَنْقُطَةٌ ، وَ الْمَعْنَى بَلْ أَحْسَبُ وَظَنُّ الَّذِينَ يَكْتَسِبُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ نَصَيَّرَهُمْ مِثْلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مُسْتَوِيًّا مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ أَيْ تَكُونُ حَيَاةُ هَؤُلَاءِ كَحَيَاةِ أُوْلكَ وَ مَوْتُهُمْ كَمَوْتِهِمْ فَيَكُونُ الْإِيمَانُ وَ التَّشَرُّعُ بِالْإِيمَانِ لِفِعْوَالٍ لَا أَثَرَ لَهُ فِي حَيَاةٍ وَلَا مَوْتٍ وَ يَسْتَوِي وَجُودُهُ وَعَدَمُهُ .

وَ قَوْلُهُ : « سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ » رَدٌّ لِحِسَابِهِمُ الْمَذْكُورِ وَ حَكْمُهُمْ بِالْمِثَالَةِ بَيْنَ مُجْتَرِحِي السَّيِّئَاتِ وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَمَسَاءَةُ الْحُكْمِ كُنَايَةٌ عَنْ بَطْلَانِهِ . فَالْفَرِيقَانِ لَا يَتَسَاوِيَانِ فِي الْحَيَاةِ وَلَا فِي الْمَمَاتِ :

أما أنهما لا يتساويان في الحياة فلأن الذين آمنوا وعملوا الصالحات في سلوكهم مسلك الحياة على بصيرة من أمرهم وهدى ورحمة من ربهم كما ذكره سبحانه في الآية السابقة والمسيء صفر الكف من ذلك وقال تعالى في موضع آخر : « فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا » طه : ١٢٤ . وقال في موضع آخر : « أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها » الأنعام : ١٢٢ .

وأما أنهما لا يتساويان في الممات فلأن الموت كما ينطق به البراهين الساطعة ليس انعداماً للشيء وبطالاناً للنفس الإنسانية كما يحسبه المبطلون بل هو رجوع إلى الله سبحانه وانتقال من نشأة الدنيا إلى نشأة الآخرة التي هي دار البقاء وعالم الخلود يعيش فيها المؤمن الصالح في سعادة ونعمة وغيره في شقاء وعذاب .

وقد أشار سبحانه إليه فيما تقدم من كلامه بقوله : « كذلك يحيي الله الموتى » وقوله : « ثم إلى ربكم ترجعون » وغير ذلك ، وسيعرض له بقوله : « وخلق الله السماوات والأرض بالحق » الخ .

والآية من حيث تركيب ألفاظها والمعنى المتحصل منها معارك الآراء بين المفسرين وقد ذكروا لها محامل كثيرة والذي يعطيه السياق ويساعد عليه هو ما قد مناه ، ولا كثير فائدة في التعرض لوجوه أخر ذكروها فمن أراد الاطلاع عليها فليراجع المطبوعات .
قوله تعالى : « وخلق الله السماوات والأرض بالحق » ولتجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون » الظاهر أن المراد بالسماوات والأرض مجموع العالم المشهود والباء في « بالحق » للملابسة فكون خلق العالم بالحق كونه حقاً لا باطلاً ولعباً وهو أن يكون لهذا العالم الكائن الفاسد غاية ثابتة باقية وراءه .

وقوله : « ولتجزى » الخ عطف على « بالحق » والباء في قوله : « بما كسبت » للتعدية أو للمقابلة أي لتجزى مقابل ما كسبت إن كان طاعة فالثواب وإن كان معصية فالعقاب ، وقوله : « وهم لا يظلمون » حال من كل نفس أي ولتجزى كل نفس بما كسبت بالعدل .

فيؤل معنى الآية إلى مثل قولنا وخلق الله السماوات والأرض بالحق وبالعدل فكون الخلق بالحق يقتضي أن يكون وراء هذا العالم عالم آخر يخلد فيه الموجودات وكون الخلق بالعدل يقتضي أن تجزى كل نفس ما تستحقه بكسبها فالمحسن يجزى جزاء حسنا والمسيء يجزى جزاء سيئا وإن ليس ذلك في هذه النشأة ففي نشأة أخرى .
وبهذا البيان إن الآية تتضمن حجتين على المعاد إحداهما ما أُشير إليه بقوله :
« وخلق الله السماوات والأرض بالحق » ويسلك من طريق الحق ، والثانية ما أُشير إليه بقوله : « و لتجزى » الخ ويسلك من طريق العدل .

فتؤل الحجتان إلى ما يشتمل عليه قوله : «وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار » ص : ٢٨ .

والآية بما فيها من الحجّة تبطل حسابهم أن المسيء كالمحسن في الملمات فإن حديث المجازاة بالثواب والعقاب على الطاعة والمعصية يوم القيامة ينفي تساوي المطيع والعاصي في الملمات ، ولأزم ذلك إبطال حسابهم أن المسيء كالمحسن في الحياة فإن ثبوت المجازاة يومئذ يقتضي وجوب الطاعة في الدنيا والمحسن على بصيرة من الأمر في حياته يأتي بواجب العمل ويتزود من يومه لغده بخلاف المسيء العائش في عمى وضلال فليسا بمتساويين .

قوله تعالى : « أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضلّه الله على علم » إلى آخر الآية ظاهر السياق أن قوله : « أفرأيت » مسوق للتعجيب أي ألا تعجب ممن حاله هذا الحال ؟

و المراد بقوله : « اتخذ إلهه هواه » حيث قدّم « إلهه » على « هواه » أنه يعلم أن له إلهاً يجب أن يعبده - وهو الله سبحانه - لكنّه يبدّله من هواه و يجعل هواه مكانه فيعبدّه فهو كافر بالله سبحانه على علم منه ، ولذلك عقّبه بقوله : « وأضلّه الله على علم » أي إنّه ضالّ عن السبيل وهو يعلم .

ومعنى اتخذ الإله العبادة والمراد بها الإطاعة فإن الله سبحانه عدّ الطاعة

عبادة كما في قوله : « ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين و أن اعبدوني » يس : ٦٠ وقوله : « اتخذوا أجبارهم و رهبانهم أرباباً من دون الله » التوبة : ٣١ ، وقوله : « ولا يتخذ بغضنا بغضاً أرباباً من دون الله » آل عمران : ٦٤ . و الاعتبار يوافقه إذ ليست العبادة إلا إظهار الخضوع و تمثيل أن العابد عبد لا يريد و لا يفعل إلا ما أراد و رضيه معبوده فمن أطاع شيئاً فقد اتخذه إلهاً و عبده فمن أطاع هواه فقد اتخذ إلهه هواه و لا طاعة إلا لله أو من أمر بطاعته .

فقوله : « أفرأيت من اتخذ إلهه هواه » أي ألا تعجب ممن يعبد هواه با طاعته و اتبعه و هو يعلم أن له إلهاً غيره يجب أن يعبد و يطيعه لكنه يجعل معبوده ومطاعه هو هواه .

و قوله : « و أضله الله على علم » أي هو ضال با ضلال منه تعالى يضله به مجازاة لاتباعه الهوى حالكون إضلاله مستقراً على علم هذا الضال ، و لاضير في اجتماع الضلال مع العلم بالسبيل و معرفته كما في قوله تعالى : « و جحدوا بها و استيقنتها أنفسهم » النمل : ١٤ ، و ذلك أن العلم لا يلزم الهدى و لا الضلال يلزم الجهل بل الذي يلزم الهدى هو العلم مع التزام العالم بمقتضى علمه فيتعقبه الاهتداء و أما إذا لم يلتزم العالم بمقتضى علمه لاتباع منه للهوى فلا موجب لاهتدائه بل هو الضلال وإن كان معه علم .

و أما قول بعضهم : إن المراد بالعلم هو علمه تعالى و المعنى و أضله الله على علم منه تعالى بحاله فبعيد عن السياق .

و قوله : « و ختم على سمعه و قلبه و جعل على بصره غشاوة » كالعطف التفسيري لقوله : « و أضله الله على علم » و الختم على السمع و القلب هو أن لا يسمع الحق و لا يعقله ، و جعل الغشاوة على البصر هو أن لا يبصر الحق من آيات الله و محصل الجميع أن لا يرتب على السمع و القلب و البصر أثرها وهو الالتزام بمقتضى ما ناله من الحق إذا أدركه لاستكبار من نفسه و إتباع للهوى ، و قد عرفت أن الضلال عن السبيل لا ينافي العلم به إذا لم يكن هناك التزام بمقتضاه .

و قوله : « فمن يهديه من بعد الله » الضمير لمن اتخذ إلهه هواه و التفريع على ما تحصل من حاله أي إذا كان حاله هذا الحال وقد أضله الله على علم إلخ فمن يهديه من بعد الله سبحانه فلا هادي دونه قال تعالى : « قل إن هدى الله هو الهدى » البقرة : ١٢٠ وقال : « و من يضل الله فماله من هاد » المؤمن : ٣٣ .

و قوله : « أفلا تذكرون » أي أفلا تتفكرون في حاله فتذكروا أن هؤلاء لاسبيل لهم إلى الهدى مع اتباع الهوى فتتعظوا .

قوله تعالى : « و قالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت و نحيا و ما يهلكنا إلا الدهر » إلى آخر الآية قال الراغب : الدهر في الأصل اسم لمدة العالم من مبدء وجوده إلى انقضائه و على ذلك قوله تعالى : « هل أتى على الإنسان حين من الدهر » ثم يعبر به عن كل مدة كثيرة ، و هو خلاف الزمان فإن الزمان يقع على المدة القليلة والكثيرة . انتهى

والآية على ما يعطيه السياق - سياق الاحتجاج على الوثنيين المثبتين للصانع المنكرين للمعاد - حكاية قول المشركين في إنكار المعاد لا كلام الدهريين الناسبين للحوادث وجوداً و عدماً إلى الدهر المنكرين للمبدء والمعاد جميعاً إذا لم يسبق لهم ذكر في الآيات السابقة .

فقولهم : « ما هي إلا حياتنا الدنيا » الضمير للحياة أي لاهية لنا إلا حياتنا الدنيا لا حياة وراءها فلا وجود لما يدعيه الدين الإلهي من البعث والحياة الآخرة ، و هذا هو القرينة المؤيدة لأن يكون المراد بقوله : « نموت و نحيا » يموت بعضنا و يحيا بعضنا الآخر فيستمر بذلك بقاء النسل الإنساني بموت الأسلاف و حياة الأُخلاف و يؤيد ذلك بعض التأييد قوله بعده : « و ما يهلكنا إلا الدهر » المشعر بالاستمرار .

فالمعنى و قال المشركون : ليست الحياتنا إلا حياتنا الدنيا التي نعيش بها في الدنيا فلا يزال يموت بعضنا و هم الأسلاف و يحيى آخرون و هم الأُخلاف و ما يهلكنا إلا الزمان - الذي بمروره يبلى كل جديد و يفسد كل كائن و يميت كل حي - فليس الموت انتقالاً من دار إلى دار منتهيّاً إلى البعث والرجوع إلى الله .

و لعلّ هذا كلام بعض الجهلة من وثنية العرب وإلا فالعقيدة الدائرة بين الوثنية هي التناسخ وهو أن نفوس غير أهل الكمال إذا فارقت الأبدان تعلقت بأبدان أخرى جديدة فإن كانت النفس المفارقة اكتسبت السعادة في بدنها السابق تعلقت ببدن جديد تنعم فيه و تسعد ، وإن كانت اكتسبت الشقاء في البدن السابق تعلقت ببدن لاحق تشقى فيه و تعذب جزاء لعملها السيئ وهكذا ، وهؤلاء لا ينكرون استناد أمر الموت كالحياة إلى وساطة الملائكة .

ولهذا أعني كون القول بالتناسخ دائراً بين الوثنية ذكر بعض المفسرين أن المراد بالآية قولهم بالتناسخ والمعنى «إن هي إلا حياتنا الدنيا» فلسنا نخرج من الدنيا أبداً «نموت» عن حياة دنیا «و نحيا» بعد الموت بالتعلق ببدن جديد وهكذا «وما يهلكنا إلا الدهر» .

وهذا لا يخلو من وجه لكن لا يلائمه قولهم المنقول ذبلاً : «وما يهلكنا إلا الدهر» إلا أن يوجه بأن مرادهم من نسبة الإهلاك إلى الدهر كون الدهر وسيلة يتوسل بها الملك الموت على الموت إلى الأمانة ، وكذا لا تلائمهم حجّتهم المنقولة ذبلاً : «اثبتوا بأبائنا إن كنتم صادقين» الظاهرة في أنهم يرون آباءهم معدومين باطلا الذوات .

و ذكر في معنى الآية وجود آخر لا يعاب بها كقول بعضهم : المعنى نكون أمواتاً لا حياة فيها وهو قبل ولوج الروح ثم نحى بولوجها على حدّ قوله تعالى : «وكنتم أمواتاً فأحياكم» البقرة : ٢٨ .

وقول بعضهم : المراد بالحياة بقاء النسل مجازاً والمعنى نموت نحن ونحيا ببقاء نسلنا . إلى غير ذلك مما قيل .

وقوله : «وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون» أي إن قولهم ذلك المشعر بانكار المعاد قول بغير علم وإنّما هو ظنّ يظنّونه وذلك أنّهم لا دليل لهم يدل على نفي المعاد مع ما هناك من الأدلة على ثبوته .

قوله تعالى : «وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات ما كان حجّتهم إلا أن قالوا اتّوا

بآبائنا إن كنتم صادقين» تأكيد لكون قولهم بنفى المعاد وحصر الحياة فى الحياة الدنيا قولاً بغير علم .

والمراد بالآيات البينات الآيات المشتملة على الحجج المثبته للمعاد وكونها بينات وضوح دلالتها على ثبوته بلاشك و تسمية قولهم : « اثبتوا بآبائنا إن كنتم صادقين» مع كونه اقتراحاً جزافياً بعد قيام الحجّة إنما هو من باب التهكم فإنه من قبيل طلب الدليل على المطلوب بعد قيام الدليل عليه فكأنه قيل : ما كانت حجّتهم إلاّ حجّة . والمعنى وإذا تتلى على هؤلاء المنكرين للمعاد آياتنا المشتملة على الحجج المثبته للمعاد والحال أنّها واضحات الدلالة على ثبوته ما قابلوها إلاّ بجزاف من القول وهو طلب الدليل على إمكانه با حياء آباؤهم الماضين .

قوله تعالى : « قل الله يحييكم ثم يميتكم ثم يجمعكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه و لكن أكثر الناس لا يعلمون - إلى قوله - والأرض ما ذكر من اقتراحهم الحجّة على مطلوب قامت عليه الحجّة وإن كان اقتراحاً جزافياً لا يستدعى شيئاً من الجواب لكنّه سبحانه أمر نبيه ﷺ أن يجيبهم با ثبات إمكانه الذى كانوا يستبعدونه .

ومحصله أن الذى يحييكم لأول مرة ثم يميتكم ثم يجمعكم إلى يوم القيامة الذى لا ريب فيه هو الله سبحانه ولله ملك السماوات والأرض يحكم فيها ما يشاء و يتصرف فيها كيفما يريد فله أن يحكم برجوع الناس إليه ويتصرف فيكم بجمعكم إلى يوم القيامة والقضاء بينكم ثم الجزء ، والباقي ظاهر .

قوله تعالى : « ويوم تقوم الساعة يومئذ يخسر المبطلون » قال الراغب: الخسر والخسران انتقاص رأس المال وينسب ذلك إلى الإنسان فيقال : خسرفلان ، وإلى الفعل فيقال : خسرت تجارتك قال تعالى : « تلك إذأ كرهة خاسرة » ويستعمل ذلك فى المقتنيات الخارجيّة كالمال والجاه فى الدنيا وهو الأكثر ، وفى المقتنيات النفسية كالصحة والسلامة والعقل والإيمان والثواب وهو الذى جعله الله تعالى الخسران المبين .

قال: وكلّ خسران ذكره الله تعالى فى القرآن فهو على هذا المعنى الأخير دون الخسران المتعلق بالمقتنيات المالية والتجارات البشرية .

و قال : والابطل يقال في إفساد الشيء وإزالته سواء كان ذلك الشيء حقاً أو باطلاً قال تعالى : « ليحق الحق ويبطل الباطل » وقد يقال فيمن يقول شيئاً لا حقيقة له نحو « و لئن جئتهم بآية ليقولن الذين كفروا إن أنتم إلا مبطلون » ، وقوله تعالى : « خسر هنالك المبطلون » أي الذين يبطلون الحق . انتهى

والأشبه أن يكون المراد بقيام الساعة فعليّة ما يقع فيها من البعث والجمع والحساب والجزاء وظهوره ، وبذلك صح جعل الساعة مظروفاً لليوم وهما واحد ، والأشبه أن يكون قوله : « يومئذ » تأكيداً لقوله : « يوم تقوم الساعة » . والمعنى و يوم تقوم الساعة وهي يوم الرجوع إلى الله يومئذ يخسر المبطلون الذين أبطلوا الحق وعدلوا عنه .

قوله تعالى : « وترى كل أمة جاثية كل أمة تدعى إلى كتابها » إلخ الجنو البروك على الركبتين كما أن الجنو البروك على أطراف الأصابع .

والخطاب عام لكل من يصح منه الرؤية وإن كان متوجّهاً إلى النبي ﷺ والمراد بالدعوة إلى الكتاب الدعوة إلى الحساب على ما ينطق به الكتاب بإحصاء الأعمال بشهادة قوله بعده : « اليوم تجزون ما كنتم تعملون » .

والمعنى وترى أنت وغيرك من الرائيين كل أمة من الأمم جالسة على الجنو جلسة الخاضع الخائف كل أمة منهم تدعى إلى كتابها الخاص بها وهي صحيفة الأعمال وقيل لهم : اليوم تجزون ما كنتم تعملون .

و يستفاد من ظاهر الآية أن لكل أمة كتاباً خاصاً بهم كما أن لكل إنسان كتاباً خاصاً به قال تعالى : « وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه ونخرج له القيامة كتاباً يلقاه منشوراً » أسرى : ١٣ .

قوله تعالى : « هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون »

قال في الصحاح : و نسخت الكتاب و انتسخته و استنسخته كله بمعنى ، و النسخة اسم المُنْتَسخ منه . انتهى وقال الراغب : النسخ إزالة الشيء بشيء يتعقبه كنسخ الشمس الظل و نسخ الظل الشمس والشيب الشباب - إلى أن قال - ونسخ الكتاب نقل صورته

المجردة إلى كتاب آخر و ذلك لا يقتضي إزالة الصورة الأولى بل يقتضي إثبات مثلها في مادة أخرى كاتخاذ نقش الخاتم في شموع كثيرة ، والاستنساخ التقدّم بنسخ الشيء والترشح للنسخ . انتهى

ومقتضى ما نقل أن المفعول الذي يتعدى إليه الفعل في قولنا : استنسخت الكتاب هو الأصل المنقول منه ، و لازم ذلك أن تكون الأعمال في قوله : « إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون » كتاباً وأصلاً و إن شئت فقل : في أصل و كتاب يستنسخ و ينقل منه و لو أريد به ضبط الأعمال الخارجية القائمة بالإنسان بالكتابة ل قيل : إنا كنا نكتب ما كنتم تعملون إذ لا نكتة تستدعي فرض هذه الأعمال كتاباً وأصلاً يستنسخ ، ولادليل على كون « يستنسخ » بمعنى يستكتب كما ذكره بعضهم .

و لازم ذلك أن يكون المراد بما تعملون هو أعمالهم الخارجية بما أنشأها في اللوح المحفوظ فيكون استنساخ الأعمال استنساخ ما يرتبط بأعمالهم من اللوح المحفوظ وتكون صحيفة الأعمال صحيفة الأعمال و جزء من اللوح المحفوظ ، ويكون معنى كتابة الملائكة للأعمال تطبيقيهم ما عندهم من نسخة اللوح على الأعمال .

و هذا هو المعنى الذي وردت به الرواية من طرق الشيعة عن الصادق عليه السلام ومن طرق أهل السنة عن ابن عباس ، و سيوافيك في البحث الروائي التالي .

و على هذا فقوله : « هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق » من كلامه تعالى لا من كلام الملائكة ، و هو من خطابه تعالى لأهل الجمع يوم القيامة يحكيه لنا فيكون في معنى « و يقال لهم هذا كتابنا » إلخ .

والإشارة بهذا - على ما يعطيه السياق - إلى صحيفة الأعمال و هي بعينها إشارة إلى اللوح المحفوظ على ما تقدم وإضافة الكتاب إليه تعالى نظراً إلى أنه صحيفة الأعمال من جهة أنه مكتوب بأمره تعالى و نظراً إلى أنه اللوح المحفوظ من جهة التشريف و قوله : « ينطق عليكم بالحق » أي يشهد على ما علمتم و يدل عليه دلالة واضحة ملابساً للحق .

وقوله : « إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون » تعليل لكون الكتاب ينطق عليهم

بالحق" أي إن" كتابنا هذا دال" على عملكم بالحق" من غير أن يتخلف عنه لأنما اللوح المحفوظ المحيط بأعمالكم بجميع جهاتها الواقعية .

ولولا أن" الكتاب يريهم أعمالهم بنحو لا يداخله شك" ولا يحتمل منهم التكذيب لكد" به قال تعالى : «يوم تجد كل" نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء تود" لو أن" بينها وبينه أمداً بعيداً» آل عمران : ٣٠ .
و للقوم في الآية أقوال أخر :

منها ما قيل : إن" الآية من كلام الملائكة لامن كلام الله ومعنى الاستنساخ الكتابة والمعنى هذا أي صحيفة الأعمال كتابنا معشر الملائكة الكاتبين للأعمال يشهد عليكم بالحق" إننا كننا نكتب ما كنتم تعملون .
وفيه أن" كونه من كلام الملائكة بعيد من السياق على أن" كون الاستنساخ بمعنى مطلق الكتابة لم يثبت لغة .

ومنها أن" الآية من كلام الله ، والإشارة بهذا إلى صحيفة الأعمال ، وقيل : إلى اللوح المحفوظ ، والاستنساخ بمعنى اللاستكتاب مطلقاً .

قوله تعالى : « أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيدخلهم ربهم في رحمته ذلك هو الفوز المبين » تفصيل حال الناس يومئذ بحسب اختلافهم بالسعادة والشقاء والثواب والعقاب ، والسعداء المثنون هم الذين آمنوا وعملوا الصالحات والأشقياء المعاقبون هم الذين كفروا من المستكبرين المجرمين .

والمراد بالرحمة الإفاضة الإلهية تسعد من استقر" فيها ومنها الجنة ، والفوز المبين الفلاح الظاهر ، والباقي واضح .

قوله تعالى : « وأما الذين كفروا أفلم تكن آياتي تتلى عليكم فاستكبرتم وكنتم قوماً مجرمين » المراد بالذين كفروا المتلبسون بالكفر عن تكذيب وجحود بشهادة قوله : « أفلم تكن آياتي تتلى عليكم فاستكبرتم » إلخ .

والفاء في « أفلم تكن » للتفريع فتدل" على مقدار متفرع عليه هو جواب لما .
والتعديف يقال لهم ألم تكن آياتي تتلى عليكم ، والمراد بالآيات الحجج الإلهية الملقاة

إليهم عن وحي و دعوة ، والمجرم هو المتلبس بالإجرام و هو الذنب .

والمعنى وأما الذين كفروا جاحدين للحق مع ظهوره فيقال لهم توبيحاً وتقريراً :
ألم تكن حججتي تقرأ و تبين لكم في الدنيا فاستكبرتم عن قبولها و كنتم قوماً مذنبين .
قوله تعالى : « و إذا قيل إن وعد الله حق والساعة لا ريب فيها قلتم ما ندري ما الساعة » إلخ المراد بالوعد الموعد و هو ما وعده الله بلسان رسله من البعث والجزاء
فيكون قوله : « والساعة لا ريب فيها » من عطف التفسير ، و يمكن أن يراد بالوعد
المعنى المصدري .

و قولهم : « ما ندري ما الساعة » معناه أنه غير مفهوم لهم والحال أنهم أهل فهم
و ذرية فهو كناية عن كونه أمراً غير معقول و لو كان معقولاً لدروه .
و قوله : « إن نظن إلا ظناً وما نحن بمستيقنين » أي ليست ممّا نقطع به ونجزم
بل نظن ظناً لا يسعنا أن نعتمد عليه ففي قولهم : ما ندري ما الساعة إلخ غب ما تليت
عليهم من الآيات البيّنة أفحش المكابرة مع الحق .

قوله تعالى : « و بدا لهم سيئات ما عملوا و حاق بهم ما كانوا به يستهزئون »
إضافة السيئات إلى ما عملوا بيانية أو بمعنى من ، والمراد بما عملوا جنس ما عملوا أي
ظهر لهم أعمالهم السيئة أو السيئات من أعمالهم فالآية في معنى قوله : « يوم تجد كل
نفس ما عملت من خير محضراً و ما عملت من سوء » آل عمران : ٣٠ .

فالآية من الآيات الدالة على تمثيل الأعمال ، و قيل : إن في الكلام حذفاً و
التقدير و بدالهم جزاء سيئات ما عملوا .

و قوله : « و حاق بهم ما كانوا به يستهزئون » أي و حل بهم العذاب الذي كانوا
يسخرون منه في الدنيا إذا أُنذروا به بلسان الأنبياء و الرسل .

قوله تعالى : « و قيل اليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا و مأواكم النار
و ما لكم من ناصرين » النسيان كناية عن الإعراض و الترك فنسيانه تعالى لهم يوم
القيامة إعراضه عنهم و تركه لهم في شدائده وأهواله ، ونسيانهم لقاء يومهم ذاك في الدنيا
إعراضهم عن تذكره و تركهم التأهب للقائه ، و الباقي ظاهر .

قوله تعالى : « ذلكم بأنكم اتخذتم آيات الله هزواً و غرّتم الحياة الدنيا ، الخ الإشارة بقوله : « ذلكم » إلى ما ذكر من عقابهم من ظهور السيئات و حلول العذاب و الهزء السخرية التي يستهزء بها و الباء للسببية .

والمعنى ذلكم العذاب الذي يحلّ بكم بسبب أنكم اتخذتم آيات الله سخرية تستهزؤن بها و بسبب أنكم غرّتم الحياة الدنيا فأخذتم إليها و تعلقتم بها .

و قوله : « فاليوم لا يخرجون منها و لاهم يستعجبون » صرف الخطاب عنهم إلى النبي ﷺ ، و يتضمن الكلام خلاصة القول فيما يصيبهم من العذاب يومئذ و هو الخلود في النار و عدم قبول العذر منهم .

و الاستعجاب طلب العتبي و الاعتذار ، و نفي الاستعجاب كناية عن عدم قبول العذر .
قوله تعالى : « فله الحمد رب السماوات و رب الأرض رب العالمين » تحميد له تعالى بالتفريع على ما تقدّم في السورة من كونه خالق السماوات و الأرض و ما بينهما و المدبّر لأمر الجميع و من بديع تديره خلق الجميع بالحق المستتبّع ليوم الرجوع إليه و الجزاء بالأعمال و هو المستدعي لجعل الشرائع التي تسوق إلى السعادة و الثواب و يتعقّبها الجمع ليوم الجمع ثم الجزاء و استقرار الجميع على الرحمة و العدل بإعطاء كل شيء ما يستحقّه فلم يدبّر إلاّ تديراً جميلاً و لم يفعل إلاّ فعلاً محموداً فله الحمد كله .

و قد كرّر « الرب » فقال : رب السماوات و رب الأرض ثم أبدل منهما قوله : « رب العالمين » ليأتي بالتصريح بشمول الربوبية للجميع فلوجيء رب العالمين و اكتفي به أمكن أن يتوهّم أنّه رب المجموع لكنّ للسماوات خاصّة ربّ آخر و للأرض وحدها ربّ آخر كما ربّما قال بمثله الوثنية ، و كذا لو اكتفي بالسماوات و الأرض لم يكن صريحاً في ربوبيته لغيرهما ، و كذا لو اكتفي بإحدهما .

قوله تعالى : « و له الكبرياء في السماوات و الأرض و هو العزيز الحكيم » الكبرياء على ما عن الراغب : الترفع عن الانقياد ، و عن ابن الأثير : العظمة و الملك و في المجمع السلطان القاهر و العظمة القاهرة و العظمة والرفعة .

و هي على أي حال أبلغ معنى من الكبر و تستعمل في العظمة غير الحسيّة و مرجعه إلى كمال وجوده ولا تناهي كماله .

وقوله : « و له الكبرياء في السماوات و الأرض » أي له الكبرياء في كل مكان فلا يتعالى عليه شيء فيهما و لا يستغره شيء و تقديم الخبر في « له الكبرياء » يفيد الحصر كما في قوله : « فله الحمد » .

وقوله : « و هو العزيز الحكيم » أي الغالب غير المغلوب فيما يريد من خلق و تدبير في الدنيا و الآخرة و الباني خلقه و تدبيره على الحكمة و الاتقان .

﴿ بحث روائي ﴾

في تفسير القميّ في قوله تعالى : « أفرأيت من اتخذ إلهه هواه » قال : نزلت في قريش كلّما هووا شيئاً عبدوه .

و في الدر المنثور أخرج النسائيّ و ابن جرير و ابن المنذر و ابن مردويه عن ابن عباس قال : كان الرجل من العرب يعبد الحجر فإذا رأى أحسن منه أخذه و ألقى الآخر فأنزل الله « أفرأيت من اتخذ إلهه هواه » .

و في المجمع في قوله تعالى : « و ما يهلكنا إلا الدهر » و قد روي في الحديث عن النبي ﷺ أنّه قال : لا تسبوا الدهر فإنّ الله هو الدهر .

أقول : قال الطبرسيّ بعد إيراد الحديث : و تأويله أنّ أهل الجاهليّة كانوا ينسبون الحوادث المصحفة و البلايا النازلة إلى الدهر فيقولون : فعل الدهر كذا ، و كانوا يسبّون الدهر فقال ﷺ : إنّ فاعل هذه الأمور هو الله فلا تسبوا فاعلها انتهى و يؤيد هذا الوجه الرواية التالية .

و في الدر المنثور أخرج ابن جرير و البيهقيّ في الأسماء و الصفات عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : قال الله تبارك و تعالى : لا يقل ابن آدم يسب الدهر يا خيبة الدهر فإنّي أنا الدهر أرسل الليل والنهار فإذا شئت قبضتهما .

وفي تفسير القمي في قوله تعالى : « هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق » الآية حدثنني أبي عن ابن أبي عمير عن عبد الرحيم القصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال : سألته عن « ن والقلم » قال : إن الله خلق القلم من شجرة في الجنة يقال لها الخلد ثم قال لنهر في الجنة : كن مداداً فجمد النهر و كان أشدّ بياضاً من الثلج وأحلى من الشهد . ثم قال للقلم : اكتب . قال : يا رب ما أكتب ؟ قال : اكتب ما كان وما هو كائن إلى يوم القيامة فكتب القلم في رقّ أشدّ بياضاً من الفضة وأصفى من الياقوت . ثم طواه فجعله في ركن العرش ثم ختم على فم القلم فلن ينطق أبداً .

فهو الكتاب المكنون الذي منه النسخ كلها أولستم عرباً ؟ فكيف لا تعرفون معنى الكلام ؟ وأحدكم يقول لصاحبه : انسخ ذلك الكتاب أو ليس إنما ينسخ من كتاب آخر من الأصل ؟ وهو قوله : « إنا كنّا نستنسخ ما كنتم تعملون » .

أقول : قوله عليه السلام : فكتب القلم في رقّ إلخ تمثيل للوح المكتوب فيه الحوادث بالرقّ والرقّ ما يكتب فيه شبه الكاغد - على ما ذكره الراغب - وقد تقدّم الحديث عنه عليه السلام أن القلم ملك واللوح ملك ، وقوله : فجعله في ركن العرش تمثيل للعرش بعرش الملك ذي الأركان والقوائم ، وقوله : ثم ختم على فم القلم إلخ كناية عن كون ما كتب في الرقّ قضاء محتوماً لا يتغيّر ولا يتبدّل ، وقوله : أولستم عرباً إلخ إشارة إلى ما تقدّم توضيحه في تفسير الآية .

وفي الدر المنثور أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : إن الله خلق النون وهو الدواة و خلق القلم فقال : اكتب . قال : ما أكتب ؟ قال : اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة من عمل معمول برّ أو فاجر أورزق مرزوق حلال أو حرام ثم ألزم كل شيء من ذلك شأنه : دخوله في الدنيا ومقامه فيهاكم ، وخروجه منها كيف ؟

ثم جعل على العباد حفظة وعلى الكتاب خزّاناً تحفظه ينسخون كل يوم من الخزان عمل ذلك اليوم فإذفتى ذلك الرزق انقطع الأمر وانقضى الأجل أنت الحفظة الخزنة يطلبون عمل ذلك اليوم فيقول لهم الخزنة : ما نجد لصاحبكم عندنا شيئاً فيرجع الحفظة فيجدونهم قد ماتوا .

قال ابن عباس : أَلَسْتُمْ قَوْمًا عَرَبًا ؟ تَسْمَعُونَ الْحَفْظَةَ يَقُولُونَ : إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ، وَ هَلْ يَكُونُ الِاسْتِنْسَاخُ إِلَّا مِنْ أَوَّلٍ ؟

أَقُول : والخبر كما ترى يجعل الآية من كلام الملائكة الحفظة .

و فيه أخرج ابن مردويه عن ابن عباس في الآية قال : يستنسخ الحفظة من أم الكتاب ما يعمل بنو آدم فإِنَّمَا يَعْمَلُ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ مَا اسْتَنْسَخَ الْمَلَكُ مِنْ أُمِّ الْكِتَابِ . و عن كتاب سعد السعود لابن طاوس قال بعد ذكر الملكين الموكّنين بالعبد : وفي رواية أَنَّهُمَا إِذَا أَرَادَا النُّزُولَ صَبَاحًا وَ مَسَاءً يَنْسَخُ لِهَمَا إِسْرَافِيلُ عَمَلَ الْعَبْدِ مِنَ اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ فَيُعْطِيهِمَا ذَلِكَ فَإِذَا صَعِدَا صَبَاحًا وَ مَسَاءً بَدِيَوَانِ الْعَبْدِ قَابِلُهُ إِسْرَافِيلُ بِالنَّسْخِ الَّتِي انْتَسَخَ لِهَمَا حَتَّى يَظْهَرَ أَنَّهُ كَانَ كَمَا نَسَخَ مِنْهُ .

و في المجمع في قوله تعالى : « وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ » وفي الحديث يقول الله : الْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي وَالْعِظْمَةُ إِزَارِي فَمَنْ نَازَعَنِي وَاحِدَةً مِنْهُمَا أَلْقَيْتُهُ فِي نَارِ جَهَنَّمَ .

أَقُول : و رواه في الدر المنثور عن مسلم و أبي داود و ابن ماجه و غيرهم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ .



﴿سورة الأحقاف مكية وهي خمس و ثلاثون آية﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (١) تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ
 الْحَكِيمِ (٢) مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَالَّذِينَ
 كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُّعْرِضُونَ (٣) قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ
 إِنْ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ اتَّخُونِي
 بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٤) وَمَنْ أَضَلُّ
 مِمَّنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ وَهُمْ عَنْ
 دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ (٥) وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ
 كَافِرِينَ (٦) وَ إِذَا تَتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ
 لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ (٧) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَلَا
 تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئاً هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِ شَهِيداً بَيْنِي
 وَ بَيْنَكُمْ وَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٨) قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ
 وَ مَا أَدْرِي مَا يَفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَ مَا أَنَا
 إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٩) أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَ كَفَرْتُمْ بِهِ وَ شَهِدَ
 شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَآئِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَقَامَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنْ اللَّهَ لَا يَهْدِي
 الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠) وَ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا

مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَ إِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَيَقُولُونَ هَذَا أَفْكٌ قَدِيمٌ (١١)
 وَ مِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَ رَحْمَةً وَ هَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَانًا
 عَرَبِيًّا لِنُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَ بُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ (١٢) إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا
 رَبَّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٣) أُولَئِكَ
 أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٤) .

﴿ بيان ﴾

غرض السورة إنذار المشركين الرادين للدعوة إلى الإيمان بالله ورسوله بالمعاد بما فيه من أليم العذاب لمنكريه المعرضين عنه ، ولذلك تفتتح الكلام بإثبات المعاد « ما خلقنا السماوات والأرض و ما بينهما إلا بالحق » ثم يعود إليه عودة بعد عودة كقوله : « و إذا حشر الناس » و قوله : « والذي قال لوالديه أف لكما أتعدانني أن أخرج » و قوله : « و يوم يعرض الذين كفروا على النار أذهبتم طيباتكم » و قوله : « و يوم يعرض الذين كفروا على النار أليس هذا بالحق » و قوله في مختتم السورة : « كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار بلاغ » الآية .

و فيها احتجاج على الوحدانية والنبوة ، و إشارة إلى هلاك قوم هود و هلاك القرى التي حول مكة و إنذارهم بذلك ، و إنباء عن حضور نفر من الجن عند النبي صلى الله عليه و آله و استماعهم القرآن و إيمانهم به و رجوعهم إلى قومهم منذرين لهم و السورة مكيّة كلها إلا آيتين اختلف فيهما سنشير إليهما في البحث الروائي الآتي إن شاء الله : قوله تعالى : « أم يقولون افتراء » إلخ و قوله : « قل أرأيتم إن كان من عند الله الآية .

قوله تعالى : « حم تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم » تقدم تفسيره .

قوله تعالى : « ما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى »
 إلخ المراد بالسماوات والأرض وما بينهما مجموع العالم المشهود علويته وسفليته ، والباء
 في « بالحق » للملاسة ، والمراد بالأجل المسمى ما ينتهي إليه أمد وجود الشيء ، والمراد
 به في الآية الأجل المسمى لوجود مجموع العالم وهو يوم القيامة الذي تطوى ^(١) فيه
 السماء كطي السجل للكتب و تبدل الأرض ^(٢) غير الأرض و السماوات و برزوا لله
 الواحد القهار .

والمعنى ما خلقنا العالم المشهود بجميع أجزائه العلوية والسفلية إلا ملاساً
 للحق له غاية ثابتة و ملاساً لأجل معين لا يتعداه وجوده وإذا كان له أجل معين
 يفنى عند حلوله وكانت مع ذلك له غاية ثابتة فبعد هذا العالم عالم آخر هو عالم البقاء
 و هو المعاد الموعود ، و قد تكرر الكلام فيما تقدم في معنى كون الخلق بالحق .

وقوله : « والذين كفروا عما أُنذروا معرضون » المراد بالذين كفروا هم المشركون
 بدليل الآية التالية لكن ظاهر السياق أن المراد بكفرهم كفرهم بالمعاد ، و « ما » في « عما »
 مصدرية أو موصولة والثاني هو الأوفق للسياق والمعنى والمشركون الذين كفروا بالمعاد
 عما أُنذروا به - و هو يوم القيامة بما فيه من أليم العذاب لمن أشرك بالله - معرضون
 منصرفون .

قوله تعالى : « قل أرايتم ما تدعون من دون الله » إلى آخر الآية « أرايتم »
 بمعنى أخبروني والمراد بما تدعون من دون الله الأصنام التي كانوا يدعونها و يعبدونها
 وإرجاع ضمائر أولي العقل إليها بعد لكونهم ينسبون إليه أفعال أولي العقل وحجة
 الآية و ما بعدها مع ذلك تجري في كل إله معبود من دون الله .

وقوله : « أروني ماذا خلقوا من الأرض » أروني بمعنى أخبروني و « ما » اسم
 اسم استفهام و « ذا » بعده زائدة والمجموع مفعول « خلقوا » و من الأرض متعلق به .

(١) إشارة إلى الآية ١٠٤ من سورة الأنبياء .

(٢) إشارة إلى الآية ٢٨ من سورة إبراهيم .

وقوله : « أم لهم شرك في السماوات » أي شركة في خلق السماوات فإن خلق شيء من السماوات والأرض هو المسؤول عنه .

توضيح ذلك أنهم وإن لم ينسبوا إليها إلا تدير الكون وخصوا الخلق به سبحانه كما قال تعالى : « ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولنَّ الله » الزمر: ٣٨ وقال : « ولئن سألتهم من خلقهم ليقولنَّ الله » الزخرف : ٨٧ لكن لما كان الخلق لا ينفك عن التدبير أوجب ذلك أن يكون لمن له سهم من التدبير سهم في الخلق ولذلك أمر تعالى نبيه ﷺ أن يسألهم عما لأربابهم الذين يدعون من دون الله من النصيب في خلق الأرض أو في خلق السماوات فلا معنى للتدبير في الكون من غير خلق .

وقوله : « ائتوني بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم إن كنتم صادقين » الإشارة بهذا إلى القرآن ، والمراد بكتاب من قبل القرآن كتاب سماوي كالطوراة نازل من عند الله يذكر شركة آلهتهم في خلق السماوات أو الأرض .

والأثرة على ما ذكره الراغب مصدر بمعنى النقل والرواية قال : و أثرت العلم رويته أثره أثراً وأثارة وأثرة وأصله تنبعت أثره انتهى . وعليه فالأثرة في الآية مصدر بمعنى المفعول أي شيء منقول من علم يثبت أن لا آلهتهم شركة في شيء من السماوات والأرض ، وفسره غالب المفسرين بمعنى البقية وهو قريب مما تقدم .

والمعنى ائتوني للدلالة على شركهم لله في خلق شيء من الأرض أو في خلق السماوات بكتاب سماوي من قبل القرآن يذكر ذلك أو بشيء منقول من علم أو بقية من علم أو رثمتوها بثبت ذلك إن كنتم صادقين في دعواكم أنهم شركاء لله سبحانه .

قوله تعالى : « ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة » إلخ الاستفهام إنكاري ، وتحديد عدم استجابتهم الدعوة بيوم القيامة لما أن يوم القيامة أجل مسمى للدنيا والدعوة مقصورة في الدنيا ولا دنيا بعد قيام الساعة .

وقوله : « وهم عن دعائهم غافلون » صفة أخرى من صفات آلهتهم مضافة إلى صفة عدم استجابتهم وليس تعليلاً لعدم الاستجابة فإن عدم استجابتهم معلول كونهم لا يملكون لعبادهم شيئاً قال تعالى : « قل أتعبدون من دون الله ما لا يملك لكم ضرراً ولا

نفعاً « المائدة : ٧٦ .

بل هي صفة مضافة إلى صفة مذكورة لتكون توطئة و تمهيداً لما سيذكره في الآية التالية من عداوتهم لهم وكفرهم بعبادتهم يوم القيامة فهم في الدنيا غافلون عن دعائهم وسيطّلون عليه يوم القيامة فيعادونهم ويكفرون بعبادتهم .

و في الآية دلالة على سراية الحياة والشعور في الأشياء حتى الجمادات فإنّ الأصنام من الجماد وقد نسب إليها الغفلة والغفلة من شؤون ذوي الشعور لا تطلق إلا على ما من شأن موصوفه أن يشعر .

قوله تعالى: « حتى إذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين » الحشر إخراج الشيء عن مقره بازعاج ، والمراد بعث الناس عن قبورهم و سوقهم إلى المحشر يوم القيامة فيومئذ يعاد بهم آلهتهم و يكفرون بشرك عبادهم بالتبرّي منهم كما قال تعالى : « و يوم القيامة يكفرون بشرككم » فاطر : ١٤ وقال حكاية عنهم : « تبرأنا إليك ما كانوا إيانا يعبدون » القصص : ٦٣ ، وقال : فكفى بالله شهيداً بيننا وبينكم أن كنّا عن عبادتكم لغافلين « يونس : ٢٩ .

و في سياق الآيتين تلويح إلى أنّ هذه الجمادات التي لا تظهر لنا في هذه النشأة أنّ لها حياة لعدم ظهور آثارها سيظهر في النشأة الآخرة أنّ لها حياة و تظهر آثارها و قد تقدّم بعض الكلام في هذا المعنى في ذيل قوله تعالى : « قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء » الم السجدة : ٢١ .

قوله تعالى: « وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين كفروا للحقّ لما جاءهم هذا سحر مبين » الآية والتي بعدها مسوقتان للتوبيخ ، والمراد بالآيات البيّنات آيات القرآن تتلى عليهم ، ثمّ بدّلها من الحقّ الذي جاءهم حيث قال : « للحقّ لما جاءهم ، - و كان مقتضى الظاهر أن يقال : « لها » - للدلالة على أنّها حقّ جاءهم لا مسوّغ لرميها بأنّها سحر مبين و هم يعلمون أنّها حقّ مبين فهم متحكّمون مكابرون للحقّ الصريح .

قوله تعالى: « أم يقولون افتراء قل إن افتريته فلا تملكون لي من الله شيئاً »

إلخ « أم » منقطعة أي بل يقولون افترى القرآن على الله في دعواه أنه كلامه .
 وقوله : « قل إن افتريته فلا تملكون لي من الله شيئاً » أي إن افتريت القرآن لأجلكم
 آخذني بالعذاب أو عاجلني بالعذاب على الافتراء و لستم تقدرون على دفع عذابه عني
 فكيف أفتريه عليه لأجلكم ، والمحصّل أنني على يقين من أمر الله و أعلم أنه يأخذ
 المفتري عليه أو يعاجل في عقوبته و أنكم لا تقدرون على دفع ما يريده فكيف أفترى
 عليه فأعرض نفسي على عذابه المقطوع لأجلكم ؟ أي لست بمفتر عليه .

و يتبين بذلك أن جزء الشرط في قوله : « إن افتريته فلا تملكون لي » إلخ
 محذوف و قد أقيم مقامه ما يجري مجرى ارتفاع المانع والتقدير إن افتريته آخذني
 بالعذاب أو عاجلني بالعذاب ولا مانع من قبلكم يمنع عنه ، وليس من قبيل وضع المسبب
 موضع السبب كما قيل .

و قوله : « هو أعلم بما تفيضون فيه » الإضافة في الحديث الخوض فيه و « ما »
 موصولة يرجع إليه ضمير « فيه » أو مصدرية و مرجع الضمير هو القرآن ، والمعنى
 الله سبحانه أعلم بالذي تخوضون فيه من التكذيب برمي القرآن بالسحر والافتراء
 على الله أو المعنى هو أعلم بخوضكم في القرآن .

و قوله : « كفى به شهيداً بيني وبينكم » احتجاج ثان على نفي الافتراء و أول
 الاحتجاجين قوله : « إن افتريته فلا تملكون لي من الله شيئاً » و قد تقدّم بيانه آنفاً ، و
 معنى الجملة أن شهادة الله سبحانه في كلامه بأنه كلامه و ليس افتراء منّي يكفي في
 نفي كوني مقترياً به عليه ، و قد صدّق سبحانه هذه الدعوى بقوله : « لكن الله يشهد
 بما أنزله عليك أنزله بعلمه » النساء : ١٦٦ وما في معناه من الآيات ، و أمّا أنه كلامه
 فيكفي في ثبوته آيات التحدّي .

و قوله : « و هو الغفور الرحيم » تذييل الآية بالاسمين الكريمين للاحتجاج
 على نفي ما يتضمنه تحكّمهم الباطل من نفي الرسالة كأنه قيل : إن قولكم : « افتراء »
 يتضمن دعويين : دعوى عدم كون هذا القرآن من كلام الله و دعوى بطلان الرسالة
 - والوثنيون ينفونها مطلقاً - أمّا الدعوى الأولى فيدفعه أو لا أنه إن افتريته فلا تملكون

إلخ و ثانياً أن الله يكفيني شهيداً على كونه كلامه لا كلامي .

و أما الدعوى الثانية فيدفعها أن الله سبحانه غفور رحيم ، و من الواجب في حكمته أن يعامل خلقه بالمغفرة والرحمة ولا تشملان إلا التائبين الراجعين إليه الصالحين لذلك و ذلك بأن يهديهم إلى صراط يقر بهم منه سلوكه فتشملهم مغفرته و رحمته بحط السيئات والاستقرار في دار السعادة الخالدة ، و كونه واجباً في حكمته لأن فيهم صلاحية هذا الكمال و هو الجواد الكريم قال تعالى : « وما كان عطاء ربك محظوراً » أسرى : ٢٠ ، و قال : « وعلى الله قصداً السبيل » النحل : ٩ والسبيل إلى هذه الهداية هي الدعوة من طريق الرسالة فمن الواجب في الحكمة أن يرسل إلى الناس رسولا يدعوهم إلى سبيله الموصلة إلى مغفرته و رحمته .

قوله تعالى : « قل ما كنت بدعاً من الرسل و ما أدري ما يفعل بي ولا بكم » إلخ البدع ما كان غير مسبوق بالمثل من حيث صفاته أو من حيث أقواله وأفعاله و لذا فسره بعضهم بأن المعنى ما كنت أوّل رسول أرسل إليكم لا رسول قبلي ، و قيل : المعنى ما كنت مبدعاً في أقوالي و أفعالي لم يسبقني إليها أحد من الرسل . والمعنى الأوّل لا يلائم السياق و لا قوله المتقدم : « و هو الغفور الرحيم » بالمعنى الذي تقدّم توجيهه فتأني المعنيين هو الأنسب ، و عليه فالمعنى لست أخالف الرسل السابقين في صورة أو سيرة وفي قول أو فعل بل أنا بشر مثلهم في آثار البشريّة ما فيهم و سبيلهم في الحياة سبيلي .

و بهذه الجملة يجاب عن مثل ما حكاه الله من قولهم : « ما لهذا الرسول يأكل الطعام و يمشي في الأسواق لو لا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيراً أو يلقى إليه كنز أو تكون له جنة يأكل منها » الفرقان : ٨ .

و قوله : « و ما أدري ما يفعل بي ولا بكم » نفى لعلم الغيب عن نفسه فهو نظير قوله : « و لو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير و ما مسّني السوء » الأعراف : ١٨٨ ، والفرق بين الآيتين أن قوله : « و لو كنت أعلم الغيب » إلخ نفى للعلم بمطلق الغيب و استشهاد له بمسّ السوء و عدم الاستكثار من الخير ، و قوله : « و ما أدري

ما يفعل بي ولا بكم» نفى للعلم بغييب خاص وهو ما يفعل به و بهم من الحوادث التي يواجهونها جميعاً ، وذلك أنهم كانوا يزعمون أن المتلبس بالنبوة لو كان هناك نبي يجب أن يكون عالماً في نفسه بالغيوب ذا قدرة مطلقة غيبية كما يظهر من اقتراحاتهم المحكية في القرآن فأمر ﷺ أن يعترف - مصرحاً به - أنه لا يدري ما يفعل به ولا بهم فينفى عن نفسه العلم بالغييب ، وأن ما يجري عليه وعليهم من الحوادث خارج عن إرادته واختياره وليس له في شيء منها صنع بل يفعله به و بهم غيره وهو الله سبحانه .

فقوله : « وما أدري ما يفعل بي ولا بكم » كما ينفى عنه العلم بالغييب ينفى عنه القدرة على شيء مما يصيبه و يصيبهم مما هو تحت أستار الغيب .

و نفى الآية العلم بالغييب عنه ﷺ لا ينافي علمه بالغييب من طريق الوحي كما يصرح تعالى به في مواضع من كلامه كقوله : « ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك » آل عمران : ٤٤ يوسف : ١٠٢ و قوله : « تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك » هود : ٤٩ ، وقوله : « عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول » الجن : ٢٧ ، ومن هذا الباب قول المسيح ﷺ : « وأنبيائكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم » آل عمران : ٤٩ ، وقول يوسف ﷺ لصاحبي السجن : « لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأ تكما بتأويله قبل أن يأتيكما » يوسف : ٣٧ .

وجه عدم المنافاة أن الآيات النافية للعلم بالغييب عنه وعن سائر الأنبياء عليهم السلام إنما تنفيه عن طبيعتهم البشرية بمعنى أن تكون لهم طبيعة بشرية أو طبيعة هي أعلى من طبيعة البشر من خاصتها العلم بالغييب بحيث يستعمله في جلب كل نفع ودفع كل شر كما نستعمل ما يحصل لنا من طريق الأسباب وهذا لا ينافي انكشاف الغيب لهم بتعليم إلهي من طريق الوحي كما أن إتيانهم بالمعجزات فيما أتوا بها ليس عن قدرة نفسية فيهم يملكونها لأنفسهم بل باذن من الله تعالى وأمر قال تعالى : « قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولاً » الإسراء : ٩٣ جواباً عما اقترحوا عليه من الآيات ، وقال : « قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين » العنكبوت : ٥٠

وقال : « وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله فإذا جاء أمر الله قضي بالحق » المؤمن : ٧٨ .

و يشهد بذلك قوله بعده متصلاً به : « إن أتبع إلا ما يوحى إلي » فإن اتصالة بما قبله يعطي أنه في موضع الإضراب والمعنى إني ما أدري شيئاً من هذه الحوادث بالغيب من قبل نفسي وإنما أتبع ما يوحى إلي من ذلك .

وقوله : « وما أنا إلا نذير مبين » تأكيد لجميع ما تقدم في الآية من قوله : « ما كنت بدعاً » إلخ و « وما أدري » إلخ وقوله : « إن أتبع » إلخ

﴿ بحث فلسفي و دافع شبهة ﴾

تظافت الأخبار من طرق أئمة أهل البيت أن الله سبحانه علم النبي ﷺ والأئمة عليهم السلام علم كل شيء ، و فسر ذلك في بعضها أن علم النبي ﷺ من طريق الوحي وأن علم الأئمة عليهم السلام ينتهي إلى النبي ﷺ .

وأورد عليه أن الماثور من سيرتهم أنهم كانوا يعيشون مدى حياتهم عيشة سائر الناس فيقصدون مقاصدهم ساعين إليها على ما يرشد إليه الأسباب الظاهرية ويهدي إليه السبل العادية فربما أصابوا مقاصدهم وربما أخطأ بهم الطريق فلم يصيبوا ، ولو علموا الغيب لم يخيبوا في سعيهم أبداً فالعاقل لا يترك سبيلاً يعلم يقيناً أنه مصيب فيه ولا يسلك سبيلاً يعلم يقيناً أنه مخطيء فيه .

وقد أصيبوا بمصائب ليس من الجائر أن يلقي الإنسان نفسه في مهلكتها لو علم بواقع الأمر كما أصيب النبي ﷺ يوم أحد بما أصيب ، وأصيب علي عليه السلام في مسجد الكوفة حين فتك به المرادي لعنه الله وأصيب الحسين عليه السلام فقتل في كربلاء وأصيب سائر الأئمة بالسم فلو كانوا يعلمون ما سيجري عليهم كان ذلك من إلقاء النفس في التهلكة وهو محترم ، والإشكال كما ترى مأخوذ من الآيتين : « ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير » « وما أدري ما يفعل بي ولا بكم » .

و يردّه أنّه مغالطة بالخلط بين العلوم العادية وغير العادية فالعلم غير العادي بحقائق الأمور لا أثر له في تغيير مجرى الحوادث الخارجية .

توضيح ذلك أن أفعالنا الاختيارية كما تتعلق بإرادتنا كذلك تتعلق بعلم وشرائط أخرى مادية زمانية ومكانية إذا اجتمعت عليها تلك العلل والشرائط وتمت بالإرادة تحققت العلة التامة و كان تحقق الفعل عند ذلك واجباً ضرورياً إذ من المستحيل تخلف المعلول عن علته التامة .

فنسبة الفعل وهو معلول إلى علته التامة نسبة الوجوب والضرورة كنسبة جميع الحوادث إلى علمها التامة ، ونسبته إلى إرادتنا وهي جزء علته نسبة الجواز والإمكان . فتبين أن جميع الحوادث الخارجية ومنها أفعالنا الاختيارية واجبة الحصول في الخارج واقعة فيها على صفة الضرورة ولا ينافي ذلك كون أفعالنا الاختيارية ممكنة بالنسبة إلينا مع وجوبها على ما تقدم .

فإذا كان كل حادث ومنها أفعالنا الاختيارية بصفة الاختيار معلولاً له علة تامة يستحيل معها تخلفه عنها كانت الحوادث سلسلة منتظمة يستوعبها الوجوب لا يتعدى حلقة من حلقاتها موضعها ولا تتبدل من غيرها ، و كان الجميع واجباً من أول يوم سواء في ذلك ما وقع في الماضي وما لم يقع بعد ، فلو فرض حصول علم بحقائق الحوادث على ما هي عليها في متن الواقع لم يؤثر ذلك في إخراج حادث منها وإن كان اختيارياً عن ساحة الوجوب إلى حد الإمكان .

فإن قلت : بل يقع هذا العلم اليقيني في مجرى أسباب الأفعال الاختيارية كالعلم الحاصل من الطرق العادية فيستفاد منه فيما إذا خالف العلم الحاصل من الطرق العادية فيصير سبباً للفعل أو الترك حيث يبطل معه العلم العادي .

قلت : كلا فإن المفروض تحقق العلة التامة للعلم العادي مع سائر أسباب الفعل الاختياري فمثله كمثل أهل الجحود والعناد من الكفار يستيقنون بأن مصيرهم مع الجحود إلى النار ومع ذلك يصرّون على جحودهم لحكم هواهم بوجوب الجحود وهذا منهم هو العلم العادي بوجوب الفعل قال تعالى في قصة آل فرعون : « وجحدوا بها

واستيقنتها أنفسهم ، النمل : ١٤ .

و بهذا يندفع ما يمكن أن يقال : لا يتصور علم يقيني بالخلاف مع عدم تأثيره في الإرادة فليكشف عدم تأثيره في الإرادة عن عدم تحقق علم على هذا الوصف .
وجه الاندفاع أن مجرد تحقق العلم بالخلاف لا يستوجب تحقق الإرادة مستندة إليه وإنما هو العلم الذي يتعلق بوجوب الفعل مع التزام النفس به كما مر في جحود أهل الجحود وإنكارهم الحق مع يقينهم به ومثله الفعل بالعناية فإن سقوط الواقف على جذع عال ، منه على الأرض بمجرد تصور السقوط لا يمنع عنه علمه بأن في السقوط هلاكه القطعي .

وقد أجاب بعضهم عن أصل الإشكال بأن للنبي ﷺ والآئمة عليهم السلام تكاليف خاصة بكل واحد منهم فعليهم أن يقتحموا هذه المهالك وإن كان ذلك من إلقاء النفس في التهلكة وهو حرام ، وإليه إشارة في بعض الأخبار .

وأجاب بعضهم عنه بأن الذي ينجز التكليف من العلم هو العلم من الطرق العادية وأما غيره فليس بمنجز ، ويمكن توجيه الوجهين بما يرجع إلى ما تقدم .

قوله تعالى : « قل أرايتم إن كان من عند الله وكفرتم به وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم » إلخ ضمائر « كان » و « به » و « مثله » على ما يعطيه السياق للقرآن ، وقوله : « وشهد شاهد من بني إسرائيل » إلخ معطوف على الشرط ويشاركة في الجزاء ، والمراد بمثل القرآن مثله من حيث مضمونه في المعارف الإلهية وهو كتاب التوراة الأصلية التي نزلت على موسى عليه السلام ، وقوله : « فآمن واستكبرتم » أي فآمن الشاهد الإسرائيلي المذكور بعد شهادته .

وقوله : « إن الله لا يهدي القوم الظالمين » تعليل للجزاء المحذوف دال عليه ، والظاهر أنه أُلِتم ضالين لا ما قيل : إنه أُلِتم ظلمتم لأن التعليل بعدم هداية الله الظالمين إنما يلائم ضلالهم لا ظلمهم وإن كانوا متصفين بالوصفين جميعاً .

والمعنى قل للمشركين : أخبروني إن كان هذا القرآن من عند الله والحال أنكم

كفرتهم به و شهد شاهد من بني إسرائيل على مثل ما في القرآن من المعارف فآمن هو و استكبرتم أنتم ألستم في ضلال ؟ فإن الله لا يهدي القوم الظالمين .

والذي شهد على مثله فآمن على ما في بعض الأخبار هو عبد الله بن سلام من علماء اليهود ، والآية على هذا مدنيّة لا مكّيّة لأنّه ممّن آمن بالمدينة ، و قول بعضهم : من الجائر أن يكون التعبير بالماضي في قوله « و شهد شاهد من بني إسرائيل فآمن » لتحقيق الوقوع والقصة واقعة في المستقبل سخيف لأنّه لا يلائم كون الآية في سياق الاحتجاج فالمشركون ما كانوا ليسلموا للنبي ﷺ صدقه فيما يخبرهم به من الأمور المستقبلية .

و في معنى الآية أقوال أخر منها أن المراد ممّن شهد على مثله فآمن هو موسى عليه السلام شهد على التوراة فآمن به وإنما عدلوا عن المعنى السابق إلى هذا المعنى للبناء على كون الآية مكّيّة ، وأنه إنما أسلم عبدالله بن سلام بالمدينة .

و فيه أو لا عدم الدليل على كون الآية مكّيّة و لتكن القصة دليلاً على كونها مدنيّة ، وثانياً بعد أن يجعل موسى الكليم ﷺ قريناً لهؤلاء المشركين الأجلاف يقاسون به فيقال ما محصله إن موسى ﷺ آمن بالكتاب النازل عليه و أنتم استكبرتم عن الإيمان بالقرآن فسخافته ظاهرة .

و ممّا قيل أن المثل في الآية بمعنى نفس الشيء كما قيل في قوله تعالى : « ليس كمثل شيء » الشوري : ١١ ، و هو في البعد كسابقه .

قوله تعالى : « وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيراً ما سبقونا إليه » إلى آخر الآية قيل : اللام في قوله : « للذين آمنوا » للتعليل أي لأجل إيمانهم ويؤول إلى معنى في ، و ضمير « كان » و « إليه » للقرآن من جهة الإيمان به .

والمعنى وقال الذين كفروا في الذين آمنوا - أي لأجل إيمانهم - : لو كان الإيمان بالقرآن خيراً ما سبقونا - أي المؤمنون - إليه .

و قال بعضهم : إن المراد بالذين آمنوا بعض المؤمنين و بالضمير العائد إليه في

في قوله : سبقونا « البعض الآخر ، واللام متعلق بقال والمعنى وقال الذين كفروا لبعض المؤمنين لو كان خيراً ما سبقنا البعض من المؤمنين وهم الغائبون إليه ، وفيه أنه بعيد من سياق الآية .

وقال آخرون: إن المراد بالذين آمنوا المؤمنون جميعاً لكن في قوله : ما سبقونا التفاتاً والأصل ما سبقتمونا وهو في البعد كسابقد و ليس خطاب الحاضرين بصيغة الغيبة من الالتفات في شيء .

و قوله : « و إن لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم » ضمير « به » للقرآن و كذا الإشارة بهذا إليه والإفك الافتراء أي و إن لم يهتدوا بالقرآن لاستكبارهم عن الإيمان به فسيقولون أي الذين كفروا هذا أي القرآن إفك وافتراء قديم ، و قولهم : هذا إفك قديم كقولهم : أساطير الأولين .

قوله تعالى : « و من قبله كتاب موسى إماماً ورحمة و هذا كتاب مصدق لساناً عربياً » إلخ الظاهر أن قوله : « ومن قبله » إلخ جملة حالية والمعنى فسيقولون هذا إفك قديم والحال أن كتاب موسى حالكونه إماماً ورحمة قبله أي قبل القرآن و هذا القرآن كتاب مصدق له حالكونه لساناً عربياً ليكون منذراً للذين ظلموا وهو بشرى للمحسنين فكيف يكون إفكاً ؟

و كون التوراة إماماً ورحمة هو كونها بحيث يقتدي بها بنو إسرائيل ويتبعونها في أعمالهم ورحمة للذين آمنوا بها و اتبعوها في إصلاح نفوسهم .

قوله تعالى : « إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا » إلى آخر الآية المراد بقولهم ربنا الله إقرارهم وشهادتهم بانحصار الربوبية في الله سبحانه وتوحيده فيها ، و باستقامتهم ثباتهم على ما شهدوا به من غير زيغ وانحراف و التزامهم بلوازمه العملية .

و قوله : « فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون » أي ليس قبالهم مكروه محتمل يخافونه من عقاب محتمل ، و لا مكروه محقق يحزنون به من عقاب أو هول ، فالخوف

إنّما يكون من مكروه ممكن الوقوع ، و الحزن من مكروه محقق الوقوع ، والفاء في قوله : « فلاخوف » الخ لتوهم معنى الشرط فإنّ الكلام في معنى من قال ربّنا الله ثمّ استقام فلاخوف الخ .

قوله تعالى : « أولئك أصحاب الجنة خالدين فيها جزاء بما كانوا يعملون » المراد بصحابة الجنة ملازمتها ، و قوله : « خالدين فيها » حال مؤكّدة لمعنى الصحابة . و المعنى أولئك الذين قالوا ربّنا الله ثمّ استقاموا ملازمون للجنة حال كونهم خالدين فيها جزاء بما كانوا يعملون في الدنيا من الطاعات و القربات .

﴿ بحث روائى ﴾

في الكافي بإسناده عن أبي عبيدة قال : سألت أبا جعفر عليه السلام عن قول الله تعالى : « اتقوني بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم إن كنتم صادقين » قال : عنى بالكتاب التوراة و الانجيل « و أثارة من علم » فإنّما عنى بذلك علم أوصياء الانبياء . و في الدر المنثور أخرج أحمد و ابن المنذر و ابن أبي حاتم و الطبراني و ابن مردويه من طريق أبي سلمة بن عبدالرحمان عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وآله « أو أثارة من علم » قال : الخط .

أقول : لعل المراد بالخط كتاب مخطوط موروث من الانبياء أو العلماء الماضين لكن في بعض ما روي في تفسير قوله : « أو أثارة من علم » أنّه حسن الخط و في بعض آخر أنّه جودة الخط وهو أجنبي من سياق الاحتجاج الذي في الآية .

و في العيون في باب مجلس الرضا مع المؤمن عنه عليه السلام حدّثني أبي عن جدي عن آبائه عن الحسين بن علي عليه السلام قال : اجتمع المهاجرون و الأنصار إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فقالوا : إنّ لك يا رسول الله مؤنة في نفقتك و فيمن يأتبك من الوفود ، و هذه أموالنا مع دماننا فاحكم فيها باراً مأجوراً أعط ما شئت و احكم ما شئت من غير حرج .

قال : فأنزل الله تعالى إليه الروح الأمين فقال : يا محمد « قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى » يعني أن تودوا وأقربائي من بعدي فخرجوا فقال المنافقون : ما حمل رسول الله على ترك ما عرضنا عليه إلا ليحدثنا على قرابته من بعده ، وإن هو إلا شيء افتراه في مجلسه و كان ذلك من قولهم عظيماً .

فأنزل الله عزّ وجلّ هذه الآية « أم يقولون افتراء قل إن افتريته فلا تملكون لي من الله شيئاً هو أعلم بما تفيضون فيه كفى به شهيداً بيني وبينكم وهو الغفور الرحيم » فبعث إليهم النبي ﷺ فقال : هل من حدث ؟ فقالوا : إي والله يا رسول الله لقد قال بعضنا كلاماً غليظاً كرهناه فتلا عليهم رسول الله ﷺ الآية فبكوا واشتدّ بكاءهم فأنزل الله تعالى « وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون » .

وفي الدر المنثور أخرج أبو داود في ناسخه من طريق عكرمة عن ابن عباس في قوله : « وما أدري ما يفعل بي ولا بكم » قال : نسختها هذه ^(١) الآية التي في الفتح فخرج إلى الناس فبشّرهم بالذي غفر له ما تقدّم من ذنبه وما تأخر .

فقال رجل من المؤمنين : هنيئلك يا نبيّ الله قد علمنا الآن ما يفعل بك فما ذا يفعل بنا ؟ فأنزل الله في سورة الأحزاب « و بشّر المؤمنين و المؤمنات بأنّ لهم من الله فضلاً كبيراً » و قال : « ليدخل المؤمنين و المؤمنات جنّات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها و يكفّر عنهم سيئاتهم و كان ذلك عند الله فوزاً عظيماً » فبيّن الله ما به يفعل و بهم .

أقول : الرواية لا يخلو من شيء :

أمّا أولاً فلما تقدّم بيانه في تفسير الآية أعني قوله : « وما أدري ما يفعل بي ولا بكم » أنّها أجنبية عن العلم بالغيب الذي هو من طريق الوحي بدلالة صريحة من القرآن فلا ينفي بها العلم بالمغفرة من طريق الوحي حتّى تنسخها آية سورة الفتح .

(١) يريد قوله تعالى : « ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر » الفتح : ٢ .

وَأَمَّا ثَانِيًا فَلَأَنَّ ظَاهِرَ الرِّوَايَةِ أَنَّ الذَّنْبَ الَّذِي تَصْرَحُ بِمَغْفَرَتِهِ آيَةُ سُورَةِ الْفَتْحِ
هُوَ الذَّنْبُ بِمَعْنَى مَخَالَفَةِ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ الْمُؤَلَّوِيَيْنِ وَسَيَّاتِي فِي تَفْسِيرِ سُورَةِ الْفَتْحِ إِنْ
شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى - إِنَّ الذَّنْبَ فِي الْآيَةِ لَغَيْرُ هَذَا الْمَعْنَى .

وَأَمَّا ثَالِثًا فَلَأَنَّ آيَاتِ الدَّالَّةَ عَلَى دُخُولِ الْمُؤْمِنِينَ الْجَنَّةَ كَثِيرَةٌ جَدًّا فِي مَكِّيَّةِ
السُّورِ وَمَدَنِيَّتِهَا وَلَا تَدُلُّ آيَاتُ سُورَةِ الْأَحْزَابِ عَلَى أَزِيدٍ مِمَّا يَدُلُّ عَلَيْهِ سَائِرُ الْآيَاتِ
فَلَا وَجْهَ لِتَخْصِيصِهِمَا بِالْدَّلَالَةِ عَلَى دُخُولِ الْمُؤْمِنِينَ الْجَنَّةَ وَشُمُولِ الْمَغْفَرَةِ لَهُمْ .

عَلَى أَنَّ سُورَةَ الْأَحْزَابِ نَازِلَةٌ قَبْلَ سُورَةِ الْفَتْحِ بِزَمَانٍ .

وَفِيهِ أَخْرَجَ أَبُو يَعْلَى وَابْنُ جَرِيرٍ وَ الطَّبْرَانِيُّ وَ الْحَاكِمُ وَ صَحَّحَهُ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ
عَنْ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ الْأَشْجَعِيِّ قَالَ : انْطَلَقَ النَّبِيُّ ﷺ وَأَنَا مَعَهُ حَتَّى دَخَلْنَا عَلَى
كَنِيسَةِ الْيَهُودِ يَوْمَ عِيدِهِمْ فَكَرِهُوا دُخُولَنَا عَلَيْهِمْ .

فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَرُونِي اثْنِي عَشَرَ رَجُلًا مِنْكُمْ يَشْهَدُونَ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ
وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَحْبِطُ اللَّهُ عَنْ كُلِّ يَهُودِيٍّ تَحْتَ أَدِيمِ السَّمَاءِ الْغَضَبَ الَّذِي عَلَيْهِ
فَسَكْتُوا فَمَا أَجَابَهُ مِنْهُمْ أَحَدٌ ، ثُمَّ رَدَّ عَلَيْهِمْ فَلَمْ يَجِبْهُ أَحَدٌ فَتَلَّكَ فَلَمْ يَجِبْهُ أَحَدٌ فَقَالَ :
أَبَيْتُمْ فَوَاللَّهِ لَا نَا الْحَاشِرَ وَأَنَا الْعَاقِبُ وَأَنَا الْمُقَفِّي آمَنْتُمْ أَوْ كَذَبْتُمْ .

ثُمَّ انْصَرَفَ وَأَنَا مَعَهُ حَتَّى كَدْنَا أَنْ نَخْرُجَ فَأِذَا رَجُلٌ مِنْ خَلْفِهِ فَقَالَ : كَمَا أَنْتَ
يَا مُحَمَّدُ فَأَقْبَلَ فَقَالَ ذَلِكَ الرَّجُلُ : أَيُّ رَجُلٍ تَعْلَمُونََنِي فِيكُمْ يَا مَعْشَرَ الْيَهُودِ ؟ فَقَالُوا : وَ
اللَّهُ لَا نَعْلَمُ فِينَا رَجُلًا أَعْلَمَ بِكِتَابِ اللَّهِ وَلَا أَفْقَهَ مِنْكَ وَلَا مِنْ أَيْيِكَ وَلَا مِنْ جَدِّكَ فَقَالَ :
إِنِّي أَشْهَدُ بِاللَّهِ أَنَّهُ النَّبِيُّ الَّذِي تَجِدُونَهُ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ ، قَالُوا : كَذَبْتَ ثُمَّ
رَدُّوا عَلَيْهِ وَقَالُوا شَرًّا فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : كَذَبْتُمْ لَنْ يَقْبَلَ مِنْكُمْ قَوْلَكُمْ .

فَخَرَجْنَا وَنَحْنُ ثَلَاثٌ : رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَنَا وَابْنُ سَلَامٍ فَأَنْزَلَ اللَّهُ : « قُلْ أَرَأَيْتُمْ
إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَأَمِنْ وَاسْتَكْبَرْتُمْ
إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ » .

أَقُولُ : وَفِي نَزُولِ الْآيَةِ فِي عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ رَوَايَاتٌ أُخْرَى مِنْ طَرُقِ أَهْلِ السُّنَّةِ

غير هذه الرواية ، و سياق الآية و خاصّة قوله : « من بني إسرائيل » لا يلائم كون الخطاب فيها لبني إسرائيل ، و قد عدّ الإنجيل في الرواية من كتبهم و ليس من كتبهم و اليهود لا يصدّقونه .

و في بعض الروايات أنّ الآية نزلت في ابن يامين من علمائهم حين شهد و أسلم فكذّبته اليهود و الإشكل السابق على حاله .





وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ
 كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ
 سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ
 وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ
 إِلَيْكَ وَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (١٥) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ نَقَبِلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا
 عَمِلُوا وَ نَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعَدَ الصَّادِقُ الَّذِي
 كَانُوا يُوْعَدُونَ (١٦) وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أَفِ لَكُمَا أَعَدَدَانِي أَنْ أُخْرَجَ
 وَ قَدْ خَلَتْ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَعْجِلَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمَنَ إِنَّ وَعْدَ
 اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (١٧) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَقَّ
 عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمِّ قَدْخَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا
 خَاسِرِينَ (١٨) وَ لِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِّمَّا عَمِلُوا وَ لِيُوقِفَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَ هُمْ
 لَا يَظْلَمُونَ (١٩) وَ يَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ
 طِبَّاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَ اسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ
 الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَ بِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ (٢٠).

﴿بيان﴾

لمّا قسّم الناس في قوله : « لينذر الذين ظلموا و بشرى للمحسنين » إلى ظالمين و محسنين و أشير فيه إلى أن الظالمين ما يخاف و يحذر و للمحسنين ما يسرّ الإنسان و يبشّره عقب ذلك في هذا الفصل من الآيات بتفصيل القول فيه ، و أن الناس بين قوم تائبين إلى الله مسلمين له و هم الذين يتقبّل أحسن أعمالهم و يتجاوزعن سيئاتهم في أصحاب الجنة ، و قوم خاسرين حقّ عليهم القول في أمّ قدخلت من قبلهم من الجنّ و الإنس .

و مثل الطائفة الأولى بمن كان مؤمناً بالله مسلماً له باراً بوالديه يسأل الله أن يلهمه الشكر على ما أنعم عليه و على والديه و العمل الصالح و إصلاح ذريّته ، و الطائفة الثانية بمن كان عاقباً لوالديه إذا دعوا إلى الإيمان بالله و اليوم الآخر فيزجرهما و يعدّ ذلك من أساطير الأولين .

قوله تعالى : « و وصّينا الإنسان بوالديه إحساناً » إلى آخر الآية الوصيّة على ما ذكره الراغب هو التقدّم إلى الغير بما يعمل به مقترناً بوعظ و التوصية تفعيل من الوصيّة قال تعالى : « ووصّى بها إبراهيم بنبيه » البقرة : ١٣٢ فمفعوله الثاني الذي يتعدّى إليه بالباء من قبيل الأفعال فاطراد بالتوصية بالوالدين التوصية بعمل يتعلّق بهما و هو الإحسان إليهما .

و على هذا فتقدير الكلام : ووصّينا الإنسان بوالديه أن يحسن إليهما إحساناً . و في إعراب « إحساناً » أقوال آخر كقول بعضهم : إنّه مفعول مطلق على تضمين « وصّينا » معنى أحسنّا و التقدير وصّينا الإنسان محسنين إليهما إحساناً ، و قول بعضهم : إنّه صفة لمصدر محذوف بتقدير مضاف أي إيصاء ذّا إحسان ، و قول بعضهم : هو مفعول له و التقدير وصّيناه بهما لا إحساننا إليهما إلى غير ذلك ممّا قيل .

و كيف كان فبرّ الوالدين و الإحسان إليهما من الأحكام العامّة المشرّعة في جميع الشرائع كما تقدّم في تفسير قوله تعالى : « قل تعالوا أتّل ما حرّم ربكم عليكم أن

لا تشرکوا به شیاً وبالوالدین إحساناً» الأنعام : ١٥١ ولذلك قال : « ووصینا الإنسان ، فعمّمه لكل إنسان .

ثم عقبه سبحانه بالإشارة إلى ما قاسته أمّه في حمله ووضعه وفضاله إشعاراً بملك الحكم وتهييجاً لعواطفه وإثارة لغريزة رحمته ورأفته فقال : « حملته أمّه كرهاً ووضعته كرهاً وحمله وفضاله ثلاثون شهراً » أي حملته أمّه حملاً ذا كره أي مشقة وذلك لما في حمله من الثقل ، ووضعته وضعاً ذا كره وذلك لما عنده من ألم الطلق .

وأما قوله : « وحمله وفضاله ثلاثون شهراً » فقد أخذ فيه أقل مدة الحمل وهو ستة أشهر ، والحوالان الباقيان إلى تمام ثلاثين شهراً مدة الرضاع قال تعالى : « والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين » البقرة : ٢٣٣ ، وقال : « وفضاله في عامين ، لقمان : ١٤ .

والفصال التفريق بين الصبي وبين الرضاع ، وجعل العامين ظرفاً للفصال بعناية أنه في آخر الرضاع ولا يتحقق إلا بانقضاء عامين .

وقوله : « حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة » بلوغ الأشد بلوغ زمان من العمر تشتد فيه قوى الإنسان ، وقد مرّ نقل اختلافهم في معنى بلوغ الأشد في تفسير قوله : « ولما بلغ أشده آتيناها حكماً وعلماً » يوسف : ٢٢ و بلوغ الأربعين ملازم عادة لكمال العقل .

وقوله : « قال ربّ أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ وعلى والديّ » وأن أعمل صالحاً ترضاه » الإيزاع الإلهام ، وهذا الإلهام ، ليس بإلهام علم يعلم به الإنسان ما جهلته نفسه بحسب الطبع كما في قوله : « ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها » الشمس : ٨ بل هو إلهام عمليّ بمعنى البعث والدعوة الباطنية إلى فعل الخير وشكر النعمة وبالجملة العمل الصالح .

وقد أطلق النعمة التي سأل إلهام الشكر عليها فتعمّ النعم الظاهرية كالحياة والرزق والشعور والإرادة والباطنية كالإيمان بالله والإسلام والخشوع له والتوكل عليه والتفويض إليه ففي قوله : « ربّ أوزعني أن أشكر نعمتك » إلخ سؤال أن يلهمه الثناء

عليه باظهار نعمته قولاً وفعلاً : أمّا قولاً فظاهر ، وأمّا فعلاً فباستعمال هذه النعم استعمالا يظهر به أنّها لله سبحانه أنعم بها عليه وليست له من قبل نفسه و لازمه ظهور العبوديّة والمملوكيّة من هذا الإنسان في قوله و فعله جميعاً .

و تفسير النعمة بقوله : « التي أنعمت عليّ و عليّ والديّ » يفيد شكره من قبل نفسه على ما اختصّ به من النعمة و من قبل والديه فيما أنعم به عليهما فهو لسان ذاكرا لهما بعدهما .

و قوله : « و أن أعمل صالحاً ترضاه » عطف على قوله : « أن أشكر » إلخ سؤال متمم لسؤال الشكر على النعم فإنّ الشكر يحلّي ظاهر الأعمال ، والصلاحية التي يرضيها الله تعالى تحلّي باطنها و تخلّصها له تعالى .

و قوله : « و أصلح لي في ذرّيّتي » الإصلاح في الذرّيّة إيجاد الصلاح فيهم و هو من الله سبحانه توفيقهم للعمل الصالح وينجرّ إلى إصلاح نفوسهم ، وتقييد الإصلاح بقوله : « لي » للدلالة على أن يكون إصلاحهم بنحو ينتفع هو به أي أن يكون ذرّيّته له في برّه و إحسانه كما كان هو لوالديه .

و محصل الدعاء سؤال أن يلهم الله شكر نعمته وصلاح العمل و أن يكون بارّاً محسناً بوالديه و يكون ذرّيّته له كما كان هو لوالديه ، و قد تقدّم ^(١) غير مرّة أنّ شكر نعمته تعالى بحقيقة معناه هو كون العبد خالصاً لله فيؤل معنى الدعاء إلى سؤال خلوص النفس و صلاح العمل .

و قوله : « إنني تبت إليك و إنني من المسلمين » أي الذين يسلمون الأمر لك فلا تريد شيئاً إلاّ أراوده بل لا يريدون إلاّ ما أردت .

والجملة في مقام التعليل لما يتضمّنه الدعاء من المطالب ، ويتبيّن بالاية حيث ذكر الدعاء ولم يردّه بل أيّده بما وعد في قوله : « أولئك الذين تتقبّل عنهم » إلخ، أنّ التوبة والإسلام لله سبحانه إذا اجتماعا في العبد استعقب ذلك إلهامه تعالى بما يصير به العبد من المخلصين - بفتح اللّام - ذاتاً والمخلصين - بكسر اللّام - عملاً بما إخلاص الذات

(١) تفسير الآية ١٤٤ من سورة آل عمران والاية ١٧ من سورة الاعراف .

فقد تقدمت الإشارة إليه آنفاً ، و أمّا إخلاص العمل فلا أن العمل لا يكون صالحاً لقبوله تعالى مرفوعاً إليه إلا إذا كان خالصاً لوجهه الكريم قال تعالى : « أَلَا اللَّهُ الدِّينَ الْخَالِصُ ، الزمر : ٣ .

قوله تعالى : « أولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا و نتجاوز عن سيئاتهم في أصحاب الجنة » إلخ التّقبّل أبلغ من القبول ، والمراد بأحسن ما عملوا طاعاتهم من الواجبات والمندوبات فإنّها هي المقبولة المتقبّلة و أمّا المباحات فإنّها وإن كانت ذات حسن لكنّها ليست بمتقبّلة كذا ذكر في مجمع البيان و هو تفسير حسن و يؤيّدّه مقابلة تقبّل أحسن ما عملوا بالتجاوز عن السيئات فكأنّه قيل : إن أعمالهم طاعات من الواجبات والمندوبات و هي أحسن أعمالهم فتقبّلها و سيئات فتجاوز عنها و ما ليس بطاعة ولا حسنة فلا شأن له من قبول وغيره .

و قوله : « في أصحاب الجنة » متعلّق بقوله : « نتجاوز » أي نتجاوز عن سيئاتهم في جملة من نتجاوز عن سيئاتهم من أصحاب الجنة ، فهو حال من ضمير « عنهم » .
و قوله : « وعد الصدق الذي كانوا يوعدون » أي يعدّهم الله بهذا الكلام وعد الصدق الذي كانوا يوعدونه إلى هذا الحين بلسان الأنبياء والرسل ، أو المراد أنّه ينجّز لهم بهذا التّقبّل والتجاوز يوم القيامة وعد الصدق الذي كانوا يوعدونه في الدنيا .

قوله تعالى : « والذي قال لوالديه أف لكما أتعدانني أن أخرج و قدخلت القرون من قبلي » لما ذكر الإنسان الذي تاب إلى الله و أسلم له و سأله الخلوص والإخلاص و برّ والديه و إصلاح أولاده قابله بهذا الإنسان الذي يكفر بالله و رسوله والمعاد و يعقّ والديه إذا دعوا إلى الإيمان و أنذراه بالمعاد .

فقوله : « والذي قال لوالديه أف لكما » الظاهر أنّه مبتدء في معنى الجمع وخبره قوله بعد : « أولئك الذين » إلخ و « أف » كلمة تبرّم يقصد بها إظهار التسخّط والتوجّع و « أتعدانني أن أخرج » الإستفهام للتوبيخ والمعنى أتعدانني أن أخرج من قبري فأحيا و أحضر للجساب أي أتعدانني المعاد « و قدخلت القرون من قبلي » أي

والحال أنه هلكت أُمم المماضون العاشون من قبلي ولم يُحيي منهم أحد ولا بُعث .
و هذا على زعمهم حجة على نفي المعاد و تقريره أنه لو كان هناك إحياء وبعث
لأحيي بعض من هلك إلى هذا الحين و هم فوق حد الإحصاء عدداً في أزمان طويلة لا
أمد لها ولا خبر عنهم ولا أثر ولم يتنبهوا أن القرون السالفة لو عادوا كما يقولون كان
ذلك بعثاً لهم و إحياء في الدنيا والذي وعده الله سبحانه هو البعث للحياة الآخرة والقيام
لنشأة أخرى غير الدنيا .

وقوله : « وهما يستغيثان الله ويلك آمن إن وعد الله حق » الاستغاثة طلب الغوث
من الله أي والحال أن والديه يطلبان من الله أن يغيبهما ويعينهما على إقامة الحجة و
استمالاته إلى الإيمان و يقولان له : ويلك آمن بالله و بما جاء به رسوله و منه وعده
تعالى بالمعاد إن وعد الله بالمعاد من طريق رسوله حق .

ومنه يظهر أن مرادهما بقولهما ! « آمن » هو الأمر بالإيمان بالله ورسوله فيما
جاء به من عند الله ، و قولهما : « إن وعد الله حق » المراد به المعاد ، و تعليل الأمر
بالإيمان به لغرض الإنذار والتخويف .

وقوله : « فيقول ما هذا إلا أساطير الأولين » الإشارة بهذا إلى الوعد الذي
ذكرناه و أنذراه به أو مجموع ما كانا يدعوانه إليه والمعنى فيقول هذا الإنسان لوالديه
ليس هذا الوعد الذي تنذرانني به أو ليس هذا الذي تدعوانني إليه إلا خرافات الأولين
و هم الأُمم الأوليّة الهمجية .

قوله تعالى : « أولئك الذين حق عليهم القول » إلخ تقدم بعض الكلام فيه
في تفسير الآية ٢٥ من سورة حم السجدة .

قوله تعالى : « ولكل درجات مما عملوا » إلى آخر الآية أي لكل من
المذكورين و هم المؤمنون البررة والكافرون الفجرة منازل و مراتب مختلفة صعوداً و
حدوراً فلجنة درجات و للنار دركات .

و يعود هذا الاختلاف إلى اختلافهم في أنفسهم وإن كان ظهوره في أعمالهم ولذلك
قال : « لهم درجات مما عملوا » فالدرجات لهم و منشأها أعمالهم .

و قوله : « و ليوفّٰيهم أعمالهم وهم لا يظلمون » اللّام للغاية والجملة معطوفة على غاية أو غايات أخرى محذوفة لم يتعلّق بذكرها غرض ، وإنّما جعلت غاية لقوله : «هم درجات » لأنّه في معنى وجعلناهم درجات ، والمعنى وجعلناهم درجات لكذا و كذا و ليوفّٰيهم أعمالهم وهم لا يظلمون .

و معنى توفيتهم أعمالهم إعطاؤهم نفس أعمالهم فالآية من الآيات الدالة على تجسّم الأعمال ، و قيل : الكلام على تقدير مضاف والتقدير و ليوفّٰيهم أجور أعمالهم .
قوله تعالى : ويوم يعرض الذين كفروا على النار « إلخ عرض الماء على الدابة وللدابة وضعه بمرئى منها بحيث إن شاءت شربته ، و عرض المتاع على البيع وضعه موضعاً لا مانع من وقوع البيع عليه .

و قوله : « و يوم يعرض الذين كفروا على النار » قيل : المراد بعرضهم على النار تعذيبهم فيها من قولهم : عرض فلان على السيف إذا قتل وهو مجاز شائع .
و فيه أن قوله في آخر السورة « و يوم يعرض الذين كفروا على النار أليس هذا بالحق » قالوا بلى و ربّنا قال فذوقوا العذاب « لا يلائمهم تلك الملاءمة حيث فرّغ ذوق العذاب على العرض فهو غيره .

و قيل : إن في الآية قلباً والأصل عرض النار على الذين كفروا لأن من الواجب في تحقيق معنى العرض أن يكون في المعروض عليه شعور بالمعروض والنار لا شعور لها بالذين كفروا بل الأمر بالعكس ففي الكلام قلب ، والمراد عرض النار على الذين كفروا .

و وجهه بعض المفسرين بأن المناسب أن يؤتى بالمعروض إلى المعروض عليه كما في قولنا : عرضت الماء على الدابة و عرضت الطعام على الضيف ، و لما كان الأمر في عرض النار على الذين كفروا بالعكس فإنهم هم المسيرون إلى النار فقلب الكلام رعاية لهذا الاعتبار .

و فيه نظر أمّا ما ذكر من أن المعروض عليه يجب أن يكون ذا شعور و إدراك بالمعروض حتّى يرغب إليه أو يرغب عنه و النار لا شعور لها ففيه أو لا أنّه

ممنوع كما يؤيدونه قولهم : عرضت المتاع على البيع ، وقوله تعالى : « إِنَّا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال » الأحزاب : ٧٢ ، و ثانياً أَنَّا لَا نَسْلَمُ خُلُوءًا نَارَ الآخرة عن الشعور ففي الأخبار الصحيحة أَنَّ للجنة والنار شعوراً ويشعر به قوله : « يوم نقول لجهنم هل امتلأت فتقول هل مزيد » ق : ٣٠ ، وغيره من الآيات .
و أما ما قيل من أَنَّ المناسب تحريك المعروض إلى المعروض عليه فلا نسلم لزومه ولا اطراحه فهو منقوض بقوله : « إِنَّا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض » الآية الأحزاب : ٧٢ .

على أَنَّ في كلامه تعالى ما يدل على الإتيان بالنار إلى الذين كفروا كقوله : وجيء يومئذ بجهنم يومئذ يتذكر الإنسان وأنتى له الذكرى « الفجر : ٢٣ .
فالحق أَنَّ العرض وهو إظهار عدم المانع من تلبس شيء بشيء معنى له نسبة إلى الجانبين يمكن أخذ كل منهما أصلاً معروضاً عليه والآخر فرعاً معروضاً فتارة تؤخذ النار معروضة على الكافرين بعناية أن لا مانع من عمل صالح أو شفاعة تمنع من دخولهم فيها كقوله تعالى : « و عرضنا جهنم يومئذ للكافرين عرضاً » الكهف : ١٠٠ فتارة يؤخذ الكفار معروضين للنار بعناية أن لا مانع يمنع النار أن تعذبهم كما في قوله : « النار يعرضون عليها غدواً وعشياً » المؤمن : ٢٦ وقوله : « يعرض الذين كفروا على النار » الآية .

و على هذا فالأشبه تحقق عرضين يوم القيامة : عرض جهنم للكافرين حين تبر زلهم ثمَّ عرضهم على جهنم بعد الحساب والقضاء الفصل بدخولهم فيها حين يساقون إليها قال تعالى : « و سيق الذين كفروا إلى جهنم زمراً » الزمر : ٧١ .
و قوله : « أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها » على تقدير القول أي يقال لهم : « أذهبتم » إلخ والطيبات الأمور التي تلائم النفس و توافق الطبع و يستلذُّ بها الإنسان ، و إذهاب الطيبات إنفادها بالاستيفاء لها ، والمراد بالاستمتاع بها استعمالها والانقفاع بها لنفسها لا للآخرة والتهيؤ لها .
والمعنى يقال لهم حين عرضهم على النار : أنفدتم الطيبات التي تلتذون بها في

حياتكم الدنيا و استمتعتم بتلك الطيبات فلم يبق لكم شيء تلتذّون به في الآخرة .
و قوله : « فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون في الأرض بغير الحق »
و بما كنتم تفسقون « تفريع على إذهابهم الطيبات ، و عذاب الهون العذاب الذي فيه
الهوان والخزي .

والمعنى فاليوم تجزون العذاب الذي فيه الهوان والخزي قبال استكباركم في الدنيا
عن الحق و قبال فسقكم و توليكم عن الطاعات ، و هما ذنبان أحدهما متعلق بالاعتقاد
و هو الاستكبار عن الحق و الثاني متعلق بالعمل و هو الفسق .

﴿ بحث روائي ﴾

في الدر المنثور أخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد وابن المنذر من طريق قتادة
عن أبي حرب بن أبي الأسود الدئلي قال : رفع إلى عمر امرأة ولدت لستة أشهر
فسأل عنها أصحاب النبي فقال علي : لا رجم عليها ألا ترى أنه يقول : و حمل و فصاله
ثلاثون شهراً ، وقال : و فصاله في عامين ، و كان الحمل ههنا ستة أشهر فتركها عمر . قال :
ثم بلغنا أنها ولدت آخر لستة أشهر .

أقول : و روى القصة المفيد في الإرشاد .

و فيه أخرج ابن المنذر و ابن أبي حاتم عن بعجة بن عبد الله الجهني قال : تزوج
رجل منّا امرأة من جبهينة فولدت له تماماً لستة أشهر فانطلق زوجها إلى عثمان بن
عفّان فأمر برجمها فبلغ ذلك عليّاً فأتاه فقال : ما تصنع ؟ قال : ولدت تماماً لستة أشهر
و هل يكون ذلك ؟ قال علي : أمّا سمعت الله تعالى يقول : و حمل و فصاله ثلاثون شهراً
و قال : حولين كاملين فكم تجده بقي إلا ستة أشهر ؟

فقال عثمان : والله ما فطنت لهذا . عليّ بالمرأة فوجدها قد فرغ منها ، و كان
من قولها لأختها : لا تحزني فو الله ما كشف فرجي أحد قط غيره . قال : فشب الغلام
بعد فاعترف الرجل به و كان أشبه الناس به . قال : فرأيت الرجل بعد يتساقط عضواً
عضواً علي فراشه .

وفي التهذيب بإسناده عن عبد الله بن سنان عن أبي عبد الله عليه السلام قال : سأله أبي وأنا حاضر عن قول الله عز وجل : « حتّى إذا بلغ أشده » قال : الاحتلام .
وفي الخصال عن أبي بصير قال : قال أبو عبد الله عليه السلام : إذا بلغ العبد ثلاثاً و ثلاثين سنة فقد بلغ أشده ، وإذا بلغ أربعين سنة فقد بلغ منتهاه فإذا طعن في إحدى أو أربعين فهو في النقصان ، وينبغي لصاحب الخمسين أن يكون كمن كان في النزع .
أقول : لا تخلو الرواية من إشعار بكون بلوغ الأشد ممّا يختلف بالمراتب فيكون الاحتلام وهو غالباً في الست عشرة أوّل مرتبة منها والثلاث والثلاثين وهي بعد مضي ست عشرة أخرى المرتبة الثانية وقد تقدّم في نظيرة الآية من سورة يوسف بعض أخبار آخر .

و اعلم أنّه قد وردت في الآية أخبار تطبقها على الحسين بن علي عليهما السلام وولادته لستة أشهر وهي من الجري .

وفي الدر المنثور أخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن عبد الله قال : إنني لفي المسجد حين خطب مروان فقال : إن الله قد أرى أمير المؤمنين في يزيد رأياً حسناً وإن يستخلفه فقد استخلف أبو بكر وعمر فقال عبد الرحمن بن أبي بكر : أهرقليّة ؟ إنّ أبا بكر والله ما جعلها في أحد من ولده ولا أحد من أهل بيته ولا جعلها معاوية إلّا رحمة وكرامة لولده .

فقال مروان : أأنت الذي قال لوالديه : أف لكما ؟ فقال عبد الرحمن : أأنت ابن اللعين الذي لعن أباك رسول الله صلى الله عليه وآله .

قال : و سمعتها عائشة فقالت : يا مروان أنت القائل لعبد الرحمن كذا وكذا ؟ كذبت والله ما فيه نزلت . نزلت في فلان بن فلان .

وفيه أخرج ابن جرير عن ابن عباس في الذي قال لوالديه أف لكما الآية قال : هذا ابن لأبي بكر .

أقول : و روي ذلك أيضاً عن قتادة والسدي ، وقصة رواية مروان وتكذيب عائشة له مشهورة . قال في روح المعاني بعد رد رواية مروان : و وافق بعضهم كالسهيلي

في الأعلام مروان في زعم نزولها في عبد الرحمان ، و على تسليم ذلك لا معنى للتعبير لاسيما من مروان فإن الرجل أسلم و كان من أفاضل الصحابة و أبطالهم ، و كان له في الإسلام غناء يوم اليمامة وغيره ، والإسلام يجب ما قبله فالكافر إذا أسلم لا ينبغي أن يعبر بما كان يقول . انتهى

وفيه أن الروايات لو صححت لم يكن مناص عن صريح شهادة الآية عليه بقوله : « أولئك الذين حق عليهم القول - إلى قوله - إنهم كانوا خاسرين » و لم ينفع شيء مما دافع عنه به .

و في تفسير القمي في قوله تعالى : « و يوم يعرض الذين كفروا - إلى قوله - و استمتعتم بها » قال : أكلتم و شربتم و ركبتهم ، و هي في بني فلان « فالיום تجزون عذاب الهون » قال : العطش .

و في المحاسن بإسناده عن ابن القداح عن أبي عبد الله عليه السلام عن آبائه عليهم السلام قال : أتني يعني النبي ﷺ بخبيص ^(١) فأبى أن يأكله ف قيل : أتحرمه ؟ فقال : لا و لكنني أكره أن تتوق إليه نفسي ثم تلا الآية « أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا » . و في المجمع في الآية و قد روي في الحديث أن عمر بن الخطاب قال : استأذنت على رسول الله ﷺ فدخلت عليه في مشربة أم إبراهيم و إنه لمضطجع على خصفة و إن بعضه على التراب و تحت رأسه وسادة محشوة ليفا فسلمت عليه ثم جلست فقلت : يا رسول الله أنت نبي الله و صفوته و خيرته من خلقه وكسرى و قيصر على سرير الذهب و فرش الحرير والديباج ! فقال رسول الله ﷺ : أولئك قوم عجلت طيباتهم و هي وشيكة الانقطاع ، وإنما أخبرت لنا طيباتنا .

أقول : و رواه في الدر المنثور بطرق عنه .



وَ اذْكُرْ اَخَا عَادٍ اِذْ اَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْاَحْقَافِ وَقَدْ خَلَّتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ اِلَّا تَعْبُدُوا اِلَّا اللّٰهَ اِنِّىْ اَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٢١)
 قَالُوا اَجِئْتَنَا لِنَاْفِكُنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَاْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا اِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِيْنَ (٢٢)
 قَالَ اِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللّٰهِ وَ اُبَلِّغُكُمْ مَا ارْسَلْتُ بِهِ وَ لِكِنِّىْ اُرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُوْنَ (٢٣) فَلَمَّا رَاُوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ اُوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيْحٌ فِىْهَا عَذَابٌ اَلِيْمٌ (٢٤) تَدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِاِذْنِ رَبِّهَا فَاَصْبَحُوا لَا يَرٰى اِلَّا مَسَاكِيْنَهُمْ كَذٰلِكَ نَجْزِى الْقَوْمَ الْمُجْرِمِيْنَ (٢٥) وَلَقَدْ مَكَّنّاهُمْ فِىْمَا اِنْ مَكَّنّاهُمْ فِىْهِ وَ جَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَ اَبْصَارًا وَ اَفْنَدَةً فَمَا اَغْنٰى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا اَبْصَارُهُمْ وَلَا اَفْنَدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ اِذْ كَانُوا يَجْحَدُوْنَ بِآيَاتِ اللّٰهِ وَ حَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤْنَ (٢٦) وَلَقَدْ اَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقَرْىِ وَ صَرَفْنَا الْاَيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُوْنَ (٢٧) فَلَوْ لَا نَصَرَهُمُ الَّذِيْنَ اتَّخَذُوا مِنْ دُوْنِ اللّٰهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَ ذٰلِكَ اِفْكُهُمْ وَ مَا كَانُوا يَفْتَرُوْنَ (٢٨) .

﴿بيان﴾

لَمَّا قَسَمَ النَّاسُ عَلَى قَسَمَيْنِ وَ انْتَهَى الْكَلَامُ إِلَى الْاِنْذَارِ عَقِبَ ذَلِكَ بِالْاِشَارَةِ إِلَى قِصَّتَيْنِ قِصَّةِ قَوْمِ عَادٍ وَ هَالِكِهِمْ وَ مَعَهَا الْاِشَارَةُ إِلَى هَالِكِ الْقَرْىِ الَّتِي حَوْلَ مَكَّةَ وَ

قصة إيمان قوم من الجن صرّهم الله إلى النبي ﷺ فاستمعوا القرآن فآمنوا ورجعوا إلى قومهم منذرين وإنما أورد القصتين ليعتبر بهما من شاء أن يعتبر منهم ، وهذه الآيات المنقولة تتضمن أولى القصتين .

قوله تعالى : « واذكر أخا عاد إذ أنذر قومه بالأحقاف و قدخلت النذر من بين يديه و من خلفه » إلخ أخو القوم هو المنسوب إليهم من جهة الأب ، والمراد بأخي عاد هود النبي ﷺ ، والأحقاف مسكن قوم عاد والمتيقن أنه في جنوب جزيرة العرب ولا أثر اليوم باقيا منهم ، واختلفوا أين هو ؟ فقيل : واد بين عمان ومهرة ، وقيل رمال بين عمان إلى حضرموت ، وقيل : رمال مشرفة على البحر بالشحر من أرض اليمن وقيل غير ذلك .

وقوله : « و قدخلت النذر من بين يديه و من خلفه » النذر جمع نذير والمراد به الرسول على ما يفيد السياق ، وأما تعميم بعضهم النذر للرسول و نواهبهم من العلماء ففي غير محله .

و فسروا « من بين يديه » بالذين كانوا قبله و « من خلفه » بالذين جاؤا بعده ويمكن العكس بأن يكون المراد بالنذر بين يديه من كانوا في زمانه ، و من خلفه من كان قبله ، والأولى على الأول أن يكون المراد بخلو النذر من بين يديه و من خلفه أن يكون كناية عن مجيئه إليهم و إنذاره لهم على فترة من الرسل .

وقوله : « أن لا تعبدوا إلا الله » تفسير للإشارة إلى أن أساس دينه الذي يرجع إليه تفاصيله هو التوحيد .

وقوله : « إنني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم » تعليل لدعوتهم إلى التوحيد، والظاهر أن المراد باليوم العظيم يوم عذاب الاستئصال لا يوم القيامة يدل على ذلك ماسياتي من قولهم : « فائتنا بما تعدنا » وقوله : « بل هو ما استعجلتم به » والباقي ظاهر .

قوله تعالى : « قالوا أجبتنا لتأفكنا عن آلهتنا » إلخ جواب القوم له قبال إنذاره ، وقوله : « لتأفكنا عن آلهتنا » بتضمين الإفك وهو الكذب والفرية معنى الصرف والمعنى قالوا أجبنا لتصرفنا عن آلهتنا إفكا و افتراء .

و قوله : « فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين » أمر تعجيزي منهم له زعماً منهم أنه ﷺ كاذب في دعوته آفك في إنذاره .

قوله تعالى : « قال إنما العلم عند الله وأبلغكم ما أرسلت به » إلخ جواب هود عن قولهم ردّاً عليهم فقوله : « إنما العلم عند الله » قصر العلم بنزول العذاب فيه تعالى لأنه من الغيب الذي لا يعلم حقيقته إلا الله جل شأنه ، وهو كناية عن أنه عليه السلام لا علم له بأنه ما هو ؟ ولا كيف هو ؟ ولا متى هو ؟ ولذلك عقبه بقوله : « وأبلغكم ما أرسلت به » أي إن الذي حملته وأرسلت به إليكم هو الذي أبلغكموه ولا علم لي بالعذاب الذي أمرت بأبذاركم به ما هو ؟ وكيف هو ؟ ومتى هو ؟ ولا قدرة لي عليه .

و قوله : « ولكنني أراكم قوماً تجهلون » إضراب عما يدل عليه الكلام من نفيه العلم عن نفسه ، والمعنى لا علم لي بما تستعجلون به من العذاب ولكنني أراكم قوماً تجهلون فلا تميزون ما ينفعكم مما يضركم وخيركم من شركم حين تردون دعوة الله وتكذبون بآياته وتستهزئون بما يوعدكم به من العذاب .

قوله تعالى : « فلمّا رأوه عارضاً مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرا » إلخ صفة نزول العذاب إليهم بادی ظهوره عليهم .

و العارض هو السحاب يعرض في الأفق ثم يطبق السماء وهو صفة العذاب الذي يرجع إليه ضمير « رأوه » المعلوم من السياق ، وقوله : « مستقبل أوديتهم » صفة أخرى له ، والأودية جمع الوادي ، وقوله : « قالوا هذا عارض ممطرا » أي استبشروا ظناً منهم أنه سحاب عارض ممطر لهم فقالوا : هذا الذي نشاهده سحاب عارض ممطر إيانا . وقوله : « بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم » ردّ لقولهم : « هذا عارض ممطرا » بالإضراب عنه إلى بيان الحقيقة فبين أن ذلك على طريق التهكم أنه العذاب الذي استعجلتم به حين قلتم : « فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين » وزاد في البيان ثانياً بقوله : « ريح فيها عذاب أليم » .

و الكلام من كلامه تعالى وقيل : هو كلام لهود النبي ﷺ .

قوله تعالى : « تدمر كل شيء باذن ربها فاصبحوا لا يرى إلا مساكنهم كذلك نجزي القوم المجرمين » التدمير الإهلاك ، و تعلقه بكل شيء وإن كان يفيد عموم التدمير لكن السياق يخصه بنحو الإنسان والدواب والأموال فالمعنى إن تلك الريح ريح تهلك كل ما مرت عليه من إنسان ودواب وأموال .

وقوله : « فاصبحوا لا يرى إلا مساكنهم » بيان لنتيجة نزول العذاب ، وقوله : « كذلك نجزي القوم المجرمين » إعطاء ضابط كلي في مجازاة المجرمين بتشبيه الكلي بالفرد الممثل به والتشبيه في الشدة أي إن سنتنا في جزاء المجرمين على هذا النحو الذي قصصناه من الشدة فهو كقوله تعالى : « وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذها أليم شديد » هود . ١٠٣ .

قوله تعالى : « ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه » إلخ موعظة لكفار مكة مستنتجة من القصة .

و التمكين إقرار الشيء وإثباته في المكان ، وهو كناية عن إعطاء القدرة والاستطاعة في التصرف و « ما » في « فيما » موصولة أو موصوفة و « إن » نافية ، والمعنى ولقد جعلنا قوم هود في الذي - أو في شيء - ما مكناكم معشر كفار مكة ومن يتلوكم فيه من بسطة الأجسام وقوة الأبدان والبطش الشديد والقدرة القومية .

وقوله : « وجعلنا لهم سمعاً وأبصاراً وأفئدة » أي جهزناهم بما يدركون به ما ينفعهم وما يضرهم وهو السمع والأبصار وما يميزون به ما ينفعهم مما يضرهم فيحتالون لجلب النفع ولدفع الضرر بما قدروا كما أن لكم ذلك .

وقوله : فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء إن كانوا يجحدون بآيات الله ما في « فما أغنى » نافية لاستفهامية ، و « إن » ظرف متعلق بالنفي الذي في قوله : « فما أغنى » .

و محصل المعنى أنهم كانوا من الممكن على ما ليس لكم ذلك و كان لهم من أدوات الإدراك والتمييز ما يحتال به الإنسان لدفع المكروه والانتقاء من الحوادث المهلكة المبيدة لكن لم يغن عنهم ولم ينفعهم هذه المشاعر والأفئدة شيئاً عند ما جحدوا

آيات الله فما الذي يؤمنكم من عذاب الله و أنتم جاحدون لآيات الله .

و قيل : معنى الآية و لقد مكناهم في الذي أو في شيء ما مكناكم فيه من القوة و الاستطاعة وجعلنا لهم سمعاً و أبصاراً و أفئدة ليستعملوها فيما خلقت له و يسمعون كلمة الحق و يشاهدوا آيات التوحيد و يعتبروا بالتفكر في العبر ، و يستدلوا بالتعقل الصحيح على المبدء و المعاد فما أغنى عنهم سمعهم و لأبصارهم و لأفئدتهم من شيء حيث لم يستعملوها فيما يوصل إلى معرفة الله سبحانه هذا و لعل الذي قد مناه من المعنى أنسب للسياق .

و قد جوزوا في مفردات الآية وجوهاً لم نوردها لعدم جدوى فيها .
و قد تقدم في نظائر قوله : « سمعاً و أبصاراً و أفئدة » أن أفراد السمع - والمراد منه الجمع - لمكان مصدريته في الأصل نظير الضيف و القربان و الجنب قال تعالى : « ضيف إبراهيم المكرمين » الذاريات : ٢٤ و قال : « إن قرناً قرباناً » المائدة : ٢٧ ، و قال : « و إن كنتم جنبا » المائدة : ٦ .

و قوله : « و حاق بهم ما كانوا به يستهزؤن » عطف على قوله : « ما أغنى عنهم » الخ .

قوله تعالى : « و لقد أهلكنا ما حولكم من القرى » تذكرة إنذارية متفرقة على العظة التي في قوله : « و لقد مكناهم » الخ فهي معطوفة عليه على ما يفيد السياق لا على قوله : « و اذكر أخعاد » .

و قوله : « و صرفنا الآيات لعلمهم يرجعون » أي و صيرنا الآيات المختلفة من معجزة أيدينا بها الأنبياء و وحي أنزلناه عليهم و نعم رزقناهموها ليتذكروا بها و نعم ابتليناهم بها ليتوبوا و ينصرفوا عن ظلمهم لعلمهم يرجعون من عبادة غير الله سبحانه إلى عبادته .

و الضمير في « لعلمهم يرجعون » راجع إلى القرى و المراد بها أهل القرى .
قوله تعالى : « فلو لا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قرباناً آلهة » الخ ظاهر السياق أن آلهة مفعول ثان لا اتخذوا و مفعوله الأول هو الضمير الراجع إلى

الموصول و « قرباناً » بمعنى ما يتقرب به ، والكلام مسوق للتهكم والمعنى فلو لانصرهم
الذين اتخذوهم آلهة حالكونهم متقرباً بهم إلى الله كما كانوا يقولون : « ما نعبدهم
إلا ليقربونا إلى الله زلفى » .

وقوله : « بل ضلوا عنهم » أي ضل الآلهة عن أهل القرى و انقطعت رابطة
الألوهية والعبودية التي كانوا يزعمونها ويرجون بذلك أن ينصروهم عند الشدائد والمكاره
فالضلال عنهم كناية عن بطلان مزعمتهم .

وقوله : « و ذلك إفكهم و ما كانوا يفترون » مبتدء و خبر والإشارة إلى ضلال
آلهتهم ، والمراد بالافك أثر الافك أو بتقدير مضاف ، و « ما » مصدرية ، والمعنى و
ذلك الضلال أثر إفكهم و افتراءهم .

و يمكن أن يكون الكلام على صورته من غير تقدير مضاف أو تجوز والإشارة
إلى إهلاكهم بعد تصريح الآيات و ضلال آلهتهم عند ذلك ، و محصل المعنى أن هذا
الذي ذكرناه من عاقبة أمرهم هو حقيقة زعمهم أن الآلهة يشفعون لهم و يقرّبونهم من
الله زعمهم الذي أفكوه و افتروه ، والكلام مسوق للتهكم .





وَ إِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ
قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ (٢٩) قَالُوا يَا
قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي
إِلَى الْحَقِّ وَ إِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ (٣٠) يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَ
آمِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ وَ يَجْعَلْكُمْ مِّنْ عَبْدٍ أَلِيمٍ (٣١) وَمَنْ
لَّا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ
أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٣٢) أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضَ وَ لَمْ يَغْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يَحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ
كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٣) وَ يَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ
هَٰذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَ رَبَّنَا قَالِ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (٣٤)
فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولَٰؤُا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَانَهُمْ يَوْمَ
يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنْ نَّهَارٍ بَلَاغٌ فَبَلَّغْ يَهْلِكِ إِلَّا
الْقَوْمَ الْفَاسِقُونَ (٣٥) .

﴿بيان﴾

هذه هي القصة الثانية عقببت بها قصة عاد ليعتبر بها قومه ﷺ إن اعتبروا ، و
فيه تقرير للقوم حيث كفروا به ﷺ و بكتابه النازل على لغتهم و هم يعلمون أنها

آية معجزة و هم مع ذلك يماثلونه في النوعية البشرية و قد آمن الجن بالقرآن إذ استمعوا إليه و رجعوا إلى قومهم منذرين .

قوله تعالى : « و إذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن » إلى آخر الآية الصرف رد الشيء من حالة إلى حالة أو من مكان إلى مكان ، والنفر - على ما ذكره الراغب - عدة من الرجال يمكنهم النفرو هو اسم جمع يطلق على مافوق الثلاثة من الرجال والنساء والإنسان و على الجن كما في الآية و « يستمعون القرآن » صفة نفر ، والمعنى و اذكر إذ وجهنا إليك عدة من الجن يستمعون القرآن .

و قوله : « فلمّا حضروه قالوا أنصتوا » ضمير « حضروه » للقرآن بما يلح إليه من المعنى الحديثي والإنصات السكوت للاستماع أي فلمّا حضروا قراءة القرآن و تلاوته قالوا أي بعضهم لبعض : اسكتوا حتّى نستمتع حق الاستماع .

و قوله : « فلمّا قضى وكّوا إلى قومهم منذرين » ضمير « قضى » للقرآن باعتبار قراءته و تلاوته ، والتولية الانصراف و « منذرين » حال من ضمير الجمع في « وكّوا » أي فلمّا أتمّت القراءة و فرغ منها انصرفوا إلى قومهم حال كونهم منذرين مخوفين لهم من عذاب الله .

قوله تعالى : « قالوا يا قومنا إنّنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى مصدّقاً لما بين يديه » إلخ حكاية دعوتهم قومهم وإنذارهم لهم ، والمراد بالكتاب النازل بعد موسى القرآن ، وفي الكلام إشعار بل دلالة على كونهم مؤمنين بموسى عليه السلام و كتابه ، والمراد بتصديق القرآن لما بين يديه تصديقه التوراة أو جميع الكتب السماوية السابقة .

و قوله : « يهدي إلى الحق » وإلى طريق مستقيم أي يهدي من اتبعه إلى صراط الحق وإلى طريق مستقيم لا يضلّ سالكوه عن الحق في الاعتقاد والعمل .

قوله تعالى : « يا قومنا أجيئوا داعي الله و آمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم و يجركم من عذاب أليم » المراد بداعي الله هو النبي ﷺ قال تعالى : « قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة » يوسف : ١٠٨ ، و قيل : المراد به ما سمعوه من القرآن و هو بعيد .

والظاهر أن « من » في « يغفر لكم من ذنوبكم » للتبويض والمراد مغفرة بعض الذنوب و هي التي اكتسبوها قبل الإيمان قال تعالى : « إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف » الأنفال : ٣٨ .

وقيل : المراد بهذا البعض حقوق الله سبحانه فإنها مغفورة بالتوبة والإيمان توبة و أما حقوق الناس فإنها غير مغفورة بالتوبة ، و رد بأن الإسلام يجب ما قبله .
قوله تعالى : « و من لا يجب داعي الله فليس بمعجز في الأرض و ليس له من دونه أولياء » إلخ أي و من لم يؤمن بداعي الله فليس بمعجز لله في الأرض برد دعوته و ليس له من دون الله أولياء ينصرونه و يمدونه في ذلك والمحصل أن من لم يجب داعي الله في دعوته فإنما ظلم نفسه و ليس له أن يعجز الله بذلك لا مستقلا و لا بنصرة من ينصره من الأولياء فليس له أولياء من دون الله ، ولذلك أتم الكلام بقوله : « أولئك في ضلال مبين » .

قوله تعالى : « أولم يروا أن الله الذي خلق السماوات والأرض و لم يعي بخلقهن بقادر » إلخ الآية و ما بعدها إلى آخر السورة متصلة بما تقدم من قوله تعالى : « و يوم يعرض الذين كفروا على النار أذهبتم » إلخ و فيها تتميم القول فيما به الإنذار في هذه السورة و هو المعاد والرجوع إلى الله تعالى كما أشرنا إليه في البيان المتقدم .

والمراد بالرؤية العلم عن بصيرة ، والعي العجز و التعب ، والأول أفصح على ما قيل ، والباء في « بقادر » زائدة لوقوعها موقعا فيه شائبة حينئذ النفى كأنه قيل : أليس الله بقادر .

والمعنى أو لم يعلموا أن الله الذي خلق السماوات والأرض و لم يعجز عن خلقهن أو لم يتعب بخلقهن قادر على إحياء الموتى - وهو تعالى مبدء وجود كل شيء وحياته - بلى هو قادر لأنه على كل شيء قدير ، وقد أوضحنا هذه الحجة فيما تقدم غير مرة .

قوله تعالى : « و يوم يعرض الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ » إلى آخر الآية تأييد للحجّة المذكورة في الآية السابقة بالإخبار عمّا سيجري على منكري المعاد يوم القيامة ، و معنى الآية ظاهر .

قوله تعالى : « فاصبر كما صبراً ولوالعزم من الرسل ولا تستعجل لهم » إلى آخر الآية تفرّيع على حقيقة المعاد على ما دلّت عليه الحجّة العقلية و أخبر به الله سبحانه و نفى الريب عنه .

والمعنى فاصبر على جحود هؤلاء الكفار و عدم إيمانهم بذلك اليوم كما صبر أولوالعزم من الرسل ولا تستعجل لهم بالعذاب فإنهم سيلاقون اليوم بما فيه من العذاب و ليس اليوم عنهم يبعد و إن استبعدوه .

و قوله : « كأنّهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلّا ساعة من نهار » تبين لقرب اليوم منهم و من حياتهم الدنيا بالإخبار عن حالهم حينما يشاهدون ذلك اليوم فإنّهم إذا رأوا ما يوعدون من اليوم و ما هيّء لهم فيه من العذاب كان حالهم حال من لم يلبث في الأرض إلّا ساعة من نهار .

و قوله : « بلاغ فهل يهلك إلّا القوم الفاسقون » أي هذا القرآن بما فيه من البيان تبليغ من الله من طريق النبوة فهل يهلك بهذا الذي بلغه الله من الإهلاك إلّا القوم الفاسقون الخارجون عن زيّ العبوديّة .

و قد أمر الله سبحانه في هذه الآية نبيّه ﷺ أن يصبر كما صبر أولوالعزم من الرسل و فيه تلويح إلى أنّه ﷺ منهم فليصبر كصبرهم ، و معنى العزم ههنا إمّا الصبر كما قاله بعضهم لقوله تعالى : « و لمن صبر و غفر إنّ ذلك لمن عزم الأمور » الشورى : ٤٣ و إمّا العزم على الوفاء بالميثاق المتأخوذ من الأنبياء كما يلوّح إليه قوله : « و لقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي و لم نجد له عزماً » طه : ١١٥ و إمّا العزم بمعنى العزيمة وهي الحكم و الشريعة .

و على المعنى الثالث و هو الحقّ الذي تذكره روايات أئمة أهل البيت ﷺ

هم خمسة : نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلى الله عليه وآله وعليهم لقوله تعالى : « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً وما أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى » الشورى : ١٣ وقد مرّ تقريب معنى الآية .

و عن بعض المفسرين أن جميع الرسل أوّلوا عزم ، وقد أخذ « من الرسل » بياناً لأولي العزم في قوله : « أوّلوا العزم من الرسل » و عن بعضهم أنهم الرسل الثمانية عشر المذكورون في سورة الأنعام (الآية ٨٣ - ٩٠) لأنّه تعالى قال بعد ذكرهم : « فبهداهم اقتده » .

و فيه أنّه تعالى قال بعد عدّهم « و من آبائهم و ذريّاتهم و إخوانهم » ثم قال : « فبهداهم اقتده » ولم يقل ذلك بعد عدّهم بالافضل .

و عن بعضهم أنهم تسعة : نوح وإبراهيم والذبيح ويعقوب ويوسف وأيوب و موسى و داود و عيسى ، و عن بعضهم أنهم سبعة : آدم و نوح و إبراهيم و موسى و داود و سليمان و عيسى ، و عن بعضهم أنهم ستة و هم الذين أمروا بالقتال : نوح و هود و صالح و موسى و داود و سليمان ، و ذكر بعضهم أن الستة هم نوح و إبراهيم و إسحاق و يعقوب و يوسف و أيّوب ، و عن بعضهم أنهم خمسة و هم : نوح و هود و إبراهيم و شعيب و موسى ، و عن بعضهم أنهم أربعة : نوح و إبراهيم و موسى و عيسى ، و ذكر بعضهم أن الأربعة هم نوح و إبراهيم و هود و محمد صلى الله عليه وآله وعليهم أجمعين .

و هذه الأقوال بين ما لم يستدلّ عليه بشيء أصلاً و بين ما استدلّ عليه بما لا دلالة فيه ، و لذا أغمضنا عن نقلها ، و قد تقدّم في أبحاث النبوة في الجزء الثاني من الكتاب بعض الكلام في أولي العزم من الرسل فراجعه إن شئت .



﴿ بحث روائى ﴾

في تفسير القمي في قوله تعالى : « وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن » الآيات كان سبب نزول هذه الآيات أن رسول الله ﷺ خرج من مكة إلى سوق عكاظ ، و معه زيد بن حارثة يدعو الناس إلى الإسلام فلم يجبه أحد و لم يجد أحداً يقبله ثم رجع إلى مكة .

فلما بلغ موضعاً يقال له : وادي مجنّة ^(١) تهجد بالقرآن في جوف الليل فمر به نفر من الجن فلما سمعوا قراءة رسول الله ﷺ استمعوا له فلما سمعوا قرآنه قال بعضهم لبعض : « أنصتوا » يعني اسكتوا « فلما قضي » أي فرغ رسول الله ﷺ من القرآن « ولوا إلى قومهم منذرين قالوا يا قومنا » إلى آخر الآيات .

فجاؤا إلى رسول الله ﷺ وأسلموا و آمنوا و علمهم رسول الله ﷺ شرائع الإسلام فأنزل الله عز وجل على نبيه ﷺ « قل أوحى إلي أنه استمع نفر من الجن » السورة كلها فحكى الله قولهم وولى عليهم رسول الله ﷺ منهم ، و كانوا يعودون إلى رسول الله ﷺ في كل وقت فأمر رسول الله ﷺ أمير المؤمنين عليه السلام أن يعلمهم و يفقههم فمنهم مؤمنون و كفرون و ناصبون و يهود و نصارى و مجوس ، و هم ولد الجان .

أقول : والروايات في قصة هؤلاء النفر من الجن الذين استمعوا إلى القرآن كثيرة مختلفة اختلافاً شديداً ، ولا سبيل إلى تصحيح متونها بالكتاب أو بقرائن موثوق بها و لذا اكتفينا منها على ما تقدم من خبر القمي و سيأتي نبذ منها في تفسير سورة الجن إن شاء الله تعالى .

و فيه سئل العالم عليه السلام عن مؤمنى الجن أيدخلون الجنة ؟ فقال : لا و لكن لله حظائر بين الجنة والنار يكون فيها مؤمنو الجن و فساق الشيعة .

أقول : وروي مثله في بعض الروايات الموقوفة من طرق أهل السنة ، ورواية القمي "مرسلة كالمضمرة فإن قبلت فلتحمل على أدنى مراتب الجنة وعمومات الكتاب تدل على عموم الثواب للمطيعين من الإنس والجن"

وفي الكافي بإسناده عن ابن أبي يعفور قال : سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول : سادة النبيين والمرسلين خمسة : وهم أولو العزم من الرسل وعليلهم دارت الرحي : نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلى الله عليه وآله وعلى جميع الأنبياء . وفيه بإسناده عن عبد الرحمن بن كثير عن أبي جعفر عليه السلام قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : إن أول وصي كان على وجه الأرض هبة الله بن آدم ، وما من نبي مضى إلا وله وصي .

وكان جميع الأنبياء مائة ألف وعشرين ألف نبي : منهم خمسة أولو العزم : نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلى الله عليه وآله وعليلهم . الحديث . **أقول :** كون أولي العزم خمسة مما استفاضت عليه الروايات عن أئمة أهل البيت عليهم السلام فهو مروى عن النبي صلى الله عليه وآله وعن الباقر والصادق والرضا عليهم السلام بطرق كثيرة . وعن روضة الواعظين للمفيد : قيل للنبي صلى الله عليه وآله : كم بين الدنيا والآخرة ؟ قال : غمضة عين قال الله عز وجل : « كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار بلاغ » الآية .



﴿سورة محمد مدنيّة و هي ثمان و ثلاثون آية﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ صَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ
أَصْلَ أَعْمَالِهِمْ (١) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَ آمَنُوا بِمَا
نَزَلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَ أَصْلَحَ
بَالِهِمْ (٢) ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَ أَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا
اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ (٣) فَإِذَا
لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا
الْوُثَاقَ فَمَا مِنْكُمْ بَعْدُ وَ أَمَا فِدَاءٌ حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ
وَ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَ الَّذِينَ قَتَلُوا
فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ (٤) سَيَهْدِيهِمْ وَ يَصْلَحَ بِأَلْفِهِمْ (٥)
وَ يَدْخُلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَفَهَا لَهُمْ (٦).

﴿بيان﴾

تصف السورة الذين كفروا بما يخصهم من الأوصاف الخبيثة والأعمال السيئة
و تصف الذين آمنوا بصفاتهم الطيبة وأعمالهم الحسنة ثم تذكر ما يعقّب صفات هؤلاء
من النعمة والكرامة و صفات أولئك من النعمة والهوان و على الجملة فيها المقايسة بين
الفريقين في صفاتهم وأعمالهم في الدنيا و ما يترتب عليها في الأخرى ، و فيها بعض ما
يتعلق بالقتال من الأحكام .

و هي سورة مدنيّة على ما يشهد به سياق آياتها .

قوله تعالى : « الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالِهِمْ » فسرّ الصّدّ

بالإعراض عن سبيل الله و هو الإِسلام كما عن بعضهم ، و فسرّ بالمنع و هو منعهم الناس أن يؤمنوا بما كان النبي ﷺ يدعوهم إليه من دين التوحيد كما عن بعض آخر .

و ثاني التفسيرين أوفق لسياق الآيات التالية و خاصّة ما يأمر المؤمنين بقتلهم و أسرهم وغيرهم .

فالمراد بالذين كفروا كفّار مكّة و من تبعهم في كفرهم وقد كانوا يمنعون الناس.

عن الايمان بالنبي ﷺ و يفتنونهم ، و صدّوهم أيضاً عن المسجد الحرام .

و قوله : « أَضَلَّ أَعْمَالِهِمْ » أي جعل أَعْمَالِهِمْ ضالّة لا تهتدي إلى مقاصدها التي

قصدت بها و هي بالجملة إبطال الحقّ و إحياء الباطل فالجملة في معنى ما تكرر منه

تعالى من قوله : « وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ » البقرة : ٢٦٤ و قد وعد سبحانه

بإحياء الحقّ و إبطال الباطل كما في قوله : « لِيَحِقَّ الْحَقُّ » و يبطل الباطل و لو كره

المجرمون « الْأَنْفَال : ٨ .

فالمراد من ضلال أَعْمَالِهِمْ بطلانها و فسادها دون الوصول إلى الغاية ، و عدّ ذلك

ضلالاً من الاستعارة بالكناية .

قوله تعالى : « وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَ

هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ » إلخ ظاهر إطلاق صدر الآية أن المراد بالذين آمنوا إلخ مطلق

من آمن و عمل صالحاً فيكون قوله : « وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ » تقييداً احترازياً لا

تأكيداً و ذكراً لما تعلّقت به العناية في الايمان .

و قوله : « وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ » جملة معترضة والضمير راجع إلى ما نُزِّلَ .

و قوله : « كَفَرُ عَنْهُمْ سِحْرُ آبَائِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالِهِمْ » قال في المجمع : البال الحال والشأن

والبال القلب أيضاً يقال : خطر ببالي كذا ، و البال لا يجمع لأنّه أبهم أخواته من الحال

و الشأن . انتهى .

وقد قبل إضلال الأعمال في الآية السابقة بتكفير السيئات و إصلاح البال في هذه

الآية فمعنى ذلك هداية إيمانهم و عملهم الصالح إلى غاية السعادة ، و إنما يتم ذلك بتكفير السيئات المانعة من الوصول إلى السعادة ، و لذلك ضم تكفير السيئات إلى إصلاح البال .

والمعنى ضرب الله الستر على سيئاتهم بالعفو والمغفرة ، وأصلح حالهم في الدنيا و الآخرة أما الدنيا فلأن الدين الحق هو الدين الذي يوافق ما تقتضيه الفطرة الإنسانية التي فطر الله الناس عليها ، والفطرة لا تقتضي إلا ما فيه سعادتها وكمالها ففي الإيمان بما أنزل الله من دين الفطرة والعمل به صلاح حال المؤمنين في مجتمعهم الدنيوي ، و أما في الآخرة فلا نهبها عاقبة الحياة الدنيا و إذ كانت فاتحتها سعيدة كانت خاتمتها كذلك قال تعالى : « والعاقبة للمتقوى » طه : ١٣٢ .

قوله تعالى : « ذلك بأن الذين كفروا اتبعوا الباطل و أن الذين آمنوا اتبعوا الحق من ربهم » الخ تعليل لما في الآيتين السابقتين من إضلال أعمال الكفار وإصلاح حال المؤمنين مع تكفير سيئاتهم .
و في تقييد الحق بقوله : « من ربهم » إشارة إلى أن المنتسب إليه تعالى هو الحق ولا نسبة للباطل إليه و لذلك تولى سبحانه إصلاح بال المؤمنين لما ينتسب إليه طريق الحق الذي اتبعوه ، و أما الكفار بأعمالهم فلا شأن له تعالى فيهم و أما انتساب ضلالهم إليه في قوله : « أضل أعمالهم » فمعنى إضلال أعمالهم عدم هدايته لها إلى غايات صالحة سعيدة .

و في الآية إشارة إلى أن الملاك كل الملاك في سعادة الإنسان و شقائه اتباع الحق و اتباع الباطل والسبب في ذلك انتساب الحق إليه تعالى دون الباطل .
و قوله : « كذلك يضرب الله للناس أمثالهم » أي يبين لهم أوصافهم على ما هي عليه ، و في الإتيان باسم الإشارة الموضوع للبعيد تفخيم لأمر ما ضربه من المثل .

قوله تعالى : « فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب » إلى آخر الآية تفرع على ما تقدم في الآيات الثلاث من وصف الفريقين كأنه قيل : إذا كان المؤمنون أهل الحق والله ينعم عليهم بما ينعم والكفار أهل الباطل والله يضل أعمالهم فعلى المؤمنين إذا لقوا

الكفار أن يقتلوهم و يأسروهم ليحيى الحق الذي عليه المؤمنون و تطهر الأرض من الباطل الذي عليه الكفار .

فقوله : « فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب » المراد باللقاء اللقاء في القتال و ضرب الرقاب مفعول مطلق قائم مقام فعله العامل فيه والتقدير فاضربوا الرقاب - أي رقابهم - ضربا و ضرب الرقبة كناية عن القتل ، لأنَّ أيسر القتل وأسرع ضرب الرقبة به .

وقوله : « حتّى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق » في المجمع : الاثنان إكثار القتل و غلبة العدو و قهرهم و منه أثخنه المرض اشتدَّ عليه و أثخنه الجراح . انتهى و في المفردات : وثقت به أثق ثقة سكنت إليه و اعتمدت عليه ، و أوثقت شدته ، والوثاق - بفتح الواو - والوثاق -- بكسر الواو -- اسمان لما يوثق به الشيء . انتهى و « حتّى » غاية لضرب الرقاب ، والمعنى فاقتلوهم حتّى إذا أكثرتم القتل فيهم فأسروهم بشدَّ الوثاق و إحكامه فالمراد بشدَّ الوثاق الأسر فالآية في ترتب الأسر فيها على الاثنان في معنى قوله تعالى : « ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتّى يشخن في الأرض » الأ نفال : ٦٧ .

وقوله : « فأما منّا بعد وإما فداء » أي فأسروهم و يتفرّع عليه أنكم إما تمنّون عليهم منّا بعد الأسر فتطلقونهم أو تسترقونهم وإما تفدونهم فداء بالمال أو بمن لكم عندهم من الأسارى .

وقوله : « حتّى تضع الحرب أوزارها » أوزار الحرب أثقالها وهي الأسلحة التي يحملها المحاربون والمراد به وضع المقاتلين وأهل الحرب أسلحتهم كناية عن انقضاء القتال .

وقد تبين بما تقدّم من المعنى ما في قول بعضهم إنَّ هذه الآية ناسخة لقوله تعالى : « ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتّى يشخن في الأرض » الأ نفال : ٦٧ لأنَّ هذه السورة متأخرة نزولاً عن سورة الأ نفال فتكون ناسخة لها .

وذلك لعدم التدافع بين الآيتين فآية الأ نفال تنهى عن الأسر قبل الاثنان

والآية المطبوح عنها تأمر بالأمر بعد الإثخان .

وكذا ما قيل : إن قوله : « فشدوا الوثاق » الخ منسوخ بآية السيف « فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم » التوبة : ٤ ، وكأنه مبني على كون العام الوارد بعد الخاص ناسخاً له لا مخصصاً به والحق خلافه وتام البحث في الأصول ، وفي الآية أيضاً مباحث فقهية محلها علم الفقه .

وقوله : « ذلك » أي الأمر ذلك أي إن حكم الله هو ما ذكر في الآية .

وقوله : « ولو شاء الله لانتصر منهم » الضمير للكفار أي ولو شاء الله الانتقام منهم لانتقم منهم بإهلاكهم وتعذيبهم من غير أن يأمرهم بقتالهم .

وقوله : « ولكن ليلو بعضكم ببعض » استدراك من مشية الانتصار أي ولكن لم ينتصر منهم بل أمرهم بقتالهم ليتمتحن بعضهم ببعض فيمتحن المؤمنون بالكفار يأمرهم بقتالهم ليظهر المطيعون من العاصين ويمتحن الكفار بالمؤمنين فيتمتيز أهل الشقاء منهم ممن يوفق للتوبة من الباطل والرجوع إلى الحق .

وقد ظهر بذلك أن قوله : « ليلو بعضكم ببعض » تعليل للحكم المذكور في الآية ، والخطاب في « بعضكم » لمجموع المؤمنين والكفار ووجه الخطاب إلى المؤمنين . وقوله : « والذين قتلوا في سبيل الله فلن يضل أعمالهم » الكلام مسوق سوق الشرط والحكم عام أي ومن قتل في سبيل الله وهو الجهاد والقتال مع أعداء الدين فلن يبطل أعمالهم الصالحة التي أتوا بها في سبيل الله .

وقيل : المراد بقوله : « والذين قتلوا في سبيل الله » شهداء يوم أحد ، وفيه أنه تخصيص من غير مخصص والسياق سياق العموم .

قوله تعالى : « سيهديهم ويصلح بالهم » الضمير للذين قتلوا في سبيل الله فالآية وما يتلوها لبيان حالهم بعد الشهادة أي سيهديهم الله إلى منازل السعادة والكرامة ويصلح حالهم بالمغفرة والعفو عن سيئاتهم فيصلحون لدخول الجنة .

وإذا انضمت هذه الآية إلى قوله تعالى : « ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم » آل عمران : ١٦٩ ظهر أن المراد بإصلاح بالهم إحيائهم

حياة يصلحون بها للحضور عند ربهم بانكشاف الغطاء .

وقال في المجمع : والوجه في تكرير قوله : « بالهم » أن المراد بالأول أنه أصلح بالهم في الدين والدنيا ، والثاني أنه يصلح حالهم في نعيم العقبي فالأول سبب النعيم والثاني نفس النعيم . انتهى . والفرق بين ما ذكره من المعنى وما قد مناه أن قوله تعالى : « ويصلح بالهم » على ما ذكرنا كالعطف التفسيري لقوله : « سيهديهم » دون ما ذكره ، وقوله الآتي : « ويدخلهم الجنة » على ما ذكره كالعطف التفسيري لقوله : « ويصلح بالهم » دون ما ذكرناه .

قوله تعالى : « ويدخلهم الجنة عرفها لهم » غاية هدايته لهم ، وقوله : « عرفها لهم » حال من إدخاله إياهم الجنة أي سيدخلهم الجنة والحال أنه عرفها لهم إما بالبيان الديني من طريق الوحي والنبوة وإما بالبشرى عند القبض أوفي القبر أو في القيامة أو في جميع هذه المواقف هذا ما يفيد السياق من المعنى .

﴿ بحث روائي ﴾

في الدر المنثور أخرج ابن مردويه عن علي قال : سورة محمد آية فينا وآية في بني أمية .

أقول : وروى القمي في تفسيره عن أبيه عن بعض أصحابنا عن أبي عبد الله عليه السلام مثله .

وفي المجمع في قوله : « فإننا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب » الخ المروي عن أئمة الهدى عليه السلام : أن الأسارى ضربان : ضرب يؤخذون قبل انقضاء القتال والحرب قائمة فهؤلاء يكون الإمام مخيراً بين أن يقتلهم أو يقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف و يتركهم حتى ينزفوا ، ولا يجوز المن ولا الفداء .

والضرب الآخر الذين يؤخذون بعد أن وضعت الحرب أوزارها وانقضى القتال فلا إمام مخير فيهم بين المن والفداء إما بالمال أو بالنفس وبين الاسترقاق وضرب الرقاب

فإذا أسلموا في الحالين سقط جميع ذلك وكان حكمهم حكم المسلمين .

أقول : و روى ما في معناه في الكافي عن أبي عبد الله عليه السلام .

و في الدر المنثور أخرج ابن المنذر عن ابن جريح في قوله تعالى : « والذين قتلوا في سبيل الله فلن يضل أعمالهم » قال : نزل فيمن قتل من أصحاب النبي ﷺ يوم أحد .

أقول : قد عرفت أن الآية عامة ، وسياق الاستقبال في قوله : « سيهديهم ويصلح بالهم » إلخ إنما يلائم العموم و كون الكلام مسوقا لضرب القاعدة .

و قد روي أن قوله تعالى : « حتى إذا أئخنتموهم فشدوا الوثاق » ناسخ لقوله : « وما كان لنبي أن يكون له أسرى » الآية ، و أيضاً أن قوله : « فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم » ناسخ لقوله : « فشدوا الوثاق فإمّا منّا بعد و إمّا فداء » وقد عرفت فيما تقدّم عدم استقامة النسخ .





يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَ يَثْبُتْ
 أَقْدَامُكُمْ (٧) وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَا لَهُمْ وَ اضْلَ أَعْمَالُهُمْ (٨) ذَلِكَ
 بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ (٩) أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ
 فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ
 أَمْثَالُهَا (١٠) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَ أَنَّ الْكَافِرِينَ لَا
 مَوْلَى لَهُمْ (١١) إِنَّ اللَّهَ يَدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ
 تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَ يَأْكُلُونَ كَمَا
 تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ (١٢) وَ كَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً
 مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجْتِكَ أَهْلَكَنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ (١٣) أَفَمَنْ كَانَ
 عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَ اتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ (١٤) مِثْلُ
 الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَ أَنْهَارٌ مِنْ
 لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَ أَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَ أَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ
 مُصَفًّى وَ لَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ
 فِي النَّارِ وَ سَقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ (١٥) .

﴿ بيان ﴾

الآيات جارية على السياق السابق .

قوله تعالى : « يا أيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ » تحضيض لهم على الجهاد و وعد لهم بالنصر إن نصروا الله تعالى فالمراد بنصرهم الله أن يجاهدوا في سبيل الله على أن يقاتلوا لوجه الله تأييداً لدينه و إعلاءً لكلمة الحق لا ليستعلوا في الأرض أو ليصيبوا غنيمة أو ليُظهروا نجدة وشجاعة .

والمراد بنصر الله لهم توفيقه الأسباب المقتضية لظهورهم و غلبتهم على عدوهم كاللقاء الرعب في قلوب الكفار و إدارة الدوائر للمؤمنين عليهم و ربط جأش المؤمنين و تشجيعهم ، و على هذا فعطف تثبت الأقدام على النصر من عطف الخاص على العام و تخصيص تثبت الأقدام ، و هو كناية عن التشجيع و تقوية القلوب ، لكونه من أظهر أفراد النصر .

قوله تعالى : « وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَّأْ لَهُمْ وَأُضْلْ أَعْمَالُهُمْ » ذكر ما يفعل بالكفار عقيب ذكر ما يفعل بالمؤمنين الناصرين لله لقياس حالهم من حالهم .

والتعس هو سقوط الإنسان على وجهه و بقاؤه عليه و يقابله الانتعاش وهو القيام عن السقوط على الوجه فقوله : « تعسَّأْ لَهُمْ » أي تعسوا تعسا و هو و ما يتلوه دعاء عليهم نظير قوله : « قاتلهم الله أنسى يؤفكون » التوبة : ٣٠ : « قتل الإنسان ما أكفره » عبس : ١٧ ، و يمكن أن يكون إخبارا عن تعسهم و بطلان أثر مساعيهم على نحو الكناية فإن الإنسان أعجز ما يكون إذا كان ساقطا على وجهه .

قوله تعالى : « ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أُنْزِلَ اللَّهُ فَأُحْبِطْ أَعْمَالُهُمْ » المراد بما أنزل الله هو القرآن والشرائع والأحكام التي أنزلها الله تعالى على نبيه ﷺ وأمر بإطاعتها والانقياد لها فكرهوها و استكبروا عن اتباعها .

والآية تعليل مضمون الآية السابقة ، والمعنى ظاهر .

قوله تعالى : « أفلم يسيرا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها » التدمير الإهلاك يقال : دمره الله أي أهلكه ، ويقال : دمر الله عليه أي أهلك ما يخصه من نفس وأهل ودار وعقار فدمر عليه أبلغ من دمره كما قيل ، وضمير « أمثالها » للعاقبة أو للعقوبة المدلول عليها بسابق الكلام . والمراد بالكافرين الكافرون بالنبي ﷺ والمعنى وللکافرين بك يا محمد أمثال تلك العاقبة أو العقوبة وإنما أوعدوا بأمثال العاقبة أو العقوبة ولا يحل بهم إلا مثل واحد لأنهم في معرض عقوبات كثيرة دنيوية وأخرية وإن كان لا يحل بهم إلا بعضها ، ويمكن أن يراد بالكافرين مطلق الكافرين ، والجملة من باب ضرب القاعدة .

قوله تعالى : « ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم » الإشارة بذلك إلى ما تقدم من نصر المؤمنين ومقت الكافرين وسوء عاقبتهم ، ولا يصغى إلى ما قيل : إنه إشارة إلى ثبوت عاقبة أو عقوبة الأمم السالفة لهؤلاء ، وكذا ما قيل : إنه إشارة إلى نصر المؤمنين ، وذلك لأن الآية متعوضة لحال الطائفتين المؤمنين والكفار جميعا .

والمولى كأنه مصدر ميمي أريد به المعنى الوصفي فهو بمعنى الولي ولذلك يطلق على سيد العبد ومالكه لأن له ولاية التصرف في أمور عبده ، ويطلق على الناصر لأنه يلي التصرف في أمر منصوره بالتقوية والتأييد والله سبحانه مولى لأنه المالك الذي يلي أمور خلقه في صراط التكوين ويدبرها كيف يشاء قال تعالى : « ما لكم من دونه من ولي ولا شفيع » آلم السجدة : ٤ ، وقال : « وردوا إلى الله مولاهم الحق » يونس : ٣٠ ، وهو تعالى مولى لأنه يلي تدبير أمور عباده في صراط السعادة فيهديهم إلى سعادتهم والجنة ويوفقهم للصالحات وينصرهم على أعدائهم ، والمولوية بهذا المعنى الثاني تختص بالمؤمنين ، لأنهم هم الداخلون في حظيرة العبودية المتبعون لما يريده منهم ربهم دون الكفار .

وللمؤمنين مولى وولي هو الله سبحانه كما قال : « ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا » ، وقال : « الله ولي الذين آمنوا » البقرة : ٢٥٧ ، وأما الكفار فقد اتخذوا

الأصنام أو أرباب الأصنام أولياء فهم أولياؤهم على ما زعموا كما قال بالبناء على مزعمتهم بنوع من التهكم : « والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت » البقرة : ٢٥٧ ، ونفى ولايتهم بالبناء على حقيقة الأمر فقال : « وأن الكافرين لامولى لهم » ثم نفى ولايتهم مطلقا تكويننا وتشريعا مطلقا فقال : « أم اتخذوا من دونه أولياء فالله هو الولي » الشورى : ٩ ، وقال : « إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم » النجم : ٢٣ .

فمعنى الآية أن نصره تعالى للمؤمنين وتثبيته أقدامهم وخذلانه الكفار وإضلاله أعمالهم وعقوبته لهم إنما ذلك بسبب أنه تعالى مولى المؤمنين ووليهم ، وأن الكفار لا مولى لهم فينصرهم ويهدي أعمالهم وينجيهم من عقوبته .

وقد تبين بما تقدم ضعف ما قيل : إن المولى في الآية بمعنى الناصر دون المالك وإلا كان منافيا لقوله تعالى : « وردوا إلى الله مولاهم الحق » يونس : ٣٠ ، ووجه الضعف ظاهر .

قوله تعالى : « إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم » مقايضة بين الفريقين وبيان أثر ولاية الله للمؤمنين وعدم ولايته للكفار من حيث العاقبة والآخرة وهي أن المؤمنين يدخلون الجنة والكفار يقيمون في النار .

وقد أشير في الكلام إلى منشأ ما ذكر من الأثر حيث وصف كلاً من الفريقين بما يناسب مآل حاله فأشار إلى صفة المؤمنين بقوله : « الذين آمنوا وعملوا الصالحات » وإلى صفة الكفار بقوله : « يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام » فأفاد الوصفان بما بينهما من المقابلة أن المؤمنين راشدون في حياتهم الدنيا مصيبون للحق حيث آمنوا بالله وعملوا الأعمال الصالحة فسلکوا سبيل الرشد وقاموا بوظيفة الانسانية ، وأما الكفار فلا عناية لهم بإصابة الحق ولا تعلق لقلوبهم بوظائف الانسانية ، وإنما همهم بطنهم وفرجهم يتمتعون في حياتهم الدنيا القصيرة ويأكلون كما تأكل الأنعام لا منية لهم إلا ذلك ولا غاية لهم وراءه .

فهؤلاء أي المؤمنون تحت ولاية الله حيث يسلكون مسلكا يريد من ربهم

و يهديهم إليه و لذلك يدخلهم في الآخرة جنّات تجري من تحتها الأنهار ، وأولئك أي الكفار ما لهم من وليّ وإنّما وكلوا إلى أنفسهم و لذلك كان مثواهم و مقامهم النار .

وإنّما نسب دخول المؤمنين الجنّات إلى الله نفسه دون إقامة الكفار في النار قضاء لحقّ الولاية المذكورة فله تعالى عناية خاصّة بأوليائه ، وأمّا المنسلخون من ولايته فلا يبالي في أيّ وادّهلكوا .

قوله تعالى : «وكأين من قرية هي أشدّ قوة من قريتك التي أخرجتك أهلكناهم فلا ناصر لهم » المراد بالقرية أهل القرية بدليل قوله بعد : « أهلكناهم » إلخ والقرية التي أخرجته ﷺ هي مكة .

وفي الآية تقوية لقلب النبي ﷺ و تهديد لأهل مكة و تحقير لأمرهم أن الله أهلك قري كثيرة كل منها أشدّ قوة من قريتهم ولا ناصر لهم ينصرهم .

قوله تعالى : « أفمن كان على بينة من ربه كمن زين له سوء عمله و اتبعوا أهواءهم » السياق الجاري على قياس حال المؤمنين بحال الكفار يدلّ على أن المراد بمن كان على بينة من ربه هم المؤمنون فالمراد بكونهم على بينة من ربهم كونهم على دلالة بينة من ربهم توجب اليقين على ما اعتقدوا عليه و هي الحجّة البرهانية فهم إنّما يتبعون الحجّة القاطعة على ما هو الحريّ بالإنسان الذي من شأنه أن يستعمل العقل و يتبع الحقّ .

وأمّا الذين كفروا فقد شغفهم أعمالهم السيئة التي زينها لهم الشيطان و تعلقت بها أهواؤهم و عملوا السيئات ، فكم بين الفريقين من فرق .

قوله تعالى : « مثل الجنة التي وعد المتّقون » إلى آخر الآية يفرّق بين الفريقين ببيان مال أمرهما و هو في الحقيقة توضيح ما مرّ في قوله : « إن الله يدخل الذين آمنوا » إلخ من الفرق بينهما فهذه الآية في الحقيقة تفصيل تلك الآية .

فقوله : « مثل الجنة التي وعد المتّقون » المثل بمعنى الصفة - كما قيل - أي صفة الجنة التي وعد الله المتّقين أن يدخلهم فيها ، و ربّما حمل المثل على معناه

المعروف و استفيد منه أن الجنة أرفع وأعلى من أن يحيط بها الوصف ويحدّها اللفظ و
إنّما تقرّب إلى الأذهان نوع تقريب بأمثال مضروبة كما يلوّح إليه قوله تعالى :
« فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرّة أعين » السجدة : ١٧ .

وقد بدّل قوله في الآية السابقة : « الذين آمنوا وعملوا الصالحات » في هذه
الآية من قوله : « المتّقون » بتدليل اللازم من الملزوم فإنّ تقوى الله يستلزم الإيمان
به وعمل الصالحات من الأعمال .

وقوله : « فيها أنهار من ماء غير آسن » أي غير متغيّر بطول المقام ، وقوله :
« وأنهار من لبن لم يتغيّر طعمه » كما في ألبان الدنيا ، وقوله : « وأنهار من خمر
لذّة للشاربين » أي لذينة للشاربين ، واللذّة إمّا صفة مشبهة مؤنّثة وصف للخمر ، و
إمّا مصدر وصفت به الخمر مبالغة ، وإمّا بتقدير مضاف أي ذات لذّة ، وقوله : « وأنهار
من عسل مصفى » أي خالص من الشمع والرغوة والقذى وسائر ما في عسل الدنيا من
الاذى والعيوب ، وقوله : « ولهم فيها من كل الثمرات » جمع للتعميم .

وقوله : « ومغفرة من ربّهم » ينمحي بها عنهم كلّ ذنب وسيئة فلا تتكدّر
عيشتهم بمكدّر ولا ينتغص بمنغص ، وفي التعبير عنه تعالى برّبهم إشارة إلى غشيان
الرحمة وشمول الحنان والرأفة الإلهية .

وقوله : « كمن هو خالد في النار » قياس محذوف أحد طرفيه أي أمن يدخل
الجنة التي هذا مثلها كمن هو خالد في النار وشرابهم الماء الشديد الحرارة الذي يقطع
أمعائهم وما في جوفهم من الأحشاء إذا سقوه ، وإنّما يسقونه وهم مكرهون كما في
قوله : « وسقوا ماء حميما فقطّع أمعائهم » ، وقيل : قوله : « كمن هو خالد » الخ
بيان لقوله في الآية السابقة : « كمن زين » الخ وهو كما ترى .



﴿ بحث روائى ﴾

في المجمع في قوله تعالى : « ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله » قال أبو جعفر عليه السلام كرهوا ما أنزل الله في حق علي عليه السلام .

وفيه في قوله تعالى : « كمن زين له سوء عمله » قيل : هم المنافقون و هو المروي عن أبي جعفر عليه السلام .

أقول : و يحتمل أن تكون الروايتان من الجري .

و في تفسير القمي في قوله تعالى : « كمن هو خالد في النار وسقوا ماءً حميماً فقطع أمعاءهم » قال : ليس من هو في هذه الجنة الموصوفة كمن هو في هذه النار كما أن ليس عدو الله كوليّه .





وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ
أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ
وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ (١٦) وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ
تَقْوَاهُمْ (١٧) فَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ
أَشْرَاطُهَا فَانْظُرْ لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ (١٨) فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا
اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَ
مَثْوِيَكُمْ (١٩) وَ يَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنْزِلَتْ
سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذِكْرُ فِيهَا الْقِتَالِ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ
إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأُولَئِكَ لَهُمْ (٢٠) طَاعَةٌ وَ قَوْلٌ
مَعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ (٢١) فَهُمْ
عَسِيتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَ تَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ (٢٢)
أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَاصْمِهِمْ وَ اعْمَى أَبْصَارَهُمْ (٢٣) أَفَلَا
يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا (٢٤) إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى
أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَ أَمْلَى
لَهُمْ (٢٥) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي

بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَسْرَارَهُمْ (٢٦) فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَكَةُ
يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَ أَدْبَارَهُمْ (٢٧) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ
اللَّهُ وَ كَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَاحْبِطْ أَعْمَالَهُمْ (٢٨) أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي
قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ (٢٩) وَلَوْ نَشَاءُ لَارَيْنَاكُمُ
فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَ لَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ (٣٠)
وَ لَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَ الصَّابِرِينَ وَ نَبْلُوَ
أَخْبَارَكُمْ (٣١) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ صَدَّوْا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَ شَاقُّوا
الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَ سَيَحْبِطُ
أَعْمَالُهُمْ (٣٢) .

﴿بيان﴾

الآيات جارية على السياق السابق ، و فيها تعرض لحال الذين في قلوبهم مرض
والمنافقين و من ارتد بعد إيمانه .

قوله تعالى : « و منهم من يستمع إليك حتى إذا خرجوا من عندك قالوا للذين
أوتوا العلم ماذا قال آتفا » الخ آتفاً اسم فاعل منصوب على الظرفية أو لكونه مفعولاً
فيه ، و معناه الساعة التي قبيل ساعتك ، و قيل : معناه هذه الساعة و على أي حال
مأخوذة من الأنف بمعنى الجارحة .

و قوله : « و منهم من يستمع إليك » الضمير للذين كفروا ، والمراد باستماعهم
إلى النبي ﷺ إصغائهم إلى ما يتلوه من القرآن وما يبين لهم من أصول المعارف و
شرائع الدين .

و قوله : « حتّى إذا خرجوا من عندك » الضمير للموصول و جمع الضمير باعتبار المعنى كما أن إفراده في « يستمع » باعتبار اللفظ .

و قوله : « قالوا للذين أوتوا العلم ماذا قال آنفاً » المراد بالذين أوتوا العلم العلماء بالله من الصحابة ، والضمير في « ماذا قال » للنبي ﷺ .

والاستفهام في قولهم : « ماذا قال آنفاً » قيل : للاستعلام حقيقة لأن استغراقهم في الكبر والغرور و اتباع الأهواء ما كان يدعهم أن يفقهوا القول الحق كما قال تعالى : « فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً » النساء : ٧٨ وقيل : للاستهزاء ، وقيل : للتحقير كأن القول لكونه مشحوناً بالأباطيل لا يرجع إلى معنى محصل ، ولكل من المعاني الثلاثة وجه .

و قوله : « أولئك الذين طبع الله على قلوبهم » تعريف لهم ، وقوله : « و اتبعوا أهواءهم » تعريف بعد تعريف فهو كعطف التفسير ، و يتحصل منه أن اتباع الأهواء أماراة الطبع على القلب فالقلب غير المطبوع عليه الباقي على طهارة الفطرة الأصلية لا يتوقف في فهم المعارف الدينية والحقائق الإلهية .

قوله تعالى : « والذين اهتدوا زادهم هدى » و آتاهم تقواهم « المراقبة الظاهرة بين الآية و بين الآية السابقة يعطي أن المراد بالاهتداء ما يقابل الضلال الملازم للطبع على القلب و هو التسليم لما تهدي إليه الفطرة السليمة و اتباع الحق ، و زيادة هداهم من الله سبحانه رفعه تعالى درجة إيمانهم ، و قد تقدم أن الهدى والإيمان ذومراتب مختلفة ، والمراد بالتقوى ما يقابل اتباع الأهواء و هو الورع عن محارم الله والتجنب عن ارتكاب المعاصي .

و بذلك يظهر أن زيادة الهدى راجع إلى تكميلهم في ناحية العلم و إيتاء التقوى إلى تكميلهم في ناحية العمل ، و يظهر أيضاً بالمقابلة أن الطبع على القلوب راجع إلى فقدانهم كمال العلم و اتباع الأهواء راجع إلى فقدانهم العمل الصالح و حرمانهم منه و هذا لا ينافي ما قدّمنا أن اتباع الأهواء كعطف التفسير بالنسبة إلى الطبع على القلوب .

قوله تعالى : « فهل ينظرون إلا أن تأتيهم الساعة بغتة فقد جاء أشراطها » الخ
النظر هو الانتظار ، والأشراط جمع شرط بمعنى العلامة ، والأصل في معناه الشرط
بمعنى ما يتوقف عليه وجود الشيء لأن تحققه علامة تحقق الشيء فأشراط الساعة
علاماتها الدالة عليها .

وسياق الآية سياق التهكم كأنهم وافقون موقفا عليهم إما أن يتبعوا الحق
فتسعد بذلك عاقبتهم ، وإما أن ينتظروا الساعة حتى إذا أيقنوا بوقوعها وأشرفوا عليها
تذكروا وآمنوا واتبعوا الحق أما اتباع الحق اليوم فلم يخضعو له بحجة أو بموعظة
أو عبرة ، وأما انتظارهم مجيء الساعة ليتذكروا عنده فلا ينفعهم شيئاً فإنها تجيء
بغتة ولا تمهلهم شيئاً حتى يستعدوا لها بالذكرى وإذا وقعت لم ينفعهم الذكرى لأن
اليوم يوم جزاء لا يوم عمل قال تعالى : « يومئذ يتذكر الإنسان وأنتى له الذكرى
يقول ياليتني قدمت لحياتي » الفجر : ٢٣ .

مضافاً إلى أن أشراطها وعلاماتها قد جاءت وتحققت ، ولعل المراد بأشراطها
خلق الإنسان وانقسام نوعه إلى صالحاء ومفسدين ومتقين وفجار المستدعي للحكم
الفصل بينهم ونزول الموت عليهم فإن ذلك كله من شرائط وقوع الواقعة وإتيان
الساعة ، وقيل : المراد بأشراط الساعة ظهور النبي ﷺ وهو خاتم الأنبياء وانشقاق
القمر ونزول القرآن وهو آخر الكتب السماوية .

هذا ما يعطيه التدبر في الآية من المعنى وهي - كما ترى - حجة برهانية في
عين أنها مسوقة سوق التهكم .

وعليه فقوله : « بغتة » حال من الإتيان جيء به لبيان الواقع ولتفريع عليه
قوله الآتي : « فأنى لهم إذا جاءتهم ذكراهم » و ليس قيداً للانتظار حتى يفيد أنهم
إنما ينتظرون إتيانها بغتة ، ولدفع هذا التوهم قيل : « إلا الساعة أن تأتيهم بغتة » ولم
يقل : إلا أن تأتيهم الساعة بغتة .

وقوله : « فأنى لهم إذا جاءتهم ذكراهم » أنتى خبر مقدم و « ذكراهم » مبتدئ
مؤخر و « إذا جاءتهم » معترضة بينهما ، والمعنى فكيف يكون لهم أن يتذكروا إذا

جاءتهم ؟ أي كيف ينتفعون بالذكرى في يوم لا ينفع العمل الذي يعمل فيه وإنما هو يوم الجزاء .

و للقوم في معنى جُمل الآية و معناها بالجملة أقوال مختلفة تركنا إيرادها من أرادها فليراجع كتبهم المفصلة .

قوله تعالى : « فاعلم أنه لا إله إلا الله و استغفر لذنوبك و للمؤمنين و المؤمنات »
 الخ قيل : هو متفرع على جميع ما تقدم في السورة من سعادة المؤمنين و شقاوة الكفار
 كأنه قيل : إذا علمت أن الأمر كما ذكر من سعادة هؤلاء و شقاوة أولئك فثبت على
 ما أنت عليه من العلم بوحدانية الله سبحانه فمعنى الأمر بالعلم على هذا هو الأمر بالثبات
 على العلم .

و يمكن أن يكون تفرعاً على ما بيّنه في الآيتين السابقتين أعني قوله : « ومنهم
 من يستمع إليك - إلى قوله - و آتاهم تقواهم » من أنه تعالى يطبع على قلوب المشركين
 و يتركهم و ذنوبهم و يعكس الأمر في الذين اهتدوا إلى توحيده و الإيمان به فكأنه
 قيل : إذا كان الأمر على ذلك فاستمسك بعلمك بوحدانية الإله و اطلب مغفرة ذنبك و
 مغفرة أمّتك من المؤمنين بك و المؤمنات حتى لا تكون ممن يطبع الله على قلبه و يحرمه
 التقوى بتركه و ذنوبه ، و يؤيد هذا الوجه قوله في ذيل الآية : « والله يعلم متقلبكم
 و مثواكم » .

فقوله : « فاعلم أنه لا إله إلا الله » معناه على ما يؤيده السياق فاستمسك بعلمك
 أنه لا إله إلا الله ، و قوله : « و استغفر لذنوبك » تقدم الكلام في معنى الذنب المنسوب
 إليه والمؤمنين و سيأتي أيضاً في تفسير أول سورة الفتح إن شاء الله تعالى .

و قوله : « و للمؤمنين و المؤمنات » أمر بطلب المغفرة للأمة من المؤمنين و المؤمنات
 و حاشا أن يأمر تعالى بالاستغفار و لا يواجهه بالمغفرة أو بالدعاء و لا يقابله بالاستجابة .
 و قوله : « والله يعلم متقلبكم و مثواكم » تعليل لما في صدر الآية : « فاعلم أنه »
 الخ ، و الظاهر أن المتقلب مصدر ميمي بمعنى الانتقال من حال إلى حال ، و كذلك
 المثوى بمعنى الاستقرار و السكون ، و المراد أنه تعالى يعلم كل أحوالكم من متغير

و ثابت و حركة و سكون فائتوا على توحيد واطلبوا مغفرته ، و احذروا أن يطبع على قلوبكم و يترككم و أهواءكم .

و قيل : المراد بالمتقلب والمثوى التصرف في الحياة الدنيا والاستقرار في الآخرة
و قيل : المتقلب من الأضلاب إلى الأرحام والمثوى السكون في الأرض .

و قيل : المتقلب التصرف في اليقظة والمثوى المنام ، و قيل : المتقلب التصرف في المعاش والمكاسب والمثوى الاستقرار في المنازل ، و ما قد مناه أظهر و أعم .

قوله تعالى : « و يقول الذين آمنوا لولا أنزلت سورة » إلى آخر الآية لولا تحضيض أي هلا أنزلت سورة يظهرون بها الرغبة في نزول سورة جديدة تأتيمهم بتكاليف جديدة يمثلونها ، والمراد بالسورة المحكمة المبينة التي لا تشابه فيها ، والمراد بذكر القتال الأمر به .

والمراد بالذين في قلوبهم مرض ، الضعفاء الإيمان من المؤمنين دون المنافقين فإن الآية صريحة في أن الذين أظهروا الرغبة في نزولها هم الذين آمنوا ، ولا يعم الذين آمنوا للمنافقين إلا على طريق المساهلة غير اللاتقة بكلام الله تعالى فالآية كقوله تعالى في فريق من المؤمنين : « ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم و أقيموا الصلاة و آتوا الزكاة فلمّا كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية » النساء : ٧٧ .

والمعشي عليه من الموت هو المحتضر يقال : غشيته غشاوة إذا ستره وغطاه وغشي على فلان - بالبناء للمفعول - إذا نابه ما غشي فهمه ، ونظر المعشي عليه من الموت إشخاصه ببصره إليك من غير أن يطرف .

و قوله : « فأولى لهم » لعلّه خبر لمبتدأ محذوف والتقدير أولى لهم ذلك أي حري بهم أن ينظروا كذلك أي أن يحتضروا فيموتوا ، و عن الأصمعي أن قولهم : « أولى لك » كلمة تهديد معناه وليك و قارك ما تكره ، والآية نظيرة قوله تعالى : « أولى لك فأولى ثم أولى لك فأولى » القيامة : ٣٣ .

و معنى الآية ويقول الذين آمنوا هلا أنزلت سورة فإذا أنزلت سورة محكمة

لا تشابه فيها وأُمرُوا فيها بالقتال والجهاد رأيت الضعفاء الإيمانيون منهم ينظرون إليك من شدة الخشية نظر المحتضر فأولى لهم ذلك .

قوله تعالى : « طاعة وقول معروف فإذا أزم الأمر فلو صدقوا الله لكان خيراً لهم » عزم الأمر أي جدّ و تنجّز .

وقوله : « طاعة وقول معروف » كأنه خبر مبتدئ محذوف والتقدير أمرنا - أو أمرهم وشأنهم - أي إيمانهم بنا طاعة واثقونا عليها وقول معروف غير منكر قالوا لنا وهو إظهار السمع والطاعة كما يحكيه تعالى عنهم بقوله : « آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون - إلى أن قال - وقالوا سمعنا وأطعنا » البقرة : ٢٨٥ .

وعلى هذا يتصل قوله بعده : « فإذا أزم الأمر فلو صدقوا الله لكان خيراً لهم » بما قبله اتصالاً بيّناً ، والمعنى أن الأمر هو ما وافقوا الله عليه من قولهم : سمعنا وأطعنا فلو أنهم حين عزم الأمر صدقوا الله فيما قالوا وأطاعوه فيما يأمر به ومنه أمر القتال لكان خيراً لهم .

ويحتمل أن يكون قوله : « طاعة » الخ خبراً لضمير عائد إلى القتال المذكور والتقدير القتال المذكور في السورة طاعة منهم وقول معروف فلو أنهم حين عزم الأمر صدقوا الله في إيمانهم وأطاعوه به لكان خيراً لهم . أما كونه طاعة منهم فظاهر ، وأما كونه قولاً معروفاً فلأن إيجاب القتال والأمر بالدفاع عن المجتمع الصالح لا بطل كيد أعدائه قول معروف يعرفه العقل والعقلاء .

وقيل : إن قوله : « طاعة » الخ مبتدئ محذوف الخبر والتقدير طاعة وقول معروف خير لهم وأمثل ، وقيل : مبتدئ خبره « فأولى لهم » في الآية السابقة فلا آية من تمام الآية السابقة ؛ وهو قول ردي ، وأردء منه ما قيل : إن « طاعة » الخ صفة لسورة في قوله : « فإذا أنزلت سورة » وقيل غير ذلك .

قوله تعالى : « فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم » الخطاب للذين في قلوبهم مرض المتثاقلين في أمر الجهاد في سبيل الله ، وقد التفت إليهم بالخطاب لزيادة التوبيخ والتقريع ، والاستفهام للتقرير ، والتوليّ الإعراض والمراد به

الإعراض عن كتاب الله والعمل بما فيه والعود إلى الشرك ورفض الدين .
 والمعنى فهل يتوقع منكم إن أعرضتم عن كتاب الله والعمل بما فيه ومنه الجهاد
 في سبيل الله أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم بسفك الدماء ونهب الأموال و
 هتك الأعراض تكالفاً على جيفة الدنيا أي إن توليتم كان المتوقع منكم ذلك .
 وقد ظهر بذلك أن الآية في مقام التعليل لقوله في الآية السابقة : « لكان خيراً
 لهم » ولذا صدر بالفاء .

و قيل : المراد بالتولي التصدي للحكم والولاية والمعنى هل يتوقع منكم إن
 جعلتم ولاية أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم بسفك الدم الحرام وأخذ الرشاء
 والجور في الحكم هذا ، وهو معنى بعيد عن السياق .

قوله تعالى : « أولئك الذين لعنهم الله فأصمّهم وأعمى أبصارهم » الإشارة إلى
 المفسدين في الأرض المقطعين للأرحام وقد وصفهم الله بأنه لعنهم فأصمّهم وأذهب
 بسمعهم فلا يسمعون القول الحقّ وأعمى أبصارهم فلا يرون الرأي الحقّ فإنّها لا
 تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور .

قوله تعالى : « أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها » الاستفهام للتوبيخ
 و ضمير الجمع راجع إلى المذكورين في الآية السابقة ، و تنكير « قلوب » كما قيل
 للدلالة على أن المراد قلوب هؤلاء و أمثالهم .

قال في مجمع البيان : و في هذا دلالة على بطلان قول من قال : لا يجوز تفسير
 شيء من ظاهر القرآن إلا بخبر و سمع . انتهى

قوله تعالى : « إن الذين ارتدوا على أديبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى
 الشيطان سول لهم وأملى لهم » الارتداد على الأديبار الرجوع إلى الاستدبار بعد الاستقبال
 و هو استعارة أريد بها الترك بعد الأخذ ، والتسويل تزيين ما تحرص النفس عليه و
 تصوير القبيح لها في صورة الحسن ؛ والمراد بالأملاء الإمداد أو تطويل الآمال .

قوله تعالى : « ذلك بأنهم قالوا للذين كرهوا ما نزل الله سنطيعكم في بعض

الأمر والله يعلم إسرارهم» الإشارة بذلك إلى تسويل الشيطان وإملائه وبالجملة تسلطه عليهم، والمراد «بالذين كرهوا ما نزل الله» هم الذين كفروا كما تقدم في قوله: «والذين كفروا فتعسأ لهم وأضل أعمالهم ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله» الآية ٩ من السورة.

و قوله: «سنطيعكم في بعض الأمر» مقول قولهم و وعد منهم للكفار بالطاعة وهو كما يلوح من تقييد الطاعة ببعض الأمر على نحو الإجمال كلام من لا يقدر على التظاهر بطاعة من يريد طاعته في جميع الأمور لكونه على خطر من التظاهر بالطاعة المطلقة فيسر إلى من يعده أنه سيطيعه في بعض الأمر وفيما تيسر له ذلك ثم يكتمم ذلك و يقعد متربصاً للدوائر.

و يستفاد من ذلك أن هؤلاء كانوا قوماً من المنافقين أسروا إلى الكفار ما حكاه تعالى عنهم و وعدوهم الطاعة لهم مهما تيسر لهم ذلك، ويؤيد ذلك قوله تعالى بعد: «والله يعلم إسرارهم».

و اختلفوا في هؤلاء من هم؟ فقيل: هم اليهود قالوا للمنافقين: إن أعلنتم الكفر نصرناكم؛ وقيل: هم اليهود أو اليهود والمنافقون قالوا ذلك للمشركين. و يرد على الوجهين جميعاً أن موضوع الكلام في الآية المرتدون بعد إيمانهم واليهود لم يؤمنوا حتى يرتدوا.

وقيل: هم المنافقون وعدوا اليهود النصر كما قال تعالى: «ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحداً أبداً وإن قوتلتهم لنصرتكم» الحشر: ١١.

وفيه أن الآية تقبل الانطباق على ذلك كما تقبل الانطباق على اليهود في وعدهم النصر للمشركين على تكلف في صدق الارتداد على كفرهم برسول الله ﷺ بعد تبين رسالته لهم لكن لا دليل من طريق لفظ الآية على ذلك فلعلهم قوم من المنافقين غيرهم.

قوله تعالى: «فكيف إذا توفتهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم»

متفرّع على ما قبله ، والمعنى هذا حالهم اليوم يرتدّون بعد تبين الهدى لهم فيفعلون ما يشاؤون فكيف حالهم إذا توفيتهم الملائكة وهم يضربون وجوههم وأدبارهم .
قوله تعالى : « ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم » الظاهر أن المراد بما أسخط الله أهواء النفس و تسويلات الشيطان المستتعبة للمعاصي والذنوب الموبقة كما قال تعالى : « واتبعوا أهواءهم » وقال : « الشيطان سوّل لهم وأملى لهم » .

والسخط والرضا من صفاته تعالى الفعلية والمراد بهما العقاب والثواب .
 والإشارة في قوله : « ذلك » إلى ما ذكر في الآية السابقة من عذاب الملائكة لهم عند توفيتهم أي سبب عقابهم أن أعمالهم حابطة لا تباعهم ما أسخط الله و كراحتهم رضوانه ، وإن لا عمل لهم صالحاً يشقون بالعذاب .

قوله تعالى : « أم حسب الذين في قلوبهم مرض أن لن يخرج الله أضغانهم » قال الراغب : الضغن - بكسر الضاد - والضغن - بضمها - الحقد الشديد وجمعه أضغان انتهى والمراد بالذين في قلوبهم مرض الضغفاء الإيمان و لعلمهم الذين آمنوا أو لا على ضعف في إيمانهم ثم ما لوا إلى النفاق و ارتدوا بعد الإيمان فالتدبر الدقيق في تاريخ صدر الإسلام يوضح أن قوماً ممن آمن بالنبي ﷺ كانوا على هذه الصفة كما أن قوماً منهم آخريين كانوا منافقين من أول يوم آمنوا إلى آخر عمرهم ، و على هذا فعدّهم من المؤمنين فيما تقدّم بملاحظة بادئ أمرهم .

والمعنى بل ظن هؤلاء المنافقون الذين في قلوبهم مرض أن لن يخرج الله و لن يظهر أحقادهم للدين و أهله .

قوله تعالى : « و لو نشاء لأريناكمهم فلعرفتهم بسيماهم و لتعرفنهم في لحن القول والله يعلم أعمالكم » السيماء العلامة والمعنى و لو نشاء لأريناك أولئك المرضى القلوب فلعرفتهم بعلامتهم التي أعلمناهم بها .

و قوله : « و لتعرفنهم في لحن القول » قال الراغب : اللحن صرف الكلام عن سننه الجاري عليه : إمّا بإزالة الإعراب أو التصحيف و هو المذموم ، و ذلك أكثر

استعمالاً ، وإِما بإِزالته عن التصريح و صرفه إلى تعريض و فحوى ، و هو محمود عند أكثر الأدباء من حيث البلاغة . انتهى .

فالمعنى و لتعرفنهم من جنس قولهم بما يشتمل عليه من الكناية والتعريض ، و في جعل لحن القول ظرفاً للمعرفة نوع من العناية المجازية .

وقوله : « والله يعلم أعمالكم » أي يعلم حقائقها و أنها من أي القصود والنيات صدرت فيجازي المؤمنين بصلاح أعمالهم و غيرهم بغيرها ففيه وعد للمؤمنين و وعيد لغيرهم .

قوله تعالى : « ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم » البلاء والابتلاء الامتحان والاختبار ، والآية بيان علّة كتابة القتال على المؤمنين ، وهو الاختبار الإلهي ليمتاز به المجاهدون في سبيل الله الصابرون على مشاق التكاليف الإلهية .

وقوله : « و نبلو أخباركم » كأن المراد بالأخبار الأعمال من حيث إنها تصدر عن العاملين فيكون أخباراً لهم يخبر بها عنهم ، و اختبار الأعمال يمتاز به صالحها من طالحها كما أن اختبار النفوس يمتاز به النفوس الصالحة الخيرة و قد تقدّم فيما تقدّم أن المراد بالعلم الحاصل له تعالى من امتحان عباده هو ظهور حال العباد بذلك ، و بنظر أدقّ هو علم فعليّ له تعالى خارج عن الذات .

قوله تعالى : « إن الذين كفروا وصدّوا عن سبيل الله وشاقوا الرسول من بعد ما تبين لهم الهدى لن يضرّوا الله شيئاً وسيحبط أعمالهم » المراد بهؤلاء رؤساء الضلال من كفار مكّة و من يلحق بهم لأنهم الذين صدّوا عن سبيل الله وشاقوا الرسول وعادوه أشدّ المعاداة بعد ما تبين لهم الهدى .

وقوله : « لن يضرّوا الله شيئاً » لأنّ كيد الإنسان ومكره لا يرجع إلّا إلى نفسه ولا يضرّ إلّا إيّاه ، وقوله : « وسيحبط أعمالهم » أي مساعيهم لهمدّ أساس الدين و ما عملوه لا يطفأ نور الله ، وقيل : المراد إحباط أعمالهم وإبطالها فلا يثابون في الآخرة

على شيء من أعمالهم ، والمعنى الأول أنسب للسياق لأن فيه تحريض المؤمنين وتشجيعهم على قتال المشركين وتطيب نفوسهم أنهم هم الغالبون كما تفيد الآيات التالية .

﴿ بحث روائي ﴾

في المجمع في قوله تعالى : « ومنهم من يستمع إليك » النخ عن الأصمغ بن نباتة عن علي عليه السلام قال : إننا كنّا عند رسول الله ﷺ فيخبرنا بالوحي فأعياه أنا ومن يعيه فإذا خرجنا قالوا : ماذا قال آنفاً .

وفي الدر المنثور أخرجه أحمد والبخاري ومسلم والترمذي عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : بعثت أنا والساعة كهاتين ، وأشار بالسبابة والوسطى .

اقول : وروي هذا اللفظ عنه ﷺ بطرق أخرى عن أبي هريرة وسهل بن

مسعود .

وفيه أخرجه ابن أبي شيبة والبخاري ومسلم وابن ماجه وابن مردويه عن أبي هريرة قال : كان رسول الله ﷺ يوماً بارزاً للناس فأتاه رجل فقال : يا رسول الله متى الساعة ؟ فقال : ما المسؤول عنها بأعلم من السائل ولكن سأحدثك عن أسرارها .

إذا ولدت الأمة ربّتها فذاك من أسرارها ، وإذا كانت الحفاة العراة رعاء الشاء رؤس الناس فذاك من أسرارها ، وإذا تناول رعاء الغنم في البنيان فذاك من أسرارها . وفي العلل بإسناده إلى أنس بن مالك عن النبي ﷺ في حديث طويل يقول فيه لعبد الله بن سلام وقد سأله عن مسائل : أما أسرار الساعة فنار تحشر الناس من المشرق إلى المغرب .

اقول : ولعل المراد به غير ظاهره ، والأخبار في أسرار الساعة من طرق الشيعة وأهل السنة فوق حد الإحصاء ، وقد مرّت في آخر الجزء الخامس من الكتاب رواية سلمان عن النبي ﷺ ورواية حمران عن الصادق عليه السلام وهما روايتان جامعتان في الباب .

وفي المجمع قد صحّ الحديث بالإسناد عن حذيفة بن اليمان قال : كنت رجلاً ذرب اللسان على أهلي فقلت : يا رسول الله إنني لأخشى أن يدخلني لساني النار فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : فأين أنت من الاستغفار ؟ إنني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة .

وفي الدر المنثور أخرج أحمد وابن أبي شيبة ومسلم وأبو داود والنسائي وابن حبان وابن مردويه عن الأغر المزني قال : قال رسول الله ﷺ : إنه ليغان على قلبي ، وإنني لأستغفر الله كل يوم مائة مرة .

وفيه في قوله تعالى : « فهل عسيتم إن توليتم » الآية أخرج البيهقي عن جابر ابن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : إن الرحم معلقة بالعرش لها لسان ذلق تقول : اللهم صل من وصلني ، واقطع من قطعني .

اقول: والروايات فيها وفي صلتها وقطعها كثيرة ، وقد مرّ شطر منها في تفسير أول سورة النساء .

وفي المجمع في قوله تعالى : « أفلا يتدبرون القرآن » الآية أفلا يتدبرون القرآن فيقضوا ما عليهم من الحق عن أبي عبد الله وأبي الحسن عليهما السلام .

وفي التوحيد بإسناده إلى محمد بن عمار قال : سألت الصادق جعفر بن محمد عليه السلام فقلت له : يا ابن رسول الله أخبرني عن الله عز وجل هل له رضى وسخط ؟ قال : نعم وليس ذلك على ما يوجد من المخلوقين ولكن غضب الله عقابه ورضاه ثوابه .

وفي المجمع في قوله تعالى : « ولتعرفنهم في لحن القول » الآية عن أبي سعيد الخدري قال : لحن القول بغضهم علي بن أبي طالب . قال : كنّا نعرف المنافقين على عهد رسول الله ﷺ ببغضهم علي بن أبي طالب .

قال في المجمع : وروي مثل ذلك عن جابر بن عبد الله الأنصاري . وقال : وعن عبادة بن الصامت قال : كنّا نبور أولادنا بحب علي بن أبي طالب فإذا رأينا أحدهم لا يحبّه علمنا أنّه لغير رشدة .

وفي الدر المنثور أخرج ابن مردويه عن ابن مسعود قال : ما كنّا نعرف المنافقين على عهد رسول الله ﷺ إلا بيبغض عليّ بن أبي طالب .
وفي أمالي الطوسي باسناده إلى عليّ عليه السلام أنه قال : قلت أربعاً أنزل الله تعالى تصديقي بها في كتابه : قلت « المرء مخبوء تحت لسانه فاذا تكلم ظهر » فأنزل الله « و لتعرفنهم في لحن القول » .





يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا
 أَعْمَالَكُمْ (٣٣) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ صَدَّوْا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَا تَوَّأ
 وَ هُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ (٣٤) فَلَا تَهِنُوا وَ تَدْعُوا إِلَى
 السَّلَامِ وَ أَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَ اللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتْرِكُمْ أَعْمَالَكُمْ (٣٥) إِنَّمَا
 الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَ لَهُوَ وَ إِن تَوَّأ وَ تَتَّقُوا يُوْتِكُمْ أَجُورَكُمْ وَ لَا يَسْأَلَكُمْ
 أَمْوَالَكُمْ (٣٦) إِنْ يَسْأَلْكُمْوهَا فَيَحْفِكُمْ تَبْخُلُوا وَ يُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ (٣٧)
 هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَدْعُونَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخُلُ وَمَنْ
 يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَبْخُلْ عَنْ نَفْسِهِ وَ اللَّهُ الْغَنِيُّ وَ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ وَ إِنْ تَوَّأ
 يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ (٣٨) .

﴿بيان﴾

لما وصف حال الكفار و أضاف إليه وصف حال الذين في قلوبهم مرض و تناقلهم
 في أمر القتال و حال من ارتد منهم بعد ، رجع يحذر المؤمنين أن يكونوا أمثالهم
 فيفاوضوا المشركين و يميلوا إليهم فيتبعوا ما أسخط الله و يكرهوا رضوانه فيبطل أعمالهم
 بالحبط ، و في الآيات موعظة لهم بالترغيب و التهيب و التطميع و التخويف ، و بذلك
 تختتم السورة .

قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا
 أَعْمَالَكُمْ » الآية و إن كانت في نفسها مستقلة في مدلولها مطلقة في معناها حتى استدلت

الفقهاء بقوله فيها : « ولا تبطلوا أعمالكم » على حرمة إبطال الصلاة بعد الشروع فيها لكنها من حيث وقوعها في سياق الآيات السابقة المتعترضة لأمر القتال ، وكذا الآيات اللاحقة الجارية على السياق وخاصة ما في ظاهر قوله : « إن الذين كفروا » إلخ من التعليل وما في قوله : « فلا تهنوا و تدعوا إلى السلم » إلخ من التفریع وبالجملة الآية بالنظر إلى سياقها تدل على إيجاب طاعة الله سبحانه فيما أنزل من الكتاب و شرع من الحكم وإيجاب طاعة الرسول فيما بلغ عن الله سبحانه ، وفيما يصدر من الأمر من حيث ولايته على المؤمنين في المجتمع الديني ، وعلى تحذير المؤمنين من إبطال أعمالهم بفعل ما يوجب حبط أعمالهم كما ابتلي به أولئك الذين انجروا أمر بعضهم أن ارتدوا وابتعدوا ما تبين لهم الهدى .

فالمراد بحسب المورّد من طاعة الله طاعته فيما شرع وأنزل من حكم القتال ، و من طاعة الرسول طاعته فيما بلغ منه وفيما أمر به منه ومن مقدّماته بماله من الولاية فيه و بإبطال الأعمال التخلّف عن حكم القتال كما تخلّف المنافقون و أهل الردّة .

وقيل : المراد بإبطال الأعمال إحباطها بمنهم على الله و رسوله بإيمانهم كما في قوله تعالى : « يمتنون عليك أن أسلموا » و قيل : إبطالها بالرياء والسمعة ، و قيل : بالعجب ، و قيل بالكفر والنفاق ، و قيل : المراد إبطال الصدقات بالمن والأذى كما قال : « لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى » . البقرة : ٢٦٤ و قيل : إبطالها بالمعاصي و قيل : بخصوص الكبائر .

و يرد على هذه الأقوال جميعاً أن كلّ واحد منها على تقدير صحته و تسليمه مصداق من مصاديق الآية مع انغص من وقوعها في السياق الذي تقدّم الإشارة إليه و أمّا من حيث وقوعها في السياق فلا تشمل إلّا القتال كما مرّ .

قوله تعالى : « إن الذين كفروا و صدّوا عن سبيل الله ثمّ ماتوا و هم كفّار فلن يغفر الله لهم » ظاهر السياق أنّه تعليل لمضمون الآية السابقة فيفيد أنكم أو لم تطيعوا الله و رسوله و أبطلتم أعمالكم باتّباع ما أسخط الله و كراهة رضوانه أدّاكم ذلك إلى اللّحوق بأهل الكفر والصدّ و لا مغفرة لهم بعد موتهم كذلك أبداً .

والمراد بالصدّ عن سبيل الله الإعراض عن الإيمان أو منع الناس أن يؤمنوا .
قوله تعالى : « فلا تهنوا و تدعوا إلى السلم و أنتم الأعلون والله معكم و لن يترككم أعمالكم » تفريع على ما تقدّم ، و قوله : « فلا تهنوا » من الوهن بمعنى الضعف والقصور ، و قوله : « و تدعوا إلى السلم » معطوف على « تهنوا » واقع في حيّز النهي أي ولا تدعوا إلى السلم ، والسلم بفتح السين الصلح ، و قوله : « و أنتم الأعلون » جملة حالية أي لا تفعلوا الصلح ، و قوله : « و أنتم الأعلون » جملة حالية أي لا تفعلوا ذلك والحال أنكم الغالبون ، والمراد بالعلو الغلبة وهي استعارة مشهورة .

و قوله : « والله معكم » معطوف على « و أنتم الأعلون » يبيّن سبب علوّهم و يعلّله فالمراد بمعيتته تعالى لهم معيّة النصر دون المعيّة القيموميّة التي يشير إليها قوله تعالى : « و هو معكم أينما كنتم » الحديد : ٤ .

و قوله : « و لن يترككم أعمالكم » قال في المجمع : يقال : وتره يتره وترأ إذا نقصه و منه الحديث ^(١) فكأنّه وتر أهله و ماله ، و أصله القطع و منه الترة القطع بالقتل و منه الوتر المنقطع بانفراده عن غيره انتهى .

فالمعنى لن ينقصكم أعمالكم أي يوفّي أجراها تامّا كاملاً ، و قيل : المعنى لن يضيع أعمالكم ، و قيل : ولن يظلمكم ، والمعاني متقاربة .

ومعنى الآية إذا كانت سبيل عدم طاعة الله ورسوله وإبطال أعمالكم هذا السبيل وكان مؤدياً إلى الحرمان من مغفرة الله أبداً فلا تضعفوا ولا تفترؤا في أمر القتال ولا تدعوا المشركين إلى الصلح وترك القتال والحال أنكم أنتم الغالبون والله ناصركم عليهم ولن ينقصكم شيئاً من أجوركم بل يوفّيكموها تامّة كاملة .

وفي الآية وعد المؤمنين بالغلبة والظفر إن أطاعوا الله ورسوله فهي كقوله : « فلا تهنوا ولا تحزنوا و أنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين » آل عمران : ١٣٩ .

قوله تعالى : « إنّما الحياة الدنيا لعب ولهو وإن تؤمنوا وتتقوا يؤتكم أجوركم

(١) و هو ما عن النبي صلى الله عليه و آله من فاتحه صلاة العصر فكانما وتر أهله و

ماله ، عن الجوامع .

ولا يسألکم أموالکم» ترغیب لهم فی الآخرة وتزهید لهم عن الدنيا ببيان حقیقتها وهي أنها لعب ولهو - وقد مرّ معنی كونها لعباً ولهواً - .

وقوله : « وإن تؤمنوا » الخ أي إن تؤمنوا و تتّقوا بطاعته وطاعة رسوله يؤتکم أجورکم ولا يسألکم أموالکم بإزاء ما أعطاکم وظاهر السياق أن المراد بالأموال جميع أموالهم ويؤید به أيضاً الآية التالية .

قوله تعالى : « إن يسألکموها فيحفکم تبخلوا ويخرج أضغانکم » الإحفاء الإجهاد وتحميل المشقة ، والمراد بالبخل - كما قيل - الكفّ عن الإعطاء ، والأضغان الأحقاد .

والمعنى إن يسألکم جميع أموالکم فيجهدکم بطلب کلّها کففتهم عن الإعطاء لحبّسکم لها ويخرج أحقاد قلوبکم فضللتم .

قوله تعالى : « ها أنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا في سبیل الله فمنکم من يبخل » إلى آخر الآية بمنزلة الاستشهاد في بيان الآية السابقة كأنه قيل : إنه إن يسأل الجميع فيحفکم تبخلوا ويشهد بذلك أنکم أنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا في سبیل الله -- وهو بعض أموالکم -- فبعضکم يبخل فيظهر به أنه لو سأل الجميع جميعکم بخلتم .

وقوله : « ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه » أي يمنع الخير عن نفسه فإن الله لا يسأل ما لهم لينتفع هو به بل لينتفع به المنفقون فيما فيه خير دنياهم وآخرتهم فامتناعهم عن إنفاقه امتناع منهم عن خير أنفسهم ، وإليه يشير قوله بعده : « والله الغني » وأنتم الفقراء ، والقصران للقلب أي الله هو الغني " دونکم وأنتم الفقراء دون الله .

وقوله : « وإن تتولّوا يستبدل قوماً غيرکم ثم لا يكونوا أمثالکم » قيل : عطف على قوله : « وإن تؤمنوا وتتّقوا » والمعنى إن تؤمنوا وتتّقوا يؤتکم أجورکم وإن تتولّوا وتعرضوا يستبدل قوماً غيرکم بأن يوفّقهم للإيمان دونکم ثم لا يكونوا أمثالکم بل يؤمنون ويتّقون وينفقون في سبیل الله .

﴿ بحث روائي ﴾

في ثواب الأعمال عن أبي جعفر عليه السلام قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : من قال : سبحان الله غرس الله له بها شجرة في الجنة ، ومن قال : الحمد لله غرس الله له بها شجرة في الجنة ، ومن قال : لا إله إلا الله غرس الله له بها شجرة في الجنة ، ومن قال : الله أكبر غرس الله له بها شجرة في الجنة .

فقال رجل من قريش : يا رسول الله إن شجرنا في الجنة لكثير . قال : نعم ولكن إياكم أن ترسلوا عليها ناراً فتحرقوها ، وذلك أن الله عز وجل يقول : « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا تبطلوا أعمالكم » .

وفي تفسير القمي « وإن جنحوا للسلم كافة فاجنح لها » قال : هي منسوخة بقوله : « فلا تنهوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون والله معكم » .

وفي الدر المنثور أخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد والترمذي وابن جرير وابن أبي حاتم والطبراني في الأوسط والبيهقي في الدلائل عن أبي هريرة قال : تلا رسول الله هذه الآية « وإن تتولوا قوماً غيركم ثم لا يכוןوا أمثالكم » فقالوا : يا رسول الله من هؤلاء الذين إن تولينا استبدلوا بنا ؟ فضرب رسول الله صلى الله عليه وآله على منكب سلمان ثم قال : هذا وقومه ، والذي نفسي بيده لو كان الإيمان منوطاً بالثريا لتناوله رجال من فارس .

أقول : وروي بطرق أخر عن أبي هريرة مثله . وكذا عن ابن مردويه عن جابر مثله .

وفي المجمع وروى أبو بصير عن أبي جعفر عليه السلام قال : « إن تتولوا » يا معشر العرب « يستبدل قوماً غيركم » يعني الموالي .

وفيه عن أبي عبد الله عليه السلام قال : قد والله أبدل خيراً منهم الموالي .

﴿سورة الفتح مدنية وهي تسع وعشرون آية﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا (١) لِيَغْفِرَ
لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ
صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا (٢) وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا (٣) هُوَ الَّذِي
أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ وَ لِلَّهِ
جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَ كَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (٤) لِيُدْخَلَ
الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا
وَ يُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَ كَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا (٥) وَ
يُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَنَّ
السَّوءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوءِ وَ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَ لَعَنَهُمْ وَ أَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ
وَ سَاءَتْ مَصِيرًا (٦) وَ لِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَ كَانَ اللَّهُ
عَزِيزًا حَكِيمًا (٧) .

﴿بيان﴾

مضامين آيات السورة بفضولها المختلفة ظاهرة الانطباق على قصة صلح الحديبية
الواقعة في السنة السادسة من الهجرة وما وقع حولها من الوقائع كقصة تخلف الأعراب
و صدّ المشركين ، وبيعة الشجرة على ما تفصله الآثار و سيجيء شطر منها في البحث
الروائي التالي إن شاء الله تعالى .

فغرض السورة بيان ما امتنَّ تعالى على رسوله ﷺ بما رزقه من الفتح المبين في هذه السفرة ، و على المؤمنين ممن معه ، و مدحهم البالغ ، والوعد الجميل للذين آمنوا منهم و عملوا الصالحات ، والسورة مدنيّة .

قوله تعالى : «إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً» كلام واقع موقع الامتحان ، وتأكيده الجملة بأنَّ و نسبة الفتح إلى نون العظمة وتوصيفه بالمبين كل ذلك للاعتناء بشأن الفتح الذي يمتنُّ به .

والمراد بهذا الفتح على ما تؤيده قرائن الكلام هو ما رزق الله نبيه ﷺ من الفتح في صلح الحديبية .

و ذلك أنَّ ما سيأتي في آيات السورة من الامتحان على النبي ﷺ والمؤمنين ، و مدحهم والرضا عن بيعتهم و وعدهم الجميل في الدنيا بمغانم عاجلة و آجلة وفي الآخرة بالجنة و ذمَّ المخلفين من الأعراب إذا استنفرهم رسول الله ﷺ فلم يخرجوا معه ، و ذمَّ المشركين في صدِّهم النبي ﷺ و من معه ، و ذمَّ المنافقين ، و تصديقه تعالى رؤيا نبيه ﷺ ، و قوله : « فعلم ما لم تعلموا و جعل من دون ذلك فتحاً قريباً » - و كاد يكون صريحاً - كل ذلك معان مرتبطة بخروجه ﷺ إلى مكة للحج و انتهاء ذلك إلى صلح الحديبية .

و أمَّا كون هذا الصلح فتحاً مبيناً رزقه الله نبيه ﷺ فظاهر بالتدبر في لحن آيات السورة في هذه القصة فقد كان خروج النبي ﷺ والمؤمنين إلى هذه البغية خروجاً على خطر عظيم لا يرجى معه رجوعهم إلى المدينة عادة كما يشير إليه قوله تعالى : « بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهلهم أبداً » والمشركون من صناديد قريش و من يتبعهم على ما لهم من الشوكة والقوة والعداوة مع النبي ﷺ والمؤمنين لم يتوسط بينهم منذ سنين إلا السيف و لم يجمعهم جامع غير معركة القتال كغزوة بدر و أحد والأحزاب ، و لم يخرج مع النبي ﷺ إلا شزيمة قليلون - ألف و أربعمائة - لا قدر لهم عند جموع المشركين و هم في عقر دارهم .

لكنَّ الله سبحانه قلب الأمر للنبي ﷺ والمؤمنين على المشركين فرضوا بما لم

يكن مطموعاً فيه متوقعاً منهم فسألوا النبي ﷺ أن يصالحهم على ترك القتال عشر سنين ، و على تأمين كل من القبيلين أتباع الآخر و من لحق به ، و على أن يرجع النبي ﷺ إلى المدينة عامه هذا ثم يقدم إلى مكة العام القابل فيدخلوا له المسجد والكعبة ثلاثة أيام .

و هذا من أوضح الفتح رزقه الله نبيه ﷺ و كان من أمس الأسباب بفتح مكة سنة ثمان من الهجرة فقد آمن جمع كثير من المشركين في السنتين بين الصلح وفتح مكة ، و فتح في أوائل سنة سبع خيبر و ما والاه و قوي به المسلمون و اتسع الإسلام انتساعاً بيناً و كثر جمعهم و انتشر صيتهم و أشغلوا بالاداء كثيرة ، و خرج النبي ﷺ لفتح مكة في عشرة آلاف أو في اثني عشر ألفاً ، و قد كان خرج إلى حديبية في ألف و أربعمائة على ما تفصله الآثار .

و قيل : المراد بالفتح فتح مكة فالمراد بقوله : « إنا فتحنا لك » إنا قضينا لك فتح مكة ، و فيه أن القرائن لا تساعد .

و قيل : المراد به فتح خيبر ، و معناه - على تقدير نزول السورة عند مرجع النبي ﷺ من الحديبية إلى المدينة - إنا قضينا لك فتح خيبر ، و حال هذا القول أيضاً كسابقه .

و قيل : المراد به الفتح المعنوي وهو الظفر على الأعداء بالحجج البيّنة والمعجزات الباهرة التي غلب بها كلمة الحق على الباطل و ظهر الإسلام على الدين كله ، و هذا الوجه و إن كان في نفسه لا بأس به لكن سياق الآيات لا يلائمه .

قوله تعالى : « ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك و ما تأخر » يتم نعمته عليك و يهديك صراطاً مستقيماً و ينصرك الله نصراً عزيزاً « اللام في قوله : « ليغفر » للتعليل على ما هو ظاهر اللفظ فظاهره أن الغرض من هذا الفتح المبين هو مغفرة ما تقدم من ذنبك و ما تأخر ، و من المعلوم أن لا رابطة بين الفتح و بين مغفرة الذنب ولا معنى معقولا لتعليله بالمغفرة .

و قول بعضهم فراراً عن الإشكال : إن اللام المكسورة في « ليغفر » لام القسم

والأصل ليغفرن^١ حذفت نون التأكيد وبقي ما قبلها مفتوحاً للدلالة على المحذوف غلط لا شاهد عليه من الاستعمال .

و كذا قول بعض آخر فراراً عن الإشكال : «إن^٢ العلة^٣ هو مجموع المغفرة وما عطف عليه من إتمام النعمة والهداية والنصر العزيز من حيث المجموع فلا ينافي عدم كون البعض أي مغفرة الذنب في نفسه علة^٤ للفتح» كلام سخي لا يغني طائلاً فإن^٥ مغفرة الذنب لا هي علة^٦ أو جزء علة^٧ للفتح ولا مرتبطة نوع ارتباط بما عطف عليها حتى يوجبه دخولها في ضمن علة^٨ فلا يصحح لذكرها وحدها ولا مع العلل وفي ضمنها .

وبالجملة هذا الإشكال نعم الشاهد على أن ليس المراد بالذنب في الآية هو الذنب المعروف وهو مخالفة التكليف المولوي^٩ ، ولا المراد بالمغفرة معناها المعروف وهو ترك العقاب على المخالفة المذكورة فالذنب في اللغة على ما يستفاد من موارد استعماله هو العمل الذي له تبعه سيئة^{١٠} كيفما كان ، والمغفرة هي الستر على الشيء ، وأما المعنيان المذكوران المتبادران من لفظي الذنب والمغفرة إلى أذهاننا اليوم أعني مخالفة الأمر المولوي^{١١} المستتبع للعقاب وترك العقاب عليها فإنما لزمهما بحسب عرف المتشرع^{١٢} عين .

وقيام النبي^ﷺ بالدعوة ونهضته على الكفر والوثنية فيما تقدم على الهجرة وإدامته ذلك وما وقع له من الحروب والمغازي مع الكفار والمشركين فيما تأخر عن الهجرة كان عملاً منه^{١٣} ذا تبعه سيئة^{١٤} عند الكفار والمشركين وما كانوا ليغفروا له ذلك ما كانت لهم شوكة ومقدرة ، وما كانوا لينسوا زهوق ملكتهم وانهدام سنتهم وطريقتهم ، ولا ثارات من قتل من صناديدهم دون أن يشفوا غليل صدورهم بالانتقام منه وإمحاء اسمه وإعفاء رسمه غير أن^{١٥} الله سبحانه رزقه^{١٦} هذا الفتح وهو فتح مكة أو فتح الحديبية المنتهي إلى فتح مكة فذهب بشوكتهم وأخمد نارهم فستر بذلك عليه ما كان لهم عليه^{١٧} من الذنب وآمنه منهم .

فالمراد بالذنب - والله أعلم - التبعة السيئة التي لدعوته^{١٨} عند الكفار والمشركين وهو ذنب لهم عليه كما في قول موسى لربه : « ولهم علي^{١٩} ذنب فأخاف أن يقتلون » الشعراء : ١٤ وما تقدم من ذنبه هو ما كان منه^{٢٠} بمكة قبل الهجرة ، و

ما تأخّر من ذنبه هو ما كان منه بعد الهجرة ، و مغفرته تعالى لذنبه هي ستره عليه بإبطال تبعته بإذهاب شوكتهم وهدم بنيتهم ، و يؤيد ذلك ما يتلوه من قوله : « ويتم نعمته عليك - إلى أن قال - و ينصر الله نصراً عزيزاً » .

و للمفسّرين في الآية مذاهب مختلفة آخر :

فمن ذلك أن المراد بذنبه وَاللَّهِ ما صدر عنه من المعصية ، والمراد بما تقدّم منه و ما تأخّر ما صدر عنه قبل النبوة و بعدها ، و قيل : ما صدر قبل الفتح و ما صدر بعده .

و فيه أنّه مبنيّ على جواز صدور المعصية عن الأنبياء وَاللَّهِ وهو خلاف ما يقطع به الكتاب والسنة والعقل من عصمتهم وَاللَّهِ وقد تقدّم البحث عنه في الجزء الثاني من الكتاب و غيره .

على أن إشكال عدم الارتباط بين الفتح والمغفرة على حاله .

و من ذلك أن المراد بمغفرة ما تقدّم من ذنبه و ما تأخّر مغفرة ما وقع من معصيته و ما لم يقع بمعنى الوعد بمغفرة ما سيقع منه إذا وقع لثلاً يرد الإشكال بأنّ مغفرة ما لم يتحقّق من المعصية لا معنى له .

و فيه مضافاً إلى ورود ما ورد على سابقه عليه أنّ مغفرة ما سيقع من المعصية قبل وقوعه تلازم ارتفاع التكليف عنه وَاللَّهُ عامّة ، و يدفعه نصّ كلامه تعالى في آيات كثيرة كقوله تعالى : « إنّنا أنزلنا عليك الكتاب بالحقّ فاعبد الله مخلصاً له الدين » الزمر : ٢ ، و قوله : « وأمرت أن أكون أوّل المسلمين » الزمر : ١٢ إلى غير ذلك من الآيات التي تأبى بسياقها التخصيص .

على أن من الذنوب والمعاصي مثل الشرك بالله و افتراء الكذب على الله والاستهزاء بآيات الله والإفساد في الأرض و هتك المحارم ، و إطلاق مغفرة الذنوب يشملها ولا معنى لأن يبعث الله عبداً من عباده فيأمره أن يقيم دينه على ساق و يصلح به الأرض فإذا فتح له و نصره و أظهره على ما يريد يجيز له مخالفة ما أمره و هدم ما بناه و إفساد ما أصلحه بمغفرة كلّ مخالفة و معصية منه والعفو عن كلّ ما تقوّل له و افتراء على الله ، و

فعله تبليغ كقوله ، وقد قال تعالى : «ولو تقوّل علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين» الحاقّة : ٤٦ .

و من ذلك قول بعضهم : إنّ المراد بمغفرة ما تقدّم من ذنبه مغفرة ما تقدّم من ذنب أبويه آدم وحواء عليهما السلام ببركته صلّى الله عليه وآله والمراد بمغفرة ما تأخّر منه مغفرة ذنوب أمته بدعائه .

وفيه ورود ما ورد على ما تقدّم عليه .

و من ذلك أنّ الكلام في معنى التقدير وإن كان في سياق التحقيق والمعنى ليغفر لك الله قديم ذنبك وحديثه لو كان لك ذنب .
وفيه أنّه أخذ بخلاف الظاهر من غير دليل .

و من ذلك أنّ القول خارج مخرج التعظيم وحسن الخطاب والمعنى غفر الله لك كما في قوله تعالى : «عفا الله عنك لم أذنت لهم» التوبة : ٤٣ .
وفيه أنّ العادة جرت في هذا النوع من الخطاب أن يورد بلفظ الدعاء .
كما قيل .

و من ذلك أنّ المراد بالذنب في حقّه صلّى الله عليه وآله ترك الأولى وهو مخالفة الأمر الإرشادية دون التمرّد عن امتثال التكليف الملويّة ، والأنباء على ما هم عليه من درجات القرب يؤاخذون على ترك ما هو أولى كما يؤاخذ غيرهم على المعاصي المعروفة كما قيل : حسنات الأبرار سيئات المقرّبين .

و من ذلك ما ارتضاء جمع من أصحابنا من أنّ المراد بمغفرة ما تقدّم من ذنبه وما تأخّر مغفرة ما تقدّم من ذنوب أمته وما تأخّر منها بشفاعته صلّى الله عليه وآله ، ولا ضير في إضافة ذنوب أمته صلّى الله عليه وآله إليه للاتصال والسبب بينه وبين أمته .

وهذا الوجه والوجه السابق عليه سليمان عن عامّة الإشكالات لكن إشكال عدم الارتباط بين الفتح والمغفرة على حاله .

و من ذلك ما عن علم الهدى رحمه الله أنّ الذنب مصدر ، والمصدر يجوز إضافته إلى الفاعل والمفعول معاً فيكون هنا مضافاً إلى المفعول ، والمراد ما تقدّم من ذنبهم

إليك في منعهم إيتاك من مكة وصدّهم لك عن المسجد الحرام ، ويكون معنى المطفرة على هذا الإزالة والنسخ لأحكام أعدائه من المشركين أي يزيل الله تعالى ذلك عنك ويسترد عليك تلك الوصمة بما يفتح لك من مكّة فتدخلها فيما بعد .

و هذا الوجه قريب المأخذ ممّا قدّمناه من الوجه ، ولا بأس به لو لم يكن فيه بعض المخالفة لظاهر الآية .

وفي قوله : « ليغفر لك الله » الخ بعد قوله : « إنّنا فتحنا لك » التفات من التكلّم إلى الغيبة ولعلّ الوجه فيه أن محصل السورة امتنانه تعالى على النبي ﷺ والمؤمنين بما رزق من الفتح وإنزال السكينة والنصر وسائر ما وعدهم فيها فناسب أن يكون السياق الجاري في السورة سياق الغيبة ويذكر تعالى فيها باسمه وينسب إليه النصر بما يعبد به نبيّه والمؤمنون وحده قبال ما لا يعبد به المشركون وإنّما يعبدون آلهة من دونه طمعاً في نصرهم ولا ينصرونهم .

وأما سياق التكلّم مع الغير المشعر بالعظمة في الآية الأولى فلمناسبتها ذكر الفتح فيها ويجري الكلام في قوله تعالى الآتي : « إنّنا أرسلناك شاهداً » الآية .

وقوله : « ويتمّ نعمته عليك » قيل : أي يتمّها عليك في الدنيا بإظهارك على عدوك وإعلاء أمرك وتمكين دينك ، وفي الآخرة برفع درجتك ، وقيل : أي يتمّها عليك بفتح خيبر ومكّة والطائف .

وقوله : « ويهديك صراطاً مستقيماً » قيل : أي ويثبتك على صراط يؤدّي بسالكه إلى الجنّة ، وقيل : أي ويهديك إلى مستقيم الصراط في تبليغ الأحكام وإجراء الحدود .

وقوله : « وينصرك الله نصراً عزيزاً » قيل : النصر العزيز هو ما يمتنع به من كلّ جبار عنيد وعات مريد وقد فعل بنبيّه ﷺ ذلك إذ جعل دينه أعزّ الأديان وسلطاناه أعظم السلطان ، وقيل : المراد بالنصر العزيز ما هو نادر الوجود قليل النصر أو عديمه ونصره تعالى لنبيّه ﷺ كذلك كما يظهر بقياس حاله في أوّل بعثته إلى حاله في آخر أيّام دعوته .

والتدبر في سياق الآيتين بالبناء على ما تقدم من معنى قوله : « إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا لِيُغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ » يعطى أن يكون المراد بقوله : « ويتم نعمته عليك » هو تمهيدته تعالى له ﷺ لتمام الكلمة وتصفيته الجوه لنصره نصراً عزيزاً بعد رفع الموانع بمغفرة ما تقدم من ذنبه وما تأخر .

وبقوله : « ويهديك صراطاً مستقيماً » هدايته ﷺ بعد تصفية الجوه له إلى الطريق الموصل إلى الغاية الذي سلكه بعد الرجوع من الحديبية من فتح خيبر وبسط سلطة الدين في أقطار الجزيرة حتى انتهى إلى فتح مكة والطائف .

وبقوله : « وينصرك الله نصراً عزيزاً » نصره له ﷺ ذاك النصر الظاهر الباهر الذي قلماً يوجد - أولاً يوجد - له نظير إن فتح له مكة والطائف وانبسط الإسلام في أرض الجزيرة وانقلع الشرك وذل اليهود وخضع له نصارى الجزيرة والمجوس القاطنون بها ، وأكمل تعالى للناس دينهم وأنتم عليهم نعمته ورضي لهم الإسلام دينا .

قوله تعالى : « هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم » الخ الظاهر أن المراد بالسكينة سكون النفس وثباتها واطمئنانها إلى ما آمنت به ، ولذا علل إنزالها فيها بقوله : « ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم » وقد تقدم البحث عن السكينة في ذيل قوله تعالى : « أن يأتاكم التابوت فيه سكينة من ربكم » البقرة : ٢٤٨ في الجزء الثاني من الكتاب وذكرنا هناك أنها تنطبق على روح الإيمان المذكور في قوله تعالى : « وأيدهم بروح منه » المجادلة : ٢٢ .

وقيل : السكينة هي الرحمة ، وقيل : العقل ، وقيل : الوقار والعصمة لله ولرسوله وقيل : الميل إلى ما جاء به الرسول ﷺ ، وقيل : ملك يسكن قلب المؤمن ، وقيل : شيء له رأس كرأس الهرمة وهذه أقاويل لا دليل على شيء منها .

والمراد بإزالة السكينة في قلوبهم إيجادها فيها بعد عدمها فكثيراً ما يعبر في القرآن عن الخلق والإيجاد بالإزالة كقوله : « وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج » الزمر : ٦ ، وقوله : « وأنزلنا الحديد » الحديد : ٢٥ ، وقوله : « وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم » الحجر : ٢١ . وإنما عبر عن الخلق

والإيجاد بالإنزال للإشارة إلى علو مبدئه .

وقيل : المراد بالإنزال الإسكان والإقرار من قولهم : نزل في مكان كذا أي حط رحله فيه وأنزلته فيه أي حططت رحله فيه هذا .

وهو معنى غير معهود في كلامه تعالى مع كثرة وروده فيه ، ولعل الباعث لهم على اختيار هذا المعنى تعديته في الآية بلفظة « في » ، إذ قال : « أنزل السكينة في قلوب المؤمنين » لكنّه عناية كلاميّة لوحظ فيها تعلّق السكينة بالقلوب لتعلّق الاستقرار فيها كما لوحظ تعلّقها بتعلّق الوقوع عليها من علو في قوله الآتي : « فأنزل السكينة عليهم » الآية وقوله : « فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين » الآية .

والمراد بزيادة الإيمان اشتداده فإنّ الإيمان بشيء هو العلم به مع الالتزام بحيث يترتب عليه آثاره العمليّة ، ومن المعلوم أنّ كلّ من العلم والالتزام المذكورين ممّا يشتدّ ويضعف فالإيمان الذي هو العلم المتلبّس بالالتزام يشتدّ ويضعف . فمعنى الآية الله الذي أوجد الثبات والاطمئنان الذي هو لازم مرتبة من مراتب الروح في قلوب المؤمنين ليشتدّ به الإيمان الذي كان لهم قبل نزول السكينة فيصير أكمل ممّا كان قبل .

﴿ كلام في الإيمان وازدياده ﴾

الإيمان بالشيء ليس مجرد العلم الحاصل به كما يستفاد من أمثال قوله تعالى : « إن الذين ارتدّوا على أديبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى » سورة محمد : ٢٥ ، وقوله : « إن الذين كفروا وصدّوا عن سبيل الله وشاقوا الرسول من بعد ما تبين لهم الهدى » سورة محمد : ٣٢ ، وقوله : « وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم » النمل : ١٤ وقوله : « و أضلّه الله على علم » الجاثية : ٢٣ فالآيات - كما ترى - تثبت الارتداد والكفر والجحود والضلال مع العلم .

فمجرد العلم بالشيء والجزم بكونه حقاً لا يكفي في حصول الإيمان واتّصاف

من حصل له به ، بل لابد من الالتزام بمقتضاه وعقد القلب على مؤداه بحيث يترتب عليه آثاره العملية ولو في الجملة ، فالذي حصل له العلم بأن الله تعالى إله لا إله غيره فالتزم بمقتضاه وهو عبوديته وعبادته وحده كان مؤمناً ولو علم به ولم يلتزم فلم يأت بشيء من الأعمال المظهرة للعبودية كان عالماً وليس بمؤمن .

ومن هنا يظهر بطلان ما قيل : إن الإيمان هو مجرد العلم والتصديق وذلك لما مر أن العلم ربما يجامع الكفر .

ومن هنا يظهر أيضاً بطلان ما قيل : إن الإيمان هو العمل ، وذلك لأن العمل يجامع النفاق فالمنافق له عمل وربما كان ممن ظهر له الحق ظهوراً علمياً ولا إيمان له على أي حال .

وإذ كان الإيمان هو العلم بالشيء مع الالتزام به بحيث يترتب عليه آثاره العملية ، وكل من العلم والالتزام مما يزداد وينقص ويشد ويضعف كان الإيمان المؤلف منهما قابلاً للزيادة والنقيصة والشدّة والضعف باختلاف المراتب وتفاوت الدرجات من الضروريات التي لا يشك فيها قط .

هذا ما ذهب إليه الأكثر وهو الحق ويدل عليه من النقل قوله تعالى : « ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم » وغيره من الآيات ، وما ورد من أحاديث أئمة أهل البيت عليهم السلام الدالة على أن الإيمان ذو مراتب .

وذهب جمع منهم أبو حنيفة وإمام الحرمين وغيرهما إلى أن الإيمان لا يزيد ولا ينقص ، واحتجوا عليه بأن الإيمان اسم للتصديق البالغ حد الجزم والقطع وهو مما لا يتصور فيه الزيادة والنقصان فالصدق إذا ضم إلى تصديقه الطاعات أو ضم إليه المعاصي فتصديقه بحاله لم يتغير أصلاً .

وأولوا ما دل من الآيات على قبوله الزيادة والنقصان بأن الإيمان عرض لا يبقى بشخصه بل بتجدد الأمثال فهو بحسب انطباقه على الزمان بأمثاله المتجددة يزيد وينقص كوقوعه للنبي ﷺ مثلاً على التوالي من غير فترة متخللة وفي غيره بفترات

قليلة أو كثيرة فالمراد بزيادة الإيمان توالي أجزاء الإيمان من غير فترة أصلاً أو بفترات قليلة .

وأيضاً للإيمان كثرة بكثرة ما يؤمن به ، وشرائع الدين ملماً كانت تنزل تدريجاً والمؤمنون يؤمنون بما ينزل منها وكان يزيد عدد الأحكام حيناً بعد حين كان إيمانهم أيضاً يزيد تدريجاً ، وبالجمله المراد بزيادة الإيمان كثرتة عدداً .

وهو بين الضعف ، أمّا الحجّة ففيها أولاً أن قولهم : الإيمان اسم للتصديق الجازم ممنوع بل هو اسم للتصديق الجازم الذي معه الالتزام كما تقدّم بيانه اللهم إلا أن يكون مرادهم بالتصديق العلم مع الالتزام .

و ثانياً أن قولهم : إن هذا التصديق لا يختلف بالزيادة والنقصان دعوى بلا دليل بل مصادرة على المطلوب و بناءً على كون الإيمان عرضاً و بقاء الأعراض على نحو تجدّد الأمثال لا ينفعهم شيئاً فإن من الإيمان ما لا تحرّكه العواصف ومنه ما يزول بأدنى سبب يعترض و أوهن شبهة تطرأ ، وهذا ممّا لا يعلل بتجدّد الأمثال و قلة الفترات و كثرتها بل لا بدّ من استناده إلى قوّة الإيمان و ضعفه سواء قلنا بتجدّد الأمثال أم لا .

مضافاً إلى بطلان تجدّد الأمثال على ما بين في محله .

و قولهم : إن المصدّق إذا ضمّ إليه الطاعات أو ضمّ إليه المعاصي لم يتغيّر حاله أصلاً ممنوع فقوّة الإيمان بمزاولة الطاعات و ضعفها بارتكاب المعاصي ممّا لا ينبغي الارتباب فيه ، و قوّة الأثر وضعفه كاشفة عن قوّة مبداء الأثر وضعفه قال تعالى : « إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه » فاطر : ١٠ . و قال : « ثمّ كان عاقبة الذين أساءوا السوآى أن كذبوا بآيات الله و كانوا بها يستهزؤن » الروم : ١٠

و أمّا ما ذكروه من التأويل فأول التأويلين يوجب كون من لم يستكمل الإيمان و هو الذي في قلبه فترات خالية من أجزاء الإيمان على ما ذكروه مؤمناً و كافراً حقيقة و هذا ممّا لا يساعده ولا يشعر به شيء من كلامه تعالى .

وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى : « وَلَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ » يَوْسُفُ : ١٠٦
فَهُوَ إِلَى الدَّلَالَةِ عَلَى كَوْنِ الْإِيمَانِ مِمَّا يَزِيدُ وَيَنْقُصُ أَقْرَبَ مِنْهُ إِلَى الدَّلَالَةِ عَلَى نَفْيِهِ
فَإِنْ مَدْلُولُهُ أَنَّهُمْ مُؤْمِنُونَ فِي حَالِ أَنَّهُمْ مُشْرِكُونَ فَإِيمَانُهُمْ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الشَّرِكِ
الْمَحْضِ وَشَرِكِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْإِيمَانِ الْمَحْضِ ، وَهَذَا مَعْنَى قَبُولِ الْإِيمَانِ لِلزِّيَادَةِ
وَالنَّقْصَانِ .

وِثَانِي التَّوَلِّيْنِ تَفِيدُ أَنَّ الزِّيَادَةَ فِي الْإِيمَانِ وَكَثْرَتَهُ إِنَّمَا هِيَ بِكَثْرَةِ مَا تَعْلَقُ
بِهِ وَهُوَ الْأَحْكَامُ وَالشَّرَائِعُ الْمُنْزَلَةُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَهِيَ صِفَةٌ لِلْإِيمَانِ بِحَالِ مَتَعَلِّقِهِ وَالسَّبَبِ
فِي انْتِصَافِهِ بِهَا هُوَ مَتَعَلِّقُهُ ، وَلَوْ كَانَ هَذِهِ الزِّيَادَةُ هِيَ الْمُرَادَةُ مِنْ قَوْلِهِ : « لِيَزِدَادُوا إِيمَانًا
مَعَ إِيمَانِهِمْ » كَانَ الْأَنْسَبُ أَنْ تَجْعَلَ زِيَادَةَ الْإِيمَانِ فِي الْآيَةِ غَايَةً لِتَشْرِيعِ الْأَحْكَامِ
الكَثِيرَةِ وَإِنْزَالِهَا لَا لِإِزَالِ السَّكِينَةِ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ هَذَا .

وَحَمَلَ بَعْضُهُمْ زِيَادَةَ الْإِيمَانِ فِي الْآيَةِ عَلَى زِيَادَةِ أَثَرِهِ وَهُوَ النُّورُ الْمَشْرِقُ مِنْهُ عَلَى
الْقَلْبِ .

وَفِيهِ أَنَّ زِيَادَةَ الْأَثَرِ وَقُوَّتَهُ فَرَعُ زِيَادَةِ الْمُؤَثِّرِ وَقُوَّتِهِ فَلَا مَعْنَى لِاخْتِصَاصِ أَحَدِ
الْأُمُورِ الْمُتَسَاوِينَ مِنْ جَمِيعِ الْجِهَاتِ بِأَثَرٍ يَزِيدُ عَلَى أَثَرِ الْآخَرِ .

وَذَكَرَ بَعْضُهُمْ أَنَّ الْإِيمَانَ الَّذِي هُوَ مَدْخُولٌ مَعَ فِي قَوْلِهِ : « لِيَزِدَادُوا إِيمَانًا مَعَ
إِيمَانِهِمْ » الْإِيمَانُ الْفَطْرِيُّ وَالْإِيمَانُ الْمَذْكُورُ قَبْلَهُ هُوَ الْإِيمَانُ الِاسْتِدْلَالِيُّ وَالْمَعْنَى
لِيَزِدَادُوا إِيمَانًا اسْتِدْلَالِيًّا عَلَى إِيمَانِهِمْ الْفَطْرِيِّ .

وَفِيهِ أَنَّهُ دَعْوَى مِنْ غَيْرِ دَلِيلٍ يَدُلُّ عَلَيْهِ . عَلَى أَنَّ الْإِيمَانَ الْفَطْرِيَّ أَيْضًا
اسْتِدْلَالِيٌّ فَمَتَعَلَّقٌ بِالْعِلْمِ وَالْإِيمَانَ عَلَى أَيِّ حَالٍ أَمْرٌ نَظَرِيٌّ لَا بَدِيهِيٌّ .

وَقَالَ بَعْضُهُمْ كَالْإِمَامِ الرَّازِيِّ : « إِنَّ النِّزَاعَ فِي قَبُولِ الْإِيمَانِ لِلزِّيَادَةِ وَالنَّقْصِ
عَدَمَ قَبُولِهِ نِزَاعٌ لَفْظِي » فَمُرَادُ النَّافِينَ عَدَمَ قَبُولِ أَصْلِ الْإِيمَانِ وَهُوَ التَّصْدِيقُ ذَلِكَ وَهُوَ
كَذَلِكَ لِعَدَمِ قَبُولِهِ الزِّيَادَةَ وَالنَّقْصَانِ ، وَمُرَادُ الْمُتَبَيِّنِينَ قَبُولُ مَا بِهِ كَمَالُ الْإِيمَانِ وَهُوَ
الْأَعْمَالُ لِلزِّيَادَةِ وَالنَّقْصَانِ وَهُوَ كَذَلِكَ بِلَا شَكٍّ .

و فيه أو لا أن فيه خلطاً بين التصديق والإيمان فالإيمان تصديق مع الالتزام وليس مجرد التصديق فقط كما تقدم بيانه .

و ثانياً أن نسبة نفى الزيادة في أصل الإيمان إلى المثبتين غير صحيحة فهم إنما يثبتون الزيادة في أصل الإيمان ، و يرون أن كلاً من العلم والالتزام المؤلف منهما الإيمان يقبل القوة والضعف .

و ثالثاً أن إدخال الأعمال في محل النزاع غير صحيح لأن النزاع في شيء غير النزاع في أثره الذي به كماله ولا نزاع لأحد في أن الأعمال والطاعات تقبل العدم و تقل و تكثر بحسب تكرار الواحد .



و قوله : « ولله جنود السماوات والأرض » الجند هو الجمع الغليظ من الناس إذا جمعهم غرض يعملون لأجله و لذا أطلق على العسكر المجتمعين على إجراء ما يأمر به أميرهم ، والسياق يشهد أن المراد بجنود السماوات والأرض الأسباب الموجودة في العالم مما يرى ولا يرى من الخلق فهي وسائط متخللة بينه تعالى وبين ما يريد من شيء تطيعه ولا تعصاه .

و إيراد الجملة أعني قوله : « ولله جنود » الخ بعد قوله : « هو الذي أنزل السكينة » الخ للدلالة على أن له جميع الأسباب والعلل التي في الوجود فله أن يبلغ إلى ما يشاء بما يشاء ولا يغلبه شيء في ذلك ، وقد نسبت إلى زيادة إيمان المؤمنين بانزال السكينة في قلوبهم .

و قوله : « و كان الله عزيزاً حكيماً » أي منيعاً جانبه لا يغلبه شيء متقناً في فعله لا يفعل إلا ما تقتضيه حكمته والجملة بيان تعليلي لقوله : « ولله جنود » الخ كما أنه بيان تعليلي لقوله : « هو الذي أنزل السكينة » الخ كأنه قيل : أنزل السكينة لكذا و له ذلك لأن له جميع الجنود والأسباب لأنه العزيز على الإطلاق والحكيم على الإطلاق .

قوله تعالى : « ليدخل المؤمنون والمؤمنات جنّات تجري من تحتها الأنهار » إلى آخر الآية ، تعليل آخر لقوله : « أنزل السكينة في قلوب المؤمنين » على المعنى كما أن قوله : « ليزدادوا إيماناً » تعليل له بحسب اللفظ كأنه قيل : خصّ المؤمنين بانزال السكينة وحرّم على غيرهم ذلك ليزداد إيمان هؤلاء مع إيمانهم وحقيقة ذلك أن يدخل هؤلاء الجنة و يعذب أولئك فيكون قوله : « ليدخل » بدلا أو عطف بيان من قوله : « ليزدادوا » الخ .

و في متعلق لام « ليدخل » الخ أقوال أخر كالقول بتعلقها بقوله : « فتحنا » أو قوله : « يزدادوا » أو بجميع ما تقدّم إلى غير ذلك ممّا لا جدوى لایراد .
و ضمّ المؤمنات إلى المؤمنين في الآية لدفع توهم اختصاص الجنة و تكفير السيّات بالذكر لوقوع الآية في سياق الكلام في الجهاد ، والجهاد والفتح واقعان على أيديهم فصرّح باسم المؤمنات لدفع التوهم كما قيل .
و ضمير « خالدين » و « يكفر عنهم سيئاتهم » للمؤمنين والمؤمنات جميعاً على التغليب .

و قوله : « و كان ذلك عند الله فوزاً عظيماً » بيان لكون ذلك سعادة حقيقة لا ريب فيها لكونه عند الله كذلك و هو يقول الحق .

قوله تعالى : « و يعذب المنافقين والمنافقات والمشرّكين والمشرّكات » إلى آخر الآية معطوف على قوله : « يدخل » بالمعنى الذي تقدّم ، وتقدير المنافقين والمنافقات على المشرّكين والمشرّكات في الآية لكونهم أضرباً على المسلمين من أهل الشرك ولأنّ عذاب أهل النفاق أشدّ قال تعالى : « إنّ المنافقين في الدرك الأسفل من النار » .

وقوله : « الظانّين بالله ظنّ السوء » السوء بالفتح فالسكون مصدر بمعنى القبح والسوء بالضمّ اسم مصدر ، وظنّ السوء هو ظنّهم أنّ الله لا ينصر رسوله وقيل : المراد بظنّ السوء ما يعمّ ذلك و سائر ظنونهم السيئة من الشرك والكفر .

و قوله : « عليهم دائرة السوء » دعاء عليهم أو قضاء عليهم أي ليستضرّوا بدائرة السوء الّتي تدور لتصيب من تصيب من الهلاك والعذاب .

وقوله : « و غضب الله عليهم و لعنهم و أعد لهم جهنم » معطوف على قوله : « عليهم دائرة » الخ ، وقوله : « و ساءت مصيرا » بيان مساة مصيرهم كما أن قوله : « و كان عند الله فوزا عظيما » بيان لحسن مصير أهل الإيمان .

قوله تعالى : « ولله جنود السماوات والأرض » تقدم معناه والمظاهر أنه بيان تعليمي للآيتين أعني قوله : « ليدخل المؤمنين والمؤمنات - إلى قوله - و أعد لهم جهنم » على حذو ما كان مثله فيما تقدم بيانا تعليليا لقوله : « أنزل السكينة في قلوب المؤمنين » الخ .

وقيل : إن مضمونه متعلق بالآية الأخيرة فهو تهديد لهم أنهم في قبضة قدرته فينتقم منهم ، والوجه الأول أظهر .

﴿ بحث روائي ﴾

في تفسير القمي في قوله تعالى : « إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا » حدَّثني أبي عن ابن أبي عمير عن ابن سنان عن أبي عبد الله عليه السلام قال : كان سبب نزول هذه الآية وهذا الفتح أن الله جل وعز أمر رسوله ﷺ في النوم أن يدخل المسجد الحرام و يطوف و يحلق مع المحلقين فأخبر أصحابه و أمرهم بالخروج فخرجوا .

فلما نزل ذا الحليفة أحرموا بالعمرة وساقوا البدن و ساق رسول الله ﷺ وستة وستين بدنة و أحرموا من ذي الحليفة ملبسين بالعمرة و قد ساق من ساق منهم الهدى معرّات مجملات .

فلما بلغ قريشا بعثوا خالد بن الوليد في مائتي فارس كميناً يستقبل رسول الله ﷺ صلى الله عليه وآله فكان يعارضه على الجبال فلما كان في بعض الطريق حضرت صلاة الظهر فأذن بلال فصلى رسول الله ﷺ بالناس فقال خالد بن الوليد : لو كنّا حملنا عليهم و هم في الصلاة لأصباهم لأنهم لا يقطعون صلاتهم ولكن تجيء الآن لهم صلاة أخرى أحب إليهم من ضياء أبصارهم فاذا دخلوا في الصلاة أغرنا عليهم فنزل جبرئيل

على رسول الله ﷺ صلاة الخوف في قوله عز وجل : « فإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة » الآية .

قال : فلمّا كان في اليوم الثاني نزل رسول الله ﷺ الحديبية ، وكان رسول الله ﷺ يستنفر الأعراب في طريقه فلم يتبعه أحد ويقولون : أيطمع محمد وأصحابه أن يدخلوا الحرم وقد غزتهم قريش في عقربا رهم فقتلوهم ، إنه لا يرجع محمد وأصحابه إلى المدينة أبداً . الحديث .

وفي المجمع : قال ابن عباس : إن رسول الله ﷺ خرج يريد مكة فلمّا بلغ الحديبية وقفت ناقته فزجرها فلم تنزجر و بركت الناقة فقال أصحابه خلّات الناقة فقال ما هذا لها عادة ولكن حبسها حابس الفيل .

ودعا عمر بن الخطاب ليرسله إلى أهل مكة ليأذنوا له بأن يدخل مكة ويحل من عمرته وينحر هديه فقال : يا رسول الله مالي بها حميم وإنني أخاف قريشا لشدة عداوتي إياها ولكن أدلك على رجل هو أعز بها مني عثمان بن عفان فقال : صدقت .

فدعا رسول الله ﷺ عثمان فأرسله إلى أبي سفيان وأشراف قريش يخبرهم أنّه لم يأت لحرب وإنما جاء زائراً لهذا البيت معظمًا لحرمته فاحتبسته قريش عندها فبلغ رسول الله ﷺ والمسلمين أن عثمان قد قتل . فقال ﷺ : لا نبرح حتّى نناجز القوم ، ودعا الناس إلى البيعة فقام رسول الله ﷺ إلى الشجرة واستند إليها وبايع الناس على أن يقاتلوا المشركين ولا يفرّوا . قال عبدالله بن مغفل : كنت قائماً على رأس رسول الله ﷺ ذلك اليوم ويدي غصن من السمرة أذب عنه وهو يبايع الناس فلم يبايعهم على الموت وإنما يبايعهم على أن لا يفرّوا .

وروى الزهري وعروة بن الزبير والمسور بن مخرمة قالوا : خرج رسول الله صلى الله عليه وآله من المدينة في بضع عشرة مائة من أصحابه حتّى إذا كانوا بذي الحليفة قلّد رسول الله ﷺ الهدى وأشعره وأحرم بالعمرة وبعث بين يديه عينا له من خزاعة يخبره عن قريش .

وسار رسول الله ﷺ حتى إذا كان بغدير الأشتاط قريباً من عسفان أتاه عينه الخزاعي فقال : إني تركت كعب بن لؤي وعامر بن لؤي قد جمعوا لك الأحابيش وجمعوا جموعاً وهم قاتلونك أو مقاتلونك وصادوك عن البيت فقال ﷺ : روحوا فراحوا حتى إذا كانوا ببعض الطريق قال النبي ﷺ : إن خالد بن الوليد بالغميم في خيل لقريش طليعة فخذوا ذات اليمين .

فسار حتى إذا كان بالثنية بركت راحلته فقال ﷺ : ما خلأت القصواء ولكن حبسها حابس الفيل . ثم قال : والله لا يسألوني خطة يعظمون فيها حرمة الله إلا أعطيتهم إياها ثم زجرها فوثبت به .

قال : فعدل حتى نزل بأقصى الحديبية على ثمد قليل الماء إنما يتبرأه الناس تبرأً فشكوا إليه العطش فانتزع سهماً من كنانته ثم أمرهم أن يجعلوه في الماء فوالله ما زال يجيش لهم بالري حتى صدروا عنه .

فبيناهم كذلك إذ جاءهم بديل بن ورقاء الخزاعي في نفر من خزاعة وكانوا عيبة نصح رسول الله ﷺ من أهل تهامة فقال : إني تركت كعب بن لؤي وعامر بن لؤي ومعهم العوز المطافيل وهم مقاتلونك وصادوك عن البيت فقال رسول الله ﷺ : إنا لم نجيء لقتال أحد وإنا جئنا معتمرين ، وإن قريشاً قد نهكتهم الحرب وأضررت بهم فإن شأوا ما ددتهم مدة ويخلوا بيني وبين الناس ، وإن شأوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا وإلا فقد جموا وإن أبوا فوالذي نفسي بيده لا قاتلتهم على أمري هذا حتى تنفرد سألقتي أو لينفذ الله تعالى أمره ، فقال بديل : سأبلغهم ما تقول .

فانطلق حتى أتى قريشاً فقال : إنا قد جئناكم من عند هذا الرجل وإنه يقول : كذا وكذا فقام عروة بن مسعود الثقفي فقال : إنه قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها ودعوني آتة فقالوا : آتته فأناه فجعل يكلم النبي ﷺ فقال له رسول الله ﷺ : نحواً من قوله لبديل .

فقال عروة عند ذلك : أي محمد أرايت إن استأصلت قومك هل سمعت بأحد من العرب اجتاحت أصله قبلك ؟ وإن تكن الأخرى فوالله إني لأرى وجوهاً وأرى اشاباً

من الناس خلقاء أن يفرّوا ويدعوك فقال له أبو بكر : امصص بظر اللآت أنحن نفرٌ عنه وندعه ؟ فقال : من ذا ؟ قال : أبو بكر . قال : أما والذي نفسي بيده لو لا يد كانت لك عندي لم أجرك بها لأجبتك .

قال : وجعل يكلم النبي ﷺ وكلّما كلّمه أخذ بلحيته والمغيرة بن شعبة قائم على رأس النبي ﷺ ومعه السيف وعليه المغفر فكلّما أهوى عروة بيده إلى لحية رسول الله ﷺ ضرب يده بنعل السيف وقال : أخر يدك عن لحية رسول الله ﷺ قبل أن لا ترجع إليك ، فقال : من هذا ؟ قال : المغيرة بن شعبة . قال : أي غدر أولست أسعى في غدرتك .

قال : وكان المغيرة صحب قوماً في الجاهليّة فقتلهم وأخذ أموالهم . ثمّ جاء فأسلم فقال النبي ﷺ : أمّا الإسلام فقد قبلنا وأمّا المال فإنّه مال غدر لا حاجة لنا فيه .

ثمّ إنّ عروة جعل يرمق أصحاب النبي ﷺ إذا أمرهم رسول الله ﷺ ابتدروا أمره ، وإذا توضعاً ثاروا يقتتلون على وضوئه ، وإذا تكلموا خفضوا أصواتهم عنده ، وما يحدّون إليه النظر تعظيماً له .

قال : فرجع عروة إلى أصحابه وقال : أي قوم والله لقد وفدت على الملوكة ووفدت على قيصر وكسرى والنجاشي ﷺ والله إن رأيت ملكاً قطّ يعظّمه أصحابه ما يعظّم أصحاب محمد ﷺ إذا أمرهم ابتدروا أمره ، وإذا توضعاً كادوا يقتتلون على وضوئه ، وإذا تكلموا خفضوا أصواتهم عنده ، وما يحدّون إليه النظر تعظيماً له ، وإنّه قد عرض عليكم خطّة رشد فاقبلوها .

فقال رجل من بني كنانة . دعوني آتة فقالوا : آتة فلماً أشرف عليهم قال رسول الله ﷺ : هذا فلان وهو من قوم يعظّمون البدن فابعثوها فبعثت له واستقبله القوم يلبّون فلماً رأى ذلك قال : سبحان الله ما ينبغي لهؤلاء أن يصدّوا عن البيت . فقام رجل يقال له مكرز بن حفص فقال : دعوني آتة فقالوا : آتة فلماً أشرف عليهم قال النبي ﷺ : هذا مكرز وهو رجل فاجر فجعل يكلم النبي ﷺ فبينما

هو يكلمه إن جاء سهيل بن عمرو فقال ﷺ قد سهل عليكم أمركم فقال : اكتب بيننا وبينك كتابا .

فدعا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب فقال له رسول الله ﷺ : اكتب بسم الله الرحمن الرحيم فقال سهيل : أما الرحمن فوالله ما أدري ما هو ؟ ولكن اكتب باسمك اللهم فقال المسلمون : والله لا نكتب إلا بسم الله الرحمن الرحيم فقال النبي صلى الله عليه وآله : اكتب باسمك اللهم هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله فقال سهيل : لو كنّا نعلم أنّك رسول الله ما صدّدناك عن البيت ولا قاتلناك ولكن اكتب محمد بن عبد الله فقال رسول الله ﷺ : إني لرسول الله وإن كذّبتموني ثم قال لعلي امح رسول الله فقال : يا رسول الله إن يدي لا تنطلق بمحو اسمك من النبوة فأخذ رسول الله ﷺ فمحاها . ثم قال : اكتب هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو واصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين يأمن فيهنّ الناس ويكفّ بعضهم عن بعض وعلى أنّه من قدم مكة من أصحاب محمد حاجّا أو معتمرا أو يبتغي من فضل الله فهو آمن على دمه وماله ، ومن قدم المدينة من قريش مجتازاً إلى مصر أو إلى الشام فهو آمن على دمه وماله ، وأنّ بيننا ^(١) عيبة مكفوفة ، وأنّه لا إسلال ولا إغلال ، وأنّه من أحبّ أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه ، ومن أحبّ أن يدخل في عقد قريش وعهده دخل فيه .

فتوانبت خزاعة فقالوا : نحن في عقد محمد وعهده ، و توانبت بنو بكر فقالوا : نحن في عقد قريش وعهدهم .

فقال رسول الله ﷺ : على أن تخلّوا بيننا وبين البيت فنطوف فقال سهيل : والله ما تتحدّث العرب أنّا أخذنا ضغطة ولكن ذلك من العام المقبل . فكتب فقال سهيل : على أنّه لا يأتيك منّا رجل وإن كان على دينك إلا رددته إلينا ومن جاءنا ممّن معك لم نردّه عليك فقال المسلمون : سبحان الله كيف يردّ إلى المشركين وقد جاء

(١) أى يكون بيننا صدر نقى من الغل والخداع .

مسلمًا ؟ فقال رسول الله ﷺ : من جاءهم منّا فأبعده الله ، و من جاءنا منهم رددناه إليهم فلو علم الله الإسلام من قلبه جعل له مخرجًا .

فقال سهيل : و على أنّك يرجع عنّا عامك هذا فلا تدخل علينا مكّة فإذا كان عام قابل خرجنا عنها لك فدخلتها بأصحابك فأقمت بها ثلاثًا ولا تدخلها بالسلاح إلّا السيوف في القراب ^(١) و سلاح الراكب ، و على أنّ هذا الهدى حيث ما حبسناه محله لا تقدمه علينا فقال : نحن نسوق و أنتم تردّون .

فبيناهم كذلك إذ جاء أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسف ^(٢) في قيوده و قد خرج من أسفل مكّة حتّى رمى بنفسه بين أظهر المسلمين فقال سهيل : هذا يا محمد أوّل ما أقاضيك عليه أن تردّه فقال النّبي ﷺ : إنّنا لم نقض بالكتاب بعد . قال : والله إذا لا أوالحك على شيء أبدا فقال النّبي ﷺ : فأجره لي فقال : ما أنا بمجير لك قال : بلى فافعل ، قال ما أنا بفاعل . قال مكرز : بلى قد أجرناه ، قال أبو جندل بن سهيل : معاشر المسلمين اُردّوا إلى المشركين و قد جئت مسلمًا ألا ترون ما قد لقيت ؟ - و كان قد عذب عذابًا شديدًا - .

فقال عمر بن الخطّاب : والله ما شككت منذ أسلمت إلّا يومئذ فأثبت النّبي ﷺ فقلت : أأنت نبيّ الله ؟ فقال : بلى . قلت : ألسنا على الحقّ وعدوّنا على الباطل ؟ قال : بلى ، قلت : فليمنّ نعطى الدّنيّة في ديننا إذا ؟ قال : إنّي رسول الله و لست أعصيه و هو ناصري قلت : أو لست كنت تجدّنا أنّنا سنأتي البيت و نطوف حقًّا ؟ قال : بلى فأخبرتك أنّنا نأتيه العام ؟ قلت : لا . قال : فإنّك تأتيه و تطوف به فنحر رسول الله ﷺ بدنة فدعا بحالقه فحلّق شعره ثمّ جاءه نسوة مؤمنات فأنزل الله تعالى : « يا أيّها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات » الآية .

قال محمد بن إسحاق بن يسار : و حدّثني بريدة بن سفيان عن محمد بن كعب أنّ

(١) القراب جمع قربة بمعنى الغمد .

(٢) رسف إذا مشى مشى المقيد .

كتب رسول الله ﷺ في هذا الصلح كان علي بن أبي طالب فقال له رسول الله ﷺ :
اكتب « هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو » فجعل علي يتلکأ و يأبى
أن يكتب إلا محمد ، رسول الله فقال رسول الله ﷺ فان لك مثلها تعطيها و أنت مضطهد فكتب
ما قالوا .

ثم رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة فجاءه أبو بصير رجل من قريش و هو مسلم
فأرسلوا في طلبه رجلين فقالوا : العهد الذي جعلت لنا فدفعه إلى الرجلين فخرجا به حتى
بلغاذا الحليفة فنزلا يأكلان من تمر لهم قال أبو بصير لأحد الرجلين : وإنني لأرى
سيفك جيداً جداً فاستلته فقال : أجل إنه لجيد وجرت به ثم جرت فقال أبو بصير :
أرني أنظر إليه فأمكنه منه فضربه به حتى برد و فر الآخر حتى بلغ المدينة فدخل
المسجد يعدو فقال رسول الله ﷺ حين رآه لقد رأى هذا ذعرا ، فلما انتهى إلى
النبي ﷺ قال : قتل والله صاحبي وإنني لمقتول .

قال : فجاء أبو بصير فقال : يا رسول الله قد أوفى الله ذمتك ورددني إليهم ثم
أجاني الله منهم فقال النبي ﷺ : ويل أمه مسعر حرب لو كان له أحد ، فلما سمع
ذلك عرف أنه سيرده إليهم فخرج حتى أتى سيف البحر .

و انفلت منهم أبو جندل بن سهيل فلحق بأبي بصير فلا يخرج من قريش رجل
قد أسلم إلا لحق بأبي بصير حتى اجتمعت عليه عصابة . قال : فوالله لا يسمعون بعير
لقريش قد خرجت إلى الشام إلا اعترضوا لها فقتلوه و أخذوا أموالهم فأرسلت قريش
إلى النبي ﷺ تناشده الله والرحم لما أرسل إليهم فمن أتاه منهم فهو آمن فأرسل
صلى الله عليه وآله إليهم فأتوه .

و في تفسير القمي في حديث طويل أوردنا صدره في أول البحث قال : وقال
رسول الله ﷺ لأصحابه - بعد ما كتب الكتاب - انحروا بدنكم و احلقوا رؤسكم
فامتنعوا و قالوا : كيف ننحرو و نحلق و لم نطف بالبيت و لم نسع بين الصفا والمروة فاعتم
رسول الله ﷺ و شك ذلك إلى أم سلمة فقالت : يا رسول الله انحر أنت و احلق فنحر
رسول الله ﷺ و حلق فنحر القوم على حيث يقين و شك و ارتياب .

اقول : وهو مروى في روايات أخر من طرق الشيعة وأهل السنة . وهذا الذي رواه الطبرسي مأخوذ مع تلخيص ما عموماً رواه البخاري وأبو داود والنسائي عن مروان والمسور .

وفي الدر المنثور أخرج البيهقي عن عروة قال : أقبل رسول الله ﷺ من الحديبية راجعاً فقال رجل من أصحاب رسول الله ﷺ : والله ما هذا بفتح لقد صددنا عن البيت وصد هدينا وعكف رسول الله ﷺ بالحديبية ورد رجلين من المسلمين خرجا . فبلغ رسول الله ﷺ عليه وسلم قول رجال من أصحابه : إن هذا ليس بفتح فقال رسول الله ﷺ : بئس الكلام . هذا أعظم الفتح لقد رضي المشركون أن يدفعوكم بالراح عن بلادهم ويسألوكم القضية ويرغبون إليكم في الإياب وقد كرهوا منكم ما كرهوا ، وقد أظفركم الله عليهم وردكم ساطين غانمين مأجورين فهذا أعظم الفتح . أنستم يوم أحد إذ تصعدون ولا تلوون على أحد وأنا أدعوكم في أخراكم ؟ أنستم يوم الأحزاب إذ جاءكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإن زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا ؟

قال المسلمون : صدق الله ورسوله هو أعظم الفتوح والله يا نبي الله ما فكرنا فيما فكرت فيه ولأنت أعلم بالله وبالأمر منّا فأنزل الله سورة الفتح .

أقول : والأحاديث في قصة الحديبية كثيرة وما أوردناه طرف منها .

وفي تفسير القمي بإسناده إلى عمر بن يزيد بساع السابري قال : قلت لأبي عبد الله عليه السلام قول الله في كتابه : « ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر » قال : ما كان له ذنب ولا هم بذنب ولكن الله حمّله ذنوب شيعته ثم غفر لها .

وفي العيون في مجلس الرضا مع المأمون بإسناده إلى ابن الجهم قال : حضرت مجلس المأمون وعنده الرضا عليه السلام فقال المأمون : يا بن رسول الله أليس من قولك أن الأنبياء معصومون ؟ قال : بلى ، - إلى أن قال - قال : فأخبرني عن قول الله عز وجل : « ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر » .

قال الرضا عليه السلام : لم يكن أحد عند مشركي مكة أعظم ذنباً من رسول الله ﷺ

لأنهم كانوا يعبدون من دون الله ثلاثمائة وستين صنماً فلما جاءهم بالدعوة إلى كلمة الإخلاص كبر ذلك عليهم وعظم ، وقالوا أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشيء عجاب ، وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم إن هذا لشيء يراد ما سمعنا بهذا في الملكة الآخرة إن هذا إلا اختلاق فلما فتح الله على نبيه ﷺ مكة قال: يا محمد إنما فتحنا لك فتحاً مبيناً ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر عند مشركي مكة بدعائك إلى توحيده الله فيما تقدم وما تأخر لأن مشركي مكة أسلم بعضهم ، وخرج بعضهم عن مكة ، ومن بقي منهم لم يقدر على إنكار التوحيد إذا دعا الناس إليه فصار ذنبه عندهم في ذلك مغفوراً بظهوره عليهم . فقال المؤمنون : لله درك يا أبا الحسن . وفي تفسير العياشي عن منصور بن حازم عن أبي عبد الله عليه السلام قال : ما ترك رسول الله ﷺ « إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم » حتى نزلت سورة الفتح فلم يعد إلى ذلك الكلام .

أقول : وهذا المعنى مروي من طرق أهل السنة أيضاً ، والحديث لا يخلو من شيء لأنه مبني على كون المراد بالذنب في الآية هو المعصية المنافية للعصمة . وفي الكافي بإسناده إلى جميل قال : سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عز وجل : « هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين » قال : الإيمان قال عز من قائل : « ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم » .

أقول : ظاهر الرواية أنه عليه السلام أخذ قوله تعالى في الآية : « ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم » تفسيراً للسكينة ، وفي معنى الرواية روايات أخرى . وفيه بإسناده عن أبي عمرو الزيري عن أبي عبد الله عليه السلام قال : قلت له : أيها العالم أخبرني أي الأعمال أفضل عند الله ؟ قال : ما لا يقبل الله شيئاً إلا به . قلت : وما هو ؟ قال : الإيمان بالله الذي لا إله إلا هو أعلى الأعمال درجة وأشرفها منزلة وأسناها حظاً .

قال : قلت : ألا تخبرني عن الإيمان أقول هو وعمل أم قول بلا عمل ؟ قال : الإيمان عمل كله والقول بعض ذلك العمل بفرض من الله يبين في كتابه واضح نوره ثابتة

حجته يشهد له به الكتاب ويدعوه إليه . قال : قلت : صف لي جعلت فداك حتى أفهمه
قال : الإيمان حالات ودرجات وصفات ومنازل فمنه التام المنتهى تمامه ومنه الناقص
المبين نقصانه ومنه الراجح الزائد رجحانه .

قلت : إن الإيمان ليتم وينقص ويزيد ؟ قال : نعم . قلت : كيف ذلك ؟ قال :
لأن الله تبارك وتعالى فرض الإيمان على جوارح ابن آدم وقسمه عليها وفرقه فيها
فليس من جوارحه جراحة إلا وقد وكلت من الإيمان بغير ما وكلت به أختها فمن
لقي الله عز وجل حافظاً لجوارحه موفياً كل جراحة من جوارحه ما فرض الله عز وجل
عليها لقي الله مستكملاً لا يمانه وهو من أهل الجنة ، ومن خان في شيء منها أو تعدى
ما أمر الله عز وجل فيها لقي الله عز وجل ناقص الإيمان .

قلت : قد فهمت نقصان الإيمان وتمامه فمن أين جاءت زيادته ؟ فقال : قول الله
عز وجل : « وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيسكم زادته هذه إيماناً فأما الذين
آمَنُوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى
رجسهم » ، وقال : « نحن نقص عليك نبأهم بالحق إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم
هدى » .

و لو كان كله واحداً لا زيادة فيه ولا نقصان لم يكن لأحد منهم فضل على الآخر
ولا ستوت النعم فيه ، ولا ستوى الناس وبطل التفضيل ولكن بتمام الإيمان دخل المؤمنون
الجنة ، وبالزيادة في الإيمان تفاضل المؤمنون بالدرجات عند الله و بالنقصان دخل
المفرتون النار .





إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَ مُبَشِّرًا وَ نَذِيرًا (٨) لِّتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَ
رَسُولِهِ وَ تَعَزَّزُوا وَ تَوَقَّروا وَ تُسَبِّحُوا بِكُرَّةٍ وَ أَصِيلًا (٩) إِنَّ الَّذِينَ
يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى
نَفْسِهِ وَ مَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمِنَّا أَجْرًا عَظِيمًا (١٠) .

﴿بيان﴾

فصل ثان من آيات السورة يعرف سبحانه فيه نبيّه ﷺ تعريف إكبار وإعظام
بأنّه أرسله شاهداً و مبشّراً و نذيراً طاعته طاعة الله و بيعته بيعه الله ، و قد كان الفصل
الأول امتناناً منه تعالى على نبيّه ﷺ بالفتح والمغفرة و إتمام النعمة والهداية و النصر
وعلى المؤمنين بأنزال السكينة في قلوبهم و إدخال الجنة و وعيد المشركين والمنافقين
بالغضب واللعن والنار .

قوله تعالى : « إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَ مُبَشِّرًا وَ نَذِيرًا » المراد بشهادته ﷺ
شهادته على الأعمال من إيمان وكفر وعمل صالح وأطالح ، و قد تكرر في كلامه تعالى
ذكر شهادته ﷺ ، و تقدم استيفاء الكلام في معنى هذه الشهادة ، و هي شهادة حمل
في الدنيا ، و أداء في الآخرة .

و كونه مبشّراً تبشيره لمن آمن و اتقى بالقرب من الله و جزيل ثوابه ، و كونه
نذيراً إنذاره و تخويله لمن كفر و تولى باليم عذابه .

قوله تعالى : « لِّتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ تَعَزَّزُوا وَ تَوَقَّروا وَ تُسَبِّحُوا بِكُرَّةٍ وَ
أَصِيلًا » القراءة المشهورة ببناء الخطاب في الأفعال الأربعة ، و قرأ ابن كثير و أبو عمرو
ببناء الغيبة في الجميع و قراءتهما أرجح بالنظر إلى السياق .

و كيف كان فاللام في « لتؤمنوا » للتعليل أي أرسلناك كذا و كذا لتؤمنوا بالله و رسوله .

والتعزيز - على ما قيل - النصر والتوقير التعظيم كما قال تعالى : « ما لكم لا ترجون لله وقارا » نوح : ١٣ والظاهر أن الضمائر في « تعزروه و توقروه وتسبحوه » جميعاً لله تعالى والمعنى إنا أرسلناك كذا و كذا ليؤمنوا بالله و رسوله و ينصروه تعالى بأيديهم وألسنتهم و يعظموه و يسبحوه - وهو الصلاة - بكرة و أصيلاً أي غداً و عشياً .

وقيل : الضميران في « تعزروه و توقروه » للرسول ﷺ ، و ضمير « تسبحوه » لله تعالى و بوجهه لزوم اختلاف الضمائر المتسقة .

قوله تعالى : « إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم » إلى آخر الآية . البيعة نوع من الميثاق ببذل الطاعة قال في المفردات : و بايع السلطان إذا تضمن بذل الطاعة له بما رضى له انتهى ، والكلمة مأخوذة من البيع بمعناه المعروف فقد كان من دأبهم أنهم إذا أرادوا إنجاز البيع أعطى البايع يده للمشتري فكأنهم كانوا يمثلون بذلك نقل الملك بنقل التصرفات التي يتحقق معظمها باليد إلى المشتري بالتصفيق ، وبذلك سمى التصفيق عند بذل الطاعة بيعاً و مبايعه ، و حقيقة معناه إعطاء المبايع يده للسلطان مثلاً ليعمل به ما يشاء .

فقوله : « إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله » تنزيل بيعته ﷺ منزلة بيعته تعالى بدعوى أنها هي فما يواجهونه ﷺ به من بذل الطاعة لا يواجهون به إلا الله سبحانه لأن طاعته طاعة الله ثم قرره زيادة تقرير وتأكيد بقوله : « يد الله فوق أيديهم » حيث جعل يده ﷺ يد الله كما جعل رميته عليه ﷺ رمي نفسه في قوله : « وما رميت إن رميت ولكن الله رمى » الأ نفال : ١٧ .

وفي نسبة ماله ﷺ من الشأن إلى نفسه تعالى آيات كثيرة كقوله تعالى : « ومن يطع الرسول فقد أطاع الله » النساء : ٨ ، وقوله : « فإنيهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون » الأنعام : ٣٣ ، وقوله : « ليس لك من الأمر شيء »

آل عمران : ١٢٨ .

وقوله : « فمن نكث فإِنَّمَا ينكث على نفسه » النكث نقض العهد والبيعة ،
والجملة تفريع على قوله : « إِنِّ الَّذِينَ يَبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يَبَايِعُونَ اللَّهَ » والمعنى فإذا
كان بيعتك بيعة الله فالناكث الناقض لها ناقض لبيعة الله ولا يتضرر بذلك إلا نفسه كما
لا ينتفع بالإيفاء إلا نفسه لأن الله غني عن العالمين .

وقوله : « ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتیه أجرا عظيما » وعد جميل على
حفظ العهد والإيفاء به .

والآية لا تخلو من إيماء إلى أن النبي ﷺ كان عند البيعة يضع يده على
أيديهم فكانت يده على أيديهم لا بالعكس .

وللمفسرين في قوله : « يد الله فوق أيديهم » أقوال أخر .

ف قيل : إنه من الاستعارة التخيلية والاستعارة بالكناية جيء به لتأكيد ما تقدمه
وتقرير أن مبايعة الرسول ﷺ كمبايعة الله من غير تفاوت فخيّل أنه سبحانه كأحد
المبايعين من الناس فأثبتت له يد تقع فوق أيدي المبايعين للرسول ﷺ مكان يد
الرسول وفيه أنه غير مناسب لساحة قدسه تعالى أن يخيّل على وجه هو منزّه عنه .
وقيل : المراد باليد القوة والنصرة أي قوة الله ونصرته فوق قوتهم ونصرتهم أي
ثق بنصرة الله لا بنصرتهم .

وفيها أن المقام مقام إعظام بيعة النبي ﷺ وأن مبايعتهم له مبايعة لله ، والوثوق
بالله ونصرته وإن كان حسناً في كل حال لكنه أجنبي عن المقام .

وقيل : المراد باليد العطية والنعمة أي نعمة الله عليهم بالثواب أو بتوفيقهم
لمبايعتك فوق نعمتهم عليك بالمبايعة ، وقيل : نعمته عليهم بالهداية أعظم من نعمتهم عليك
بالطاعة إلى غير ذلك من الوجوه التي أوردوها ولا طائل تحتها .



﴿ بحث روائى ﴾

في الدر المنثور أخرج ابن عديّ وابن مردويه والخطيب وابن عساكر في تاريخه عن جابر بن عبد الله قال : لما نزلت على رسول الله ﷺ هذه الآية « و تعزّروه » قال النبي ﷺ لأصحابه : ما ذاك ؟ قالوا : الله و رسوله أعلم . قال : لتنصروه .

و في العيون بإسناده عن عبد الله بن صالح الهروي قال : قلت لعليّ بن موسى الرضا عليه السلام : يا ابن رسول الله ما تقول في الحديث الذي يرويه أهل الحديث : أن المؤمنين يزورون ربهم من منازلهم في الجنة ؟ فقال : يا أبا الصلت إن الله تعالى فضل نبيه محمداً على جميع خلقه من النبيين والملائكة ، وجعل طاعته طاعته ، و مبايعته مبايعته و زيارته في الدنيا والآخرة زيارته فقال عز وجل : « من يطع الرسول فقد أطاع الله » وقال : « إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم » و قال النبي صلى الله عليه وآله : من زارني في حياتي أو بعد موتي فقد زار الله .

و درجته في الجنة أعلى الدرجات ، و من زاره في درجته في الجنة من منزله فقد زار الله تبارك و تعالى .

و في إرشاد المفيد في حديث بيعة الرضا عليه السلام قال : و جلس المأمون و وضع للرضا عليه السلام وسادتين عظيمتين حتى لحق بمجلسه و فرشه ، و أجلس الرضا عليه السلام في الحضرة و عليه عمامة و سيف . ثم أمر ابنه العباس بن المأمون أن يبايع له في أول الناس فرفع الرضا عليه السلام يده فتلقت بها وجهه و ببطنها وجوههم فقال له المأمون : ابسط يدك للبيعة فقال الرضا عليه السلام : إن رسول الله ﷺ هكذا كان يبايع فبايعه الناس و يده فوق أيديهم .





سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَ أَهْلُونَا
فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ
مِنْ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرّاً أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعاً بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ
خَبِيرًا (١١) بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَ
زَيْنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنُّ السَّوْءِ وَ كُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا (١٢) وَمَنْ لَمْ
يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا (١٣) وَ لِلَّهِ مُلْكُ
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَ كَانَ اللَّهُ غَفُورًا
رَحِيمًا (١٤) سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِنَتَّخِذُوهَا
ذُرُوعًا وَ نَتَّبِعْكُمْ يَرْبِدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ
قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا
قَلِيلًا (١٥) قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعُونَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ
شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسَلِّمُونَ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَ
إِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٦) لَيْسَ
عَلَى الْأَعْمَى حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرْجٌ وَ
مَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ يَدْخُلْهُ جَنَاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَ مَنْ
يَتَوَلَّ يَعْذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا (١٧) .

﴿بيان﴾

فصل ثالث من الآيات متعرض لحال الأعراب الذين قعدوا عن رسول الله ﷺ في سفرة الحديبية ولم ينفروا إذا استنفرهم وهم على ما قيل أعراب حول المدينة من قبائل جهينة ومزينة وغفار وأشجع وأسلم ودئل فتخلفوا عن النبي ﷺ ولم يصاحبوه قائلين : إن محمداً ومن معه يذهبون إلى قوم غزوهم بالأمس في عقر دارهم فقتلوهم قتلاً ذريعاً ، وإنهم لن يرجعوا من هذه السفرة ولن ينقلبوا إلى ديارهم وأهلهم أبداً .

فأخبر الله سبحانه لنبيه ﷺ في هذه الآيات أنهم سيلقونك ويعتلون في قعودهم باشتغالهم بالأموال والأهلين ويسألونك أن تستغفر الله لهم ، وكذبهم الله فيما قالوا وذكر أن السبب في قعودهم غير ذلك وهو ظنهم السوء ، وأخبر أنهم سيسألونك اللحوق وليس لهم ذلك غير أنهم سيُمدعون إلى قتال قوم آخرين فإن أطاعوا كان لهم الأجر الجزيل وإن تولوا فإليهم العذاب .

قوله تعالى : « سيقول لك المخلفون من الأعراب شغلنا أموالنا وأهلونا فاستغفر لنا » إلى آخر الآية قال في المجمع : المخلف هو المتروك في المكان خلف الخارجين من البلد ، وهو مشتق من الخلف وضده المقدم . انتهى والأعراب على ما قالوا - الجماعة من عرب البادية ولا يطلق على عرب الحاضرة ، وهو اسم جمع لا مفرد له من لفظه .

وقوله : « سيقول لك المخلفون من الأعراب » إخبار عما سيأتي من قولهم للنبي ﷺ ، وفي اللفظ دلالة ما على نزول الآيات في رجوعه ﷺ من الحديبية إلى المدينة ولما يردّها .

وقوله : « شغلنا أموالنا وأهلونا فاستغفر لنا » أي كان الشاغل المانع لنا عن صحابتك والخروج معك هو أموالنا وأهلونا حيث لم يكن هنا من يقوم بأمرنا فنحننا

ضيعتها فلزمناها فاستغفر لنا الله تعالى يغفر لنا تخلفنا عنك ، و في سؤال الاستغفار دليل على أنهم كانوا يرون التخلف ذنباً فتعلقهم بأنه شغلهم الأموال والأهلون ليس اعتذاراً للتبري عن الذنب بل ذكراً للسبب الموقوع في الذنب .

و قوله : « يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم » تكذيب لهم في جميع ما أخبروا به وسألوه فلا أن الشاغل لهم هو شغل الأموال والأهلين ، ولا أنهم يهتمون باستغفاره صلى الله عليه وآله ، وإنما سألوه ليكون ذلك جنّة يصرفون بها العتاب والتوبيخ عن أنفسهم .

و قوله : « قل فمن يملك لكم من الله شيئاً إن أراد بكم ضرّاً أو أراد بكم نفعاً » جواب حكيّ عمماً اعتذروا به من شغل الأموال والأهلين محصّله أن الله سبحانه له الخلق والأمر وهو المالك المدبّر لكل شيء لا ربّ سواه فلا ضرّ ولا نفع إلا بإرادته ومشيئته لا يملك أحد منه تعالى شيئاً حتّى يقهره على ترك الضرّ أو فعل الخير إن أراد الضرّ أو على ترك الخير إن أراد ما لا يريد هذا القاهر من الخير ، وإذا كان كذلك فانصرفكم عن الخروج مع النبي ﷺ نصرته للدين واشتغالكم بما اعتلّتم به من حفظ الأموال والأهلين لا يغني عن الله شيئاً لا يدفع الضرّ إن أراد الله بكم ضرّاً ولا يعين على جلب الخير ولا يعجله إن أراد بكم خيراً .

فقوله : « قل فمن يملك لكم » الخ جواب عن تعلّهم بالشغل على تقدير تسليم صدقهم فيه ، ملخصه أن تعلّكم في دفع الضرّ وجلب الخير بظاهر الأسباب ومنها تدبيركم والقعود بذلك عن مشروع ديني لا يغنيكم شيئاً في ضرّ أو نفع بل الأمر تابع لما أراد الله سبحانه فالآية في معنى قوله تعالى : « قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا » . والتمسك بالأسباب وعدم إلغائها وإن كان مشروعاً هاموراً به لكنّه فيما لا يعارض ما هو أهمّ منه كالدفاع عن الحقّ وإن كان فيه بعض المكروه المحتملة اللهم إلا إذا تعقّب خطراً قطعياً لا أثر معه للدفاع والسعي .

و قوله : « بل كان الله بما تعملون خبيراً » تعريض لهم فيه إشارة إلى كذبهم في قولهم : « شغلنا أموالنا وأهلونا » .

قوله تعالى : « بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهلهم أبداً و زين ذلك في قلوبكم » الخ بيان لما يشير إليه قوله : « بل كان الله بما تعملون خبيراً ، من كذبهم في اعتذارهم ، والمعنى ما تخلفتم عن الخروج بسبب اشتغالكم بالأموال والأهلين بل ظننتم أن الرسول والمؤمنين لن يرجعوا إلى أهلهم أبداً وأن الخارجين سيقتلون بأيدي قريش بما لهم من الجموع والبأس الشديد والشوكة والقدرة و لذلك تخلفتم .

وقوله : « و زين ذلك في قلوبكم » أي زين الشيطان ذلك الظن في قلوبكم فأخذتم بما يقتضيه ذلك الظن المزين و هو أن تتخلفوا و لا تخرجوا حذراً من أن تهلكوا و تبيدوا .

وقوله : « و ظننتم ظن سوء و كنتم قوماً بوراً » البور - على ما قيل - مصدر بمعنى الفساد أو الهلاك أريد به معنى الفاعل أي كنتم قوماً فاسدين أو هالكين .

قيل : المراد بظن سوء ظنهم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهلهم أبداً ولا يبعد أن يكون المراد به ظنهم أن الله لا ينصر رسوله ولا يظهر دينه كما مر في قوله في الآية السادسة من السورة : « الظانين بالله ظن سوء » بل هو أظهر .

قوله تعالى : « و من لم يؤمن بالله ورسوله فإننا أعتدنا للكافرين سعيراً » الجمع في هذه الآيات بين الإيمان بالله ورسوله للدلالة على أن الكفر بالرسول بعدم طاعته كفر بالله ، وفي الآية لحن تهديد .

وقوله : « فإننا أعتدنا للكافرين سعيراً » كان مقتضى الظاهر أن يقال : أعتدنا لهم فوضع الظاهر موضع الضمير للإشارة إلى علة الحكم بتعليقه على المشتق والمعنى أعتدنا و هيئنا لهم لكفرهم سعيراً أي ناراً مسعرة مشتعلة ، و تنكير سعيراً للتحويل .

قوله تعالى : « و لله ملك السماوات والأرض يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء و كان الله غفوراً رحيماً » معنى الآية ظاهر و فيها تأكيد لما تقدم ، و في تذييل الملوك المطلق بالإسمين : الغفور الرحيم إشارة إلى سبق الرحمة الغضب وحث على الاستغفار و الاسترحام .

قوله تعالى : « سيقول المخلفون إذا انطلقتم إلى مغانم لتأخذوها ذرونا نتبعكم » إلى آخر الآية إخبار عن أن المؤمنين سيغزون غزوة فيرزقون الفتح ويصيبون مغانم ويسألهم المخلفون أن يتركوهم يتبعونهم طمعاً في الغنيمة ، وتلك غزوة خيبر اجتاز النبي ﷺ والمؤمنون إليه ففتحوه وأخذوا الغنائم وخصها الله تعالى بمن كان مع النبي ﷺ في سفرة الحديبية لم يشرك معهم غيرهم .

والمعنى أنكم ستنتقلقون إلى غزوة فيها مغانم تأخذونها فيقول هؤلاء المخلفون: اتركونا نتبعكم .

وقوله : « يريدون أن يبدلوا كلام الله » قيل : المراد به وعده تعالى أهل الحديبية أن يخصصهم بغنائم خيبر بعد فتحه كما سيجيء من قوله : « وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها فعجل لكم هذه » الآية ، ويشير إليه في هذه الآية بقوله : « إذا انطلقتم إلى مغانم لتأخذوها » .

وقوله : « قل إن تتبعونا كذلكم قال الله من قبل » أمر منه تعالى للنبي ﷺ أن يمنعهم عن اتباعهم استناداً إلى قوله تعالى من قبل أن يسألوهم الاتباع .
وقوله : « فيقولون بل تحسدونا » أي سيقول المخلفون بعدما منعوا عما سألوهم من الاتباع : « بل تحسدونا » وقوله : « بل كانوا لا يفقهون إلا قليلاً » جواب عن قولهم : « بل تحسدونا » لم يوجه الخطاب إليهم أنفسهم لأن المدعى أنهم لا يفقهون الحديث ولذلك وجه الخطاب بالجواب إلى النبي ﷺ وقال : « بل كانوا لا يفقهون إلا قليلاً » .

وذلك أن قولهم : « بل تحسدونا » إضراب عن قول النبي ﷺ لهم بأمر الله : « لن تتبعونا كذلكم قال الله من قبل » فمعنى قولهم إن منعنا من الاتباع ليس عن أمر من قبل الله بل إنما تمنعنا أنت ومن معك من المؤمنين أهل الحديبية أن تشارككم في الغنائم وتريدون أن تختص بكم .

وهذا كلام لا يواجه به مؤمن له عقل وتميز رسول الله ﷺ المعصوم الذي لا يرد ولا يصدر في شأن إلا بأمر من الله اللهم إلا أن يكون من بساطة العقل وبلادة

الفهم فهذا القول الذي واجهوا به النبي ﷺ وهم مدعون للإيمان والاسلام أول دليل على ضعف تعقلهم وقلة فقههم .

ومن هنا يظهر أن المراد بعدم فقههم إلا قليلا بساطة عقولهم وضعف فقههم للقول لا أنهم يفقهون بعض القول ولا يفقهون بعضه وهو الكثير ولا أن بعضهم يفقه القول وجملهم لا يفقهونه كما فسره به بعضهم .

قوله تعالى : « قل للمخلفين من الأعراب ستدعون إلى قوم أولي بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمون » الخ اختلفوا في هذا القوم من هم ؟ فقيل : المراد به هوازن ، وقيل : ثقيف ، وقيل : هوازن و ثقيف ، وقيل : هم الروم في غزاة موتة وتبوك ، وقيل : هم أهل الردة قاتلهم أبوبكر بعد الرحلة ، وقيل : هم الفارس ، وقيل : أعراب الفارس وأكرادهم .

وظاهر قوله : « ستدعون » أنهم بعض الأقوام الذين قاتلهم النبي ﷺ بعد فتح خيبر من هوازن و ثقيف والروم في موتة ، وقوله تعالى سابقاً : « قل لن تتبعونا » ناظر إلى نفي اتباعهم في غزوة خيبر على ما يفيد السياق .

وقوله : « تقاتلونهم أو يسلمون » استئناف يدل على التنويع أي إما تقاتلون أو يسلمون أي أنهم مشركون لا تقبل منهم جزية كما تقبل من أهل الكتاب بل إما أن يقاتلوا أو يسلموا .

ولا يصح أخذ « تقاتلونهم » صفة لقوم لأنهم يدعون إلى قتال القوم لا إلى قتال قوم يقاتلونهم ، وكذا لا يصح أخذه حالا من نائب فاعل « ستدعون » لأنهم يدعون إلى قتال القوم لأنهم يدعون إليهم حال قتالهم ، كذا قيل .

ثم تمم سبحانه الكلام بالوعد والوعيد على الطاعة والمعصية فقال : « فإن طيعوا » أي بالخروج إليهم « يؤتكم الله أجرا حسنا وإن تتولوا » أي بالمعصية وعدم الخروج « كما توليتم من قبل » ولم تخرجوا في سفرة الحديدية « يعذبكم عذابا أليما » أي في الدنيا كما هو ظاهر المقام أو في الدنيا والآخرة معا .

قوله تعالى : « ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج » رفع للحكم بوجوب الجهاد عن ذوي العاهة الذين يشق عليهم الجهاد برفع لازمه وهو الحرج .

ثم تمم الآية أيضاً بإعادة نظير ذيل الآية السابقة فقال : ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار ومن يتولّ يعذّب به عذاباً أليماً .





لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا
 فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا (١٨) وَمَغَانِمَ
 كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (١٩) وَعَدَّكُمْ اللَّهُ مَغَانِمَ
 كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا فَعَجَلَ لَكُمْ هَذِهِ وَيَدَى النَّاسِ عَنْكُمْ وَتَكُونُ
 آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا (٢٠) وَآخَرَى لَمْ تَقْدِرُوا
 عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا (٢١) وَ
 لَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوْا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا
 نَصِيرًا (٢٢) سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ
 تَبْدِيلًا (٢٣) وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ
 مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا (٢٤)
 هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدَىٰ مَعْكُوفًا
 أَنْ يَبْلُغَ مَحَلَّهُ وَ لَوْلَا رِجَالُ مُؤْمِنُونَ وَ نِسَاءُ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ
 أَنْ تَطَّوَّهُمْ فِتْصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيَدْخُلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ
 يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (٢٥) إِذْ جَعَلَ
 الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ الْحَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ

عَلَى رَسُولِهِ وَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَ أَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَ كَانُوا أَحَقَّ
بِهَا وَ أَهْلَهَا وَ كَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٢٦) لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ
رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمَنِينَ مُحَلِّقِينَ
رُؤُوسَكُمْ وَ مُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا وَ جَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ
فَتْحًا قَرِيبًا (٢٧) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَ دِينِ الْحَقِّ
لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا (٢٨) .

﴿ بيان ﴾

فصل رابع من الآيات يذكر تعالى فيه المؤمنين ممن كان مع النبي ﷺ في
خروجه إلى الحديبية فيذكر رضاه عنهم إذ بايعوا النبي ﷺ تحت الشجرة ثم يمتن
عليهم بإزالة السكينة و إثابة فتح قريب و مغانم كثيرة يأخذونها .

و يخبرهم - و هو بشرى - أن المشركين لو قاتلوهم لانهمزوا و ولّوا الأديار
و أن الرؤيا التي رآها النبي ﷺ رؤيا صادقة سيدخلون المسجد الحرام آمنين
محلقين رؤوسهم لا يخافون فإنه تعالى أرسل رسوله بالهدى و دین الحق ليظهره على
الدين كله و لو كره المشركون .

قوله تعالى : « لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة » الرضا
هيئة تطرأ على النفس من تلقى ما يلائمها و تقبله من غير دفع ، و يقابله السخط ، و
إذا نسب إلى الله سبحانه كان المراد الإثابة و الجزاء الحسن دون الهيئة الطارئة و الصفة
العارضة الحادثة لاستحالة ذلك عليه تعالى : فراضه سبحانه من صفات الفعل لا من
صفات الذات .

والرضا - كما قيل - يستعمل متعدّياً إلى المفعول بنفسه و متعدّياً بعن ومتعدّياً بالباء فإذا عدّي بنفسه جاز دخوله على الذات نحو رضيت زيداً وعلى المعنى نحو رضيت أمانة زيد قال تعالى : « ورضيت لكم الإسلام ديناً » المائدة ٣ وإذا عدّي بعن دخل على الذات كقوله : « رضي الله عنهم ورضوا عنه » البينة ٨ وإذا عدّي بالباء دخل على المعنى كقوله تعالى : « أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة » .

ولما كان الرضا المنسوب إليه تعالى صفة فعله بمعنى الإثابة والجزاء ، والجزاء إنما يكون بإزاء العمل دون الذات ففيما نسب من رضا تعالى إلى الذات و عدّي بعن كما في الآية « لقد رضي الله عن المؤمنين » نوع عناية استدعى عدّ الرضا وهو متعلق بالعمل متعلّقاً بالذات وهو أخذ يبعثهم التي هي متعلّقة الرضا ظرفاً للرضى فلم يستع إلا أن يكون الرضا متعلّقاً بهم أنفسهم .

قوله : « لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة » إخبار عن إثابته تعالى لهم بإزاء بيعتهم له ﷺ تحت الشجرة .

وقد كانت البيعة يوم الحديبية تحت شجرة سمره بها بايعه ﷺ من معه من المؤمنين وقد ظهر به أن الظرف في قوله : « إذ يبايعونك » متعلق بقوله : « لقد رضي » واللام للقسمة .

قوله تعالى : « فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً و مغنم كثيرة يأخذونها و كان الله عزيزاً حكيماً » تفريع على قوله : « لقد رضي الله » النخ والمراد بما في قلوبهم حسن النية و صدقها في مبايعتهم فإن العمل إنما يكون مرضياً عند الله لا بصورته و هيئته بل بصدق النية وإخلاصها .

فالمعنى فعلم ما في قلوبهم من صدق النية وإخلاصها في مبايعتهم لك .

وقيل : المراد بما في قلوبهم الإيمان و صحته و حب الدين والحرص عليه ، و قيل : اللهم والألفة من لين الجانب للمشركين و صلحهم . والسياق لا يساعد على شيء من هذين الوجهين كما لا يخفى .

فان قلت : المراد بما في قلوبهم ليس مطلق ما فيها بل نيتهم الصادقة المخلصة

في المباينة كما ذكر ، و علمه تعالى بنيتهم الموصوفة بالصدق والإخلاص سبب يتفرع عليه رضاه تعالى عنهم لا مسبب متفرع على الرضا ، ولازم ذلك تفريع الرضا على العلم بأن يقال : لقد علم ما في قلوبهم فرضي عنهم لا تفريع العلم على الرضا كما في الآية . قلت : كما أن للمسبب تفرعا على السبب من حيث التحقق والوجود كذلك للسبب - سواء كان تاما أو ناقصا - تفرع على المسبب من حيث الانكشاف والظهور ، والرضا كما تقدم صفة فعل له تعالى منتزع عن مجموع علمه تعالى بالعمل الصالح وما يثيب به و يجزي صاحب العمل ، والذي انتزع عنه الرضا في المقام هو مجموع علمه تعالى بما في قلوبهم وإنزاله السكينة عليهم وإثابتهم فتحا قريبا ومغانم كثيرة يأخذونها .

فقوله : « فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة » الخ تفرع على قوله : « لقد رضي الله عن المؤمنين » للدلالة على حقيقة هذا الرضا والكشف عن مجموع الأمور التي بتحقيقها يتحقق معنى الرضا .

ثم قوله : « فأنزل السكينة عليهم متفرع على قوله : « فعلم ما في قلوبهم » وكذا ما عطف عليه من قوله : « وأثابهم فتحا قريبا » الخ .

والمراد بالفتح القريب فتح خير على ما يفيد السياق وكذا المراد بمغانم كثيرة يأخذونها ، غنائم خير ، وقيل : المراد بالفتح القريب فتح مكة ، والسياق لا يساعد عليه .

وقوله : « وكان الله عزيزا حكيما » أي غالبا فيما أراد متقنا لفعله غير

مجازف فيه .

قوله تعالى : « وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها فعجل لكم هذه » الخ المراد بهذه المغانم الكثيرة المغانم التي سيأخذها المؤمنون بعد الرجوع من الحديبية أعم من مغانم خير وغيرها فتكون الإشارة بقوله : « فعجل لكم هذه » إلى المغانم المذكورة في الآية السابقة وهي مغانم خير نزلت منزلة الحاضرة لاقترب وقوعها .

هذا على تقدير نزول الآية مع الآيات السابقة ، وأما على ما قيل : إن الآية نزلت بعد فتح خير فأمر الإشارة في قوله : « فعجل لكم هذه » ظاهر لكن المعروف نزول السورة

بتمامها في مرجع النبي ﷺ من الحديبية بينها وبين المدينة .

وقيل : الإشارة بهذه إلى البية التي بايعوها تحت الشجرة وهو كما ترى .
وقوله : « وكف أيدي الناس عنكم » قيل : المراد بالناس قبيلتنا أسد وغطفان
هموا بعد مسير النبي ﷺ إلى خيبر أن يغيروا على أموال المسلمين و عيالهم بالمدينة
فقدف الله في قلوبهم الرعب وكف أيديهم .

وقيل : المراد مالك بن عوف وعيينة بن حصين مع بني أسد و غطفان جاؤا
لنصرة يهود خيبر فقدف الله في قلوبهم الرعب فرجعوا ، وقيل : المراد بالناس أهل مكة
ومن والاها حيث لم يقاتلوه وَاللَّيْثُ ورضا بالصلح .

وقوله : « ولتكون آية للمؤمنين » عطف على مقدر أي وعدهم الله بهذه
الإنابة إثابة الفتح والغنائم الكثيرة المعجزة والمؤجلة لمصالح كذا وكذا ولتكون آية
للمؤمنين أي علامة وأمارة تدلهم على أنهم على الحق وأن ربهم صادق في وعده و
نبيهم ﷺ صادق في إنبائه .

وقد اشتملت السورة على عدة من أنباء الغيب فيها هدى للمتقين كقوله :
« سيقول لك المخلفون من الأعراب شغلنا » الخ ، وقوله : « سيقول المخلفون إذا
انطلقتم » الخ ، وقوله : « قل للمخلفين من الأعراب ستدعون » الخ ، وما في هذه
الآيات من وعد الفتح والمغانم ، وقوله بعد : « وأخرى لم تقدروا عليها » الخ ، و
قوله بعد : « لقد صدق الله رسوله الرؤيا » الخ .

وقوله : « ويهديكم صراطا مستقيما » عطف على « تكون » أي وليهديكم
صراطا مستقيما وهو الطريق الموصل إلى إعلاء كلمة الحق وبسط الدين ، وقيل :
هو الثقة بالله والتوكل عليه في كل ما تأتون وتذرون ، وما ذكرناه أو فوق السياق .
قوله تعالى : « وأخرى لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها وكان الله على كل
شيء قديرا » أي وغنائم أخرى لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها إحاطة قدرة وكان
الله على كل شيء قديرا .

فقوله : « أخرى » مبتدء و « لم تقدروا عليها » صفته وقوله : « قد أحاط الله

بها « خبره الثاني و خبره الأول محذوف و تقدير الكلام و ثمت غنائم أخرى قد أحاط الله بها .

و قيل : قوله : « أخرى » في موضع نصب بالعطف على قوله : « هذه » والتقدير وعجل لكم غنائم أخرى ، وقيل : في موضع نصب بفعل محذوف والتقدير و قضى غنائم أخرى ، و قيل : في موضع جر بتقدير رب والتقدير و رب غنائم أخرى ، و هذه وجوه لا يخلو شيء منها من وهن .

والمراد بالأخرى في الآية على ما قيل غنائم هوازن ، و قيل : المراد غنائم فارس والروم ، و قيل : المراد فتح مكة والموصوف محذوف والتقدير و قرية أخرى لم تقدروا عليها أي على فتحها ، و أول الوجوه أقربها .

قوله تعالى : « ولو قاتلكم الذين كفروا لولوا الأذبار ثم لا يجدون ولياً ولا نصيراً » خبر آخر ينبئهم الله سبحانه بضعف الكفار عن قتال المؤمنين بأنفسهم وأن ليس لهم ولي يتولى أمرهم ولا نصير ينصرهم ، ويتخلص في أنهم لا يقوون في أنفسهم على قتالكم ولا نصير لهم من الأعراب ينصرهم ، وهذا في نفسه بشرى للمؤمنين .

قوله تعالى : « سنة الله التي قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً » « سنة الله » مفعول مطلق لفعل مقدّر أي سن سنة الله أي هذه سنة قديمة له سبحانه أن يظهر أنبياءه والمؤمنين بهم إذا صدقوا في إيمانهم وأخلصوا نياتهم على أعدائهم من الذين كفروا ولن تجد لسنة الله تبديلاً كما قال تعالى : « كتب الله لأغلبن أنا ورسلي » المجادلة : ٣١ . ولم يصب المسلمون في شيء من غزواتهم إلا بما خالفوا الله ورسوله بعض المخالفة .

قوله تعالى : « وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم » الخ الظاهر أن المراد بكف أيدي كل من الطائفتين عن الأخرى ما وقع من الصلح بين الفئتين بالحديبية وهي بطن مكة لقربها منها واتصالها بها حتى قيل إن بعض أراضيها من الحرم وذلك أن كلاً من الفئتين كانت أعدى عدو للأخرى وقد اهتمت قريش بجمع الجموع من أنفسهم ومن الأحابيش ، وبايع

المؤمنون النبي ﷺ على أن يقاتلوا ، وعزم النبي ﷺ على أن يناجز القوم ، وقد أظفر الله النبي ﷺ والذين آمنوا على الكفار حيث دخلوا أرضهم وركزوا أقدامهم في عقر دارهم فلم يكن ليتوهم بينهم إلا القتال لكن الله سبحانه كف أيدي الكفار عن المؤمنين وأيدي المؤمنين عن الكفار بعد إظهار المؤمنين عليهم وكان الله بما يعملون بصيرا .

قوله تعالى : « هم الذين كفروا وصدكم عن المسجد الحرام والهدي معكوفاً أن يبلغ محله » العكوف على أمر هو الإقامة عليه والمعكوف - كما في المجمع - الممنوع من الذهاب إلى جهة بالإقامة في مكانه ومنه الاعتكاف وهو الإقامة في المسجد للعبادة .

والمعنى المشركون مشركوا مكة هم الذين كفروا ومنعوكم عن المسجد الحرام ومنعوا الهدي - الذي سقتموه - حال كونه محبوساً من أن يبلغ محله أي الموضع الذي ينحر أو يذبح فيه وهو مكة التي ينحر أو يذبح فيها هدي العمرة كما أن هدي الحج ينحر أو يذبح في منى ، وقد كان النبي ﷺ ومن معه من المؤمنين محرمين للعمرة ساقوا هدياً لذلك .

قوله تعالى : « ولو لا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم أن تطوهم » فتصيبكم منهم معرفة بغير علم » الوطء الدوس ، والمعرفة المكروه ، وقوله : « أن تطوهم » بدل اشتغال من مدخول لولا ، وجواب لولا محذوف والتقدير ما كف أيديكم عنهم . والمعنى ولولا أن تدوسوا رجالاً مؤمنين ونساء مؤمنات بمكة وأنتم جاهلون بهم لا تعلمون فتصيبكم من قتلهم وإهلاكهم مكروه لما كف الله أيديكم عنهم .

وقوله : « ليدخل الله في رحمته من يشاء » اللام متعلق بمحذوف والتقدير ولكن كف أيديكم عنهم ليدخل في رحمته أولئك المؤمنين والمؤمنات غير المتميزين بسلامتهم من القتل وإيائكم بحفظكم من إصابة المعرفة .

وقيل : المعنى ليدخل في رحمته من أسلم من الكفار بعد الصلح .

وقوله : « لو تزيّلوا لعذبّنا الذين كفروا منهم عذاباً أليماً » التزيّل التفرّق وضمير « تزيّلوا » لجميع من تقدّم ذكره من المؤمنين والكفار من أهل مكّة أي لو تفرّقوا بأن يمتاز المؤمنون من الكفار لعذبّنا الذين كفروا من أهل مكّة عذاباً أليماً لكن لم نعذبّهم لحرمة من اختلط بهم من المؤمنين .

قوله تعالى : « إن جعل الذين كفروا في قلوبهم الحميّة حميّة الجاهليّة » إلى آخر الآية قال الراغب : وعبر عن القوّة الغضبيّة إذا ثارت وكثرت بالحميّة فيقال : حميت على فلان أي غضبت عليه قال تعالى : « حميّة الجاهليّة » وعن ذلك استعير قولهم : حميت المكان حمى انتهى .

والظرف في قوله : « إن جعل » متعلق بقوله سابقاً : « صدّوكم » وقيل : متعلق بقوله : « لعذبّنا » وقيل : متعلق بأذكر المقدّر ، والجعل بمعنى الإلقاء « الذين كفروا » فاعله والحميّة مفعوله و « حميّة الجاهليّة » بيان للحميّة والجاهليّة وصف موضوع في موضع الموصوف والتقدير الملة الجاهليّة .

ولو كان « جعل » بمعنى صيّر كان مفعوله الثاني مقدّراً والتقدير إن جعل الذين كفروا الحميّة راسخة في قلوبهم ووضع الظاهر موضع الضمير في قوله : « جعل الذين كفروا » للدلالة على سبب الحكم .

ومعنى الآية هم الذين كفروا وصدّوكم إن ألّفوا في قلوبهم الحميّة حميّة الملة الجاهليّة .

وقوله : « فأنزل الله سكينة على رسوله وعلى المؤمنين » تفريع على قوله : « جعل الذين كفروا » ويفيد نوعاً من المقابلة كأنه قيل : جعلوا في قلوبهم الحميّة فقابله الله سبحانه بإزالة السكينة على رسوله وعلى المؤمنين فطمأنّت قلوبهم ولم يستخفهم الطيش وأظهروا السكينة والوقار من غير أن يستفزهم الجهالة .

وقوله : « وألزمهم كلمة التقوى » أي جعلها معهم لا تنفك عنهم ، وهي على ما اختاره جمهور المفسّرين كلمة التوحيد وقيل : المراد الثبات على العهد والوفاء به وقيل : المراد بها السكينة وقيل : قولهم : بلى في عالم الذر ، وهو أسخف الأقوال .

و لا يبعد أن يراد بها روح الإيمان التي تأمر بالتقوى كما قال تعالى : « أولئك كتب في قلوبهم الإيمان و أيدهم بروح منه » المجادلة : ٢٢ وقد أطلق الله الكلمة على الروح في قوله : « و كلمته ألقاها إلى مريم و روح منه » النساء : ١٧١ .

وقوله : « و كانوا أحق بها و أهلها » أمّا كونهم أحق بها فلتمام استعدادهم لتلقي هذه العطية الإلهية بما عملوا من الصالحات فهم أحق بها من غيرهم ، و أمّا كونهم أهلها فلا نهم مختصون بها لا توجد في غيرهم و أهل الشيء خاصته .

وقيل : المراد و كانوا أحق بالسكينة و أهلها ، و قيل : إن في الكلام تقديماً و تأخيراً و الأصل و كانوا أهلها و أحق بها و هو كما ترى .

و قوله : « و كان الله بكلّ شيء عليماً » تذييل لقوله : « و كانوا أحق بها و أهلها » أو لجميع ما تقدّم ، والمعنى على الوجهين ظاهر .

قوله تعالى : « لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق » لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رؤسكم و مقصرين لا تخافون » الخ قيل : إن صدق و كذب مخففين يتعدّيان إلى مفعولين يقال : صدقت زيداً الحديث و كذبت الحديث ، و إلى المفعول الثاني بفي يقال : صدقته في الحديث و كذبت فيه ، و مثقلين يتعدّيان إلى مفعول واحد يقال : صدقته في حديثه و كذبت فيه في حديثه .

و اللام في « لقد صدق الله » للقسم ، و قوله : « لتدخلن المسجد الحرام » جواب القسم .

و قوله : « بالحق » حال من الرؤيا و الباء فيه للملابسة ، و التعليق بالمشية في قوله : « إن شاء الله » لتعليم العباد والمعنى أقسم لقد صدق الله رسوله في الرؤيا التي أراه لتدخلن أيها المؤمنون المسجد الحرام إن شاء الله حال كونكم آمنين من شرّ المشركين محلقين رؤسكم و مقصرين لا تخافون المشركين .

و قوله : « فعلم ما لم تعلموا و جعل من دون ذلك فتحاً قريباً » ذلك إشارة إلى ما تقدّم من دخولهم المسجد الحرام آمنين ، و المراد بقوله : « من دون ذلك » أقرب من ذلك و المعنى فعلم تعالى من المصلحة في دخولكم المسجد الحرام آمنين ما جهلتموه

و لم تعلموه ، و لذلك جعل قبل دخولكم كذلك فتحا قريبا ليتيسر لكم الدخول كذلك .

و من هنا يظهر أن المراد بالفتح القريب في هذه الآية فتح الحديبية فهو الذي سوى للمؤمنين الطريق لدخول المسجد الحرام آمين و يسر لهم ذلك و لو لا ذلك لم يمكن لهم الدخول فيه إلا بالقتال وسفك الدماء و لاعمره مع ذلك لكن صلح الحديبية و ما اشترط من شرط أمكنهم من دخول المسجد معتمرين في العام القابل .

و من هنا تعرف أن قول بعضهم : إن المراد بالفتح القريب في الآية فتح خيبر بعيد من السياق ، و أما القول بأنه فتح مكة فأبعد .

و سياق الآية يعطي أن المراد بها إزالة الريب عن بعض من كان مع النبي ﷺ فان المؤمنين كانوا يزعمون من رؤيا رآها النبي ﷺ من دخولهم المسجد آمين محلّقين رؤسهم و مقصّرين ، أنهم سيدخلونه كذلك في عامهم ذلك فلمّا خرجوا قاصدين مكة معتمرين فاعترضهم المشركون بالحديبية وصدّوهم عن المسجد الحرام إرتاب بعضهم في الرؤيا فأزال الله ريبهم بما في الآية .

و محصله أن الرؤيا حقّة أراها الله نبيّه ﷺ و قد صدق تعالى في ذلك ، و ستدخلون المسجد الحرام إن شاء الله آمين محلّقين رؤسكم و مقصّرين لا تخافون لكنّه تعالى أخبره و قدّم عليه هذا الفتح و هو صلح الحديبية ليتيسر لكم دخوله لعلمه تعالى بأنه لا يمكن لكم دخوله آمين محلّقين رؤسكم و مقصّرين لا تخافون إلا بهذا الطريق .

قوله تعالى : « هو الذي أرسل رسوله بالهدى و دین الحق ليظهره على الدين كله » الخ تقدّم تفسيره في سورة التوبة الآية ٣٣ ، و قوله : « و كفى بالله شهيدا » أي شاهداً على صدق نبوته و الوعد أن دينه سيظهر على الدين كله أو على أن رؤياه صادقة فالجملة تذييل ناظر إلى نفس الآية أو الآية السابقة .



﴿ بحث روائي ﴾

في الدر المنثور في قوله تعالى : « لقد رضي الله عن المؤمنين » الآية أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه عن سلمة بن الأكوع قال : بينا نحن قائلون إن نادى منادي رسول الله ﷺ : أيها الناس البيعة البيعة نزل روح القدس فثرنا إلى رسول الله ﷺ وهو تحت شجرة سمرة فبايعناه فذلك قول الله تعالى : « لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة » فبايع نعثمان إحدى يديه على الأخرى فقال الناس هنيئاً لابن عفان يطوف بالبيت ونحن ههنا . فقال رسول الله ﷺ : لو مكث كذا وكذا سنة ما طاف حتى أطوف .

وفيه أخرج عبد بن حميد ومسلم وابن مردويه عن مغفل بن يسار قال : لقد رأيته يوم الشجرة والنبى ﷺ يبايع الناس وأنا رافع غصناً من أغصانها عن رأسه ونحن أربع عشرة مائة ولم يبايعه على الموت ولكن بايعناه على أن لا نفر .
أقول : كون المؤمنين يومئذ أربع عشرة مائة مروى في روايات أخرى ، وفي بعض الروايات ألف وثلاثمائة وفي بعضها إلى ألف وثمان مائة ، وكذا كون البيعة على أن لا يفروا وفي بعضها على الموت .
وفيه أخرج أحمد عن جابر ومسلم عن أم بشر عنه عن النبي ﷺ قال : لا يدخل النار أحد ممن بايع تحت الشجرة .

وفيه أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله تعالى : « فعلم ما في قلوبهم » فأنزل السكينة عليهم قال : إنما أنزلت السكينة على من علم منه الوفاء .
أقول : والرواية تخصص ما تقدم عليها ويدل عليه قوله تعالى فيما تقدم « إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً » فاشتراط في الأجر - ويلزمه الاشتراط في الرضا - الوفاء وعدم النكث ، وقد أورد القمي هذا المبعنى في تفسيره وكأنه رواية .

وفي الدر المنثور أيضاً في قوله تعالى : « إِنْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا » الآية أخرجه ابن أبي شيبة وأحمد والبخاري ومسلم والنسائي وابن جرير والطبراني وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن سهل بن حنيف أنه قال يوم صفين : انتهما أنفسكم فلفقد رأيقتنا يوم الحديبية نرجىء الصلح الذي كان بين النبي ﷺ وبين المشركين ولو نرى قتالاً لقاتلنا .

فجاء عمر إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ألسنا على الحق وهم على الباطل ؟ قال : بلى . قال : أليس قتالنا في الجنة وقاتلهم في النار ؟ قال : بلى . قال : نفيم نعطي الدنية في ديننا ؟ ونرجع ولما يحكم الله بيننا وبينهم ؟ قال : يا ابن الخطاب إني رسول الله ولن يضيعني الله أبدا .

فرجع متغيظاً فلم يصبر حتى جاء أبا بكر فقال : يا أبا بكر ألسنا على الحق وهم على الباطل ؟ قال : بلى . قال : أليس قتالنا في الجنة وقاتلهم في النار ؟ قال : بلى . قال : فلم نعطي الدنية في ديننا ؟ قال : يا ابن الخطاب إنه رسول الله ولن يضيعه الله أبدا فنزلت سورة الفتح فأرسل رسول الله ﷺ إلى عمر فأقرأه إياها فقال : يا رسول الله أو فتح هو ؟ قال : نعم .

وفي كمال الدين بإسناده عن منصور بن حازم عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله عز وجل : « لو تزيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً » قال : لو أخرج الله ما في أصلاب المؤمنين من الكافرين وما في أصلاب الكافرين من المؤمنين لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا .

أقول : وهذا المعنى مروى في روايات أخر .

وفي الكافي بإسناده عن جميل قال : سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قوله تعالى : « و ألزمهم كلمة التقوى » قال : هو الإيمان .

وفي الدر المنثور أخرجه الترمذي وعبد الله بن أحمد في زوائد المسند وابن جرير والدارقطني في الأفراد وابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات عن أبي ابن كعب عن النبي ﷺ « و ألزمهم كلمة التقوى » قال : لا إله إلا الله .

أقول : و روى هذا المعنى أيضا بطرق أخرى عن عليّ و سلمة بن الأكوع و أبي هريرة ، و روي أيضاً من طرق الشيعة كما في العلل باسناده عن الحسن بن عبد الله عن آبائه عن جدّه الحسن بن عليّ عليه السلام عن النبي صلى الله عليه وآله في حديث يفسر فيه «سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر» قال عليه السلام : وقوله : لا إله إلا الله يعني وحدانيته لا يقبل الله الأعمال إلا بها ، و هي كلمة التقوى يشق الله بها الموازين يوم القيامة . و في المجمع في قصة فتح خيبر قال : و لما قدم رسول الله صلى الله عليه وآله المدينة من الحديبية مكث بها عشرين ليلة ثم خرج منها غادياً إلى خيبر .

ذكر ابن إسحاق باسناده إلى أبي مروان الأسلمي عن أبيه عن جدّه قال : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله إلى خيبر حتى إذا كنّا قريباً منها و أشرفنا عليها قال رسول الله صلى الله عليه وآله : قفوا فوقف الناس فقال اللهم رب السماوات السبع و ما أظللن و رب الأرضين السبع و ما أفللن و رب الشياطين و ما أضللن إنّنا نسألك خير هذه القرية و خير أهلها و خير ما فيها و نعوذ بك من شر هذه القرية و شر أهلها و شر ما فيها . اقدموا بسم الله .

و عن سلمة بن الأكوع قال : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله إلى خيبر فسرنا ليلاً فقال رجل من القوم لعامر بن الأكوع : ألا تسمعنا من هنيهاتك و كان عامر رجلاً شاعراً فجعل يقول :

لا همّ لو لا أنت ما حجينا ولا تصدّقنا ولا صلينا
فاغفر فداء لك ما اقنتينا و ثبت الأقدام إن لاقينا
و أنزلن سكينتنا علينا إنّنا إذا صبح بنا أتينا
و بالصياح عوّلوا علينا

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : من هذا السائق ؟ قالوا : عامر . قال : يرحمه الله . قال عمر وهو على جمل له وجيب^(١) : يا رسول الله لولا أمتعتنا به ، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وآله

(١) وجب البعير أعبى ، و وجب برك و ضرب بنفسه الأرض .

ما استغفر لرجل قط يخصه إلا استشهد .

قالوا : فلما جدَّ الحرب وتضافَّ القوم خرج يهوديٌ وهو يقول :

قد علمت خيبر أني مرحب

إذا الحروب أقبلت تلتهب

فبرز إليه عامر وهو يقول :

قد علمت خيبر أني عامر

شاكي السلاح بطل مغامر

فاختلفا ضربتين فوق سيف اليهودي في ترس عامر و كان سيف عامر فيه قصر

فتناول به ساق اليهودي ليضربه فرجع ذباب سيفه فأصاب عين ركبة عامر فمات منه .

قال سلامة : فإذا نفر من أصحاب رسول الله ﷺ يقولون : بطل عمل عامر قتل

نفسه . قال : فأثبت النبي ﷺ وأنا أبكي فقلت : قالوا : إن عامراً بطل عمله فقال :

من قال ذلك ؟ قلت : نفر من أصحابك ، فقال : كذب أولئك بل أوتي من الأجر

مرتين .

قال : فحاصرناهم حتى أصابنا مخمصة شديدة ثم إن الله فتحها علينا ، وذلك

أن النبي ﷺ أعطى اللواء عمر بن الخطاب و نهض من نهض معه من الناس فلقوا

أهل خيبر فأنكشف عمر وأصحابه فرجعوا إلى رسول الله ﷺ يحبونه أصحابه ويعجبونهم ، و

كان رسول الله ﷺ أخذته الشقيقة فلم يخرج إلى الناس فقال حين أفاق من وجعه :

ما فعل الناس بخيبر ؟ فأخبر فقال : لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله و

يحب الله ورسوله كرا غير فرار لا يرجع حتى يفتح الله على يديه .

و روى البخاري و مسلم عن قتيبة بن سعيد قال : حدثنا يعقوب عن عبد الرحمن

الإسكندراني عن أبي حازم قال : أخبرني سعد بن سهل أن رسول الله ﷺ قال يوم

خيبر : لأعطين هذه الراية غداً رجلاً يفتح الله على يديه يحب الله ورسوله ويحب

الله ورسوله . قال : فبات الناس يدوكون بجملة أنهم أعطوها ؟ فلما أصبح الناس غدوا

على رسول الله ﷺ كلهم يرجون أن يعطاها .

فقال : أين علي بن أبي طالب ؟ فقالوا : يا رسول الله هو يشتكي عينيه . قال :

فأرسلوا إليه فأُتي به فبصق رسول الله ﷺ في عينيه فبرء كأن لم يكن به وجع فأعطاه الراية فقال عليّ: يا رسول الله أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا. قال: انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم ثم ادعهم إلى الإسلام وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من أن يكون لك حمر النعم.

قال سلمة: فبرز مرحب وهو يقول: قد علمت خبير أني مرحب الأبيات فبرز له عليّ وهو يقول:

أنا الذي سمّنتي أمي حيدره كليل غابات كريبه المنظرة

أوفيههم بالصاع كيل السندرة

فضرب مرحباً ففلق رأسه فقتله وكان الفتح على يده.

أورده مسلم في صحيحه.

و روى أبو عبد الله الحافظ بإسناده عن أبي رافع مولى رسول الله ﷺ قال: خرجنا مع عليّ حين بعثه رسول الله ﷺ فلمّا دنى من الحصن خرج إليه أهله فقاتلهم فضربه رجل من اليهود فطرح ترسه من يده فتناول عليّ باب الحصن فترس به عن نفسه فلم يزل في يده وهو يقاتل حتى فتح الله عليه ثم ألقاه من يده فلقد رأيتني في نفر مع سبعة أنا ثامنهم نجهد عليّ أن نقبّ ذلك الباب فما استطعنا أن نقبّه.

و بإسناده عن ليث بن أبي سليم عن أبي جعفر محمد بن عليّ قال: حدثني جابر ابن عبد الله أن عليّاً حمل الباب يوم خيبر حتى صعد المسلمون عليه فاقتحموها، وأنه حرّك بعد ذلك فلم يحمله أربعون رجلاً.

قال: و روي من وجه آخر عن جابر: ثم اجتمع عليه سبعون رجلاً فكان جهدهم أن أعادوا الباب.

و بإسناده عن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال: كان عليّ يلبس في الحرّ والشتاء القباء المحشو الثخين وما يبالي الحرّ فأتاني أصحابي فقالوا: إننا رأينا من أمير المؤمنين شيئاً فهل رأيت؟ فقلت: وما هو؟ قالوا: رأينا يخرج علينا في الحرّ الشديد في القباء

المحشوش. الشخين وما يبالي الحر ، و يخرج علينا في البرد الشديد في الثوبين الخفيفين و ما يبالي البرد فهل سمعت في ذاك شيئاً ؟ فقلت : لا فقالوا : فسل لنا أباك عن ذلك فإنه يسمر معه فسأله فقال : ما سمعت في ذلك شيئاً .

فدخل على علي فسمر معه ثم سأله عن ذلك فقال : أو ما شهدت خير ؟ قلت : بلى . قال : أفما رأيت رسول الله حين دعا أبا بكر فعقد له ثم بعثه إلى القوم فانطلق فلقى القوم ثم جاء بالناس و قد هزم ثم بعث إلى عمر فعقد له ثم بعثه إلى القوم فانطلق فلقى القوم فقاتلهم ثم رجع و قد هزم .

فقال رسول الله ﷺ : لأعطين الراية اليوم رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله يفتح الله على يديه كراً غير فرار فدعاني و أعطاني الراية ثم قال : اللهم اكفه الحر والبرد فما وجدت بعد ذلك حراً ولا برداً ، وهذا كله منقول من كتاب دلائل النبوة للإمام أبي بكر البيهقي .

قال الطبرسي : ثم لم يزل رسول الله ﷺ يفتح الحصون حصناً حصناً و يحوز الأموال حتى انتهوا إلى حصن الوطيح والسالام و كان آخر حصون خيبر افتتح ، و حاصروهم رسول الله ﷺ بضع عشرة ليلة .

قال ابن إسحاق : ولما افتتح القموص حصن أبي الحقيق أني رسول الله ﷺ بصيفة بنت حبي بن أخطب و بأخرى معها فمر بهما بلال - وهو الذي جاء بهما - على قتلى من قتلى يهود فلمّا رأتهم التي معها صفيّة صاحت و صكّت وجهها و حثت التراب على رأسها فلمّا رآها رسول الله ﷺ قال : اعزبوا عنّي هذه الشيطانة ، وأمر بصيفة فحيزت خلفه و ألقى عليها رداءه فعرف المسلمون أنه قد اصطفاها لنفسه ، وقال لبلال طارآى من تلك اليهوديّة ما رآى : أنزعت منك الرحمة يا بلال حيث تمرّ بامرأتين على قتلى رجالهما ؟

وكانت صفيّة قد رأت في المنام - وهي عروس بكنانة بن الربيع بن أبي الحقيق - أن قمراً وقع في حجرها فعرضت رؤياها على زوجها فقال : ما هذا إلا أنك تتمنين

ملك الحجاز محمداً ولطم وجهها لطمه اخضرت عينها منها فأتى بها رسول الله ﷺ وبها أنثر منها فسألها رسول الله ﷺ ما هو ؟ فأخبرته .

وأرسل ابن أبي الحقيق إلى رسول الله ﷺ أنزل فأكلكم ؟ قال : نعم . فنزل وصالح رسول الله ﷺ على حقن دماء من في حصونهم من المقاتلة وترك الذرية لهم ، ويخرجون من خيبر وأرضها بذراريهم ويخلون بين رسول الله ﷺ وبين ما كان لهم من مال وأرض على الصفراء والبيضاء والكراع^(١) والخلفة وعلى البز إلا ثوباً على ظهر إنسان ، وقال رسول الله ﷺ فبرئت منكم ذمة الله وذمة رسوله إن كنتم موافقون شيئاً فصالحوه على ذلك .

فلما سمع بهم أهل فدك قد صنعوا ما صنعوا بعثوا إلى رسول الله ﷺ يسألونه أن يسيّرهم ويحقن دماءهم ويخلون بينه وبين الأموال ففعل وكان ممن مشى بين رسول الله ﷺ وبينهم في ذلك محبصة بن مسعود أحد بني حارثة .

فلما نزل أهل خيبر على ذلك سألو رسول الله ﷺ أن يعاملهم الأموال على النصف ، وقالوا : نحن أعلم بها منكم وأمر لها فصالحهم رسول الله ﷺ على النصف على أننا إذا شئنا أن نخرجكم أخرجناكم ، وصالحه أهل فدك على مثل ذلك فكانت أموال خيبر فيثا بين المسلمين وكانت فدك خالصة لرسول الله ﷺ لأنهم لم يوجفوا عليها بخيل ولا ركاب .

ولما اطمأن رسول الله ﷺ أهدت له زينب بنت الحارث امرأة سلام بن مشكم وهي ابنة أخي مرحب شاة مصلية ، وقد سألت أي عضو أحب إلى رسول الله ﷺ فقيل لها : الذراع فأكرت فيها السم وسمت سائر الشاة ثم جاءت بها فلما وضعتها بين يديه تناول الذراع فأخذها ولاك منها مضغة وانتهش منها ومعه بشر بن البراء بن معرور فتناول عظما فانتهش منه فقال رسول الله ﷺ : ارفعوا أيديكم فإن

(١) الكراع مطلق الماشية والخلفة بالكسر فالسكون الاثناث والبرز

كتف هذه الشاة يخبرني أنّها مسمومة ثمّ دعاها فاعترفت فقال : ما حملك على ذلك ؟
 فقالت : بلغت من قومي ما لم يخف عليك فقلت : إن كان نبياً فسيخبر وإن كان ملكا
 استرحت منه فتجاوز عنها رسول الله ﷺ ومات بشر بن البراء من أكلته التي أكل .
 قال : ودخلت أمّ بشر بن البراء على رسول الله ﷺ يعود في مرضه الذي
 توفي فيه فقال ﷺ : يا أمّ بشر ما زالت أكلة خيبر التي أكلت بخيبر مع ابنك
 تعاودني فهذا أوان قطعت أبهري ، وكان المسلمون يرون أن رسول الله ﷺ مات شهيدا
 مع ما أكرمه الله به من النبوة .





مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ
تَرَاهُمْ رُكْعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي
وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ
كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْئَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ
لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ
مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (٢٩) .

﴿ بيان ﴾

الآية خاتمة السورة تصف النبي ﷺ وتصف الذين معه بما وصفهم به في التوراة والإنجيل وتعد الذين آمنوا منهم وعملوا الصالحات وعدا جميلا ، والآية اتصال بما قبلها حيث أخبر فيه أنه أرسل رسوله بالهدى ودين الحق .

قوله تعالى : « محمد رسول الله » إلى آخر الآية الظاهر أنه مبتدء وخبر فهو كلام تام ، وقيل : « محمد » خبر مبتدء محذوف وهو ضمير عائد إلى الرسول في الآية السابقة والتقدير هو محمد ، « ورسول الله » عطف بيان أو صفة أو بدل ، وقيل : « محمد » مبتدء و « رسول الله » عطف بيان أو صفة أو بدل و « الذين معه » معطوف على المبتدء و « أشدء على الكفار » الخ خبر المبتدء .

وقوله : « والذين معه أشدء على الكفار رحماء بينهم » مبتدء وخبر فالكلام مسوق لتوصيف الذين معه والشدة والرحمة المذكورتان من نوعتهم .

وتعقيب قوله : « أشدّاء على الكفار » بقوله : « رحماء بينهم » لدفع ما يمكن أن يتوهم أن كونهم أشدّاء على الكفار يستوجب بعض الشدة فيما بينهم فدفع ذلك بقوله : « رحماء بينهم » وأفادت الجملة أن سيرتهم مع الكفار الشدة ومع المؤمنين فيما بينهم الرحمة .

وقوله : « تراهم ركعاً سجّداً » الركع والسجّد جمعا راعع وساجد ، والمراد بكونهم ركعاً سجّداً إقامتهم للصلاة ، و « تراهم » يفيد الاستمرار والمحصّل أنهم مستمرّون على الصلاة ، والجملة خبر بعد خبر للذين معه .

وقوله : « يبتغون فضلاً من الله ورضواناً » الابتغاء الطلب ، والفضل العطية وهو الثواب ، والرضوان أبلغ من الرضا .

والجملة إن كانت مسوقة لبيان غايتهم من الركوع والسجود كان لا نسب أن تكون حالاً من ضمير المفعول في « تراهم » وإن كانت مسوقة لبيان غايتهم من الحياة مطلقاً كما هو الظاهر كانت خبراً بعد خبر للذين معه .

وقوله : « سيماهم في وجوههم من أثر السجود » سيما العلامة و « سيماهم في وجوههم » مبتدئ وخبر و « من أثر السجود » حال من الضمير المستكن في الخبر أو بيان للسيما أي إن سجودهم لله تذلاً وتخشعاً أثر في وجوههم أثراً وهو سيما الخشوع لله يعرفهم به من رآهم ويقرب من هذا المعنى ما عن الصادق عليه السلام أنه السهر في الصلاة (١) .

وقيل : المراد أثر التراب في جباههم لأنهم كانوا إنتما يسجدون على التراب لا على الأثواب .

وقيل : المراد سيماهم يوم القيامة فيكون موضع سجودهم يومئذ مشرقاً مستنيراً .

(١) رواه الصدوق في الفقيه والمفيد في روضة الواعظين مرسلًا عن عبدالله بن سنان

و قوله : « ذلك مثلهم في التوراة و مثلهم في الإنجيل » المثل هو الصفة أي الذي وصفناهم به من أنهم أشدّاء على الكفار رحماء بينهم الخ وصفهم الذي وصفناهم به في الكتابين التوراة والإنجيل .

فقوله : « و مثلهم في الإنجيل » معطوف على قوله : « مثلهم في التوراة » و قيل : إن قوله : « و مثلهم في الإنجيل » الخ استئناف منقطع عما قبله ، وهو مبتدأ خبره قوله : « كزرع أخرج شطأه الخ فيكون وصفهم في التوراة هو أنهم أشدّاء على الكفار إلى قوله : « من أثر السجود » ، و وصفهم في الإنجيل هو أنهم كزرع أخرج شطأه الخ . و قوله : « كزرع أخرج شطأه فأزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع » شطو النبات أفراخه التي تتولد منه و تنبت حوله ، والإيزار الإعانة ، والاستغلاظ الأخذ في الغلظة ، والسوق جمع ساق ، والزراع جمع زارع . والمعنى هم كزرع أخرج أفراخه فأعانها فقويت و غلظت و قام على سوقه يعجب الزراعين بجودة رشده .

وفيه إشارة إلى أخذ المؤمنين في الزيادة والعدة والقوة يوماً فيوماً و لذلك عقبه بقوله : « ليغيظ بهم الكفار » .

و قوله : « وعد الله الذين آمنوا و عملوا الصالحات منهم مغفرة و أجراً عظيماً » ضمير « منهم » للذين معه ، و « من » للتبويض على ما هو الظاهر المتبادر من مثل هذا النظم و يفيد الكلام اشتراط المغفرة والأجر العظيم بالإيمان حدوثاً و بقاءً و عمل الصالحات فلو كان منهم من لم يؤمن أصلاً كالمنافقين الذين لم يعرفوا بالنفاق كما يشير إليه قوله تعالى : « ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم » التوبة : ١٠١ أو آمن أو لا ثم أشرك و كفر كما في قوله : « إن الذين ارتدوا على أديبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى - إلى أن قال - و لو نشاء لأريناكمهم فلعرفتهم بسيماهم » سورة محمد : ٣٠ .

أو آمن ولم يعمل الصالحات كما يستفاد من آيات الإفاك^(١) و آية التبيين في

(١) فمن أهل الافك من هو صحابي بدرى وقد قال تعالى : « ان الذين يرمون -

نبأ الفاسق و أمثال ذلك لم يشملهم وعد المغفرة والأجر العظيم .

ونظير هذا الاشتراط ما تقدم في قوله تعالى : « إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم فمن نكث فإنما ينكث على نفسه و من أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجرا عظيما » ، و يؤيده أيضا ما فهمه ابن عباس من قوله تعالى : « فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم » حيث فسره بقوله : إنما أنزلت السكينة على من علم منه الوفاء ، و قد تقدمت الرواية .

و نظير الآية أيضا في الاشتراط قوله تعالى : « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض - إلى أن قال - و من كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون » النور : ٥٥ .

وقيل : إن « من » في الآية بيانية لا تبعيضية فتفيد شمول الوعد لجميع الذين معه .

و هو مدفوع - كما قيل - بأن « من » البائية لا تدخل على الضمير مطلقا في كلامهم ، والاستشهاد لذلك بقوله تعالى : « لو تزيَّلوا لعدنا الذين كفروا منهم » مبني على إرجاع ضمير « تزيَّلوا » إلى المؤمنين و ضمير « منهم » للذين كفروا ، و قد تقدم في تفسير الآية أن الضميرين جميعا راجعان إلى مجموع المؤمنين والكافرين من أهل مكة فتكون « من » تبعيضية لا بيانية .

و بعد ذلك كله لو كانت العدة بالمغفرة أو نفس المغفرة شملتهم شمولاً مطلقاً من غير اشتراط بالإيمان والعمل الصالح و كانوا مغفورين - آمنوا أو أشركوا و أصلحوا أو فسقوا - لزمته لزوماً بيئناً لغوية جميع التكليف الدينية في حقهم و ارتفاعها عنهم و هذا مما يدفعه الكتاب والسنة فهذا الاشتراط ثابت في نفسه و إن لم يتعرض له في اللفظ ، و قد قال تعالى في أنبيائه : « و لو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون »

→ المحصات الغافلات المؤمنات لعنوا في الدنيا والاخرة ولهم عذاب عظيم ، النور : ٢٣ و من نزل فيه : « ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا » الحجرات : ٦ و هو الوليد بن عتبة صحابي و قد سماه الله فاسقا و قد قال تعالى : فان الله لا يرضى عن القوم الفاسقين ، التوبة : ٩٦ .

الأنعام : ٨٨ فأثبتته في أنبيائه و هم معصومون فكيف فيمن هو دونهم .

فان قيل : اشتراط الوعد بالمغفرة والأجر العظيم بالإيمان والعمل الصالح اشتراط عقلي كما ذكر ولا سبيل إلى إنكاره لكن سياق قوله : « وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم » يشهد باتصافهم بالإيمان وعمل الصالحات و أنهم واجدون للشرط .

و خاصة بالنظر إلى تأخير « منهم » عن قوله : « الذين آمنوا وعملوا الصالحات » حيث يدل على أن عمل الصالحات لا ينفك عنهم بخلاف قوله في آية النور : « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم » النور : ٥٥ كما ذكره بعضهم ، و يؤيده أيضاً قوله في مدحهم « تراهم ركعاً سجداً يتبعون فضلاً من الله و رضواناً » حيث يدل على الاستمرار .

قلنا : أمّا تأخير « منهم » في الآية فليس للدلالة على كون العمل الصالح لا ينفك عنهم بل لأن موضوع الحكم هو مجموع « الذين آمنوا وعملوا الصالحات » ولا يترتب على مجرد الإيمان من دون العمل الصالح أثر بالمغفرة والأجر ثم قوله : « منهم » متعلق بمجموع الموضوع فمن حقه أن يذكر بعد تمام الموضوع و هو « الذين آمنوا وعملوا الصالحات » ، و أمّا تقدم الضمير في قوله : « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم » فلا أنه مسوق سوق البشرى للمؤمنين والأنسب لها التسريع في خطاب من بشر بها لينشط بذلك و ينبسط لتلقي البشرى .

و أمّا دلالة قوله : « تراهم ركعاً سجداً » الخ على الاستمرار فإنما يدل عليه في ما مضى إلى ينتهي إلى الحال ، و أمّا في المستقبل فلا و مصب إشكال لغوية الأحكام إنما هو المستقبل دون الماضي إذ مغفرة الذنوب الماضية لا تراحم تعلق التكليف بل تؤكد بخلاف تعلق المغفرة المطلقة بما سيأتي فإنه لا يجمع بقاء التكليف المولوي على اعتباره فيرفع بذلك التكاليف و هو مقطوع البطلان . على أن ارتفاع التكاليف يستلزم ارتفاع المعصية و يرتفع بارتفاعها موضوع المغفرة فوجود المغفرة كذلك يستلزم عدمها .

﴿سورة الحجرات مدنيّة وهي ثمان عشرة آية﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقَدَّمُوا بَيْنَ
يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١) يَا أَيُّهَا
الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ
بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (٢)
إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ
قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ (٣) إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ
مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (٤) وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى
تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ
آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ
فَتُصِيبُوهَا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ (٦) وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ
لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ
وَزَيَّنَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ
هُمُ الرَّاشِدُونَ (٧) فَضَلَّاهُ مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٨)
وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا
عَلَى الْأُخْرَى فَعَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ

فَاصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٩) إِنَّمَا
الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٠).

﴿ بيان ﴾

تتضمن السورة مسائل من شرائع الدين بهاتم الحياة السعيدة للفرد و يستقر النظام الصالح الطيب في المجتمع منها ما هو أدب جميل للعبد مع الله سبحانه ومع رسوله كما في الآيات الخمس في مفتتح السورة ، ومنها ما يتعلق بالإنسان مع أمثاله من حيث وقوعهم في المجتمع الحيوي ، ومنها ما يتعلق بتفاضل الأفراد وهو من أهم ما ينتظم به الاجتماع المدني ويهدي الإنسان إلى الحياة السعيدة والعيش الطيب الهنيئ و يتميز به دين الحق من غيره من السنن الاجتماعية القانونية وغيرها وتختتم السورة بالإشارة إلى حقيقة الإيمان والإسلام و امتنانه تعالى بما يفيضه من نور الإيمان .

والسورة مدنية بشهادة مضامين آياتها سوى ما قيل في قوله تعالى : « يا أيها الناس إنما خلقناكم من ذكر وأنثى الآية وسيجيء .

قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تقدّموا بين يدي الله ورسوله واتقوا الله إن الله سميع عليم » بين يدي الشيء أمامه وهو استعمال شائع مجازي أو استعاري وإضافته إلى الله ورسوله معاً لا إلى الرسول دليل على أنه أمر مشترك بينه تعالى وبين رسوله وهو مقام الحكم الذي يختص بالله سبحانه ورسوله باذنه كما قال تعالى : « إن الحكم إلا لله » يوسف : ٤ ، وقال : « و ما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله » النساء : ٤٤ .

ومن الشاهد على ذلك تصدير النهي بقوله : « يا أيها الذين آمنوا » و تذييله بقوله : « واتقوا الله إن الله سميع عليم » الظاهر في أن المراد بما بين يدي الله ورسوله

هو المقام الذي يربط المؤمنين المتقين بالله ورسوله وهو مقام الحكم الذي يأخذون منه أحكامهم الاعتقادية والعملية .

و بذلك يظهر أن المراد بقوله : « لا تقدّموا » تقديم شيء ما من الحكم قبال حكم الله ورسوله إمّا بالاستباق إلى قول قبل أن يأخذوا القول فيه من الله ورسوله أو إلى فعل قبل أن يتلقّوا الأمر به من الله ورسوله لكن تذييله تعالى النهي بقوله : « إن الله سميع عليم » يناسب تقديم القول دون تقديم الفعل ودون الأعم الشامل للقول والفعل والإلّ لقليل : إن الله سميع بصير ليحاذي بالسميع القول وبالبصير الفعل كما يأتي تعالى في كثير من موارد الفعل بمثل قوله : « والله بما تعملون بصير » الحديد : ٤ ، فمحصل المعنى أن لا تحكموا فيما لله ورسوله فيه حكم إلا بعد حكم الله ورسوله أي لا تحكموا إلا بحكم الله ورسوله ولتكن عليكم سمة الاتّباع والاقتفاء .

لكن بالنظر إلى أن كل فعل وترك من الإنسان لا يخلو من حكم له فيه وكذلك العزم والإرادة إلى فعل أو ترك يدخل الأفعال والتروك وكذا إرادتها والعزم عليها في حكم الاتّباع ، ويفيد النهي عن التقديم بين يدي الله ورسوله النهي عن المبادرة والإقدام إلى قول لم يسمع من الله ورسوله ، وإلى فعل أو ترك أو عزم وإرادة بالنسبة إلى شيء منهما قبل تلقي الحكم من الله ورسوله فتكون الآية قريبة المعنى من قوله تعالى في صفة الملائكة : « بل عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون » الأنبياء : ٢٧ .

وهذا الاتّباع المندوب إليه بقوله : « لا تقدّموا » بين يدي الله ورسوله هو الدخول في ولاية الله والوقوف في موقف العبودية والسير في مسيرها بجعل العبد مشيئة تابعة لمشيئة الله في مرحلة التشريع كما أنها تابعة لها في مرحلة التكوين قال تعالى : « وما تشاؤون إلا أن يشاء الله » الإنسان : ٢٠ ، وقال : « والله ولي المؤمنين » آل عمران : ٦٨ ، وقال : « والله ولي المتقين » الجاثية : ١٩ .

وللقوم في قوله تعالى : « لا تقدّموا » بين يدي الله ورسوله وجوه :
منها : أن التقديم بمعنى التقدّم فهو لازم ومعنى « لا تقدّموا » بين يدي الله

ورسوله « لا تعجلوا بالأمر والنهي دون الله ورسوله ولا تقطعوا بالأمر والنهي دون الله ورسوله ، وربما قيل : إن التقديم في الآية بمعناه المعروف لكنّه مستعمل بالإعراض عن متعلقاته كقوله : « يحیی ويمیت » الحديد : ٢ فيؤل المعنى إلى مجرد كون شيء قد أم شيء فيرجع إلى معنى التقدم .

واللفظ مطلق يشمل التقدم في قول أو فعل حتّى التقدم على النبي ﷺ في المشية والجلسة ، والتقدم بالطاعات الموقّعة قبل وقتها وغير ذلك . ومنها : أن المراد النهي عن التكلم قبل رسول الله ﷺ أي إذا كنتم في مجلسه وسئل عن شيء فلا تسبقوه بالجواب حتّى يجيب هو أو لا .

ومنها أن المعنى لا تسبقوه بقول أو فعل حتّى يأمركم به .

ومنها أن المعنى لا تقدّموا أقوالكم وأفعالكم على قول النبي ﷺ وفعله ولا تمكّنوا أحدا يمشي أمامه .

والظاهر أن تفسير « لا تقدّموا بين يدي الله ورسوله » بالنهي عن التقديم بين يدي رسول الله ﷺ فقط في هذه الوجوه الثلاثة الأخيرة مبني على حملهم ذكر الله تعالى مع رسوله في الآية على نوع من التشریف كقوله : أعجنني زيد وكرمه فيكون ذكره تعالى للإشارة إلى أن السبقة على النبي ﷺ على أي حال في معنى السبقة على الله سبحانه .

ولعل التأمل فيما قدّمناه من الوجه يكفيك في المنع عن المصير إلى شيء من هذه الوجوه .

وقوله : « واتّقوا الله إن الله سمیع علیم » أمر بالتقوى في موقف الاتّباع والعبودية ولا ظرف للإنسان إلّا ظرف العبوديّة ولذلك أطلق التقوى .

وفي قوله : « إن الله سمیع علیم » تعليل للنهي والتقوى فيه أي اتّقوه بالانتهاز عن هذا النهي فلا تقدّموا قولاً بلسانكم ولا في سرّكم لأن الله سمیع يسمع أقوالكم علیم يعلم ظاهركم وباطنكم وعلا نيّتكم وسرّكم .

قوله تعالى : « يا أيّها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي »

الخ وذلك بأن تكون أصواتهم عند مخاطبته وتكليمه ﷺ أرفع من صوته وأجهر لأن في ذلك كما قيل أحد شيئين إما نوع استخفاف به وهو الكفر ، وإما إساءة الأدب بالنسبة إلى مقامه وهو خلاف التعظيم والتوقير المأمور به .

وقوله : « ولا تجهرُوا له بالقول كجهر بعضهم لبعض » فإن من التعظيم عند التخاطب أن يكون صوت المتكلم أخفض من صوت مخاطبه فمطلق الجهر بالخطاب فاقدر لمعنى التعظيم فخاطب العظماء بالجهر فيه كخطاب عامة الناس لا يخلو من إساءة الأدب والوقاحة .

وقوله : « أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون » أي لثلاث تحبط أو كراهة أن تحبط أعمالكم ، وهو متعلق بالتهيين جميعاً أي إنهما نهيناكم عن رفع الصوت فوق صوته والجهر له بالقول كجهر بعضهم لبعض لثلاث تبطل أعمالكم بذلك من حيث لا تشعرون فإن فيهما الحبط ، وقد تقدم القول في الحبط في الجزء الثاني من الكتاب .

وجوز بعضهم كون « أن تحبط » الخ تعليلاً للمنهى عنه وهو الرفع والجهر والمعنى فعلكم ذلك لأجل الحبوط منهى عنه ، والفرق بين تعليله للنهي وتعليله للمنهى عنه أن الفعل المنهى عنه معلل على الأول والفعل المعلنل منهى عنه على الثاني ، وفيه تكلف ظاهر .

وظاهر الآية أن رفع الصوت فوق صوت النبي ﷺ والجهر له بالقول معصيتان موجبتان للحبط فيكون من المعاصي غير الكفر ما يوجب الحبط .

وقد توجه الآية بأن المراد بالحبط فقدان نفس العمل للثواب لا إبطال العمل ثواب سائر الأعمال كما في الكفر قال في مجمع البيان : وقال أصحابنا : إن المعنى في قوله : « أن تحبط أعمالكم » أنه ينحبط ثواب ذلك العمل لأنهم لو أوقعوه على وجه تعظيم النبي ﷺ وتوقيره لاستحقوا الثواب فلما أوقعوه على خلاف ذلك الوجه استحقوا العقاب وفاتهم ذلك الثواب فانحبط عملهم فلا تعلق لأهل الوعيد بهذه الآية . ولا أنه تعالى علق الإحباط في هذه الآية بنفس العمل وهم يعلقونه بالمستحق على العمل وذلك خلاف الظاهر . انتهى .

و فيه أن الحبط المتعلق بالكفر الذي لاريب في تعلقه بثواب الأعمال أيضاً متعلق في كلامه بنفس الأعمال كما في هذه الآية فلتحمل هذه على ما حملت عليه ذلك من غير فرق ، و كونه خلاف الظاهر ممنوع فإن بطلان العمل بطلان أثره المترتب عليه .

وقد توجهت الآية أيضاً بالبناء على اختصاص الحبط بالكفر بأن رفع الصوت فوق صوت النبي ﷺ والجهر له بالقول ليسا بمحبطين من حيث أنفسهما بل من حيث إدائهما أحياناً إلى إيدائهما ﷺ وإيداءه كفر و الكفر محبط للعمل .

قال بعضهم : المراد في الآية النهي عن رفع الصوت مطلقاً و معلوم أن ملاك التحذّر مما يتوقع فيه من إيداء النبي ﷺ الذي هو كفر محبط للعمل بالاتفاق . فورد النهي عما هو مظنة أذاه - سواء وجد هذا المعنى أولاً - حماية للحرمة وحسماً للمادة .

ثم لما كان هذا المنهي عنه منقسماً إلى ما يبلغ حد الكفر و هو المونزي له عليه الصلاة والسلام وإلى ما لا يبلغ ذلك المبلغ ، و لا دليل يميز أحد القسمين من الآخر و لو فرض وجوده لم يلتفت إليه في كثير من الأحيان ، لزم الملكلف أن يكف عن ذلك مطلقاً مخافة أن يقع فيما هو محبط للعمل و هو البالغ حد الأذى .

و إلى التباس أحد القسمين بالآخر الإشارة بقوله تعالى : « أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون » و إلا فلو كان رفع الصوت و الجهر بالقول منهياً عنهما مطلقاً سواء بلغا حد الأذى أو لم يبلغا لم يكن موقع لقوله تعالى : « وأنتم لا تشعرون » إذ الأمر منحصر بين أن يكون رفع الصوت أو الجهر بالقول بالغاً حد الأذى فيكون كفرًا محبطاً قطعاً أو غير بالغ فيكون أيضاً ذنباً محبطاً قطعاً فالأحباط محقق على أي تقدير فلا موقع لإدغام الكلام بعدم الشعور مع أن الشعور ثابت مطلقاً للعلم به بعد النهي انتهى ملخصاً .

و فيه أن ظهور قوله : « لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي » و لا تجهروا له بالقول كجهر بعضهم لبعض » في النهي النفسي دون النهي المقدرمي أخذاً بالاحتياط مما لا ريب فيه لكن كلاً من الفعلين مما يدرك كونه عملاً سيئاً عقلاً قبل ورود النهي الشرعي عنه كالاقتراء والإفك ، و كان الذين يأتون بهما المؤمنين كما صدر النهي بقوله : « يا

أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا» وهم وإن أمكن أن يسامحوا في بعض السيئات بحسبانه هيناً لكنهم لا يرضون ببطلان إيمانهم وأعمالهم الصالحة من أصله .

فنبه سبحانه بقوله : « أن تحبط أعمالكم و أنتم لا تشعرون » على أنكم لا تشعرون بما لذلك من الأثر الهائل العظيم فإنما هو إحباط الأعمال فلا تقربوا شيئاً منهما أن تحبط أعمالكم و أنتم لا تشعرون .

فقوله : « و أنتم لا تشعرون » ناظر إلى حالهم قبل النهي حيث كانوا يشعرون بكون الفعل سيئة لكنهم ما كانوا يعلمون بعظمة مساءته لهذا الحد ، وأما بعد صدور البيان الإلهي فهم شاعرون بالإحباط .

فالآية من وجه نظيرة قوله تعالى في آيات الإفك : « و تحسبونه هيناً و هو عند الله عظيم » النور : ١٥ ، و قوله في آيات القيامة : « و بدالهم من الله ما لم يكونوا يحسبون » الزمر : ٤٧ .

قوله تعالى : « إن الذين يَغْضُونَ أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى » الخ غَضَّ الصوت خلاف رفعه ، ومعنى الامتحان الابتلاء و الاختبار و إنما يكون لتحصيل العلم بحال الشيء المجهول قبل ذلك ، و إن يستحيل ذلك في حقه تعالى فالمراد به هنا التمرين و التعويد - كما قيل - أو حمل المحنة و المشقة على القلب ليعتاد بالتقوى .

و الآية مسوقة للوعد الجميل على غَضِّ الصوت عند رسول الله ﷺ بعد توصيفهم بأن قلوبهم ممتحنة للتقوى و الذي امتحنهم لذلك هو الله سبحانه ، و فيه تأكيد و تقوية لمضمون الآية السابقة و تشويق للانتهاء بما فيها من النهي .

و في التعبير عنه ﷺ في هذه الآية برسول الله بعد التعبير عنه في الآية السابقة بالنبى إشارة إلى ملاك الحكم فإن الرسول بما هو رسول ليس له من الأمر شيء فماله فلمرسله ، و تعظيمه و توقيره تعظيم لمرسله و توقير له فغَضَّ الصوت عند رسول الله تعظيم و تكبير لله سبحانه ، و المداومة و الاستمرار على ذلك - كما يستفاد من قوله : « يَغْضُونَ » المفيد للاستمرار - كاشف عن تخلفهم بالتقوى و امتحانه تعالى قلوبهم للتقوى .

و قوله : « لهم مغفرة وأجر عظيم » وعد جميل لهم بإزاء ما في قلوبهم من تقوى الله ، والعاقبة للتقوى .

قوله تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون » سياق الآية يؤدّي أنّه واقع وأنّهم كانوا قوما من الجفّة ينادونه ﷺ من وراء حجرات بيته من غير رعاية لمقتضى الأدب وواجب التعظيم والتوقير فذمّهم الله سبحانه حيث وصف أكثرهم بأنّهم لا يعقلون كالبهائم من الحيوان .

قوله تعالى : « و لو أنّهم صبروا حتّى تخرج إليهم لكان خيراً لهم والله غفور رحيم » أي ولو أنّهم صبروا عن ندائك فلم ينادوك حتّى تخرج إليهم لكان خيراً لمافيّه من حسن الأدب ورعاية التعظيم والتوقير لمقام الرسالة ، و كان ذلك مقرباً لهم إلى مغفرة الله ورحمته لأنّه غفور رحيم .

فقوله : « والله غفور رحيم » كالناظر إلى ما ذكر من الصبر و يمكن أن يكون ناظراً إلى كون أكثرهم لا يعقلون والمعنى أنّ ما صدر عنهم من الجهالة و سوء الأدب معفو عنه لأنّه لم يكن عن تعقل و فهم منهم بل عن قصور في ذلك والله غفور رحيم .

قوله تعالى : « يا أيّها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا » الخ الفاسق - كما قيل - الخارج عن الطاعة إلى المعصية ، والنبأ الخبر العظيم الشأن ، والتبين والاستبانه والإبانه - على ما في الصحاح - بمعنى واحد وهي تعدّي ولا تعدّي فإذا تعدّت كانت بمعنى الإيضاح والإظهار يقال : تبينّت الأمر و استبينته و أبنته أي أوضحته و أظهرته ، و إذا لزمّت كانت بمعنى الاتّضاح والظهور يقال : أبان الأمر و استبان و تبين أي اتّضح و ظهر .

و معنى الآية يا أيّها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بخبر ذي شأن فتبينوا خبره بالبحث ، والفحص للوقوف على حقيقة حذر أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصيروا نادمين على ما فعلتم بهم .

و قد أمضى الله سبحانه في هذه الآية أصل العمل بالخبر و هو من الأصول العقلانيّة التي يبتني عليه أساس الحياة الاجتماعيّة الإنسانيّة ، و أمر بالتبين في خبر

الفاسق و هو في معنى النهي عن العمل بخبره ، وحقيقته الكشف عن عدم اعتبار حجتيته وهذا أيضاً كالأضياء لما بني عليه العقلاء من عدم حجتيته الخبر الذي لا يوثق بمن يخبر به و عدم ترتيب الأثر على خبره .

بيان ذلك أن حياة الإنسان حياة علمية يبني فيها سلوكه طريق الحياة على ما يشاهده من الخير والشر والنافع والضار والرأي الذي يأخذ به فيه ، ولا يتيسر له ذلك إلا فيما هو بمراى منه ومشهد ، و ما غاب عنه مما تتعلق به حياته و معاشه أكثر مما يحضره و أكثر فاضطر إلى تميم ما عنده من العلم بما هو عند غيره من العلم الحاصل بالمشاهدة والنظر ، ولا طريق إليه إلا السمع و هو الخبر .

فالركون إلى الخبر بمعنى ترتيب الأثر عليه عملاً و معاملة مضمونه معاملة العلم الحاصل للإنسان من طريق المشاهدة والنظر في الجملة مما يتوقف عليه حياة الإنسان الاجتماعية توقفاً ابتدائياً ، و عليه بناء العقلاء و مدار العمل .

فالخبر إن كان متواتراً أو محفوظاً بقرائن قطعية توجب قطعاً مضمونه كان حجة معتبرة من غير توقف فيها فإن لم يكن متواتراً ولا محفوظاً بما يفيد قطعاً مضمونه و هو المسمى بخبر الواحد اصطلاحاً كان المعتبر منه عندهم ما هو الموثوق به بحسب نوعه و إن لم يفده بحسب شخصه ، و كل ذلك لا أنهم لا يعملون إلا بما يرونه علماً و هو العلم الحقيقي أو الوثوق والظن الاطمئنان المعداد علماً عادة .

إذا تمهّد هذا فقوله تعالى في تعليل الأمر بالتبين في خبر الفاسق : « أن تصيبوا قوماً بجهالة » الخ يفيد أن المأمور به هو رفع الجهالة و حصول العلم بمضمون الخبر عند ما يراد العمل به و ترتيب الأثر عليه ففي الآية إثبات ما أثبتته العقلاء و نفى ما نفوه في هذا الباب ، و هو إضفاء لا تأسيس .

قوله تعالى : « و اعلموا أن فيكم رسول الله لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتم » الخ العنت الإثم والهلاك ، والطوع والطاعة الانقياد لكن أكثر ما يقال الطاعة في الائتمار لما أمر والارتسام لما رسم على ما ذكره الراغب لكن ربّما يعكس الأمر فيسمى جري المتبوع على ما يريده التابع و يهواه طاعة من المتبوع للتابع و منه قوله

تعالى في الآية : « لو يطيعكم » حيث سمى عمل الرسول على ما يراه و يهواه المؤمنون طاعة منه لهم .

والآية على ما يفيد السياق من تمتة الكلام في الآية السابقة تعمم ما فيها من الحكم و تؤكد ما فيها من التعليل فمضمون الآية السابقة الحكم بوجوب التبيين في خبر الفاسق و تعليله بوجوب التحرز عن بناء العمل على الجهالة ، و مضمون هذه الآية تنبيه المؤمنين على أن الله سبحانه أورد لهم شرع الرشد و لذلك حثب إليهم الايمان و زينته في قلوبهم و كره إليهم الكفر و الفسوق و العصيان فعليهم أن لا يغفلوا عن أن فيهم رسول الله و هو مؤيد من عند الله و على بيينة من ربه لا يسلك إلا سبيل الرشد دون الغي فعليهم أن يطيعوا الرسول ﷺ فيما يأمرهم به و يريدوا ما أراه و يختاروا ما اختاره ، ولا يصروا على أن يطيعهم في آرائهم و أهوائهم فانه لو يطيعهم في كثير من الأمر جهدوا و هلكوا .

فقوله : « و اعلموا أن فيكم رسول الله » عطف على قوله في الآية السابقة : « فتبينوا » و تقديم الخبر للدلالة على الحصر ، و الإشارة إلى ما هو لازمه فإن اختصاصهم بكون رسول الله ﷺ فيهم لازمه أن يتعلقوا بالرشد و يتجنبوا الغي و يرجعوا الأمور إليه و يطيعوه و يتبعوا أثره و لا يتعلقوا بما تستدعيه منهم أهواؤهم .

فالمنعنى و لا تنسوا أن فيكم رسول الله ، و هو كناية عن أنه يجب عليهم أن يرجعوا الأمور و يسيروا فيما يواجهونه من الحوادث على ما يراه و يأمر به من غير أن يتبعوا أهواء أنفسهم .

و قوله : « لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتم » أي جهدتم و هلكتم ، و الجملة كالجواب لسؤال مقدر كأن سائلا يسأل فيقول : لما ذا نرجع إليه و لا يرجع إلينا و لا يوافقنا ؟ فأجيب بأنه « لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتم » .

وقوله : « ولكن الله حثب إليكم الايمان و زينته في قلوبكم » استدراك عما يدل عليه الجملة السابقة : « لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتم » من أنهم مشرفون بالطبع على الهلاك و الغي فاستدرك أن الله سبحانه أصاح ذلك بما أنعم عليهم من تحبيب

الإيمان و تكريه الكفر والفسوق والعصيان .

والمراد بتحبيب الإيمان إليهم جعله محبوباً عندهم و بتزيينه في قلوبهم تحليلته بجمال يجذب قلوبهم إلى نفسه فيتعلقون به و يعرضون عما يلهيهم عنه .

وقوله : « وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان » عطف على «حبب» وتكريه الكفر وما يتبعه إليهم جعلها مكروهة عندهم تنفّر عنها نفوسهم ، والفرق بين الفسوق والعصيان - على ما قيل - أن الفسوق هو الخروج عن الطاعة إلى المعصية ، والعصيان نفس المعصية و إن شئت فقل : جميع المعاصي ، و قيل : المراد بالفسوق الكذب بقرينة الآية السابقة والعصيان سائر المعاصي .

وقوله : « أولئك هم الراشدون » بيان أن حب الإيمان والانجذاب إليه و كراهة الكفر والفسوق والعصيان هو سبب الرشد الذي يطلبه الإنسان بفطرته و يتنفّر عن الغي الذي يقابله فعلى المؤمنين أن يلزموا الإيمان و يتجنبوا الكفر والفسوق والعصيان حتّى يرشدوا و يتبعوا الرسول ولا يتبعوا أهواءهم .

ولمّا كان حب الإيمان والانجذاب إليه و كراهة الكفر ونحوه صفة بعض من كان الرسول فيهم دون الجميع كما يصرّح به الآية السابقة ، وقد وصف بذلك جماعتهم تحفظاً على وحدتهم وتشويقاً لمن لم يتصف بذلك منهم غير السياق والتفت عن خطابهم إلى خطاب النبي ﷺ فقال : « أولئك هم الراشدون » والإشارة إلى من اتصف بحب الإيمان وكراهة الكفر والفسوق والعصيان ، ليكون مدحاً للمتصفين بذلك وتشويقاً لغيرهم .

واعلم أن في قوله : « واعلموا أن فيكم رسول الله لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتكم » إشعاراً بأن قوماً من المؤمنين كانوا مصرّين على قبول نبا الفاسق الذي تشير إليه الآية السابقة ، وهو الوليد بن عقبة أرسله النبي ﷺ إلى بني المصطلق لأخذ زكواتهم فجاء إليهم فلمّا رأهم هابهم ورجع إلى المدينة وأخبر النبي ﷺ أنهم ارتدوا فعزم النبي ﷺ على قتالهم فنزلت الآية فانصرف وفي القوم بعض من يصرّ على أن يغزوهم . وسيجيء القصة في البحث الروائي التالي .

قوله تعالى : « فضلاً من الله ونعمة والله عليم حكيم » تعليل لما تقدم من فعله تعالى بالمؤمنين من تحبيب الإيمان وتزيينه وتكريه الكفر والفسوق والعصيان أي إن ذلك منه تعالى مجرد عطية ونعمة لا إلى بدل يصل إليه منهم لكن ليس فعلاً جزافاً فإِنَّه تعالى عليم بمورد عطيته ونعمته حكيم لا يفعل ما يفعل جزافاً كما قال : « وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها وكان الله بكل شيء عليمًا » الفتح : ٢٦ .

قوله تعالى : « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما » إلى آخر الآية الاقتتال والتقاتل بمعنى واحد كالاستباق والتسابق ، ورجوع ضمير الجمع في « اقتتلوا » إلى الطائفتين باعتبار المعنى فإن كلاً من الطائفتين جماعة ومجموعهما جماعة كما أن رجوع ضمير التثنية إليهما باعتبار المعنى .

ونقل عن بعضهم في وجه التفرقة بين الضميرين : أنهم أولاً في حال القتال مختلطون فلذا جمع أولاً ضميرهم ، وفي حال الصلح متميزون متفارقون فلذا ثنى الضمير .

وقوله : « فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله » البغي الظلم والتعدي بغير حق ، والفیء الرجوع ، والمراد بأمر الله ما أمر به الله ، والمعنى فإن تعدت إحدى الطائفتين على الأخرى بغير حق فقاتلوا الطائفة المتعدية حتى ترجع إلى ما أمر به الله وتنقاد لحكمه .

وقوله : « فإن فاعت فأصلحوا بينهما بالعدل » أي فإن رجعت الطائفة المتعدية إلى أمر الله فأصلحوا بينهما لكن لا إصلاحاً بوضع السلاح وترك القتال فحسب بل إصلاحاً متلبساً بالعدل باجراء أحكام الله فيما تعدت به المتعدية من دم أو عرض أو مال أو أي حق آخر ضيعته .

وقوله : « وأقسطوا إن الله يحب المقسطين » الإقساط إعطاء كل ما يستحقه من القسط والسهم وهو العدل فعطف قوله : « وأقسطوا » على قوله : « أصلحوا بينهما بالعدل » من عطف المطلق على المقيد للتأكيد ، وقوله : « إن الله يحب المقسطين » تعليل يفيد تأكيداً على تأكيد كأنه قيل : أصلحوا بينهما بالعدل واعدلوا دائماً وفي

جميع الأمور لأن الله يحب العادلين لعدالتهم .

قوله تعالى : « إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم » استئناف مؤكد

لما تقدم من الإصلاح بين الطائفتين المتقاتلتين من المؤمنين ، وقصر النسبة بين المؤمنين في نسبة الأخوة مقدمة ممهدة لتعليل ما في قوله : « فأصلحوا بين أخويكم » من حكم الصلح فيفيد أن الطائفتين المتقاتلتين لوجود الأخوة بينهما يجب أن يستقر بينهما الصلح ، والمصلحون لكونهم إخوة للمتقاتلتين يجب أن يسعوا في إصلاح ما بينهما .

وقوله : « فأصلحوا بين أخويكم » ولم يقل : فأصلحوا بين الأخوين من أوجز الكلام وألفظه حيث يفيد أن المتقاتلتين بينهما أخوة فمن الواجب أن يستقر بينهما الصلح وسائر المؤمنين إخوان للمتقاتلتين فيجب عليهم أن يسعوا في الإصلاح بينهما . وقوله : « واتقوا الله لعلكم ترحمون » موعظة للمتقاتلتين والمصلحين جميعا .

﴿ كلام في معنى الإخوة ﴾

واعلم أن قوله : « إنما المؤمنون إخوة » جعل تشريعيً لنسبة الأخوة بين المؤمنين لها آثار شرعية وحقوق مجعولة ، وقد تقدم في بعض المباحث المتقدمة أن من الأبوة والبنوة والأخوة وسائر أنواع القرابة ما هو اعتباري مجعول يعتبره الشرائع والقوانين لترتيب آثار خاصة عليه كالورثة والإفلاق وحرمة الازدواج وغير ذلك ، ومنها ما هو طبيعي بالانتهاء إلى صلب واحد أو رحم واحدة أوهما .

والاعتباري من القرابة غير الطبيعي منها فربما يجتمعان كالأخوين المتولدتين بين الرجل والمرأة عن نكاح مشروع ، وربما يختلفان كالولد الطبيعي المتولد من زنا فإنه ليس ولداً في الإسلام ولا يلحق بمولده وإن كان ولداً طبيعياً ، وكالدعي الذي هو ولد في بعض القوانين وليس بولد طبيعي .

و اعتبار المعنى الاعتباري وإن كان لغرض ترتيب آثار حقيقته عليه كما يؤخذ أحد القوم رأساً لهم ليكون نسبته إليهم نسبة الرأس إلى البدن فيدبر أمر المجتمع و يحكم بينهم وفيهم كما يحكم الرأس على البدن .

لكن لما كان الاعتبار لمصلحة مقتضية كان تابعا للمصلحة فان اقتضت ترتيب جميع آثار الحقيقة ترتبت عليه جميعا وإن اقتضت بعضها كان المترتب على الموضوع الاعتباري ذلك البعض كما أن القراءة مثلا جزء من الصلاة والجزء الحقيقي ينتفي بانتفائه الكل مطلقا لكن القراءة لا ينتفي بانتفائها الصلاة إذا كان ذلك سهواً وإنما تبطل الصلاة إذا تركت عمداً .

و لذلك أيضاً ربما اختلفت آثار معنى اعتباري بحسب الموارد المختلفة كجزئية الركوع حيث تبطل الصلاة بزيادته و نقيضه عمداً و سهواً بخلاف جزئية القراءة كما تقدم فمن الجائز أن يختلف الآثار المترتبة على معنى اعتباري بحسب الموارد المختلفة لكن لا ترتب الآثار الاعتبارية إلا على موضوع اعتباري كالإنسان يتصرف في ماله لكن لا بما أنه إنسان بل بما أنه مالك والأخ يرث أخاه في الإسلام لا لأنه أخ طبيعي يشارك الميت في الوالد أو الوالدة أو فيهما - فولد الزنا كذلك ولا يرث أخاه الطبيعي - بل يرثه لأنه أخ في الشريعة الإسلامية .

والأخوة من هذا القبيل فمنها أخوة طبيعية لا أثر لها في الشرائع والقوانين وهي اشتراك إنسانين في أب أو أم أو فيهما ، ومنها أخوة اعتبارية لها آثار اعتبارية وهي في الإسلام أخوة نسبية لها آثار في النكاح والإرث ، وأخوة رضاعية لها آثار في النكاح دون الإرث وأخوة دينية لها آثار اجتماعية ولا أثر لها في النكاح والإرث وسيجيء قول الصادق عليه السلام : المؤمن أخو المؤمن ، عينه و دليله ، لا يخونه ، ولا يظلمه ولا يغشه ، ولا يعده عدة فيخلفه .

وقد خفي هذا المعنى على بعض المفسرين فأخذ إطلاق الإخوة في كلامه تعالى على المؤمنين إطلاقاً مجازياً من باب الاستعارة بتشبيه الاشتراك في الإيمان بالمشاركة في أصل التوالد لأن كلا منهما أصل للبقاء إذ التوالد منشأ الحياة ، والإيمان منشأ البقاء الأبدي في الجنان ، وقيل : هو من باب التشبيه البليغ من حيث انتسابهم إلى أصل واحد هو الإيمان الموجب للبقاء الأبدي .

﴿بحث روائي﴾

في المجمع في قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا » روى زرارة عن أبي جعفر - عليه السلام : أنه قال : ما سكت السيوف ، ولا أقيمت الصفوف في صلاة ولا زحوف ، ولا جهر بأذان ، ولا أنزل الله : « يا أيها الذين آمنوا » حتى أسلم أبناء قبيلة الأوس والخزرج .

أقول : وعن ابن عباس أيضاً ما نزل يا أيها الذين آمنوا إلا بالمدينة ، ولا « يا أيها الناس » إلا بمكة الخبر . وتوقف بعضهم في عموم ذيله ، واعلم أن هناك روايات في الدر المنثور وتفسير القمي في سبب نزول قوله : « لا تقدموا بين يدي الله ورسوله » الآية لا تنطبق على الآية ذاك الانطباق تركناها من أراد الوقوف عليها فليراجعهما .

وفي الدر المنثور أخرج أحمد والبخاري ومسلم وأبو يعلى والبغوي في معجم الصحابة وابن المنذر والطبراني وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن أنس قال : لما نزلت « يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي » - إلى قوله - وأنتم لا تشعرون » وكان ثابت بن قيس بن شماس رفيع الصوت فقال : أنا الذي كنت أرفع صوتي على رسول الله ﷺ حبط عملي أنا من أهل النار ، وجلس في بيته حزينا . فقده رسول الله ﷺ فانطلق بعض القوم إليه فقالوا له : فقدك رسول الله ﷺ مالك ؟ قال : أنا الذي أرفع صوتي فوق صوت النبي ﷺ وأجهر له بالقول حبط عملي وأنا من أهل النار ، فأتوا النبي ﷺ فأخبروه بذلك فقال : لا بل هو من أهل الجنة . فلما كان يوم اليمامة قتل .

أقول : قوله : « فلما كان يوم اليمامة قتل » من كلام الراوي يريد أنه استشهد يوم اليمامة فكان ذلك تصديق قول النبي ﷺ ، والرواية مروية بطرق مختلفة أخرى باختلاف سير .

وفيه أخرج البخاري في الأدب وابن أبي الدنيا والبيهقي عن داود بن قيس قال : رأيت الحجرات من جريد النخل مغطى من خارج بمسوح الشعر وأظن عرض الباب

من باب الحجرة إلى باب البيت نحواً من ستة أو سبعة أذرع وأحزر^(١) البيت الداخل عشرة أذرع ، وأظن سمكه بين الثمان والسبع .

أقول : وروى مثل صدره عن ابن سعد عن عطاء الخراساني قال : أدركت حجر أزواج رسول الله ﷺ من جريد النخل على أبوابها المسوح من شعر أسود . الحديث .

وفيه أخرج أحمد وابن أبي حاتم والطبراني وابن منده وابن مردويه بسند جيد عن الحارث بن ضرار الخزاعي قال : قدمت على رسول الله ﷺ فدعاني إلى الإسلام فدخلت فيه وأقررت به ، ودعاني إلى الزكاة فأقررت بها . قلت : يا رسول الله أرجع إلى قومي فادعهم إلى الإسلام وأداء الزكاة فمن استجاب لي وترسل إلي يا رسول الله رسولاً رسولاً إيان كذا وكذا لتأتيك ما جمعت من الزكاة .

فلما جمع الحارث الزكاة ممن استجاب له وبلغ الأمان الذي أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبعث إليه احتبس الرسول فلم يأت فظن الحارث أنه قد حدث فيه سخطة من الله ورسوله فدعا بسروات قومه فقال لهم : إن رسول الله ﷺ كان وقت لي وقتاً يرسل إلي رسولاً ليقبض ما كان عندي من الزكاة وليس من رسول الله ﷺ الخلف ولا أرى حبس رسول الله ﷺ إلا من سخطة فانطلقوا فنأتي رسول الله ﷺ .

وبعث رسول الله ﷺ الوليد بن عقبة إلى الحارث ليقبض ما كان عنده مما جمع من الزكاة فلما أن سار الوليد حتى بلغ بعض الطريق فرق فرجع فأتى رسول الله ﷺ فقال : إن الحارث منعني الزكاة وأراد قتلي فضرب رسول الله ﷺ البعث إلى الحارث فأقبل الحارث بأصحابه حتى إذا استقبل البعث وفصل عن المدينة لقيهم الحارث فقالوا : هذا الحارث فلماً غشيهم قال لهم : إلى من بعثتم ؟ قالوا : إليك . قال : ولم ؟ قالوا : إن رسول الله ﷺ بعث إليك الوليد بن عقبة فزعم أنك منعت الزكاة وأردت قتله . قال : لا والذي بعث محمد بالحق ما رأيته ولا أتانى .

فلما دخل الحارث على رسول الله ﷺ قال : منعت الزكاة وأردت قتل رسولي ؟ قال : لا والذي بعثك بالحق ما رأيته ولا رأيته وما أقبلت إلا حين احتبس علي رسول (١) كذا في الأصل ولعله جمع خريز بالخاء المعجمة وهو المكان المظمئن .

رسول الله ﷺ خشيت أن يكون كانت سخطه من الله ورسوله فنزل « يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا - إلى قوله - حكيم » .

أقول : نزول الآية في قصة الوليد بن عقبة مستفيض من طرق أهل السنة والشيعة وقال ابن عبد البر في الاستيعاب : ولا خلاف بين أهل العلم بتأويل القرآن فيما علمت أن قوله عز وجل : « إن جاءكم فاسق بنبأ » نزلت في الوليد بن عقبة .

وفي المحاسن بإسناده عن زياد الحذائي عن أبي جعفر عليه السلام في حديث له قال : يا زياد ويحك و هل الدين إلا الحب ؟ ألا ترى إلى قول الله « إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله و يغفر لكم ذنوبكم » ؟ أو لا ترون إلى قول الله لمحمد ﷺ : « حبب إليكم الإيمان وزيّنه في قلوبكم » ؟ قال : « يحبون من هاجر إليهم » وقال : الحب هو الدين والدين هو الحب .

أقول : و روى في الكافي بإسناده عن فضيل بن يسار عن الصادق عليه السلام ما في معناه و لفظه : و هل الايمان إلا الحب والبغض ؟ ثم تلا هذه الآية : « حبب إليكم الايمان » إلى آخر الآية .

و في المجمع و قيل : الفسوق هو الكذب عن ابن عباس و ابن زيد وهو المروى عن أبي جعفر عليه السلام .

أقول : و في هذا المعنى بعض روايات آخر .

و في الكافي بإسناده عن علي بن عقبة عن أبي عبد الله عليه السلام قال : المؤمن أخو المؤمن عينه و دليله لا يخونه ولا يظلمه ولا يغشه ولا يعده عدة فيخلقه .

أقول : و في معناه روايات أخر عنه عليه السلام و في بعضها المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يعتابه .

و في المحاسن بإسناده عن أبي حمزة الثمالي عن أبي جعفر عليه السلام قال : المؤمن أخو المؤمن لأبيه و أمّه و ذلك أن الله تبارك و تعالى خلق المؤمن من طينة جنات السماوات ، و أجرى فيهم من ريح روحه فذلك هو أخوه لأبيه و أمّه .

و في الدر المنثور أخرجه أحمد و البخاري و مسلم و ابن جرير و ابن المنذر و ابن

مردويه و البيهقي في سننه عن أنس قال : قيل للنبي ﷺ : لو أتيت عبد الله بن أبي فأنطلق وركب حماراً وأنطلق المسلمون يمشون وهي أرض سبخة فلما أنطلق إليهم قال : إليك عنّي فوالله لقد آذاني ريح حمارك .

فقال رجل من الأنصار : والله لحمار رسول الله ﷺ أطيب ريحاً منك فغضب لعبد الله رجال من قومه فغضب لكل منهما أصحابه فكان بينهم ضرب بالجريد والأيدي والنعال فأنزل فيهم « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما » .

اقول : وفي بعض الروايات كما في المجمع أن الذي قال ذلك لعبد الله بن أبي بن سلول هو عبد الله بن رواحة وأن التضارب وقع بين رهطه من الأوس و رهط عبد الله بن أبي من الخزرج وفي انطباق الآية بموضوعها وحكمها على هذه الروايات خفاء .





يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (١١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ (١٢) يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (١٣) قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تَقُومُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٤) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (١٥) قُلْ اتَّعْلَمُونَ اللَّهُ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٦) يَمُنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُوا

عَلَىٰ إِسْلَامِكُمْ بِاللَّهِ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَيْكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٧) إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨) .

﴿بيان﴾

قوله تعالى : « يا أيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرُ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ » الخ السخرية الاستهزاء و هو ذكر ما يستحق و يستهان به إلا إنسان بقول أو إشارة أو فعل تقليداً بحيث يضحك منه بالطبع ، والقوم الجماعة و هو في الأصل الرجال دون النساء لقيامهم بالأُمُور المهمة دونهن ، و هذا المعنى هو المراد بالقوم في الآية بما قوبل بالنساء .

وقوله : « عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ » و « عَسَىٰ أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ » حكمة النهي .

والمستفاد من السياق أن الملاك رجاء كون المسخور منه خيراً عند الله من الساخر سواء كان الساخر رجلاً أو امرأة و كذا المسخور منه فتخصيص النهي في اللفظ بسخرية القوم من القوم و سخرية النساء من النساء لمكان الغلبة عادة .

وقوله : « وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ » اللمز - على ما قيل - التنبه على الطعاب ، وتعليق اللمز بقوله : « أَنْفُسَكُمْ » للإشارة إلى أنهم مجتمع واحد بعضهم من بعض فلمز الواحد منهم غيره في الحقيقة لمز نفسه فليجتنب من أن يلزم غيره كما يكره أن يلزمه غيره ففي قوله : « أَنْفُسَكُمْ » إشارة إلى حكمة النهي .

وقوله : « وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأَسْمَاءُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ » النبز بالتحريك هو اللقب ، ويختص - على ما قيل - بما يدل على ذم فالتنابز بالألقاب ذكر بعضهم بعضاً بقلب السوء مما يكرهه كالفاسق والسفيه ونحو ذلك .

والمراد بالاسم في « بئس الاسم الفسوق » الذكر كما يقال : شاع اسم فلان بالسوء والجدود ، وعلى هذا فالمعنى بئس الذكر ذكر الناس - بعد إيمانهم - بالفسوق فإنّ الحريّ بالموءمن بما هو موءمن أن يذكر بالخير ولا يطعن فيه بما يسوؤه نحو يامن أبوه كان كذا ويا من أمّه كانت كذا .

ويمكن أن يكون المراد بالاسم السمة والعلامة والمعنى بئست السمة أن يوسم الإنسان بعد الإيمان بالفسوق بأن يذكر بسمة السوء كأن يقال لمن اقترف معصية ثمّ تاب : يا صاحب المعصية الفلانيّة ، أو المعنى بئس الاسم أن يسم الإنسان نفسه بالفسوق بذكر الناس بما يسوؤهم من الألقاب ، وعلى أيّ معنى كان ففي الجملة إشارة إلى حكمة النهي .

وقوله : « ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون » أي ومن لم يتب عن هذه المعاصي التي يقتربها بعد ورود النهي فلم يندم عليها ولم يرجع إلى الله سبحانه بتركها فأولئك ظالمون حقاً فإنهم لا يرون بها بأساً وقد عدّها الله معاصي ونهى عنها . وفي الجملة أعني قوله : « ومن لم يتب » الخ إشعار بأنّ هناك من كان يقترب هذه المعاصي من المؤمنين .

قوله تعالى : « يا أيّها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظنّ إنّ بعض الظنّ إثم » إلى آخر الآية المراد بالظنّ المأمور بالاجتناب عنه ظنّ السوء فإنّ ظنّ الخير مندوب إليه كما يستفاد من قوله تعالى : « لو لا إذ سمعتموه ظنّ المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً » النور : ١٢ .

والمراد بالاجتناب عن الظنّ الاجتناب عن ترتيب الأثر عليه كأن يظنّ بأخيه المؤمن سوء فيرميه به ويذكره لغيره ويترتب عليه سائر آثاره ، وأمّا نفس الظنّ بما هو نوع من الإدراك النفسانيّ فهو أمر يفاجيء النفس لا عن اختيار فلا يتعلّق به النهي اللهمّ إلّا إذا كان بعض مقدّماته اختيارياً .

وعلى هذا فكون بعض الظنّ إثمّاً من حيث كون ما يترتب عليه من الأثر إثمّاً كإهانة المظنون به وقذفه وغير ذلك من الآثار السيئة المحرّمة ، والمراد بكثير

من الظن - وقد جبيء به نكرة ليدل على كثرته في نفسه لا بالقياس إلى سائر أفراد الظن - هو بعض الظن الذي هو إثم فهو كثير في نفسه وبعض من مطلق الظن ، ولو أريد بكثير من الظن أعم من ذلك كأن يراد ما يعلم أن فيه إثمًا وما لا يعلم منه ذلك كان الأمر بالاجتناب عنه أمراً احتياطياً توقياً من الوقوع في الإثم .

وقوله : « ولا تجسسوا » التجسس بالجيم تتبع ما استتر من أمور الناس للاطلاع عليها ، ومثله التجسس بالحاء المهملة إلا أن التجسس بالجيم يستعمل في الشر والتجسس بالحاء يستعمل في الخير ، ولذا قيل : معنى الآية لا تتبعوا عيوب المسلمين لتهتكوا الأمور التي سترها أهلها .

وقوله : « ولا يغتب بعضكم بعضاً أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه » الغيبة على ما في مجمع البيان ذكر العيب بظهر الغيب على وجه يمنع الحكمة منه ، وقد فسرت بتفاسير مختلفة حسب الاختلاف في مصاديقها سعة وضيقاً في الفقه ، ويؤل إلى أن يذكر من الإنسان في ظهر الغيب ما يسوؤه لو ذكر به ولذا لم يعدوا من الغيبة ذكر المتجاهر بالفسق بما تجاهر به .

والغيبة تفسد أجزاء المجتمع واحداً بعد واحد فتسقطها عن صلاحية التأثير الصالح المرجو من الاجتماع وهو أن يخالط كل صاحبه ويمازجه في أمن وسلامة بأن يعرفه إنساناً عادلاً سويّاً يأنس به ولا يكرهه ولا يستقذره ، وأما إذا عرفه بما يكرهه ويعيبه به انقطع عنه بمقدار ذلك وضعت رابطة الاجتماع فهي كالأكلة التي تأكل جثمان من ابتلي بها عضواً بعد عضو حتى تنتهي إلى بطلان الحياة .

والإنسان إنما يعقد المجتمع ليعيش فيه بهوية اجتماعية أعني بمنزلة اجتماعية صالحة لأن يخالطه ويمازج فيفيد ويستفاد منه ، وغيبته بذكر عيبه لغيره تسقطه عن هذه المنزلة وتبطل منه هذه الهوية ، وفيه تنقيص واحد من عدد المجتمع الصالح ولا يزال ينتقص بشيوع الغيبة حتى يأتي على آخره فيتبدل الصلاح فساداً ويذهب الأُنس والأمن والاعتماد وينقلب الدواء داء .

فهو في الحقيقة إبطال هوية اجتماعية على حين غفلة من صاحبها ومن حيث

لا يشعر به ، و لو علم بذلك على ما فيه من المخاطرة لتحرز منه و توقى انتهاك ستره و هو الستر ألقاه الله سبحانه على عيوب الانسان و نواقصه ليتّم به ما أَراده من طريق الفطرة من تألف أفراد الانسان وتجمّعهم وتعاونهم و تعاوضهم ، وأين الانسان والنزاهة من كل عيب .

و إلى هذه الحقيقة أشار تعالى فيما ذكره من التمثيل بقوله : « أَيْحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ » و قد أتى بالاستفهام الإنكاري و نسب الحب المنفي إلى أحدكم و لم يقل : بعضكم و نحو ذلك ليكون النفي أوضح استيعاباً و شمولاً و لذا أكّده بقوله بعد : « فَكَرِهْتُمُوهُ » فنسب الكراهة إلى الجميع و لم يقل : فكرهه .

و بالجملة محصّله أن اغتيال المؤمن بمنزلة أن يأكل الانسان لحم أخيه حال كونه ميتاً ، و إنّما كان لحم أخيه لأنّه من أفراد المجتمع الاسلامي المؤلّف من المؤمنين وإنّما المؤمنون إخوة ، و إنّما كان ميتاً لأنّه لغيبته غافل لا يشعر بما يقال فيه .

و في قوله : « فَكَرِهْتُمُوهُ » و لم يقل : فتكرهونه إشعار بأن الكراهة أمر ثابت محقق منكم في أن تأكلوا إنساناً هو أخوكم و هو ميت فكما أن هذا مكروه لكم فليكن مكروهاً لكم اغتيال أخيك المؤمن بظهر الغيب فأنّه في معنى أكل أحدكم أخاه ميتاً . و اعلم أن ما في قوله : « أَيْحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ » النّح من التعليل جار في التجسّس أيضاً كالغيبة ، و إنّما الفرق أن الغيبة هو إظهار عيب الغير للغير أو التوصل إلى الظهور عليه من طريق نقل الغير ، و التجسّس هو التوصل إلى العلم بعيب الغير من طريق تتبّع آثاره و لذلك لم يبعد أن يكون الجملة أعني قوله : « أَيْحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا » النّح تعليلاً لكل من الجملتين أعني « وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبِ بَعْضُكُم بَعْضًا » .

و اعلم أن في الكلام إشعاراً أودلالة على اقتصار الحرمة في غيبة المسلمين ، و من القرينة عليه قوله في التعليل : « لَحْمَ أَخِيهِ » فالأخوة إنّما هي بين المؤمنين .

وقوله : « وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ » ظاهره أنّه عطف على قوله : « اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ » إن كان المراد بالتقوى هو التجنّب عن هذه الذنوب التي كانوا

يقترفونها بالتوبة إلى الله سبحانه فالمراد بقوله : «إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ» أَنَّ اللَّهَ كَثِيرُ القبول للتوبة رحيم بعباده التائبين إليه اللائذين به .

وإن كان هو التجنب عنها و التورع فيها وإن لم يكونوا يقترفونها فالمراد بقوله : «إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ» أَنَّ اللَّهَ كَثِيرُ الرجوع إلى عباده المتقين بالهداية والتوفيق والحفظ عن الوقوع في مهالك الشقوة رحيم بهم .

وذلك أَنَّ التوبة من الله توبتان توبة قبل توبة العبد بالرجوع إليه بالتوفيق للتوبة كما قال تعالى : «ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا» التوبة : ١١٨ ، و توبة بعد توبة العبد بالرجوع إليه بالمغفرة و قبول التوبة كما في قوله : «فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ» المائدة : ٣٩ .

قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا » إِنَّكُمْ كُنْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ تَوَّابِينَ ﴿١٠٩﴾ الخ الشعوب جمع شعب بالكسر فالسكون وهو على ما في المجمع الحي العظيم من الناس كربيعة ومضر ، والقبايل جمع قبيلة وهي دون الشعب كتميم من مضر .

وقيل : الشعوب دون القبائل وسميت بها لتشعبها قال الراغب : الشعب القبيلة المنشعبة من حي واحد ، وجمعه شعوب قال تعالى : «شُعُوبًا وَقَبَائِلَ» والشعب من الوادي ما اجتمع منه طرف و تفرق طرف فإذا نظرت إليه من الجانب الذي تفرق أخذت في وهمك واحداً يتفرق ، وإذا نظرت من جانب الاجتماع أخذت في وهمك اثنين اجتماعاً فلذلك قيل : شعبت إذا جمعت ، وشعبت إذا فرقت . انتهى .

وقيل : الشعوب العجم والقبايل العرب ، والظاهر أَنَّ مآله إلى أحد القولين السابقين ، وسيجيء تمام الكلام فيه ^(١) .

ذكر المفسرون أَنَّ الآية مسوقة لنفي التفاخر بالأنساب ، وعليه فالمراد بقوله : «مَنْ ذَكَرَ وَأُنْثَى» آدم وحواء ، والمعنى أَنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ أَبٍ وَأُمٍّ تَشْتَرِكُونَ جَمِيعًا فِيهِمَا مِنْ غَيْرِ فَرْقٍ بَيْنَ الْأَبْيَضِ وَالْأَسْوَدِ وَالْعَرَبِيِّ وَالْعَجَمِيِّ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ

مختلفة لا لكرامة لبعضكم على بعض بل لأن تتعارفوا فيعرف بعضكم بعضاً ويتم بذلك أمر اجتماعكم فيستقيم مواصلاتكم ومعاملاتكم فلو فرض ارتفاع المعرفة من بين أفراد المجتمع انضم عقد الاجتماع وبادت الإنسانية فهذا هو الغرض من جعل الشعوب والقبائل لا أن تتفاخروا بالأنسب وتبأهوا بالآباء والأمهات .

وقيل : المراد بالذكر والأنثى مطلق الرجل والمرأة ، والآية مسوقة لإلغاء مطلق التفاضل بالطبقات كالأبيض والأسود والعرب والعجم والغني والفقر والمولى والعبد والرجل والمرأة ، والمعنى يا أيها الناس إنا خلقناكم من رجل وامرأة فكل واحد منكم إنسان مولود من إنسانين لا تفرقون من هذه الجهة ، والاختلاف الحاصل بالشعوب والقبائل - وهو اختلاف راجع إلى الجعل الإلهي - ليس لكرامة وفضيلة وإنما هو لأن تتعارفوا فيتم بذلك اجتماعكم .

واعترض عليه بأن الآية مسوقة لنفي التفاخر بالأنسب وذمه كما يدل عليه قوله : « وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا » وترتب هذا الغرض على هذا الوجه غير ظاهر ، ويمكن أن يناقش فيه أن الاختلاف في الأنساب من مصاديق الاختلاف الطبقاتي وبناء هذا الوجه على كون الآية مسوقة لنفي مطلق الاختلاف الطبقاتي وكما يمكن نفي التفاخر بالأنسب وذمه استناداً إلى أن الأنساب تنتهي إلى آدم وحواء والناس جميعاً مشتركون فيهما ، كذلك يمكن نفيه وذمه استناداً إلى أن كل إنسان مولود من إنسانين والناس جميعاً مشتركون في ذلك .

والحق أن قوله : « وجعلناكم شعوباً وقبائل » إن كان ظاهراً في ذم التفاخر بالأنسب فأول الوجهين أوجه ، وإلا فالثاني لكونه أعم وأشمل .

وقوله : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » استئناف مبين لما فيه الكرامة عند الله سبحانه ، وذلك أنه نبههم في صدر الآية على أن الناس بما هم ناس يساوي بعضهم بعضاً لا اختلاف بينهم ولا فضل لأحدهم على غيره ، وأن الاختلاف المترئى في الخلقة من حيث الشعوب والقبائل إنما هو للتوصل به إلى تعارفهم ليقوم به الاجتماع المنعقد بينهم إذ لا يتم ائتلاف ولا تعاون وتعاضد من غير تعارف فهذا هو غرض الخلقة

من الاختلاف المجهول لا أن تتفاخروا بالأنسَاب و تتفاضلوا بأمثال البياض والسواد فيستعبد بذلك بعضهم بعضا و يستخدم إنسان إنساناً و يستعلي قوم على قوم فينجر إلى ظهور الفساد في البر والبحر و هلاك الحرث والنسل فينقلب الدواء داء .

ثم نبه سبحانه في ذيل الآية بهذه الجملة أعني قوله : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » على ما فيه الكرامة عنده ، و هي حقيقة الكرامة .

و ذلك أن الإنسان مجبول على طلب ما يتميز به من غيره و يختص به من بين أقرانه من شرف و كرامة ، و عامة الناس لتعلقهم بالحياة الدنيا يرون الشرف والكرامة في مزايا الحياة المادية من مال و جمال و نسب و حسب و غير ذلك فيبذلون جل جهدهم في طلبها و اقتنائها ليتفاخروا بها و يستعلوا على غيرهم .

و هذه مزايا وهمية لا تجلب لهم شيئاً من الشرف والكرامة دون أن توقعهم في مهابط الهلكة والشقوة ، والشرف الحقيقي هو الذي يؤدي الإنسان إلى سعادته الحقيقية و هو الحياة الطيبة الأبدية في جوار رب العزة و هذا الشرف والكرامة هو بقوى الله سبحانه و هي الوسيلة الوحيدة إلى سعادة الدار الآخرة ، و تتبعها سعادة الدنيا قال تعالى : « تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة » الأنفال : ٦٧ ، وقال : « و تزودوا فإن خير الزاد التقوى » البقرة : ١٩٧ و إذا كانت الكرامة بالتقوى فأكرم الناس عند الله أتقاهم كما قال تعالى .

و هذه البغية والغاية التي اختارها الله بعلمه غاية للناس لا تراحم فيها ولا تدافع بين المتلبسين بها على خلاف الغايات و الكرامات التي يتخذها الناس بحسب أهوامهم غايات يتوجهون إليها و يتباهون بها كالغنى والرئاسة والجمال و انتشار الصيت و كذا الأنساب و غيرها .

و قوله : « إن الله عليم خبير » فيه تأكيد لمضمون الآية و تلويح إلى أن الذي اختاره الله كرامة للناس كرامة حقيقية اختارها الله بعلمه و خبرته بخلاف ما اختاره الناس كرامة و شرفاً لأنفسهم فإنها وهمية باطلة فإنها جميعاً من زينة الحياة الدنيا قال تعالى : « و ما هذه الحياة الدنيا إلا لهو و لعب و إن الدار الآخرة لهي الحيوان

لو كانوا يعلمون « العنكبوت : ٤٤ .

وفي الآية دلالة على أن من الواجب على الناس أن يتبعوا في غايات الحياة أمر ربهم ويختاروا ما يختاره ويهدي إليه وقد اختار لهم التقوى كما أن من الواجب عليهم أن يختاروا من سنن الحياة ما يختاره لهم من الدين .

قوله تعالى : « قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا و لما يدخل الإيمان في قلوبكم » الخ الآية وما يليها إلى آخر السورة متعرضة لحال الأعراب في دعواهم الإيمان ومنسبهم على النبي ﷺ بإيمانهم ، و سياق نقل قولهم و أمر النبي ﷺ أن يجيبهم بقوله : « لم تؤمنوا » يدل على أن المراد بالأعراب بعض الأعراب البادين دون جميعهم ، و يؤيده قوله : « ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر » التوبة : ٩٩ .

وقوله : « قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا » أي قالوا لك آمنا و ادعوا الإيمان قل لم تؤمنوا و كذبهم في دعواهم وقوله : « و لكن قولوا أسلمنا » استدراك مما يدل عليه سابق الكلام والتقدير فلا تقولوا آمنا و لكن قولوا : أسلمنا .

وقوله : « و لما يدخل الإيمان في قلوبكم » لنفي دخول الإيمان في قلوبهم مع انتظار دخوله ، ولذلك لم يكن تكراراً لنفي الإيمان المدلول عليه بقوله : « لم تؤمنوا » . و قد نفى في الآية الإيمان عنهم و أوضحه بأنه لم يدخل في قلوبهم بعد وأثبت لهم الإسلام ، و يظهر به الفرق بين الإيمان والإسلام بأن الإيمان معنى قائم بالقلب من قبيل الاعتقاد ، والإسلام أمر قائم باللسان والجوارح فإنه الاستسلام والخضوع لساناً بالشهادة على التوحيد والنبوة و عملاً بالمتابعة العملية ظاهراً سواء قارن الاعتقاد بحقيقة ما شهد عليه و عمل به أو لم يقارن ، و بظاهر الشهادتين تحقق الدماء و عليه تجري المناكح والمواثيق .

وقوله : « و إن طيعوا الله و رسوله لا يلتكم من أعمالكم شيئاً » أليت النقص يقال : لاته يليتة ليتا إذا نقصه ، والمراد بالإطاعة الإخلاص فيها بموافقة الباطن للظاهر من غير نفاق ، و طاعة الله استجابة مادعى إليه من اعتقاد وعمل ، و طاعة رسوله تصديقه

و اتّباعه فيما يأمر به فيما له الولاية عليه من أمور الامة ، والمراد بالأعمال جزاؤها أو المراد بنقص الأعمال نقص جزائها .

والمعنى وإن تطيعوا الله فيما يأمركم به من اتباع دينه اعتقاداً ، وتطيعوا الرسول فيما يأمركم به لا ينقص من أجور أعمالكم شيئاً ، وقوله : « إن الله غفور رحيم » تعليل لعدم نقصه تعالى أعمالهم إن أطاعوه ورسوله .

قوله تعالى : « إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ » تعريف تفصيلي للمؤمنين بعد ما عرفوا إجمالاً بأنهم الذين دخل الإيمان في قلوبهم كما هو لازم قوله : « لم تؤمنوا ولمّا يدخل الإيمان في قلوبكم » .

فقوله : « إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ » فيه قصر المؤمنين في الذين آمنوا بالله ورسوله الخ ، فتفيد تعريفهم بما ذكر من الأوصاف تعريفاً جامعاً مانعاً فمن اتّصف بها مؤمن حقاً كما أن من فقد شيئاً منها ليس بمؤمن حقاً .

والإيمان بالله ورسوله عقد القلب على توحيده تعالى وحقية ما أرسل به رسوله وعلى صحة الرسالة واتباع الرسول فيما يأمر به .

وقوله : « ثم لم يرتابوا » أي لم يشكوا في حقيقة ما آمنوا به و كان إيمانهم ثابتاً مستقرّاً لا يزله شك ، والتعبير بشم دون الواو - كما قيل - للدلالة على انتفاء عروض الريب حيناً بعد حين كأنه طري جديد دائماً فيفيد ثبوت الإيمان على استحكامه الأولي ولو قيل : ولم يرتابوا كان من الجائز أن يصدق مع الإيمان أو لا مقارناً لعدم الارتباب مع السكوت عما بعد .

وقوله : « وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله » المجاهدة بذل الجهد والطاقة و سبيل الله دينه ، والمراد بالمجاهدة بالأموال والأنفس العمل بما تسعه الاستطاعة و تبلغه الطاقة في التكاليف المالية كالزكاة وغير ذلك من الإنفاقات الواجبة ، والتكاليف البدنية كالصلاة والصوم والحج وغير ذلك .

والمعنى ويجدون بائنان التكاليف المالية والبدنية حال كونهم أو حال كون

عملهم في دين الله و سبيله .

وقوله : « أولئك هم الصادقون » ، تصديق في إيمانهم إذا كانوا على الصفات المذكورة .

قوله تعالى : « قل أتعلمون الله بدينكم والله يعلم ما في السماوات وما في الأرض والله بكل شيء عليم » ، توبيخ للأعراب حيث قالوا : آمنا ولازمه دعوى الصدق في قولهم والإصرار على ذلك ، وقيل : لما نزلت الآية السابقة حلفت الأعراب أنهم مؤمنون صادقون في قولهم : آمنا ، فنزل : « قل أتعلمون الله بدينكم » الآية ، ومعنى الآية ظاهر .

قوله تعالى : « يمتنون عليك أن أسلموا قل لا تمتنوا على إسلامكم بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين » أي يمتنون عليك بأن أسلموا وقد أخطأوا في منتهم هذا من وجهين أحدهما أن حقيقة النعمة التي فيها المن هو الإيمان الذي هو مفتاح سعادة الدنيا والآخرة دون الإسلام الذي له فوائد صورية من حقن الدماء وجواز المناكح والموارث ، وثانيهما أن ليس للنبي ﷺ من أمر الدين إلا أنه رسول مأمور بالتبليغ فلا من عليه لأحد ممن أسلم .

فلو كان هناك من كان لهم على الله سبحانه لأن الدين دينه لكن لا من لأحد على الله لأن المنتفع بالدين في الدنيا والآخرة هم المؤمنون دون الله الغني على الإطلاق فالمن لله عليهم أن هداهم له .

وقد بدّل ثانيا الإسلام من الإيمان للإشارة إلى أن المن إنما هو بالإيمان دون الإسلام الذي إنما ينفعهم في الظاهر فقط .

فقد تضمن قوله : « قل لا تمتنوا على إسلامكم بل الله يمن » الخ الإشارة إلى خطاهم من الجهتين جميعا :

إحداهما خطاهم من جهة توجيه المن إلى النبي ﷺ وهو رسول ليس له من الأمر شيء ، وإليه الإشارة بقوله : « لا تمتنوا على إسلامكم » .

وثانيهما أن المن - لو كان هناك من - إنما هو بالإيمان دون الإسلام ، وإليه

الإشارة بقبديل الإسلام من الإيمان .

قوله تعالى : « إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ » ختم للسورة و تأكيد يعكّل و يؤكّد به جميع ما تقدّم في السورة من النواهي والأوامر و ما بيّن فيها من الحقائق و ما أخبر فيها عن إيمان قوم و عدم إيمان آخرين فالآية تعكّل بمضمونها جميع ذلك .

والمراد بغيب السماوات والأرض ما فيها من الغيب أو الأعمّ ممّا فيهما و من الخارج منهما .

﴿ بحث روائي ﴾

في الدر المنثور أخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل في قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرُ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ » قال : نزلت في قوم من بني تميم استهزؤا من بلال وسلمان و عمار و خباب و صهيب و ابن فهيرة و سالم مولى أبي حذيفة .

و في المجمع : نزل قوله : « لَا يَسْخَرُ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ » في ثابت بن قيس بن شماس و كان في أذنه و قر و كان إذا دخل المسجد نفسحوا له حتّى يقعد عند النبي ﷺ فيسمع ما يقول .

فدخل المسجد يوما والناس قد فرغوا من الصلاة و أخذوا مكانهم فجعل يتخطى رقاب الناس و يقول : نفسحوا نفسحوا حتّى انتهى إلى رجل فقال له : أصبت مجلسا فاجلس فجلس خلفه مغضبا فلما انجلت الظلمة قال : من هذا ؟ قال الرجل : أنا فلان فقال ثابت : ابن فلانة ذكر أمّا له كان يعير بها في الجاهليّة فنكس الرجل رأسه حياء فنزلت الآية . عن ابن عباس .

و فيه : و قوله : « وَلَا نَسَاءٌ مِنْ نَسَاءٍ » نزل في نساء النبي ﷺ سخرن من أمّ سلمة . عن أنس . و ذلك أنّها ربطت حقويها بسبيبة و هي ثوب أبيض و سدلت طرفيها خلفها فكانت تجرّه فقالت عائشة لحفصة : انظري ما ذا تجرّ خلفها كأنه لسان كلب

فهذه كانت سخريتهما ، وقيل : إنها عسرتها بالقصر ، وأشارت بيدها أنها قصيرة .
عن الحسن .

وفي الدر المنثور أخرج أحمد وعبد بن حميد والبخاري في الأدب وأبوداود والترمذي والنسائي وابن ماجه وأبو يعلى وابن جرير وابن المنذر والبغوي في معجمه وابن حبان والشيرازي في الألقاب والطبراني وابن السني في عمل اليوم والليلة والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان عن أبي جيرة بن الضحاك قال : فينا نزلت في بني سلمة « ولا تنابزوا بالألقاب » قدم رسول الله ﷺ المدينة وليس فينا رجل إلا وله اسمان أو ثلاثة فكان إذا دعى أحدهم باسم من تلك الأسماء قالوا : يا رسول الله إنه يكره هذا الاسم فأنزل الله « ولا تنابزوا بالألقاب » .

وفيه أخرج ابن أبي حاتم عن السدي أن سلمان الفارسي كان مع رجلين في سفر يخدمهما وينال من طعامهما وأن سلمان نام نوما فطلبه صاحباه فلم يجدها فضربا الخباء وقالوا ما يريد سلمان شيأ غير هذا أن يجيء إلى طعام معدود وخباء مضروب فلما جاء سلمان أرسلاه إلى رسول الله ﷺ يطلب لهما إداماً فانطلق فأتاه فقال : يا رسول الله بعثني أصحابي لتؤدّمهم إن كان عندك . قال : ما يصنع أصحابك بالأدم ؟ قد اتدّموا .

فرجع سلمان فخبّرهما فانطلقا فأتيا رسول الله ﷺ فقالا : والذي بعثك بالحق ما أصبنا طعاماً منذ نزلنا . قال : إنكما قد اتدتمتما سلمان بقولكما . فنزلت « أوجب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا » .

وفيه أخرج الضياء المقدسي عن أنس قال : كانت العرب يخدم بعضها بعضاً في الأسفار وكان مع أبي بكر وعمر رجل يخدمهما فناما واستيقظا ولم يهتئ لهما طعاما فقالا : إن هذا لنؤوم فأيقظاه فقالا : أئت رسول الله ﷺ فقل له : إن أبابكر وعمر يقرئانك السلام ويستأدما نك فقال : إنهما اتدما ، فجاء آه فقالا يا رسول الله بأي شيء اتدمننا ؟ قال : بلحم أخيكما والذي نفسي بيده إنني لأرى لحمه بين ثناياكما فقالا : استغفر لنا يا رسول الله . قال : مرأه فليستغفر لكما .

أقول : الظاهر أن القصة الموردة في الروایتين واحدة والرجلان المذكوران في الرواية الأولى أبو بكر وعمر والرجل المذكور في الثانية هو سلمان ، و يؤيد هذا ما عن جوامع الجامع قال : وروي أن أبا بكر وعمر بعثا سلمان إلى رسول الله ﷺ ليأتي لهما بطعام فبعثه إلى أسامة بن زيد وكان خازن رسول الله ﷺ على رحله فقال : ما عندي شيء فعاد إليهما فقالا : بخل أسامة و لو بعثنا سلمان إلى بئر سميحة لغار ماؤها .
ثم انطلقا إلى رسول الله ﷺ فقال لهما : مالي أرى خضرة اللحم في أفواهكما قالا : يا رسول الله ماتنا ولنا اليوم لحماً . قال : ظلمت تأكلون لحم سلمان و أسامة فنزلت .

و في العيون بإسناده عن محمد بن يحيى بن أبي عباد عن عمه قال : سمعت الرضا عليه السلام يوماً ينشد و قليلاً ما كان ينشد شعراً :

كلنا نأمل مداً في الأجل والمنايا هن آفات الأمل

لا يغرنك أباطيل المنى والزم القصد ودع عنك العلل

إنما الدنيا كظل زائل حل فيه راكب ثم رحل

فقلت : لمن هذا أعز الله الأمير؟ فقال : لعراقي لكم قلت : أشدنيه أبو العتاهية^(١) لنفسه فقال : هات اسمه و دع هذا ، إن الله سبحانه يقول : « ولا تنازروا بالألقاب » و لعل الرجل يكره هذا .

وفي الكافي بإسناده عن الحسين بن مختار عن أبي عبد الله ﷺ قال : قال أمير المؤمنين ﷺ في كلام له : ضع أمر أخيك على أحسنه حتى يأتيك ما يقلبك منه ، ولا تظنن بكلمة خرجت من أخيك سوء وأنت تجد لها في الخير محملاً .

وفي نهج البلاغة وقال ﷺ : إذا استولى الصلاح على الزمان وأهله ، ثم أساء رجل الظن برجل لم يظهر منه حوبة فقد ظلم ، وإذا استولى الفساد على الزمان وأهله ثم أحسن رجل الظن برجل فقد غرر .

أقول : والروايتان غير متعارضتين فالثانية ناظرة إلى نفس الظن والأولى إلى

ترتيب الأثر عليه عملاً .

وفي الخصال عن أسباط بن محمد باسناده إلى النبي ﷺ أنه قال : الغيبة أشد من الزنا ، فقيل : يا رسول الله ولِمَ ذلك ؟ قال : صاحب الزنا يتوب فيتوب الله عليه وصاحب الغيبة يتوب فلا يتوب الله عليه حتى يكون صاحبه الذي يحلّه .

اقول : ورواه في الدر المنثور عن ابن مردويه والبيهقي عن أبي سعيد وجابر عنه ﷺ ، ولفظه قال رسول الله ﷺ : الغيبة أشد من الزنا . قالوا : يا رسول الله وكيف الغيبة أشد من الزنا ؟ قال : إن الرجل يزني فيتوب فيتوب الله عليه وإن صاحب الغيبة لا يغفر له حتى يغفرها له صاحبه .

وفي الكافي باسناده إلى السكوني عن أبي عبد الله عليه السلام قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : الغيبة أسرع في دين الرجل المسلم من الآكلة في جوفه . وفيه باسناده عن حفص بن عمر عن أبي عبد الله عليه السلام قال : سئل النبي ﷺ ما كفارة الاغتياب قال : تستغفر الله لمن اغتبتك كما ذكرته .

وفي تفسير القمي في قوله تعالى : « وجعلناكم شعوباً وقبائل » قال : الشعوب العجم والقبائل العرب .

اقول : ونسبه في مجمع البيان إلى الصادق عليه السلام .

وفي الدر المنثور أخرج ابن مردويه والبيهقي عن جابر بن عبد الله قال : خطبنا رسول الله ﷺ في وسط أيام التشريق خطبة الوداع فقال : يا أيها الناس ألا إن ربكم واحد ؛ ألا إن أباكم واحد ؛ ألا لا فضل لعربي على عجمي ، ولا لعجمي على عربي ، ولا لأسود على أحم ولا لأحم على أسود إلا بالتقوى إن أكرمكم عند الله أتقاكم . ألا هل بلغت ؟ قالوا : بلى يا رسول الله . قال : فليبلغ الشاهد الغائب .

وفي الكافي باسناده عن أبي بكر الحضرمي عن أبي عبد الله عليه السلام قال : إن رسول الله ﷺ زوج مقداد بن الأسود ضباعة بنت الزبير بن عبد المطلب . إنما زوجه لتضع المناكح ، وليتأسوا برسول الله ﷺ ، وليعلموا أن أكرمهم عند الله أتقاهم .

وفي روضة الكافي بإسناده عن جميل بن دراج قال : قلت لأبي عبد الله عليه السلام :
فما الكرم ؟ قال : التقوى .

وفي الكافي بإسناده عن يونس بن يعقوب عن أبي عبد الله عليه السلام في حديث قال :
إنّ الإسلام قبل الإيمان وعليه يتوارثون وعليه يتناكحون والإيمان عليه يثابون .
وفي الخصال عن الأعمش عن جعفر بن محمد عليه السلام في حديث : والإسلام غير
الإيمان ، وكلّ مؤمن مسلم وليس كلّ مسلم مؤمن .

وفي الدر المنثور في قوله تعالى : « قالت الأعراب آمنا » أخرج ابن جرير
عن قتادة في قوله : « قالت الأعراب آمنا » قال : نزلت في بني أسد .
اقول : وهو مروى أيضاً عن مجاهد وغيره .

وفيه أخرج ابن ماجه وابن مردويه والطبراني والبيهقي في شعب الإيمان
عن علي بن أبي طالب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : الإيمان معرفة بالقلب وإقرار
باللسان وعمل بالأركان .

وفيه أخرج النسائي والبيهقي وابن مردويه عن ابن عباس قال : جاءت بنو أسد
إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فقالوا : يا رسول الله أسلمنا وقاتلك العرب ولم نقاتلك فنزلت
هذه الآية « يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا » .

اقول : وفي هذا المعنى روايات أخر .



﴿سورة ق مكيّة وهى خمس وأربعون آية﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ قِ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ (١) بَلْ عَجِبُوا أَنْ
جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ (٢) إِذَا مِتْنَا وَكُنَّا
تُرابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ (٣) قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا
كِتَابٌ حَفِيزٌ (٤) بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ (٥)
أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ
فُرُوجٍ (٦) وَالْأَرْضِ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا
مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٧) تَبْصِرَةٌ وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ (٨)
وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ (٩)
وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ (١٠) رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلَدَةً
مَيِّتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ (١١) كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ
وَأُتْمُودُ (١٢) وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ (١٣) وَأَصْحَابُ الْآيَةِ
وَقَوْمُ ثَعْبٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدُ (١٤).

﴿بيان﴾

السورة تذكر الدعوة وتشير إلى ما فيها من الإنذار بالمعاد وجحد المشركين به
و استعجابهم ذلك بأن الموت يستعقب بطلان الشخصية الإنسانية بصيرورته ترابا لا

يبقى معه أثر مما كان عليه فكيف يرجع ثانياً إلى ما كان عليه قبل الموت فتدفع ما أظهره من الاستعجاب والاستبعاد بأن العلم الإلهي محيط بهم وعنده الكتاب الحفيظ الذي لا يعزب عنه شيء مما دق وجل من أحوال خلقه ثم توعدهم بإصابتهم ما أصاب الأمم الماضية الهالكة .

وتنبه ثانياً على علمه وقدرته تعالى بالإشارة إلى ما جرى من تدبيره تعالى في خلق السماوات وما زينها به من الكواكب والنجوم وغير ذلك ، وفي خلق الأرض من حيث مدّها وإلقاء الرواسي عليها وإنبات الأزواج النباتية فيها ثم بإزالة الماء تهيئة أرزاق العباد وإحياء الأرض به .

ثم بيان حال الإنسان من أوّل ما خلق وأنه تحت المراقبة الشديدة الدقيقة حتّى ما يلفظ به من لفظ وحتّى ما يخطر بباله وتوسوس به نفسه ما دام حيّاً ثم إذا أدركه الموت ثم إذا بعث لفصل القضاء ثم إذا فرغ من حسابه فأدخل النار إن كان من المكذّبين أو الجنة المزلفة إن كان من المتّقين .

و بالجملة مصب الكلام في السورة هو المعاد ، ومن غرر الآيات فيها قوله : « لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد » ، وقوله : « يوم نقول لجهنّم هل امتلأت فتقول هل من مزيد » وقوله : « لهم ما يشاؤون فيها ولدينا مزيد » . والسورة مكّية بشهادة سياق آياتها إلّا ما قيل في قوله : « ولقد خلقنا السماوات والأرض » الآية أو الآيتين ، ولا شاهد عليه من اللفظ .

وما أوردناه من الآيات فيه إجمال الإشارة إلى المعاد واستبعادهم له ، وإجمال الجواب والتهديد أو لا ثم الإشارة إلى تفصيل الجواب والتهديد ثانياً .

قوله تعالى : « ق والقرآن المجيد » قال في المجمع : المجد في كلامهم الشرف الواسع يقال : مجّد الرجل ومجّد - بضم العين وفتحها - مجداً إذا عظم وكرم ، وأصله من قولهم : مجدت الأبل مجوداً إذا عظمت بطونها من كثرة أكلها من كلاء الربيع . انتهى .

و قوله : « والقرآن المجيد » قسم و جوابه محذوف يدل عليه الجمل التالية والتقدير والقرآن المجيد إن البعث حق أو إنك لمن المنذرين أو لا نذارحق ، وقيل : جواب القسم مذكور وهو قوله : « بل عجبوا » الخ ، وقيل : هو قوله : « قد علمنا ما تنقص » الخ ، وقيل : قوله : « ما يلفظ من قول » الخ ، وقيل : قوله : « إن في ذلك لذكرى » الخ ، وقيل : قوله « ما يبدل القول لدي » الخ ، وهذه أقوال سخيفة لا يصار إليها .
قوله تعالى : « بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال الكافرون هذا شيء عجيب » إضراب عن مضمون جواب القسم المحذوف فكأنه قيل : إنا أرسلناك نذيراً فلم يؤمنوا بك بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم ، أو قيل إن البعث الذي أنذرتهم به حق ولم يؤمنوا به بل عجبوا منه واستبعدوه .

و ضمير « منهم » في قوله : « بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم » راجع إليهم بما هم بشر أي من جنسهم وذلك أن الوثنيين ينكرون نبوة البشر كما تقدمت الإشارة إليه مراراً أو راجع إليهم بما هم عرب والمعنى بل عجبوا أن جاءهم منذر من قومهم ولبسناهم ببيتن لهم الحق . أوفى بيان فيكون أبلغ في تقريرهم .

و قوله : « فقال الكافرون هذا شيء عجيب » وصفهم بالكفر و لم يقل : وقال المشركون ونحو ذلك للدلالة على سترهم للحق لما جاءهم ، والإشارة في قولهم : « هذا شيء عجيب » إلى البعث والرجوع إلى الله كما يفسره قوله بعد : « إذا متنا وكننا تراباً » الخ .

قوله تعالى : « إذا متنا وكننا تراباً ذلك رجع بعيد » الرجوع والرجوع بمعنى والمراد بالبعد البعد عن العقل .

وجواب إذا في قولهم : « إذا متنا وكننا تراباً » محذوف يدل عليه قولهم : « ذلك رجع بعيد » والتقدير إذا متنا وكننا تراباً نبعث و نرجع ؟ والاستفهام للتعجب ، وإنما حذف للإشارة إلى أنه عجيب بحيث لا ينبغي أن تذكر ، إذ لا يقبله عقل ذي عقل والآية في مساق قوله : « وقالوا إذا ضللنا في الأرض إنا لفي خلق جديد » الم السجدة : ١٠ .

والمعنى إنهم يتعجبون ويقولون : إنا امتنا وكنا ترابا - وبطلت ذواتنا بطلانا لا أثر معه منها - نبعث و نرجع ؟ ثم كأن قائل يقول لهم : مم تعجبون ؟ فقالوا : ذلك رجع بعيد يستبعد العقل ولا يسلمه .

قوله تعالى : « قد علمنا ما تنقص الأرض منهم وعندنا كتاب حفيظ » رد منه تعالى لاستبعادهم البعث والرجوع مستندي في ذلك إلى أنهم ستلاشى أبدانهم بالموت فتصير ترابا متشابه الأجزاء لا تمايز اجزاء منها من جزء والجواب أننا نعلم بما تأكله الأرض من أبدانهم و تنقصه منها فلا يفوت علمنا جزء من أجزائهم حتى يتعسر علينا إرجاعه أو يتعذر بالجهل .

أو أننا نعلم من يموت منهم فيدفن في الأرض فتنقصه الأرض من جمعهم ، و « من » على على أول الوجهين تبعيضية وعلى الثاني تبينية .

وقوله : « وعندنا كتاب حفيظ » أي حافظ لكل شيء وآثاره وأحواله ، أو كتاب ضابط للحوادث محفوظ عن التغيير والتحريف ، وهو اللوح المحفوظ الذي فيه كل ما كان وما يكون وما هو كائن إلى يوم القيامة .

وقول بعضهم إن المراد به كتاب الأعمال غير سديد أو لا من جهة أن الله ذكره حفيظا لما تنقص الأرض منهم وهو غير الأعمال التي يحفظه كتاب الأعمال .

و ثانيا أنه سبحانه إنما وصف في كلامه بالحفظ اللوح المحفوظ دون كتب الأعمال فحمل الكتاب الحفيظ على كتاب الأعمال من غير شاهد .

ومحصل جواب الآية أنهم زعموا أن موتهم وصيورتهم ترابا متلاشي الذرات غير متمايز الأجزاء يصيرهم مجهولي الأجزاء عندنا فيمتنع علينا جمعها وإرجاعها لكنه زعم باطل فأننا نعلم بمن مات منهم وما يتبدل إلى الأرض من أجزاء أبدانهم وكيف يتبدل وإلى أين يصير ؟ وعندنا كتاب حفيظ فيه كل شيء وهو اللوح المحفوظ .

قوله تعالى : « بل كنزوا بالحق لما جاءهم فهم في أمر مريج » المريج الاختلاط والالتباس ، وفي الآية إضراب عما تلوح إليه الآية السابقة فإن اللائح منها أنهم إنما

تعجبوا من أمر البعث والرجوع واستبعدوه لجهلهم بأن الله سبحانه عليم لا يعزب عنه شيء من أحوال خلقه وآثارهم وأن جميع ذلك مستطر في اللوح المحفوظ عند الله بحيث لا يشذ عنه شأن .

فأضرب في هذه الآية أن ذلك ليس من جهلهم وإن تجاهلوا بل كذبوا بالحق لما جاءهم فاستبان لهم أنه حق فهم جاحدون للحق معاندون له وليسوا بجاهلين به قاصرين عن إدراكه فهم في أمر مريب مختلط غير منتظم يدركون الحق ويكذبون به مع أن لازم العلم بشيء تصديقه والإيمان به .

وقيل : المراد بكونهم في أمر مريب أنهم متحيرون بعد إنكار الحق لا يدرون ما يقولون فتارة يقولون : افتراء على الله ، وتارة : سحر ، وتارة : شعر ، وتارة : كهانة وتارة : زجر .

ولذلك عقب الكلام بذكر آيات علمه وقدرته توبيخاً لهم ثم بالإشارة إلى تكذيب الأمم الماضية البهالكة الذي ساقهم إلى عذاب الاستئصال ، تهديداً لهم .

قوله تعالى : « أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج » الفروج جمع فرجة الشقوق والفتوق ، وتقيد السماء بكونها فوقهم للدلالة على أنها برئى منهم لا تغيب عن أنظارهم ، والمراد بتزيينها خلق النجوم اللامعة فيها بمالها من الجمال البديع فبناء هذا الخلق البديع بمالها من الجمال الرائع من غير شقوق وفتوق أصدق شاهد على قدرته القاهرة وعلمه المحيط بما خلق .

قوله تعالى : « والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج » مد الأرض بسطها للتلائم عيشة الإنسان ، والرواسي جمع الراسية بمعنى الثابتة صفة محذوفة الموصوف وهو الجبال ، والمراد جعل الجبال الثابتة على ظهرها ، والبهيج من البهجة قال في المجمع : البهجة الحسن الذي له روعة عند الرؤية كالزهرة والأشجار النضرة والرياض الخضرة انتهى وقيل : المراد بالبهيج الذي من رآه بهيج وسر به فهو بمعنى المبهوج به .

والمراد بأن نبات كل زوج بهيج إنبات كل صنف حسن المنظر من النبات .

فخلق الأرض وما جرى فيها من التدبير الإلهي العجيب أحسن دليل يدل العقل على كمال القدرة والعلم .

قوله تعالى : « تبصرة وذكرى لكل عبد منيب » مفعول له أي فعلنا ما فعلنا من بناء السماء ومد الأرض وعجائب التدبير التي أجريناها فيهما ليكون تبصرة يتبصر بها وذكرى يتذكر بها كل عبد راجع إلى الله سبحانه .

قوله تعالى : « وأنزلنا من السماء ماء مباركاً فأنبتنا به جنات وحب الحصيد » السماء جهة العلو والماء المبارك المطر، وصف بالمباركة لكثرة خيراته العائدة إلى الأرض وأهلها ، وحب الحصيد المحصود من الحب وهو من إضافة الموصوف إلى الصفة ، و المعنى ظاهر .

قوله تعالى : « والنخل باسقات لها طلع نضيد » الباسقات جمع باسقة وهي الطويلة العالية ، والطلع أول ما يطلع من ثمر النخل ، والنضيد بمعنى المنضود بعضه على بعض ، والمعنى ظاهر .

قوله تعالى : « رزقاً للعباد وأحيينا به بلدة ميتاً كذلك الخروج » الرزق ما يمد به البقاء ، و « رزقاً للعباد » مفعول له أي أنبتنا هذه الجنات وحب الحصيد والنخل باسقات بمائها من الطلع النضيد ليكون رزقاً للعباد فمن خلق هذه النباتات ليرزق به العباد بما في ذلك من التدبير الواسع الذي يدesh اللب ويحيي العقل هو ذو علم لا يتناهى وقدرة لا تعي لا يشق عليه إحياء الإنسان بعد موته وإن تلاشت ذرات جسمه وضلت في الأرض أجزاء بدنه .

وقوله : « وأحيينا به بلدة ميتاً كذلك الخروج » برهان آخر على البعث غير ما تقدم استنتج من طي الكلام فإن البيان السابق في رد استبعادهم للبعث مستنديّن إلى صيرورتهم تراباً غير متميز الأجزاء كان برهاناً من مسلك إثبات علمه بكل شيء وقدرته على كل شيء وهذا البرهان الذي يتضمّن قوله : « وأحيينا به بلدة ميتاً كذلك الخروج » من مسلك إثبات إمكان الشيء بوقوع مثله فليس الخروج من القبور إلا حياء بعد الموت إلا مثل خروج النبات الميت من الأرض بعد موتها ووقوف قواه عن النماء والنشوء .

وقد قررنا هذا البرهان في ذيل الآيات المستدلة بحياة الأرض بعد موتها على البعث غير مرة فيما تقدم من أجزاء الكتاب .

قوله تعالى : « كذب قبلهم قوم نوح - إلى قوله - كل كذب الرسل فحق وعيد » تهديد وإنذار لهم بما كذبوا بالحق لما جاءهم و تبين لهم عناداً كما أشرنا إليه قبل .

وقد تقدم ذكر أصحاب الرس في تفسير سورة الفرقان ، و ذكر أصحاب الأيكة وهم قوم شعيب في سورة الحجر و الشعراء و ص ، و ذكر قوم تبّع في سورة الدخان . وفي قوله : « كل كذب الرسل فحق وعيد » إشارة إلى أن هناك وعيداً بالهلاك ينجز عند تكذيب الرسل قال تعالى : « فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الملكنّين » النحل : ٣٦ .

﴿ بحث روائى ﴾

في الدر المنثور أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : خلق الله تعالى من وراء هذه الأرض بحراً محيطاً بها ثم خلق من وراء ذلك جبلاً يقال له : ق السماء الدنيا مترفرة عليه ، ثم خلق من وراء ذلك الجبل أرضاً مثل تلك الأرض سبع مرات ثم خلق من وراء ذلك بحراً محيطاً بها ، ثم خلق من وراء ذلك جبلاً يقال له ق السماء الثانية مترفرة عليه حتى عد سبع أرضين وسبعة أبحر وسبعة أجبل وسبع سموات . قال : وذلك قوله : « والبحر يمدّه من بعده سبعة أبحر » .

وفيه أخرج ابن المنذر وابن مردويه و أبو الشيخ و الحاكم عن عبد الله بن بريدة في قوله تعالى : « ق » قال : جبل من زمرد محيط بالدنيا عليه كنفا السماء .

وفيه أخرج ابن أبي الدنيا في العقوبات و أبو الشيخ في العظمة عن ابن عباس قال : خلق الله جبلاً يقال له ق محيط بالعالم و عروقه إلى الصخرة التي عليها الأرض فإذا أراد الله أن يزلزل قرية أمر ذلك الجبل فحرك العرق الذي يلي تلك القرية فيزلزلها ويحركها فمن ثم تحرك القرية دون القرية .

أقول : وروى القمي^١ بإسناده عن يحيى بن ميسرة الخثعمي^٢ عن الباقر^{عليه السلام} مثل ما مر^٣ عن عبدالله بن بريدة^٤ ، وروى ما في معناه مراسلاً ومضمراً ولفظه : قال : جبل محيط بالدنيا وراء يأجوج ومأجوج .

وكيفما كان لاتعويل على هذه الروايات ، وبطلان ما فيها يكاد يلحق اليوم بالبديهيات أو هو منها .

وفي تفسير القمي^٥ في قوله تعالى : « فقال الكافرون هذا شيء عجيب » قال : نزلت في أبي^٦ ابن خلف قال لأبي جهل : تعال إلي^٧ أعجبك من محمد^٨ ثم أخذ عظماً ففتته^٩ ثم قال : يا محمد تزعم أن هذا يحيا؟ فقال الله : بل كنت^{١٠} بوا بالحق^{١١} لما جاءهم فهم في أمر مريج^{١٢} .





أَفَعَبِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ (١٥)
وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ
مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ (١٦) إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشَّمَالِ
قَعِيدٌ (١٧) مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ (١٨) وَجَاءَتْ
سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ (١٩) وَنُفِخَ فِي
الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ (٢٠) وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَ
شَهِيدٌ (٢١) لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ
الْيَوْمَ حَدِيدٌ (٢٢) وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَى عَتِيدٍ (٢٣) أَلْقِيَا فِي
جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ (٢٤) مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ (٢٥) الَّذِي
جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ (٢٦) قَالَ قَرِينُهُ
رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَ لَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ (٢٧) قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا
لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ (٢٨) مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَا أَنَا
بِظَلَامٍ لِلْعَبِيدِ (٢٩) يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأَتْ وَ تَقُولُ هَلْ مِنْ
مَزِيدٍ (٣٠) وَ أُرْزِلَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ (٣١) هَذَا مَا تُوعَدُونَ
لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ (٣٢) مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ وَ جَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ (٣٣)

أَدْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ (٣٤) لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ (٣٥) وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ (٣٦) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ (٣٧) وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ (٣٨).

﴿بيان﴾

الآية الأولى متممة لما أورده في الآيات السابقة من الحجّة على علمه وقدرته بما خلق السماء والأرض وما فيهما من خلق ودبر ذلك أكمل التدبير وأتمّه وذلك كله هو الخلق الأول والنشأة الأولى . فتمّم ذلك بقوله : «أفعمينا بالخلق الأول» واستنتج منه أن القادر على الخلق الأول العالم به قادر على خلق جديد ونشأة ثانية و عالم به لأنّهما مثلان إذا جازله خلق أحدهما جاز خلق الآخر وإنّما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن .

ثمّ أضرب عنه أنّهم في التباس من خلق جديد مع مماثلة الخلقين ثمّ أشار إلى نشأة الإنسان أوّل مرّة وهو يعلم منه حتّى خطرات قلبه و عليه رقباؤه يراقبونه أدقّ المراقبة ثمّ يجيئه سكرة الموت بالحقّ ثمّ البعث ثمّ دخول الجنّة أو النار ثمّ أشار ثانياً إلى ما حلّ بالقرون الماضية المكذّبة من السخط الإلهي وعذاب الاستئصال وهم أشدّ بطشاً من هؤلاء فمن جازاهم بالهلاك قادر على أن يجازي هؤلاء .

قوله تعالى : «أفعمينا بالخلق الأول بل هم في لبس من خلق جديد» العي عجز يلحق من تولّى الأمر الكلام كذا قال الراغب يقال : أعياني كذا و عيت بكذا أي عجزت عنه والخلق الأول خلق هذه النشأة الطبيعيّة بنظامها الطبيعيّ الجاري ومنها الإنسان في حياته الدنيا فلا وجه لقصر الخلق الأول في خلق السماء والأرض

فقط كما مال إليه الرازي في التفسير الكبير ولا لقصره في خلق الإنسان كما مال إليه بعضهم وذلك لأنّ الخلق الجديد يشمل السماء والأرض والإنسان جميعاً كما قال تعالى : « يوم تبدّل الأرض غير الأرض والسموات وبرزوا لله الواحد القهار » إبراهيم : ٤٨ . و الخلق الجديد خلق النشأة الثانية وهي النشأة الآخرة ، والاستفهام للاستفهام للإنكار .

والمعنى أعجزنا عن الخلق الأوّل حتّى نعجز عن الخلق الجديد ؟ أي لم نعجز عن الخلق الأوّل وهو إبداءه فلا نعجز عن الخلق الجديد وهو إعادته .

ولو أخذ العي بمعنى التعب كما مال إليه بعضهم كان المعنى هل تعبنا بسبب الخلق الأوّل حتّى يتعذّر أو يتعسّر علينا الخلق الجديد ؟ وذلك كما أنّ الإنسان وسائر الحيوان إذا أتى بشيء من الفعل وأكثر منه انتهى به إلى التعب البدنيّ فيكفّه ذلك عن الفعل بعد ، فمال يأت به من الفعل لكونه تعباً مثل ما أتى لكنّه لا يؤتى به لأنّ الفاعل لا يستطيعه لتعبه وإن كان الفعل جائزاً متشابه الأمثال .

وهذا معنى لا بأس به لكن قيل : إنّ استعمال العي بمعنى العجز أفصح . على أنّ سوق الحجّة من طريق العجز يفيد استحالة الإتيان ونفيها هو المطلوب بخلاف سوقها من طريق التعب فإنّه يفيد تعسّره دون استحالة الإتيان ومراد النافين للمعاد استحالة دون تعسّره هذا .

وقوله : « بل هم في لبس من خلق جديد » اللبس هو الالتباس ، والمراد بالخلق الجديد تبديل نشأتهم الدنيا من نشأة أخرى ذات نظام آخر وراء النظام الطبيعيّ الحاكم في الدنيا فإنّ في النشأة الأخرى وهي الخلق الجديد بقاء من غير فناء وحياة من غير موت ثمّ إنّ كان الإنسان من أهل السعادة فله نعمة من غير نقمة وإن كان من أهل الشقاء ففي نقمة لانهمة معها ، والنشأة الأولى وهي الخلق الأوّل والنظام الحاكم فيها على خلاف ذلك .

والمعنى إذا كنّا خلقنا العالم بسمائه وأرضه وما فيهما ودبرناه أحسن تدبير لأوّل مرّة بقدرتنا وعلمنا ولم نعجز عن ذلك علماً وقدرة فنحن غير عاجزين عن تجديد خلقه وهو تبدّله خلقاً جديداً فلا ريب في قدرتنا ولا التباس بل هم في التباس

لا سبيل لهم مع ذلك إلى الإيمان بخلق جديد .

قوله تعالى : « ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد » قال الراغب : الوسوسة الخطرة الرديئة وأصله من الوسواس وهو صوت الحلي والهمس الخفي . انتهى .

والمراد بخلق الإنسان وجوده المتدرج المتحول خلقاً بعد خلق لأوّل تكوينه إنساناً وإن عبّر عنه بالماضي إذ قال : « ولقد خلقنا الإنسان » إذ الإنسان -- وكذا كل مخلوق له حظ من البقاء -- كما يحتاج إلى عطية ربه في أوّل وجوده كذلك يحتاج إليه في بقائه .

ولما ذكر من النكتة عطف قوله : « ونعلم ما توسوس به نفسه » وهو فعل مضارع مسوق للدلالة على الاستمرار على قوله : « ولقد خلقنا الإنسان » وهو فعل ماضٍ لكنّه مستمرّ المعنى ، وكذا قوله : « ونحن أقرب إليه من حبل الوريد » مفيد للشبوت والدوام والاستمرار باستمرار وجود الإنسان .

وللآية اتصال بما تقدّم من الاحتجاج على علمه وقدرته تعالى في الخلق الأوّل بقوله : « أفلم ينظروا إلى السماء » واتّصال أيضاً بقوله تعالى في الآية السابقة : « بل هم في لبس من خلق جديد » فهي في سياق يذكر قدرته على الإنسان بخلقه ، وعلمه به بلا واسطة وبواسطة الملائكة الحفظة الكتبة .

فقوله : « ولقد خلقنا الإنسان » - واللام للقسم - دالّ على القدرة عليه بإثبات الخلق .

وقوله : « ونعلم ما توسوس به نفسه » في ذكر أخفى أصناف العلم وهو العلم بالخطور النفسانيّ الخفيّ إشارة إلى استيعاب العلم له كأنّه قيل : ونعلم ظاهره وباطنه حتّى ما توسوس به نفسه ومما توسوس به الشبهة في أمر المعاد : كيف يُبعث الإنسان وقد صار بعد الموت تراباً متلاشي الأجزاء غير متميّز بعضها من بعض .

وقد بان أن « ما » في « ما توسوس به » موصولة وضمير « به » عائِد إليه والباء للآلة أو للسببيّة ، ونسب الوسوسة إلى النفس دون الشيطان وإن كانت منسوبة إليه

أيضاً لأنّ الكلام في إحاطة العلم بالإنسان حتّى بما في زوايا نفسه من هاجس ووسوسة .
وقوله : « ونحن أقرب إليه من حبل الوريد » الوريد عرق متفرّق في البدن
فيه مجاري الدم ، وقيل : هو العرق الذي في الحلق ، وكيف كان قسميته حبلاً لتشبيهه
به ، وإضافة حبل الوريد بيانية .

والمعنى نحن أقرب إلى الإنسان من حبل وريده المخالط لأعضائه المستقرّ في
داخل بدنه فكيف لا نعلم به وبما في نفسه ؟

وهذا تقريب للمقصود بجملة ساذجة يسهل تلقّيها لعامة الأفهام وإلا فأمر قربه
تعالى إليه أعظم من ذلك وأعظم فهو سبحانه الذي جعلها نفساً ورتّب عليها آثارها فهو
الواسطة بينها وبين نفسها وبينها وبين آثارها وأفعالها فهو أقرب إلى الإنسان من كلّ
أمر مفروض حتّى من نفسه ، ولكون هذا المعنى دقيقاً يشقّ تصوّره على أكثر الأفهام
عدل سبحانه إلى بيانه بنحو قوله : « ونحن أقرب إليه من حبل الوريد » وقريب منه
بوجه قوله : « إنّ الله يحول بين المرء وقلبه » .

ولهم في معنى الآية وجوه كثيرة آخر لاجدوى في نقلها والبحث عنها من أرادها
فليراجع كتبهم .

قوله تعالى : « إذ يتلقّى الملتقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد » التلقّي
الأخذ والتلقّن ، والمراد بالملتقيّين على ما يفيد السياق الملكان الموكلان على الإنسان
اللذان يتلقّيان عمله فيحفظانه بالكتابة .

وقوله : « عن اليمين وعن الشمال قعيد » تقديره عن اليمين قعيد وعن الشمال
قعيد ، والمراد باليمين والشمال يمين الإنسان وشماله ، والقعيد القاعد .

والظرف في قوله : « إذ يتلقّى الملتقيان » الظاهر أنّه متعلّق بمحذوف والتقدير
أذكر إذ يتلقّى الملتقيان ، والمراد به الإشارة إلى علمه تعالى بأعمال الإنسان من طريق
كتاب الأعمال من الملائكة وراء علمه تعالى بذاته من غير توسط الوسائط .

وقيل : الظرف متعلّق بقوله في الآية السابقة : « أقرب » والمعنى نحن أقرب
إليه من حبل الوريد في حين يتلقّى الملكان الموكلان عليه أعماله ليكتبها .

ولعل الوجه السابق أوفق للسياق فإن بناء هذا الوجه على كون العمدة في الغرض بيان أقربيته تعالى إليه وعلمه به والباقي مقصود لأجله ، و ظاهر السياق وخاصة بالنظر إلى الآية التالية كون كل من العلم من طريق القرب ومن طريق تلقى الملئكين مقصوداً بالاستقلال .

وقيل : « إن » تعليلية تغل علمه تعالى المدلول عليه بقوله : « ونحن أقرب إليه » الخ بمفاد مدخولها .

وفيه أن من البعيد من مذاق القرآن أن يستدل على علمه تعالى بعلم الملائكة أو بحفظهم و كتابتهم .

وقوله : « عن اليمين وعن الشمال قعيد » تمثيل لموقعهما من الإنسان ، واليمين والشمال جانباً الخير والشر ينتسب إليهما الحسنه والسيئة .

قوله تعالى : « ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد » اللفظ الرمي سمي به التكلم بنوع من التشبيه ، والرقيب المحافظ ، والعتيد المعدّ المهيباً للزوم الأمر . والآية تذكر مراقبة الكتبة للإنسان فيما يتكلم به من كلام ، وهي بعد قوله : « إن يتلقى المتلقيان » الخ من ذكر الخاص بعد العام لمزيد العناية به .

قوله تعالى : « وجاءت سكرة الموت بالحق » ذلك ما كنت منه تحيد » الحيد العدول والميل على سبيل الهرب ، والمراد بسكرة الموت ما يعرض الإنسان حال النزاع إن يشتغل بنفسه وينقطع عن الناس كالسكران الذي لا يدري ما يقول ولا ما يقال له . وفي تقييد مجيء سكرة الموت بالحق إشارة إلى أن الموت داخل في القضاء الإلهي مراد في نفسه في نظام الكون كما يستفاد من قوله تعالى : « كل نفس ذائقة الموت » ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون » الأنبياء : ٣٥ وقد مر تفسيره فالموت - وهو الانتقال من هذه الدار إلى دار بعدها - حق كما أن البعث حق والجنة حق والنار حق ، وفي معنى كون الموت بالحق أقوال آخر لاجدوى في نقلها والتعرض لها . وفي قوله : « ذلك ما كنت منه تحيد » إشارة إلى أن الإنسان يكره الموت بالطبع وذلك أن الله سبحانه زين الحياة الدنيا والتعلق بزخارفها للإنسان ابتلاء و

امتحاناً قال تعالى : « إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا »
و إِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرْزًا » الكهف : ٨.

قوله تعالى : « و نفخ في الصور ذلك يوم الوعيد » هذه نقلة ثانية إلى عالم
الخلود بنفخ الصور بعد النقلة الأولى ، والمراد بنفخ الصور النفخة الثانية المقيمة
للساعة أو مجموع النفختين بإرادة مطلق النفخ .

والمراد بيوم الوعيد يوم القيامة الذي ينجز الله تعالى فيه وعيده على المجرمين
من عباده .

قوله تعالى : « و جاءت كل نفس معها سائق وشهيد » السياقة حث الماشية
على المسير من خلفها بعكس القيادة فهي جلبها من أمامها .
فقوله : « و جاءت كل نفس » أي جاءت إلى الله و حضرت عنده لفصل القضاء
والدليل عليه قوله تعالى : « إلى ربك يومئذ المساق » القيامة : ٣٠ .

والمعنى و حضرت عنده تعالى كل نفس معها سائق يسوقها و شاهد يشهد بأعمالها
ولم يصرح تعالى بكونهما من الملائكة أو بكونهما هما الكاتبتين أو من غير الملائكة
غير أن السابق إلى الذهن من سياق الآيات أنهما من الملائكة ، وسيجيء الروايات
في ذلك .

و كذا لاتصريح بكون الشهادة منحصرة في هذا الشاهد المذكور في الآية بل
الآيات الواردة في شهداء يوم القيامة تقضي بعدم الانحصار ، و كذا الآيات التالية
الذاكرة لاختصاص الإنسان و قرينه دالة على أن مع الإنسان يومئذ غير السائق والشهيد.

قوله تعالى : « لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم
حديد » وقوع الآية في سياق آيات القيامة واحتفافها بها يقضي بكونها من خطابات
يوم القيامة ، والمخاطب بها هو الله سبحانه ، والذي خوطب بها هو الإنسان المذكور
في قوله : « وجاءت كل نفس » ، وعليه فالخطاب عام متوجه إلى كل إنسان إلا أن
التوبيخ والتقريع اللائح من سياق الآية ربما استدعى اختصاص الخطاب بمنكري
المعاد ، أضف إلى ذلك ، كون الآيات مسوقة لرد منكري المعاد في قولهم : « وإذا

متنا وكنّا تراباً ذلك رجع بعيد .

والإشارة بقوله : « هذا » إلى ما يشاهده يومئذ وبعاينه من تقطع الأسباب وبوار الأشياء ورجوع الكل إلى الله الواحد القهار ، وقد كان تعلق الإنسان في الدنيا بالأسباب الظاهرية وركونه إليها أغفله عن ذلك حتى إذا كشف الله عنه حجاب الغفلة فبدت له حقيقة الأمر فشاهد ذلك مشاهدة عيان لا علماً فكرياً .

ولذا خوطب بقوله : « لقد كنت » في الدنيا « في غفلة » أحاطت بك « من هذا » الذي تشاهده وتعاينه وإن كان في الدنيا نصب عينيك لا يغيب لكن تعلقك بذيل الأسباب أذهلك وأغفلك عنه « فكشفنا عنك غطاءك » اليوم « فبصرك » وهو البصيرة وعين القلب « اليوم » وهو يوم القيامة « حديد » أي نافذ يبصر ما لم يكن يبصره في الدنيا .

ويتبين بالآية أولاً أن معرف يوم القيامة أنه يوم ينكشف فيه غطاء الغفلة عن الإنسان فيشاهد حقيقة الأمر ، وفي هذا المعنى وما يقرب منه آيات كثيرة كقوله تعالى : « والأمر يومئذ لله » الانفطار : ١٩ ، وقوله : « لمن الملك اليوم لله الواحد القهار » المؤمن : ١٦ إلى غير ذلك من الآيات .

وثانياً أن ما يشاهده الإنسان يوم القيامة موجود مهيباً له وهو في الدنيا غير أنه في غفلة منه ، وخاصة يوم القيامة أنه يوم انكشاف الغطاء ومعاينة ما وراءه ، وذلك لأن الغفلة إنما يتصور فيما يكون هناك أمر موجود منقول عنه ، والغطاء يستلزم أمراً وراءه وهو يغطيه ويستتره ، وعدم حدة البصر إنما ينفع فيما إذا كان هناك مبصر دقيق لا ينفذ فيه البصر .

ومن أسخف القول ما قيل : إن الآية خطاب منه تعالى لنبيه ﷺ ، والمعنى لقد كنت قبل الرسالة في غفلة من هذا الذي نوحى إليك فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد يدرك الوحي أو يبصر ملك الوحي فيتلقى الوحي ، وذلك لأن السياق لا يساعده ولا لفظ الآية ينطبق عليه .

قوله تعالى : « وقال قرينه هذا ما لدى عتيد » لا يخلو السياق من ظهور في

أن المراد بهذا القرين الملوّك الملوّك به فإن كان هو السائق كان معنى قوله : « هذا ما لديّ عتيد » هذا الإنسان الذي هو عندي حاضر ، وإن كان هو الشهيد كان المعنى هذا - وهو يشير إلى أعماله التي حمل الشهادة عليها - ما عندي من أعماله حاضر مهيباً .
وقيل : المراد بالقرين الشيطان الذي يصاحبه ويغويه ، ومعنى كلامه على هذا هذا الإنسان هو الذي توليت أمره وملكته حاضر مهيباً لدخول جهنّم .

قوله تعالى : « ألقيا في جهنّم كل كفّار عنيد مناع للخير معتدّ مريب »
الكفّار اسم مبالغة من الكفر ، والعنيد المعاند للحقّ المستمرّ على عناده ، والمعتدّي المتجاوز عن الحدّ المتخطّئ للحقّ ، والمريب الشاكّ أو المشكّك في أمر البعث .
وبين هذه الصفات المعدودة شبه الاستلزام فإن كثرة الكفر بردّ الإنسان كلّ حقّ يواجهه فتفتح العناد مع الحقّ والإصرار عليه ، والإصرار على العناد يوجب المنع عن أكثر الخيرات إذ لا خير إلّا في الحقّ ومن ناحيته ، وهو يستلزم الخروج عن حدّ الحقّ إلى الباطل وتجاوز الإنسان عن حدّ العبوديّة إلى الاستكبار والطغيان ويستلزم تشكيك الناس في ما يروونه من دين الحقّ .

والخطاب في الآية منه تعالى ، وظاهر سياق الآيات أن المخاطب به هما الملكان الملوّكلان السائق والشهيد ، واحتمل بعضهم أن يكون الخطاب إلى ملكين من ملائكة النار وخزنتها .

قوله تعالى : « الذي جعل مع الله إلهاً آخر فآلقياه في العذاب الشديد » العدول في ذكر صفة الشرك عن الإيجاز إلى الإطناب حيث لم يقل : مشرك وقال : « الذي جعل » النخ للإشارة إلى أن هذه الصفة أعظم المعاصي وأهمّ الجرائم التي أتى بها والصفات الرذيلة التي عدّت له من الكفر والعناد ومنع الخير والاعتداء والإرابة .
وقوله : « فآلقياه في العذاب الشديد » تأكيد لما تقدّم من الأمر بقوله : « ألقيا » النخ ، ويلوّح إلى تشديد الأمر من جهة الشرك ، ولذا عقبه بقوله : « في العذاب الشديد » .

قوله تعالى : « قال قرينه ربنا ما أطغيته ولكن كان في ضلال بعيد » المراد بهذا

القرين قرينه من الشياطين بلا شك ، وقد تكرر في كلامه تعالى ذكر القرين من الشيطان وهو الذي يلزم الانسان ويوحى إليه ما يوحى من الغواية والضلال قال تعالى : « ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين وإنتهم ليصدونهم عن السبيل و يحسبون أنهم مهتدون حتى إذا جاءنا قال يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين فبئس القرين » الزخرف : ٣٨ .

فقوله : « قال قرينه » أي شيطانه الذي يصاحبه و يغويه « ربنا » أضاف الرب إلى نفسه والاإنسان الذي هو قرينه لأنهما في مقام الاختصاص « ما أطعته » أي ما أجبرته على الطغيان « و لكن كان في ضلال بعيد » أي متبهاً مستعداً لقبول ما ألقىته إليه تلقاه باختياره فما أنا بمسؤول عن ذنبه في طغيانه .

وقد تقدم في سورة الصافات تفصيل اختصاص الظالمين وأزواجهم في قوله : « احشروا الذين ظلموا و أزواجهم » الصافات : ٢٢ إلى آخر الآيات .

قوله تعالى : « قال لا تختصموا لدي » وقد قدمت إليكم بالوعيد » القائل هو الله سبحانه يخاطبهم وكأنه خطاب واحد لعامة المشركين الطاغين وقرنائهم ينحل إلى خطابات جزئية لكل إنسان و قرينه بمثل قولنا : لا تختصما لدي الخ .

و قوله : « وقد قدمت إليكم بالوعيد » حال من فاعل « لا تختصموا » و « بالوعيد » مفعول « قدمت » والباء للوصلة .

والمعنى لا تختصموا لدي فلا نفع لكم فيه بعد ما أبلغتكم وعيدي لمن أشرك و ظلم ، والوعيد الذي قدمه إليهم مثل قوله تعالى لا إبليس : « اذهب فممن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفورا » أسرى : ٦٣ ، و قوله : « فالحق الحق أقول لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين » ص : ٨٥ . أو قوله : « لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين » السجدة : ١٣

قوله تعالى : « ما يبدل القول لدى » وما أنا بظلام للعبيد » الذي يعطيه السياق أن تكون الآية استثناءً بمنزلة الجواب عن سؤال مقدر كأن قائلًا يقول : هب إنك قد قدمت فهلاً غيرته وعفوت ؟ فأجيب بقوله : « ما يبدل القول لدى » والمراد بالقول

مطلق القضاء المحتوم الذي قضى به الله ، و قد قضى لمن مات على الكفر بدخول جهنم و ينطبق بحسب المورد على الوعيد الذي أوعده الله لا بلس و من تبعه .

فقد بان أن الجملة مستأنفة ، والمراد بتبديل القول تغيير القضاء المحتوم ، و « لدي » متعلق بالتبديل ، هذا ما يعطيه السياق ، وقد ذكر بعضهم في هذه الجملة وإعراب مفرداتها و معنى تبديل القول وجوهاً و احتمالات كثيرة بعيدة عن الفهم لا تزيدي في الكلام إلا تعقيداً فأغضنا عن إيرادها .

و قوله : « و ما أنا بظلام للعبيد » متمم لمعنى الجملة السابقة أي لا يبدل قولي فأنتم معذبون لا محالة ولست أظلم عبيدي في عذابهم على طبق ما قد مت إليهم بالوعيد لأنهم مستحقون لذلك بعد إتمام الحجّة .

و من وجه آخر لا ظلم في مجازاتهم بالعذاب فإنهم إنما يجزون بأعمالهم التي قد موها فهي أعمالهم ردت إليهم كما هو ظاهر قوله تعالى : « يا أيها الذين كفروا لا تعتذروا اليوم إنما تجزون ما كنتم تعملون » التحريم : ٧ .

و ما في قوله : « و أنا بظلام » من نفي الظلم الكبير لا يستوجب جواز الظالم اليسير فإنه تعالى لو ظلم في شيء من الجزاء كان ظالماً كثيراً لكثرة أمثاله فإن الخطاب لكل إنسان مشرك ظالم مع قرينه ، وهم كثيرون فهو سبحانه لو ظلم في شيء من الجزاء لكان ظالماً .

قوله تعالى : « يوم نقول لجهنم هل امتلأت و تقول هل من مزيد » خطاب منه تعالى لجهنم و جواب منها ، و قد اختلف في حقيقة هذا التكليم والتكلم فقيل: الخطاب والجواب بلسان الحال و يردّه أنه لو كان بلسان الحال لم يختص به تعالى بل كان لكل من يشاهدها على تلك الحال أن يسألها عن امتلائها فتجيبه بقولها : هل من مزيد ؟ فليس لتخصيص الخطاب به تعالى نكته ظاهرة .

و قيل : حقيقة الخطاب لخزنة جهنم والجواب منهم و إن كانا نسباً إلى جهنم و فيه أنه خلاف الظاهر لا يصار إليه إلا بدليل .

و قيل : الخطاب والجواب على ظاهره ، ولا دليل يدل على عدم الجواز ، وقد

أخبر الله سبحانه عن تكليم الأيدي والأرجل والجلود وغيرها ، وهو الوجه وقد تقدم في تفسير سورة فصلت أن العلم والشعور سار في جميع الموجودات .

وقوله : « هل امتلأت » استفهام تقريرى ، وكذا قوله حكاية عنها : « هل من مزيد » ولعل إيراد هذا السؤال والجواب للإشارة إلى أن قهره وعذابه لا يقصر عن الإحاطة بالمجرمين وإيفاء ما يستحقونه من الجزاء قال تعالى : « وإن جهنم لمحيطة بالكافرين » التوبة : ٤٩ .

واستشكل بأنه مناف لصريح قوله تعالى : « لأملاّن جهنم » الآية وأُجيب بأن الامتلاء قد يراد به أنه لا يخلو شيء من طبقاتها من السكنة كما يقال : البلد ممتلىء بأهله . على أنه يمكن أن يكون هذا القول منها قبل دخول جميع أهل النار فيها .

وقيل : الاستفهام في قوله : « هل من مزيد » للإينكار والمعنى لا مزيد أي لا يمكن في مزيد على من ألقى في من المجرمين فقد امتلأت فيكون إشارة إلى ما قضى به في قوله : « لأملاّن جهنم من الجنة والناس أجمعين » السجدة : ١٣ ، وقوله : « هل امتلأت » في معنى أن يقال : « هل حق القول مني لأملاّن جهنم » ، وقوله : « هل من مزيد » تقرير وتصديق له .

وربما أيد هذا الوجه قوله تعالى قبل : « ما يبدّل القول لدي » على تقدير أن يراد بالقول قوله تعالى : « لأملاّن جهنم من الجنة والناس أجمعين » .

قوله تعالى : « وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد » شروع في وصف حال المتقين يوم القيامة ، والإزلاف التقريب ، و« غير بعيد » على ما قيل صفة لظرف محذوف والتقدير في مكان غير بعيد .

والمعنى وقرّبت الجنة يومئذ للمتقين حال كونها في مكان غير بعيد أي هي بين أيديهم لا تكلف لهم في دخولها .

قوله تعالى : « هذا ما توعدون لكل أبواب حفيظ » الإشارة إلى ما تقدم من الثواب الموعود ، والأبواب من الأب بمعنى الرجوع ، والمراد كثرة الرجوع إلى الله

بالتوبة والطاعة ، والحفيظ هو الذي يدوم على حفظ ما عهد الله إليه من أن يترك فيضيع
وقوله : « لكل أوّاب حفيظ » خبر بعد خبر لهذا أو حال .

قوله تعالى : « من خشى الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب » بيان لكل أوّاب
والخشية بالغيب الخوف من عذاب الله حال كونه غائباً غير مرئي له ، والإجابة هو
الرجوع ، والمجيء إلى ربه بقلب منيب أن يتمّ عمره بالإجابة فيأتي ربه بقلب متلبس
بالإجابة .

قوله تعالى : « ادخلوها بسلام ذلك يوم الخلود » خطاب للمتقين أي يقال لهم:
ادخلوا بسلام أي بسلامة وأمن من كل مكروه وسوء ، أو بسلام من الله وملائكته
عليكم ، وقوله : « ذلك يوم الخلود » بشرى يبشرون بها .

قوله تعالى : « لهم ما يشاؤون فيها ولدينا مزيد » يمكن أن يكون « فيها »
متعلقاً بيشاؤون أو بمحذوف هو حال من الموصول والتقدير حال كون ما يشاؤون فيها أو
من الضمير المحذوف الراجع إلى الموصول والتقدير ما يشاؤنه حال كونه فيها ، والأوّل
أوفق لسعة كرامتهم عند الله سبحانه .

والمحصول أن أهل الجنة وهم في الجنة يملكون كل ما تعلقت به مشيتهم و
إرادتهم كائن ما كان من غير تقييد واستثناء فلهم كل ما أمكن أن يتعلّق به الإرادة
والمشية لو تعلّقت .

وقوله : « ولدينا مزيد » أي ولهم عندنا ما يزيد على ذلك - على ما يفيد السياق -
وإن كان لهم كل ما أمكن أن تتعلّق به مشيتهم ممّا يتعلّق به علمهم من المطالب والمقاصد
فالزيد على ذلك أمر أعظم ممّا تتعلّق به مشيتهم لكونه فوق ما يتعلّق به علمهم من
الكمال .

وقيل : المراد بالمزيد الزيادة على ما يشاؤون من جنس ما يشتهون فإذا شاؤوا
رزقاً أعطوا منه أكثر ممّا شاؤوا وأفضل وأعجب كما ورد عن بعضهم أنه تمرّ بهم السحابة
فتقول : ماذا تريدون فأمره عليكم فلا يريدون شيئاً إلاّ أمطرته عليهم .

وفيه أنّه تقييد لا إطلاق الكلام من غير مقيّد فإنّ ظاهر قوله : « لهم ما يشاؤون »

فيها ، أنهم يملكون كل ما يمكنهم أن يشاءوا لا تملكهم ما شاءه بالفعل فالمزيدو راء ما يمكن أن تتعلق به مشيئتهم .

وقيل : المراد أنه يضاعف لهم الحسنه بعشر أمثالها وفيه ما في سابقه .

قوله تعالى : « و كم أهلكنا قبلهم من قرن هم أشد منهم بطشا فنقبوا في البلاد

هل من محيص » التنقيب السير ، المحيص المحيد والمنجأ .

وفي الآية تذييل الاحتجاج بخلق الإنسان والعلم به وبيان سيره إلى الله بالتخويف والإذار نظير ما جرى عليه الكلام في صدر السورة من الاحتجاج على المعاد وتذيله بالتخويف والإذار في قوله : « كذب قبلهم قوم نوح وأصحاب الرس و ثمود » الخ .

والمعنى وكثيراً ما أهلكنا قبل هؤلاء المشركين من قرن هم أي أهل ذلك القرن أشد بطشاً منهم أي من هؤلاء المشركين فساروا ببطشهم في البلاد ففتحوها و تحكموا عليها هل من محيد و منجأ من إهلاك الله و عذابه ؟

قوله تعالى : « إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد»

القلب ما يعقل به الإنسان فيميز الحق من الباطل والخير من الشر والنافع من الضار فاذا لم يعقل ولم يميز فوجوده بمنزلة عدمه إن ما لا أثر له فوجوده و عدمه سواء ، و إلقاء السمع هو الاستماع كأن السمع شيء يلقي إلى المسموع فينال ويدركه والشهيد الحاضر المشاهد .

والمعنى إن فيما أخبرنا به من الحقائق وأشرنا إليه من قصص الأمم الهالكة

لذكرى يتذكر بها من كان يتعقل فيدرك الحق و يختار ما فيه خيره و نفعه أو استمع إلى حق القول ولم يشتغل عنه بغيره والحال أنه شاهد حاضري ما يسمعه .

والترديد بين من كان له قلب و من استمع شهيداً لمكان أن المؤمن بالحق أحد

رجلين إما رجل ذو عقل يمكنه أن يتناول الحق فيتفكر فيه و يرى ما هو الحق فيذعن به ، وإما رجل لا يقوى على التفكير حتى يميز الحق والخير والنافع فعليه أن يستمع القول فيقتبعه ، وأما من لا قلب له يعقل به ولا يسمع شهيداً على ما يقال له و يلقي إليه من الرسالة والإذار فجاهل متعمت لا قلب له ولا سمع قال تعالى : « وقالوا

لو كنّا نسمع أو نعقل ما كنّا في أصحاب السعير « الملك : ١٠ .
قوله تعالى : « ولقد خلقنا السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيّام وما
مسّنا من لغوب » اللغوب التعب والنصب ، والمعنى ظاهر .

﴿ بحث روائي ﴾

في التوحيد بإسناده إلى عمرو بن شمر عن جابر بن يزيد قال : سألت أبا جعفر
عليه السلام عن قول الله عزّ وجلّ : « أفعمينا بالخلق الأول بل هم في لبس من خلق جديد »
قال : يا جابر تأويل ذلك أن الله عزّ وجلّ إذا أفنى هذا الخلق وهذا العالم وسكن
أهل الجنة الجنة وأهل النار النار جدّد الله عالماً غير هذا العالم وجدّد خلقاً من غير
فحولة ولا إناث يعبدونه ويوحّدونه وخلق لهم أرضاً غير هذه الأرض تحملهم ، وسماء
غير هذه السماء تظّلهم .

لعلّك ترى أن الله إنّما خلق هذا العالم الواحد أو ترى أن الله لم يخلق بشراً
غيركم والله لقد خلق ألف ألف عالم وألف ألف آدم أنت في آخر تلك العوالم وأولئك
الآدميين .

أقول : وروي في الخصال الشطر الأول من الحديث بإسناده عن محمد بن مسلم
عنه عليه السلام ، ولعلّ المراد بكون ما ذكر تأويل الآية أنّه ممّا ينطبق عليه .

و عن جوامع الجامع عن النبي صلى الله عليه وآله : كاتب الحسنات على يمين الرجل و
كاتب السيئات على شماله ، وصاحب اليمين أمير على صاحب الشمال فإذا عمل حسنة
كتبها صاحب اليمين عشرة وإذا عمل سيئة قال صاحب اليمين لصاحب الشمال : دعه سبع
ساعات لعلّه يسبّح أو يستغفر .

أقول : وفي معناها روايات أخرى ، وروي ست ساعات بدل سبع ساعات .
وفي نهج البلاغة « وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد » سائق يسوقها إلى محشرها
و شاهد يشهد عليها بعملها .

وفي المجمع وروى أبو القاسم الحسكاني بالأسناد عن الأعمش قال : حدثنا أبو المتوكل التاجر عن أبي السعيد الخدري قال : قال رسول الله ﷺ : إذا كان يوم القيامة يقول الله لي ولعلي : ألقيا في النار من أبغضكما ، وأدخلا في الجنة من أحبكما وذلك قوله : « ألقيا في جهنم كل كفار عنيد » .

أقول : ورواه شيخ الطائفة في أماليه بإسناده عن أبي سعيد الخدري عنه صلى الله عليه وآله .

وفي الدر المنثور أخرج ابن أبي الدنيا في ذكر الموت وابن أبي حاتم وأبو نعيم في الحلية عن جابر بن عبد الله قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : إن ابن آدم لفى غفلة عما خلق له إن الله إذا أراد خلقه قال للملك : اكتب رزقه . اكتب أثره . اكتب أجله شقيماً أم سعيداً ثم يرتفع ذلك الملك ويبعث الله ملكاً فيحفظه حتى يدرك ثم يرتفع ذلك الملك .

ثم يوكل الله به ملكين يكتبان حسناته وسيئاته فإذا حضره الموت ارتفع ذلك الملكان وجاء ملك الموت ليقبض روحه فإذا أدخل قبره رد الروح في جسده وجاء ملكا القبر فامتحناه ثم يرتفعان .

فإذا قامت الساعة انحط عليه ملك الحسنات وملك السيئات فبسطا كتاباً معقوداً في عنقه ثم حضرا معه وأحسناق وآخر شهيد . ثم قال رسول الله ﷺ : إن قد أمكم لأمراً عظيماً لا تقدرونه فاستعينوا بالله العظيم .

وفي تفسير القمي في قوله تعالى : « يوم نقول لجهنم هل امتلأت و تقول هل من مزيد » قال : هو استفهام لأن الله وعد النار أن يملأها فتمتلئ النار ثم يقول لها : هل امتلأت ؟ و تقول : هل من مزيد ؟ على حد الاستفهام أي ليس في مزيد .

أقول : بناؤه على كون الاستفهام إنكارياً .

وفي الدر المنثور أخرج أحمد والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن جرير وابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : لا تزال جهنم يلقى فيها و تقول : هل من مزيد ؟ حتى تضع رب العزة فيها قدمه فينزوي

بعضها إلى بعض و تقول : قط قط وعزّتك و كرمك .

ولا يزال في الجنة فضل حتى ينشئ الله لها خلقاً آخر فيسكنهم في قصور الجنة .

أقول : وضع القدم على النار وقولها : قط قط مروي في روايات كثيرة من طرق أهل السنة .

و في تفسير القمي في قوله تعالى : « لهم ما يشاؤون فيها ولدينامزيد » قال : النظر إلى رحمة الله .

و في الدر المنثور أخرج البزّاز و ابن المنذر و ابن أبي حاتم و ابن مردويه واللالكائي في السنة والبيهقي في البعث والنشور عن أنس في قوله تعالى : « ولدينامزيد » قال : يتجملّ لهم الرب عزّ وجلّ .

و في الكافي بعض أصحابنا رفعه عن هشام بن الحكم قال : قال لي أبو الحسن موسى بن جعفر عليه السلام : يا هشام إن الله يقول في كتابه : « إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب » يعني عقل .

و في الدر المنثور أخرج الخطيب في تاريخه عن العوام بن حوشب قال : سألت أبا مجاز عن الرجل يجلس فيضع إحدى رجله على الأخرى فقال : لا بأس به إنما كره ذلك اليهود زعموا أن الله خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استراح يوم السبت فجلس تلك الجلسة فأنزل الله « ولقد خلقنا السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب » .

أقول : و روي هذا المعنى عن الضحاك و قتادة ، و روى هذا المعنى المفيد في روضة الواعظين في رواية ضعيفة ، و أصل تقسيم خلق الأشياء إلى ستة من أيام الأسبوع واقع في التوراة ، والقرآن و إن كرّر ذكر خلق الأشياء في ستة أيام لكنّه لم يذكر كون هذه الأيام هي أيام الأسبوع ولا لوح إليه .

و على هذه الروايات اعتمد من قال : إن الآية مدنيّة ، و لا دلالة في ردّها قول اليهود أن تكون نازلة بالمدينة ، وفي الآيات المسكّية ما تعرض سبحانه فيه لشأن اليهود كما في سورة الأعراف وغيرها .



فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَ سَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَ
 قَبْلَ الْغُرُوبِ (٣٩) وَ مِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَ أَدْبَارَ السُّجُودِ (٤٠) وَ
 اسْمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ (٤١) يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ
 بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ (٤٢) إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَ نُمِيتُ وَ إِنَّا
 الْمَصِيرُ (٤٣) يَوْمَ تَشَقُّ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا
 يَسِيرٌ (٤٤) نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَ مَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكَرْ
 بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ (٤٥) .

﴿بيان﴾

خاتمة السورة يأمر النبي ﷺ فيها أن يصبر على ما يقولون مما يرمونه بنحو
 السحر والجنون والشعر ، و ما يتعنّتون به باستهزاء المعاد والرجوع إلى الله تعالى
 فيأمره ﷺ بالصبر و أن يعبد ربّه بتسبيحه و أن يتوقّع البعث بانتظار الصيحة ، و أن
 يذكّر بالقرآن من يخاف الله بالغيب .

قوله تعالى : « فاصبر على ما يقولون و سبّح بحمد ربك قبل طلوع الشمس و
 قبل الغروب » تفريع على جميع ما تقدّم من إنكار المشركين للبعث ، و من تفصيل القول في
 البعث والحجّة عليه ، و من وعيد المنكرين له المكذّبين للنبي ﷺ و تهديدهم
 بمثل ما جرى على المكذّبين من الأمم الماضية .

وقوله : « و سبّح بحمد ربك » الخ أمر بتزيهه تعالى عما يقولون مصاحباً للحمد
 ومحصّله إثبات جميل الفعل له ونفي كل نقص و شين عنه تعالى ، والتسبيح قبل طلوع

الشمس يقبل الانطباع على صلاة الصبح ، والتسبيح قبل الغروب يقبل الانطباع على صلاة العصر أو عليها وعلى صلاة الظهر .

قوله تعالى : « ومن الليل فسبحه وأدبار السجود » أي ومن الليل فسبحه فيه ، ويقبل الانطباع على صلاتي المغرب والعشاء .

وقوله : « وأدبار السجود » الأدبار جمع دبر وهو ما ينتهي إليه الشيء وبعده ، وكأن المراد بأدبار السجود بعد الصلوات فإن السجود آخر الركعة من الصلاة فينطبق على التعقيب بعد الصلوات ، وقيل : المراد به النوافل بعد الفرائض ، وقيل : المراد به الركعتان أو الركعات بعد المغرب وقيل : ركعة الوتر في آخر الليل .

قوله تعالى : « واستمع يوم يناد المناد من مكان قريب » فسروا الاستماع بمعان مختلفة والأقرب أن يكون مضمناً معنى الانتظار و « يوم يناد المناد » مفعوله والمعنى وانتظر يوما ينادي فيه المنادي ملقياً سمعك لاستماع ندائه ، والمراد بنداء المنادي نفخ صاحب الصور في الصور على ما تفيد الآية التالية .

وكون النداء من مكان قريب لإحاطته بهم فيقع في سمعهم على نسبة سواء لا تختلف بالقرب والبعد فإنما هو نداء البعث وكلمة الحياة .

قوله تعالى : « يوم يسمعون الصيحة بالحق » ذلك يوم الخروج » بيان ليوم ينادي المنادي ، وكون الصيحة بالحق لأنها مقضية قضاء محتوما كما مر في قوله : « وجاءت سكرة الموت بالحق » الآية .

وقوله : « ذلك يوم الخروج » أي يوم الخروج من القبور كما قال تعالى : « يوم يخرجون من الأجدات سراعا » المعارج : ٤٣ .

قوله تعالى : « إنا نحن نحيي ونميت وإلينا المصير » المراد بالإحياء إفاضة الحياة على الأجساد الميتة في الدنيا ، وبالإماتة الإماتة في الدنيا وهي النقل إلى عالم القبر ، وبقوله : « وإلينا المصير » الإحياء بالبعث في الآخرة على ما يفيد السياق .

قوله تعالى : « يوم تشقق الأرض عنهم سراعاً ذلك حشر علينا يسير » أصل « تشقق » تشقق أي تصدع عنهم فيخرجون منها مسارعين إلى الداعي .

وقوله : « ذلك حشر علينا يسير » أي ما ذكرنا من خروجهم من القبور المنشقة عنهم سراحا جمع لهم علينا يسير .

قوله تعالى : « نحن أعلم بما يقولون وما أنت عليهم بجبار فذكر بالقرآن من يخاف وعيد » في مقام التعليل لقوله : « فاصبر على ما يقولون » الآية ، والجبار المتسلط الذي يجبر الناس على ما يريد .

والمعنى فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك وانتظر البعث فنحن أعلم بما يقولون سنجزئهم بما عملوا ولست أنت بمتسلط جبار عليهم حتى تجبرهم على ما تدعوهم إليه من الإيمان بالله واليوم الآخر وإذا كانت حالهم هذه الحال فذكر بالقرآن من يخاف وعيدي .

﴿ بحث روائي ﴾

في الدر المنثور أخرج الطبراني في الأوسط وابن عساكر عن جرير بن عبد الله عن النبي ﷺ في قوله : « وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب » قبل طلوع الشمس صلاة الصبح ، وقبل الغروب صلاة العصر .

وفي المجمع روي عن أبي عبد الله عليه السلام أنه سئل عن قوله : « وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب » فقال : تقول حين تصبح وحين تمسي عشر مرات لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير .

اقول : هو مأخوذ من إطلاق التسبيح في الآية وإن كان خصوص مورده صلاتي الصبح والعصر فلا منافاة .

وفي الكافي بإسناده عن حريز عن زرارة عن أبي جعفر عليه السلام قال : قلت : « وأدبار السجود » قال : ركعات بعد المغرب .

اقول : ورواه القمي في تفسيره بإسناده عن ابن أبي نصر عن الرضا عليه السلام ولفظه قال : أربع ركعات بعد المغرب .

وفي الدر المنثور أخرج مسدّد في مسنده وابن المنذر وابن مردويه عن عليّ بن أبي طالب قال : سألت رسول الله ﷺ عن أدبار النجوم والسجود فقال : أدبار السجود الركعتان بعد المغرب ، وأدبار النجوم الركعتان قبل الغداة .

اقول : وروى مثله عن ابن عباس وعمر عنه رضي الله عنهما ، وأسنده في مجمع البيان إلى الحسن بن عليّ رضي الله عنهما أيضاً عن النبي ﷺ .

وفي تفسير القمّي في قوله تعالى : « فذكر بالقرآن من يخاف وعيد » قال : ذكر يا محمد ما وعدناه من العذاب .



﴿سورة الذاريات مكيّة وهي ستون آية﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَالذَّارِيَاتِ ذُرُوءًا (١) فَالْحَامِلَاتِ
وَقَرًا (٢) فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا (٣) فَالْمَقْسَمَاتِ أَمْرًا (٤) إِنَّمَا تُوْعَدُونَ
لَصَادِقٍ (٥) وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ (٦) وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ (٧) إِنَّكُمْ
لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ (٨) يُؤَفِّكُ عَنْهُ مِنَ الْفِكِّ (٩) قَتَلَ الْخَرَّاصُونَ (١٠)
الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ (١١) يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ (١٢) يَوْمَ
هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ (١٣) ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ
تَسْتَعْجِلُونَ (١٤) إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٥) آخِذِينَ مَا
آتَاهُمْ رَبُّهُمْ أَنَّهُمْ لَا يَأْكُلُونَ قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ (١٦) كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ
مَا يَهْجَعُونَ (١٧) وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (١٨) وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ
لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (١٩) .

﴿بيان﴾

كانت الدعوة النبويّة تدعو الوثنيّة إلى توحيد الربوبيّة وأنّ الله تعالى هو ربّهم وربّ كلّ شيء ، وكانت الدعوة من طريق الإنذار والتبشير وخاصة بالإنذار وكان الإنذار بعذاب الله في الدنيا للمكذّبين عذاب الاستئصال ، وفي الآخرة بالعذاب الخالد يوم القيامة وهو العمدة في نجاح الدعوة إذ لو لا الحساب والجزاء يوم القيامة كان الإيمان بالوحدانيّة والنبوة لغى لا أثر له .

والمشركون باتخاذهم آلهة دون الله سبحانه شديداً إلا نكار لأصول التوحيد والنبوة والمعاد ، وكانوا يتعنتون بإنكار المعاد والإصرار على نفيه والاستهزاء به من أي طريق ممكن لما يرون أن في بطلانه بطلان الأصلين الآخرين .

والسورة تذكر المعاد وإنكارهم له فتبدء به وتختتم عليه لكن لا من حيث نفسه كما جرى عليه الكلام في مواضع من كلامه بل من حيث إنّه يوم الجزاء وأن الله الذي وعدهم به هو ربهم وهو الذي وعدهم به ووعدده صدق لا ريب فيه .

ولذلك لما انساق الكلام إلى الاحتجاج عليه احتجّت بأدلة التوحيد من آيات الأرض والسماء والأنفس وما عاقب الله به الأمم الماخذين إثر دعوتهم إلى التوحيد وتكذيبهم لرسله ، وليس إلا ليثبت بها التوحيد فيثبت به يوم الجزاء الذي وعده الله والله لا يخلف الميعاد وأخبرت به الدعوة النبوية فيندفع بذلك إنكارهم للجزاء وقد توسلوا بذلك إلى إبطال دين التوحيد ورسالة الرسول لصيرورة الإيمان به لغوا لا أثر له كما تقدمت الإشارة إليه .

والسورة مكّية لشهادة سياق آياتها عليه ولم يختلف في ذلك أحد ، ومن غرر آياتها قوله تعالى : « وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون » .

والفصل الذي أوردناه من الآيات مفتتح الكلام يذكر فيه أن الجزاء الذي وعده صدق وإنكارهم له وتعنتهم بذلك تخرّص ثم يصف يوم الجزاء وحال المتقين والمنكرين فيه .

قوله تعالى : « والذاريات ذروا فالجارات وقرا فالجاريات يسرا فالملقسات أمرا » الذاريات جمع الذارية من قولهم : ذرت الريح التراب تذروه ذرواً إذا أطارته والوقر بالكسر فالسكون ثقل الحمل في الظهر أو في البطن .

وفي الآيات إقسام بعد إقسام يفيد التأكيد بعد التأكيد للمقسم عليه وهو الجزاء على الأعمال فقوله : « والذاريات ذرواً » إقسام بالرياح المثيرة للتراب ، وقوله : « فالجارات وقرا » بالفاء المفيدة للتأخير والترتيب معطوف على الذاريات وإقسام بالسحب الحاملة لثقل الماء ، وقوله : « فالجاريات يسراً » عطف عليه وإقسام بالسفن

الجارية في البحار يبسر وسهولة .

وقوله : « فامقسّمات أمراً » عطف على ما سبقه وإقسام بالملائكة الذين يعملون بأمره فيقسّمونه باختلاف مقاماتهم فإنّ أمر ذي العرش بالخلق والتدبير واحد فإنّ حملته طائفة من الملائكة على اختلاف أعمالهم انشعب الأمر وتقسّم بتقسّمهم ثمّ إذا حملته طائفة هي دون الطائفة الأولى تقسّم ثانياً بتقسّمهم وهكذا حتّى ينتهي إلى الملائكة المباشرين للحوادث الكونيّة الجزئية فينقسم بانقسامها ويتكثّر بتكثّرها . والآيات الأربع - كما ترى - تشير إلى عامّة التدبير حيث ذكرت أنموذجاً ممّا يدبّر به الأمر في البرّ وهو الذاريات ذرواً ، وأنموذجاً ممّا يدبّر به الأمر في البحر وهو الجاريات يسراً وأنموذجاً ممّا يدبّر به الأمر في الجوّ وهو الحاملات وقرأ ، وتمّم الجميع بالملائكة الذين هم وسائط التدبير وهم المقسّمات أمراً .

فآيات في معنى أن يقال : أقسم بعامة الأسباب التي يتمّم بها أمر التدبير في العالم إنّ كذا كذا ، وقد ورد من طرق الخاصّة والعامة عن عليّ عليه أفضل السّلام تفسير الآيات الأربع بما تقدّم .

وعن الفخر الرازي في التفسير الكبير أنّ الأقرب حمل الآيات الأربع جميعاً على الرياح فإنّها كما تذرّو التراب ذرواً تحمل السحب الثقال وتجري في الجوّ يبسر وتقسّم السحب على الأقطار من الأرض .

والحقّ أنّ ما استقرّ به بعيد ، وما تقدّم من المعنى أبلغ ممّا ذكره .

قوله تعالى : « إنّ ما توعدون لصادق وإنّ الدين لواقع » « ما » موصولة ، والضمير العائد إليها محذوف أي الذين توعّدونه ، أو مصدريّة ، و « توعدون » من الوعد كما يؤيّدّه قوله : « وإنّ الدين لواقع » الشامل لمطلق الجزاء ، وقيل : من الإيعاد كما يؤيّدّه قوله : « فذكر بالقرآن من يخاف وعيد » ق : ٣٥ .

وعدّ الوعد صادقاً من المجاز في النسبة كما في قوله : « في عيشة راضية » الحاقة : ٢١ أو الصادق بمعنى ذو صدق كما قيل بمثله في قوله : « في عيشة راضية » والدين الجزاء . وكيف كان فقوله : « إنّ ما توعدون لصادق » جواب القسم ، وقوله : « وإنّ »

الدين لواقع ، معطوف عليه بمنزلة التفسير ، والمعنى أقسم بكذا وكذا أن الذي توعده - وهو الذي بعدهم القرآن أو النبي ﷺ بما أنزل إليه - من يوم البعث وأن الله سيجزيهم فيه بأعمالهم إن خيراً فخيراً وإن شراً فشرّاً لصادق ، وإن الجزاء لواقع .

قوله تعالى : « والسماء ذات الحجب » الحجب بمعنى الحسن والزينة ، وبمعنى الخلق المستوي ، ويأتي جمعاً لحبيكة أو حباك بمعنى الطريقة كالطرائق التي تظهر على الماء إذا تشبى وتكسّر من مرور الرياح عليه .

والمعنى على الأول : أقسم بالسماء ذات الحسن والزينة نظير قوله تعالى : « إننا زيننا السماء الدنيا بزينة الكواكب » الصافات : ٦ ، وعلى الثاني : أقسم بالسماء ذات الخلق المستوي نظير قوله : « والسماء بنيناها بأيدي » الآية ٤٧ من السورة وعلى الثالث أقسم بالسماء ذات الطرائق نظير قوله : « ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق » المؤمنون : ١٧ . ولعل المعنى الثالث أظهر لمناسبة لجواب القسم الذي هو اختلاف الناس وتشبث طرائقهم كما أن الأقسام السابقة : « والذاريات ذرواً » الخ كانت مشتركة في معنى الجري والسير مناسبة لجوابها : « إنتما تواعدون » الخ المتضمن لمعنى الرجوع إلى الله والسير إليه .

قوله تعالى : « إنكم لفي قول مختلف يؤفك عنه من أفك » القول المختلف ما يتناقض ويدفع بعضه بعضاً وحيث إن الكلام في إثبات صدق القرآن أو الدعوة أو النبي ﷺ فيما وعدهم من أمر البعث والجزاء فالمراد بالقول المختلف - على الأقرب - قولهم المختلف في أمر القرآن لغرض إنكار ما يثبت فتارة يقولون : إنه سحر والجائي به ساحر ، وتارة يقولون : زجر والجائي به مجنون ، وتارة يقولون : إلقاء شياطين الجن والجائي به كاهن ، وتارة يقولون : شعر والجائي به شاعر ، وتارة إنه افتراء ، وتارة يقولون إنما يعلمه بشر وتارة يقولون : أساطير الأولين اكتتبها .

وقوله : « يؤفك عنه من أفك » الإفك الصرف ، وضمير « عنه » إلى الكتاب من حيث اشتماله على وعد البعث والجزاء ، والمعنى يصرف عن القرآن من صرف ، و

قيل : الضمير للنبي ﷺ والمعنى يُصرف عن الإيمان به من صرف ، وقد عرفت أن المعنى السابق أوفق للسياق وإن كان مآل المعنيين واحداً .

و حكى عن بعضهم أن ضمير « عنه » لما توعدون أول الدين أقسم تعالى أو لا بالذاريات وغيرها على أن البعث والجزاء حق ثم أقسم بالسماء على أنهم في قول مختلف في وقوعه فمنهم شاك ومنهم جاحد ثم قال تعالى : يؤفك عن الاقرار بأمر البعث والجزاء من هو مأفوك . وهذا الوجه قريب من الوجه السابق .

و عن بعضهم أن الضمير لقول مختلف و « عن » للتعليل كما في قوله تعالى : وما نحن بتاركي آلِهتنا عن قولك هود : ٥٣ فيكون الجملة صفة لقول والمعنى إنكم لفي قول مختلف يؤفك بسببه من أفك ، وهو وجه حسن .

وقيل : الضمير في « إنكم » للمسلم والكافر جميعاً فيكون المراد بالقول المختلف قول المسلمين بوقوع البعث والجزاء وقول الكفار بعدم الوقوع . ولعل السياق لا يلائمه وقيل : بعض وجوه أخر رديئة لا جدوى في التعرض له .

قوله تعالى : « قتل الخراصون الذين هم في غمرة ساهون يسألون أيان يوم الدين » أصل الخرص القول بالظن والتخمين من غير علم ، و لكون القول بغير علم في خطر من الكذب يسمى الكذاب خراساً ، والأشبه أن يكون المراد بالخراسين في الآية القوالين من غير علم و دليل وهم الخاضعون في أمر البعث والجزاء المنكرون له بغير علم .

و في قوله : « قتل الخراصون » دعاء عليهم بالقتل وهو كناية عن نوع من الطرد والحرمان من الفلاح وإليه يؤل قول من فسره باللعن .

وقوله : « الذين هم في غمرة ساهون » الغمرة - كما ذكر الراغب - معظم الماء السائر لمقرها ، وجعل مثلاً للجهالة التي تغمر صاحبها ، والمراد بالسهو - كما قيل - مطلق الغفلة .

و معنى الآية وهي تصف الخراسين : الذين هم في جهالة أحاطت بهم غافلون عن حقيقة ما أخبروا به .

و قوله : « يسألون أيّان يوم الدين » ضمير الجمع للخراصين قول قالوه على طريق الاستعجال استهزاء كقولهم : « متى هذا الوعد إن كنتم صادقين » يس : ٤٨ .
والسؤال بأيّان - الموضوع لل سؤال عن زمان مدخولها - عن يوم الدين و هو ظاهر في الزمان إنّما هو بعناية أن يوم الدين لكونه موعوداً ملحق بالزمانيات فيسأل عنه كما يسأل عن الزمانيات بأيّان ومتى كما يقال : متى يوم العيد لكونه ناشئاً ملحقاً لذلك بالزمانيات كذا قيل .

و يمكن أن يكون من التوسّع في معنى الظرفيّة بأن يعدّ أوصاف الظرف الخاصّة به ظرفاً توسّعاً فيكون السؤال عن زمان الزمان سؤالاً عن أنّه بعد أيّ زمان أو قبل أيّ زمان ؟ كما يقال : متى يوم العيد ؟ فيجاب بأنّه بعد عشرة أيّام مثلاً أو قبل يوم كذا ، و هو توسّع جار في العرف غير مختصّ بكلام العرب ، و في القرآن منه شيء كثير .

قوله تعالى : « يوم هم على النار يفتنون » ضمير الجمع للخراصين ، والفتن في الأصل إدخال الذهب النار ليظهر جودته ثمّ استعمل في مطلق الإحراق والتعذيب ، والظرف متعلّق بفعل محذوف أو مبتدء ، والآية جواب عن سؤالهم عدل فيه عن بيان وقت يوم الدين إلى بيان صفته والإشارة إلى حالهم فيه لما أن وقته من الغيب الذي لا يعلمه إلّا الله قال تعالى : « لا يجليها لوقتها إلّا هو » .

و تقدير الآية ومعناها : يقع يوم الدين أو هو واقع يوم هم أي الخراصون في النار يعدّون أو يحرقون .

قوله تعالى : « ذوقوا فتنتكم هذا الذي كنتم به تستعجلون » حكاية خطاب منه تعالى أو من الملائكة بأمره للخراصين و هم يفتنون على النار يومئذ .

والمعنى يقال لهم ذوقوا العذاب الذي يخصّكم . هذا العذاب هو الذي كنتم تستعجلون به إن تقولون استعجلاً واستهزاءً : أيّان يوم الدين .

قوله تعالى : « إن المتّقين في جنّات و عيون » بيان لحال المتّقين يوم الدين بعد وصف حال أولئك الخراصين .

و تنكير جنات و عيون للإشارة إلى عظم قدرها كأنها بحيث لا يقدر الوصفون على وصفها ، و قد ألحقت العيون بالجنات في ظرفيتها توسعاً .

قوله تعالى : « آخذين ما آتاهم ربهم إنهم كانوا قبل ذلك محسنين » أي قابلين ما أعطاهم ربهم الرؤف بهم راضين عنه و بما أعطاهم كما يفيد خصوص التعبير بالأخذ والإيتاء و نسبة الإيتاء إلى ربهم .

و قوله : « إنهم كانوا قبل ذلك محسنين » تعليل لما تقدمه أي إن حالهم تلك الحال لأنهم كانوا قبل ذلك أي في الدنيا ذوي إحسان في أعمالهم أي ذوي أعمال حسنة .
قوله تعالى : « كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون » الآيات تفسير لا حسانهم ، و الهجوع النوم في الليل و قيل : النوم القليل .

و يمكن أن تكون : ما زائدة و « يهجعون » خبر كانوا ، و « قليلاً » ظرفاً متعلقاً به أي في زمان قليل أو صفة لمفعول مطلق محذوف أي هجوعاً قليلاً « و من الليل » متعلقاً بقليلاً والمعنى كانوا ينامون في زمان قليل من الليل أو ينامون الليل نوماً قليلاً .
و أن تكون موصولة والضمير العائد إليها محذوفاً و « قليلاً » خبر كانوا والموصول فاعله والمعنى كانوا قليلاً من الليل الذي يهجعون فيه .

و أن تكون مصدرية والمصدر المسبوك منها و من مدخولها فاعلاً لقوله : « قليلاً » و هو خبر « كانوا » .

و على أي حال فالقليل من الليل إما مأخوذ بالقياس إلى مجموع زمان كل ليلة يفيد أنهم يهجعون كل ليلة زماناً قليلاً منها و يصلون أكثرها ، و إما مأخوذ بالقياس إلى مجموع الليالي يفيد أنهم يهجعون في قليل من الليالي و يقومون للصلاة في أكثرها أي لا يفوتهم صلاة الليل إلا في قليل من الليالي .

قوله تعالى : « و بالأسحارهم يستغفرون » أي يسألون الله المغفرة لذنوبهم ، و قيل : المراد بالاستغفار الصلاة و هو كما ترى .

قوله تعالى : « و في أموالهم حق للسائل والمحروم » الآيتان السابقتان تبيينان خاصة سيرتهم في جنب الله سبحانه و هي قيام الليل و الاستغفار بالأسحار و هذه الآية

تبيّن خاصّة سيرتهم في جنب الناس وهي إيتاء السائل والمحروم .
 و تخصيص حقّ السائل والمحروم بأنّه في أموالهم - مع أنّه لو ثبت فإنّما
 يثبت في كلّ مال - دليل على أنّ المراد أنّهم يرون بصفاء فطرتهم أنّ في أموالهم حقّاً
 لهما فيعملون بما يعملون نشرّاً للرحمة وإيثاراً للحنّة .
 والسائل هو الذي يسأل العطية بإظهار الفاقة والمحروم هو الذي حرم الرزق
 فلم ينجح سعيه في طلبه ولا يسأل تعفّفاً .

﴿ بحث روائي ﴾

في تفسير القميّ حدّثني أبي عن ابن أبي عمير عن جميل عن أبي عبد الله عليه السلام في
 قوله تعالى : « والذاريات ذرواً » فقال : إنّ ابن الكوا سأله أمير المؤمنين عليه السلام عن
 الذاريات ذرواً قال : الريح ، وعن « فالحاملات وقرأ » فقال : هي السحاب ، و
 عن « فالجاريات يسرا » فقال : هي السفن ، وعن « فاطمست أمارا » فقال : الملائكة .
 أقول : والحديث مروى من طرق أهل السنّة أيضاً كما في روح المعاني .
 وفي الدرّ المنثور أخرج عبدالرزاق والفاريابي وسعيد بن منصور والحاثر
 ابن أبي أسامة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن الأباري في المصاحف
 والحاكم وصحّحه والبيهقي في شعب الإيمان من طرق عن عليّ بن أبي طالب في
 قوله : « والذاريات ذرواً » قال : الرياح « فالحاملات وقرأ » قال : السحاب « فالجاريات
 يسرا » قال : السفن « فاطمست أمارا » قال : الملائكة .
 وفي المجمع قال أبو جعفر وأبو عبد الله عليهما السلام : لا يجوز لأحد أن يقسم إلّا بالله
 تعالى ، والله يقسم بما شاء من خلقه .
 وفي الدرّ المنثور أخرج ابن منيع عن عليّ بن أبي طالب أنّه سئل عن قوله :
 « والسماء ذات الجبرك » قال : ذات الخلق الحسن .
 أقول : و روى مثله في المجمع ولفظه : وقيل : ذات الحسن والزينة عن عليّ

عليه السلام ، و في جوامع الجامع و لفظه : و عن علي عليه السلام حسننها وزينتها .
و في بعض الأخبار في قوله تعالى : « إنكم لفي قول مختلف يؤفك عنهم أفك »
تطبيقه على الولاية .

و في المجمع في قوله تعالى : « كانوا قليلا من الليل ما يهجعون » و قيل معناه :
كانوا أقل ليلة تمر بهم إلا صلوا فيها و هو المروي عن أبي عبدالله عليه السلام .
و فيه في قوله تعالى : « و في الأسحارهم يستغفرون » و قال أبو عبدالله عليه السلام :
كانوا يستغفرون الله في الوتر سبعين مرة في السحر .
و في الدر المنثور أخرج ابن مردويه عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله :
« إن آخر الليل في التهجد أحب إلي من أوله لأن الله يقول : « و بالأسحارهم
يستغفرون » .

و فيه أخرج ابن مردويه عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وآله في قوله : « و بالأسحارهم
يستغفرون » قال : يصلون .

اقول : لعل تفسير الاستغفار بالصلاة من جهة اشتغال الوتر عليه كإرادة الصلاة
من القرآن في قوله : « و قرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهودا » أسرى : ٧٨ .
و في تفسير القمّي في قوله تعالى : « و في أموالهم حق للسائل والمحروم » قال :
السائل الذي يسأل ، والمحروم الذي قد منع كده .

و في التهذيب بإسناده عن صفوان الجمال عن أبي عبدالله عليه السلام في الآية قال :
المحروم المحارف الذي قد حرم كده في الشراء والبيع ،
قال : و في رواية أخرى عن أبي جعفر وأبي عبدالله عليه السلام قال : المحروم الرجل
ليس بعقله بأس ولا يبسط له في الرزق وهو محارف .





وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ (٢٠) وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٢١)
وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ (٢٢) فَوَرَبَّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ
لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ (٢٣) هَلْ أَتَيْكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ
الْمُكْرَمِينَ (٢٤) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ
مُنْكَرُونَ (٢٥) فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ (٢٦) فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ
قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ (٢٧) فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشِّرُوهُ
بِغُلَامٍ عَالِمٍ (٢٨) فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صِرَّةٍ فَصَكَتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ
عَقِيمٌ (٢٩) قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ (٣٠) قَالَ
فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (٣١) قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ
مُجْرِمِينَ (٣٢) لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ (٣٣) مُسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ
لِلْمُسْرِفِينَ (٣٤) فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٣٥) فَمَا وَجَدْنَا
فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٣٦) وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ
الْعَذَابَ الْآلِيمَ (٣٧) وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ
مُبِينٍ (٣٨) فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (٣٩) فَأَخَذْنَاهُ
وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ (٤٠) وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا

عَلَيْهِمُ الرِّيحُ الْعَقِيمَ (٤١) مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ
كَالرَّمِيمِ (٤٢) وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ (٤٣) فَعَتَوْا
عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ (٤٤) فَمَا اسْتَطَاعُوا
مِنْ قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنْتَصِرِينَ (٤٥) وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا
قَوْمًا فَاسِقِينَ (٤٦) وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ (٤٧) وَالْأَرْضَ
فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ (٤٨) وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ
تَذَكَّرُونَ (٤٩) فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ (٥٠)
وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ (٥١) .

﴿ بيان ﴾

تشير الآيات إلى عدة من آيات الله الدالة على وحدانيته في الربوبية ورجوع
أمر التدبير في الأرض والسماء والناس وأرزاقهم إليه ، ولأزمه إمكان نزول الدين
الإلهي من طريق الرسالة بل وجوبه ، ولأزمه صدق الدعوة النبوية فيما تضمنته من
وعد البعث والجزاء وأن ما يوعدون لصادق وأن الدين لواقع ، وقد مرّت إشارة إلى
خصوصية سلوك السورة في احتجاجها في البيان السابق .

قوله تعالى : « وفي الأرض آيات للموقنين » الاستنتاج الآتي في آخر هذه
الآيات في قوله : « ففرّوا إلى الله - إلى أن قال - ولا تجعلوا مع الله إلهاً آخر ،
الآية يشهد على أن سوق هذه الآيات والدلائل لإثبات وحدانيته تعالى في الربوبية
لا لإثبات أصل وجوده أو انتهاء الخلق إليه ونحو ذلك .

و في الآية إشارة إلى ما تتضمنه الأرض من عجائب الآيات الدالة على وحدة التدبير القائمة بوحداية مدبره من برّ وبحر و جبال و تلال و عيون و أنهار و معادن و منافعها المتصلة بعضها ببعض الملائمة بعضها لبعض ينتفع بها ما عليها من النبات والحيوان في نظام واحد مستمر من غير اتفاق و صدفة ، لائح عليها آثار القدرة والعلم والحكمة دال على أن خلقها و تدبير أمرها ينتهي إلى خالق مدبر قادر عليم حكيم .

فأى جانب قصد من جوانبها وأية وجهة ولّيت من جهات التدبير العام الجاري فيها كانت آية بيّنة و برهانا ساطعاً على وحادية ربها لا شريك له ينجلي فيه الحق لأهل اليقين ففيها آيات للموقنين .

قوله تعالى : « و في أنفسكم أفلا تبصرون » معطوف على قوله : « في الأرض » أي و في أنفسكم آيات ظاهرة لمن أبصر إليها و ركز النظر فيها أفلا تبصرون .

والآيات التي في النفوس منها ماهي في ترّكّب الأبدان من أعضائها و أعضاء أعضائها حتّى ينتهي إلى البسائط و مالها من عجائب الأفعال والآثار المتحددة في عين تكثرها المدبرة جميعاً لمدير واحد ، و ما يعرضها من مختلف الأحوال كالجنينية والطفولية والرهاق والشباب والشيب .

و منها ماهي من حيث تعلّق النفوس أعني الأرواح بها كالحواس من البصر والسمع والذوق والشمّ واللمس التي هي الطرق الأولى لاطلاع النفوس على الخارج لتمييز بذلك الخير من الشرّ والنافع من الضارّ لتسعى إلى ما فيه كمالها و تهرب ممّا لا يلائمها ، و في كلّ منها نظام واسع جار فيه منفصل بذاته عن غيره كالبصر لا خبر عنده عمّا يعمل السمع بنظامه الجاري فيه و هكذا ، والجميع مع هذا الانفصال والتقطّع مؤتلفة تعمل تحت تدبير مدبر واحد هو النفس المدبرة والله من ورائهم محيط .

و من هذا القبيل سائر القوى المنبعثة عن النفوس في الأبدان كالقوة الغضبية والقوة الشهوية و مالها من اللواحق والفروع فإنّها على ما للواحد منها بالنسبة إلى غيره من البينونة و انفصال النظام الجاري فيه عن غيره واقعة تحت تدبير مدبر واحد تتعاقد جميع شعبها و تأتلف لخدمته .

و نظام التدبير الذي لكل من هذه المدبّرات إنّما وجد له حينما وجد وأوّل ما ظهر من غير فصل فليس ممّا عملت فيه خيرته وأوجده هو لنفسه عن فكر وروية أو بغيره فنظام تدبيره كنفسه من صانع صنعه و ألزمه نظامه بتدبيره .

ومنها الآيات الروحانية الواقعة في عالم النفوس الظاهرة لمن رجع إليها وراقب الله سبحانه فيها من آيات الله التي لا يسعها وصف الواصفين وينفتح بها باب اليقين وتدرج المتطلّع عليها في زمرة الموقنين فيرى ملكوت السماوات والأرض كما قال تعالى : « و كذلك نرى إبراهيم ملكوت السماوات والأرض و ليكون من الموقنين » الأ نعم : ٧٥ .

قوله تعالى : « و في السماء رزقكم و ما توعدون » قيل : المراد بالسماء جهة العلو فان كل ما علاك و أظلك فهو سماء لغة ، والمراد بالرزق المطر الذي ينزل له الله على الأرض فيخرج به أنواع ما يقتاتونه و يلبسونه و ينتفعون به و قد قال تعالى : « و ما أنزل الله من السماء من رزق فأحياه الأرض بعد موتها » الجاثية : ٥ فسمي المطر رزقا فالمراد بالرزق سببه أو بتقدير مضاف أي سبب رزقكم .

وقيل : المراد أسباب الرزق السماوية من الشمس والقمر والكواكب واختلاف المطالع والمغارب الراسمة للفصول الأربعة و توالي الليل والنهار و هي جميعا أسباب الرزق فالكلام على تقدير مضاف أي أسباب رزقكم أو فيه تجوز بدعوى أن وجود الأسباب فيها وجود نوات الأسباب .

وقيل : المراد بكون الرزق فيها كون تقديره فيها ، أو أن الرزاق مكتوبة في اللوح المحفوظ فيها .

و يمكن أن يكون المراد به عالم الغيب فان الأشياء و منها الرزاق تنزل من عند الله سبحانه و قد صرح بذلك في أشياء كقوله تعالى : « و أنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج » الزمر : ٦ و قوله : « و أنزلنا الحديد فيه بأس شديد » الحديد : ٢١ ، و قوله على نحو العموم : « و إن من شيء إلّا عندنا خزائنه و ما ننزله إلّا بقدر معلوم » الحجر : ٢٥ والمراد بالرزق كل ما ينتفع به الإنسان في بقائه من مأكل و مشرب و ملبس و مسكن و منكح و ولد و علم و قوة و غير ذلك .

وقوله : « وما توعدون » عطف على « رزقكم » الظاهر أن المراد به الجنة لقوله تعالى : « عندها جنة المأوى » النجم : ١٥ ، و قول بعضهم : إن المراد به الجنة والنار أو الثواب والعقاب لا يلائمه قوله تعالى : « إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط » الأعراف : ٤٠ .

نعم تكرر في القرآن نسبة نزول العذاب الدنيوي إلى السماء كقوله : « فأنزلنا على الذين ظلموا رجزاً من السماء » البقرة : ٥٩ وغير ذلك .

و عن بعضهم أن قوله : « وما توعدون » مبتدأ خبره قوله : « فارب السماء والأرض إنه لحق » والواو للاستئناف وهو معنى بعيد عن الفهم .

قوله تعالى : « فارب السماء والأرض إنه لحق » مثل ما أنكم تنطقون »
الناطق التكلم وضمير « إنه » راجع إلى ما ذكر من كون الرزق وما توعدون في السماء والحق هو الثابت المحتوم في القضاء الإلهي دون أن يكون أمراً تبعياً أو اتفاقياً .
والمعنى أقسم برب السماء والأرض إن ما ذكرناه من كون رزقكم وما توعدون من الجنة - وهو أيضاً من الرزق فقد تكرر في القرآن تسمية الجنة رزقاً كقوله : « لهم مغفرة ورزق كريم » الأنفال : ٧٤ وغير ذلك - في السماء لثابت مقضي مثل نطقكم وتكلمكم الذي هو حق لا تترابون فيه .

وجوز بعضهم أن يكون ضمير « إنه » راجعاً إلى « ما توعدون » فقط أو إلى الرزق فقط أو إلى النبي ﷺ أو إلى القرآن أو إلى الدين في قوله : « وإن الدين لواقع » أو إلى اليوم في قوله : « أيبان يوم الدين » أو إلى جميع ما تقدم من أول السورة إلى ههنا ، ولعل الأوجه رجوعه إلى ما ذكر في قوله : « وفي السماء رزقكم وما توعدون » كما قدمنا .

﴿كلام في تكافؤ الرزق والمرزوق﴾

الرزق بمعنى ما يرتزق به هو ما يمد شيئاً آخر في بقائه بانضمامه إليه أولحوقه به بأي معنى كان كالغذاء الذي يمد الإنسان في حياته وبقائه بصيورته جزءاً من بدنه وكالزوج يمد زوجته في إرضاء غريزته وبقاء نسله وعلى هذا القياس .

ومن البين أن الأشياء المادية يرتزق بعضها ببعض كالإنسان بالحيوان والنبات مثلاً فما يلحق المرزوق في بقائه من أطوار الكينونة ومختلف الأحوال كما أنها أطوار من الكون لاحقة به منسوبة إليه كذلك هي بعينها أطوار من الكون لاحقة بالرزق منسوبة إليه وإن كان ربما تغيرت الأسماء فكما أن الإنسان يصير بالتغذية ذا أجزاء جديدة في بدنه كذلك الغذاء يصير جزءاً جديداً من بدنه اسمه كذا .

ومن البين أيضاً أن القضاء محيط بالكون مستوعب للأشياء يتعين به ما يجري على كل شيء في نفسه وأطوار وجوده ، وبعبارة أخرى سلسلة الحوادث بمالها من النظام الجاري مؤلفة من علل تامة ومعلولات ضرورية .

ومن هنا يظهر أن الرزق والمرزوق متلازمان لا يتفارقان فلامعنى لموجود يطرق عليه طور جديد في وجوده بانضمام شيء أولحوقه إلا مع وجود الشيء المنضم أو اللاحق المشترك معه في طوره ذلك فلا معنى لمرزوق مستمد في بقائه ولا رزق له ، ولا معنى لرزق متحقق ولا مرزوق له كما لا معنى لزيادة الرزق على ما يحتاج إليه المرزوق ، وكذا لبقاء مرزوق من غير رزق فالرزق داخل في القضاء الإلهي دخولا أو لياً لا بالعرض ولا بالتبع وهو المعنى بكون الرزق حقاً .



قوله تعالى : « هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين » إشارة إلى قصة دخول الملائكة المكرمين على إبراهيم عليه السلام وتبشيرهم له ولزوجته ثم إهلاكهم قوم لوط ، وفيها آية على وحدانية الربوبية كما تقدمت الإشارة إليه .

وفي قوله : « هل أتاك حديث » تفخيم لأمر القصة و « المكرمين » - وهم الملائكة الداخلون على إبراهيم - صفة « ضيف » وإفراده لكونه في الأصل مصدرا لا يشئ ولا يجمع .

قوله تعالى : « إن دخلوا عليه فقالوا سلاما قال سلام قوم منكرون » الظرف متعلق بقوله في الآية السابقة : « حديث » و « سلاماً » مقول القول والعامل فيه محذوف أي قالوا : نسلم عليك سلاماً .

وقوله : « قال سلام » قول ومقول و « سلام » مبتدئ محذوف الخبر والتقدير سلام عليكم ، وفي إتيانه بالجواب جملة اسمية دالة على الثبوت تحية منه ﷺ بما هو أحسن من تحيتهم بقولهم : سلاماً فإنه جملة فعلية دالة على الحدوث .

وقوله : « قوم منكرون » الظاهر أنه حكاية قول إبراهيم في نفسه ، ومعناه أنه لما رآهم استنكرهم وحدث نفسه أن هؤلاء قوم منكرون ، ولا ينافي ذلك ما وقع في قوله تعالى : « فلم أر أيديهم لاتصل إليه نكرهم » هود : ٧٠ حيث ذكر نكره بعد تقريب العجل الحنيد إليهم فإن ما في هذه السورة حديث نفسه به وما في سورة هود ظهوره في وجهه بحيث يشاهد منه ذلك .

وهذا المعنى أوجه من قول جمع من المفسرين : إنه حكاية قوله ﷺ لهم و التقدير أنتم قوم منكرون .

قوله تعالى : « فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين » الروغ الذهاب على سبيل الاحتيال على ما قاله الراغب وقال غيره : هو الذهاب إلى الشيء في خفية ، والمعنى الأول يرجع إلى الثاني .

و المراد بالعجل السمين المشوي منه بدليل قوله : « فقر به إليهم » أو الفاء فصيحة والتقدير فجاء بعجل سمين فذبحه وشواه وقر به إليهم .

قوله تعالى : « فقر به إليهم فقال ألا تأكلون » عرض الأكل على الملائكة وهو يحسبهم بشراً .

قوله تعالى : « فأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف الخ » الفاء فصيحة والتقدير

فلم يمدوا إليه أيديهم فلمآ رآى ذلك نكرهم وأوجس منهم خيفة ، و الإيجاس ، الإحساس في الضمير والخيفة بناء نوع من الخوف أي أضمر منهم في نفسه نوعاً من الخوف .

وقوله : « قالوا لا تخف » جيء بالفصل لا بالعطف لآنه في معنى جواب سؤال مقدر كأنه قيل : فما ذا كان بعد إيجاس الخيفة ف قيل : قالوا : لا تخف و بشرّوه بغلام عليم فبدّلوا خوفه أمانة و سرورا و المراد بغلام عليم إسماعيل أو إسحاق و قد تقدّم الخلاف فيه .

قوله تعالى : « فأقبلت امرأته في صرة فصكّت وجهها وقالت عجوز عقيم » في المجمع الصرة شدة الصياح وهو من صرير الباب و يقال للجماعة صرة أيضاً . قال : والصكّ الضرب باعتماد شديد انتهى .

و المعنى فأقبلت امرأة إبراهيم ﷺ - لما سمعت البشارة - في ضجّة و صياح فطممت وجهها و قالت : أنا عجوز عقيم فكيف ألد ؟ أو المعنى هل عجوز عقيم تلد غلاماً ؟

وقيل : المراد بالصرة الجماعة و أنّها جاءت إليهم في جماعة فصكّت وجهها و قالت ما قالت ، والمعنى الأوّل أوفق للسياق .

قوله تعالى : « قالوا كذلك قال ربك إنّّه هو الحكيم العليم » الإشارة بكذلك إلى ما بشرّوها به بما لها ولزوجها من حاضر الوضع هي عجوز عقيم و بعلمها شيخ مسّه الكبر فربّتها حكيم لا يريد ما يريد إلّا بحكمة ، عليم لا يخفى عليه وجه الأمر .

قوله تعالى : « قال فما خطبكم أيّها المرسلون - إلى قوله - للمسرّفين » الخطب الأمر الخطير الهامّ ، والحجارة من الطين الطين المتحجّر ، والتسويم تعليم الشيء بمعنى جعله ذا علامة من السومة بمعنى العلامة .

و المعنى « قال » إبراهيم ﷺ « فما خطبكم » والشأن الخطير الذي لكم « أيّها المرسلون » من الملائكة « قالوا » أي الملائكة لا إبراهيم « إنّنا أرسلنا إلى قوم مجرمين ، و هم قوم لوط » لنرسل عليهم حجارة من طين « طيناً متحجّراً سمّاه الله سجّيلاً » مسوّمة »

معلمة « عند ربك للمسرفين » تختص بهم لإهلاكهم ، والظاهر أن اللام في المسرفين للعهد .

قوله تعالى : « فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين - إلى قوله - العذاب الأليم »
القاء فضيحة وقد أوجز بحذف ما في القصة من ذهاب الملائكة إلى لوط و ورودهم عليه وهم القوم بهم حتى إذا أخرجوا آل لوط من القرية ، وقد فصلت القصة في غير موضع من كلامه تعالى .

فقوله : « فأخرجنا » الخ بيان إهلاكهم بمقدّمته ، وضمير « فيها » للقرية المفهومة من السياق ، و « بيت من المسلمين » بيت لوط ، وقوله : « وتركنا فيها آية » إشارة إلى إهلاكهم وجعل أرضهم عاليها سافلها ، والمراد بالترك الإبقاء كناية وقد بينت هذه الخصوصيات في سائر كلامه تعالى .

والمعنى : فلما ذهبوا إلى لوط وكان من أمرهم ما كان « أخرجنا من كان فيها » في القرية « من المؤمنين فما وجدنا غير بيت » واحد « من المسلمين » وهم آل لوط « وتركنا فيها » في أرضهم بقلبها وإهلاكهم « آية » دالة على ربوبيتنا و بطلان الشركاء « للذين يخافون العذاب الأليم » من الناس .

قوله تعالى : « وفي موسى إذ أرسلناه إلى فرعون بسultan مبین » عطف على قوله : « وتركنا فيها آية » والتقدير وفي موسى آية ، والمراد بسultan مبین الحجج الباهرة التي كانت معه من الآيات المعجزة .

قوله تعالى : « فتولّى بركنه وقال ساحر أو مجنون » التوليّ الإعراض والباء في قوله بركنه للمصاحبة ، والمراد بركنه جنوده كما يؤيده الآية التالية ، والمعنى أعرض مع جنوده ، وقيل : الباء للتعدية والمعنى جعل ركنه متولين معرضين .

وقوله : « وقال ساحر أو مجنون » أي قال تارة هو مجنون كقوله : « إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون » الشعراء : ٢٧ ، وقال أخرى : هو ساحر كقوله : « إن هذا لساحر عليم » الشعراء : ٣٤ .

قوله تعالى : « فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم » وهو مليم « النبذ طرح الشيء

من غير أن يعتد به ، و اليم البحر ، و المليم الآتي بما يلام عليه من ألام بمعنى أتى بما يلام عليه كأغرب إذا أتى بأمر غريب .

و المعنى فأخذناه و جنوده و هم ركنه و طرحناهم في البحر و الحال أنه أتى من الكفر و الجحود و الطغيان بما يلام عليه ، و إنما خص فرعون بالامامة مع أن الجميع يشاركونه فيها لأنه إمامهم الذي قادهم إلى الهلاك قال تعالى : « يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار » هود : ٩٨ .

و في الكلام من الإيماة إلى عظمة القدرة و هول الأخذ و هوان أمر فرعون و جنوده ما لا يخفى .

قوله تعالى : « و في عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم » عطف على ما تقدمه أي و في عاد أيضا آية إذ أرسلنا عليهم أي أطلقنا عليهم الريح العقيم .

و الريح العقيم هي الريح التي عقت و امتنعت من أن يأتي بفائدة مطلوبة من فوائد الرياح كتشنشة سحاب أو تلقيح شجر أو تذرية طعام أو نفع حيوان أو تصفية هواء كما قيل و إنما أثرها الإهلاك كما تشير إليه الآية التالية .

قوله تعالى : « ما نذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالريم » ما نذر « أي ما ترك ، و الرميم الشيء الهالك البالي كالعظم البالي السحيق ، و المعنى ظاهر .

قوله تعالى : « و في ثمود إذ قيل لهم تمتعوا حتى حين - إلى قوله - منتصرين » عطف على ما تقدمه أي و في ثمود أيضا آية إذ قيل لهم : تمتعوا حتى حين ، و القائل نبيهم صالح عليه السلام إذ قال لهم : « تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب » هود : ٦٥ قال لهم ذلك لما عقروا الناقة فأمرهم ثلاثة أيام ليرجعوا فيها عن كفرهم وعتوهم لكن لم ينفعهم ذلك و حق عليهم كلمة العذاب .

و قوله : « فعتوا عن أمر ربهم فأخذتهم الصاعقة و هم ينظرون » العتو - على ما ذكره الراغب - النبو عن الطاعة فينطبق على التمرد ، و المراد بهذا العتو العتو عن الأمر و الرجوع إلى الله أيام المهلة فلا يستشكل بأن عتوهم عن أمر الله كان مقدماً على تمتعهم - كما يظهر من تفصيل القصة - و الآية تدل على العكس .

و قوله : « فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون » هذا لا ينافي ما في موضع آخر من ذكر الصيحة بدل الصاعقة كقوله : « وأخذ الذين ظلموا الصيحة » هود : ٦٧ لجواز تحققهما معاً في عذابهم .

و قوله : « فما استطاعوا من قيام وما كانوا منتصرين » لا يبعد أن يكون « استطاعوا » مضمناً معنى تمكنوا ، و « من قيام » مفعوله أي ما تمكنوا من قيام من مجلسهم ليفروا من عذاب الله و هو كناية عن أنهم لم يمهلوا حتى بمقدار أن يقوموا من مجلسهم .

و قوله : « وما كانوا منتصرين » عطف على « ما استطاعوا » أي ما كانوا منتصرين بنصرة غيرهم ليدفعوا بها العذاب عن أنفسهم ، ومحصل الجملتين أنهم لم يقدرُوا على دفع العذاب عن أنفسهم لا بأنفسهم ولا بناصر ينصرهم .

قوله تعالى : « وقوم نوح من قبل إنهم كانوا قوما فاسقين » عطف على القصص السابقة ، و « قوم نوح » منصوب بفعل محذوف والتقدير وأهلكنا قوم نوح من قبل عاد وثمود إنهم كانوا فاسقين عن أمر الله .

فهناك أمر ونهي كلف الناس بهما من قبل الله سبحانه وهو ربهم ورب كل شيء دعاهم إلى الدين الحق بلسان رسله فما جاء به الأنبياء ﷺ حق من عند الله ومما جاؤا به الوعد بالبعث والجزاء .

قوله تعالى : « والسماء بنيناها بأيدينا طوسعون » رجوع إلى السياق السابق في قوله : « وفي الأرض آيات للموقنين » الخ ، والأيد القدرة والنعمة ، وعلى كل من المعنيين يتعين لقوله : « وإنا طوسعون » ما يناسبه من المعنى .

فالمعنى على الأول : والسماء بنيناها بقدرة لا يوصف قدرها وإنا لذو واسعة في القدرة لا يعجزها شيء ، وعلى الثاني : والسماء بنيناها مقارنا بناؤها للنعمة لا تقدّر بقدر وإنا لذو واسعة وغنى لا تنفذ خزائنا بالإعطاء والرزق نرزق من السماء من نشاء فنوسع الرزق كيف نشاء .

ومن المحتمل أن يكون « موسعون » من أوسع في النفقة أى كثرتها فيكون

المراد توسعة خلق السماء كما تميل إليه الأبحاث الرياضية اليوم .

قوله تعالى : « والأرض فرشناها فنعم الماهدون » الفرش البسط وكذا المهد أي والأرض بسطانها وسطحنها لتستقرّوا عليها وتسكنوها فنعم الباسطون نحن ، وهذا الفرش والبسط لا ينافي كربة الأرض .

قوله تعالى : « ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون » الزوجان المتقابلان يتم أحدهما بالآخر : فاعل ومنفعل كالذكر والأنثى ، وقيل : المراد مطلق المتقابلات كالذكر والأنثى والسماء والأرض والليل والنهار والبر والبحر والأنس والجن وقيل : الذكر والأنثى .

وقوله : « لعلكم تذكرون » أي تتذكرون أن خالقها منزّه عن الزوج والشريك واحد موحد .

قوله تعالى : « ففرّوا إلى الله إنني لكم منه نذير مبين ولا تجعلوا مع الله إلهاً آخر إنني لكم منه نذير مبين » في الآيتين تفريع على ما تقدّم من الحجج على وحدانيته في الربوبية والألوهية ، وفيها قصص عدّة من الأمم الماضية كفروا بالله ورسله فانهى بهم ذلك إلى عذاب الاستئصال .

فالمراد بالفرار إلى الله الانقطاع إليه من الكفر والعقاب الذي يستتبعه ، بالإيمان به تعالى وحده واتخاذهم إلهاً معبوداً لا شريك له .

وقوله : « ولا تجعلوا مع الله إلهاً آخر » كالتفسير لقوله : « ففرّوا إلى الله » أي المراد بالإيمان به الإيمان به وحده لا شريك له في الألوهية والمعبودية .

وقد كرّر قوله : « إنني لكم منه نذير مبين » لتأكيد الإنذار ، والآيتان محكيستان عن لسان النبي ﷺ .



﴿ بحث روائى ﴾

في تفسير القمّي في قوله تعالى : « وفي أنفسكم أفلا تبصرون » قال : خلقك سميعاً بصيراً ، تغضب مرة وترضى مرة ، وتجوع مرة وتشبع مرة ، وذلك كله من آيات الله .

اقول : ونسبه في المجمع إلى الصادق عليه السلام .

وفي التوحيد بإسناده إلى هشام بن سالم قال : سئل أبو عبد الله عليه السلام فقيل له : بما عرفت ربك ؟ قال : بفسخ العزم ونقض الهمم عزمت ففسخ عزمي ، وهممت فنقض هممي .

اقول : ورواه في الخصال عنه عن أبيه عن جده عن أمير المؤمنين عليه السلام .

وفي الدر المنثور أخرج الخرائطي في مساوي الأخلاق عن علي بن أبي طالب « وفي أنفسكم أفلا تبصرون » قال : سبيل الغائط والبول .

اقول : الرواية كالروايتين السابقتين مسوقة لبيان بعض المصاديق من طرق المعرفة .

وفيه أخرج ابن النور والديلمي عن علي عن النبي صلى الله عليه وآله في قوله : « وفي السماء رزقكم وما توعدون » قال : المطر .

اقول : وروى نحوه من القمّي في تفسيره مرسلًا ومضمراً .

وفي إرشاد المفيد عن علي عليه السلام في حديث : اطلبوا الرزق فإنه مضمون لطالبه . وفي التوحيد بإسناده إلى أبي البختري قال : حدثني جعفر بن محمد عن أبيه عن جده عن علي بن أبي طالب عليه السلام عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال : يا علي إن اليقين أن لا ترضى أحداً على سخط الله ، ولا تحمدن أحداً على ما آتاك الله ، ولا تدمن أحداً على ما لم يؤتك الله فإن الرزق لا يجره حرص حريص ، ولا يصرفه كره كاره . الحديث .

وفي المجمع « فأقبل امرأته في صرة » وقيل : في جماعة . عن الصادق عليه السلام .

وفي الدر المنثور أخرج الفاريابي وابن المنذر عن علي بن أبي طالب قال :
الريح العقيم النكباء .

وفي التوحيد بإسناده إلى محمد بن مسلم قال : سألت أبا جعفر عليه السلام فقلت : قول
الله عز وجل « يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي » ؟ فقال : اليد في كلام
العرب القوة والنعمة قال الله : « واذكر عبدنا داود ذا الأيد » وقال : « والسماء بنيناها
بأيدي » أي بقوة وقال : « وأيدهم بروح منه » أي بقوة ويقال : لفلان عندي يد بيضاء
أي نعمة .

وفي التوحيد بإسناده إلى أبي الحسن الرضا عليه السلام خطبة طويلة وفيها : بتشعيره
المشاعر عرف أن لا مشعر له ، وبتهجير الجواهر عرف أن لا جوهر له ، وبمضادته
بين الأشياء عرف أن لا ضد له ، وبمقارنته بين الأشياء عرف أن لا قرين له ، ضاد
النور بالظلمة ، واليبس بالبلل ، والخشن باللين ، والصد بالحرور ، مؤلفاً بين
متعادياتها ، مفرقاً بين متدانياتها ، دالة بتفريقها على مفرقها ، وبتأليفها على مؤلفها
وذلك قوله : « ومن كل شيء جعلنا زوجين لعلكم تذكرون » .

ففرق بين قبل وبعد ليعلم أن لا قبل له ولا بعد له ، شاهدة بغرائزها أن لا
غريزة لمغريزها ، مخبرة بتوقيتها أن لا وقت لموقتها ، حجب بعضها عن بعض ليعلم أن
لا حجاب بينه وبين خلقه .

وفي المجمع في قوله تعالى : « ففرّوا إلى الله » وقيل : معناه حجّوا . عن
الصادق عليه السلام .

اقول : ورواه في الكافي وفي المعاني بالإسناد عن أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام
ولعله من التطبيق .





كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ
 مَجْنُونٌ (٥٢) أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ (٥٣) فَتَوَلَّ عَنْهُمْ
 فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ (٥٤) وَ ذَكَرْ فَإِنَّ الدَّكَرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ (٥٥)
 وَ مَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (٥٦) مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ
 رِزْقٍ وَ مَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا (٥٧) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ
 الْمَتِينُ (٥٨) فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُنُوبًا مِثْلَ ذُنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا
 يَسْتَعِجِلُونَ (٥٩) فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوْعَدُونَ (٦٠) .

﴿ بيان ﴾

مختتم السورة و فيه إرجاع الكلام إلى ما في مفتحتها من إنكارهم للبعث الموعود
 و مقابلتهم الرسالة بقول مختلف ثم إيعادهم باليوم الموعود .
 قوله تعالى : « كذاك ما أتى الذين من قبلهم من رسولٍ إلا قالوا ساحر أو
 مجنون » أي الأمر كذاك فقلوه : « كذاك » كالتلخيص لما تقدم من إنكارهم واختلافهم
 في القول .

و قوله : « ما أتى الذين من قبلهم » الخ بيان للمشبّه .

قوله تعالى : « أتواصوا به بل هم قوم طاغون » التواصي إيحاء القوم بعضهم بعضاً
 بأمر ، و ضمير « به » للقول ، والاستفهام للتعجيب ، والمعنى هل وصى بعض هذه الأمم
 بعضاً - هل السابق وصى اللاحق ؟ - على هذا القول ؟ لا بل هم قوم طاغون يدعوههم

إلى هذا القول طغيانهم .

قوله تعالى : « فتول عنهم فما أنت بملوم » تفريع على طغيانهم و استكبارهم و إصرارهم على العناد واللباج فالمعنى فإذا كان كذلك ولم يجيبوك إلا بمثل قولهم ساحر أو مجنون ولم يزدهم دعوتك إلا عناداً فأعرض عنهم ولا تجادلهم على الحق فما أنت بملوم فقد أريت المحججة و أتممت الحججة .

قوله تعالى : « وذكّر فإن الذكرى تنفع المؤمنين » تفريع على الأمر بالتوّلّي عنهم فهو أمر بالتذكير بعد النهي عن الجدل معهم ، و المعنى و استمرّ على التذكير والعظة فذكّر كما كنت تذكّر فإن الذكرى تنفع المؤمنين بخلاف الاحتجاج والجدال مع أولئك الطاغين فإنّه لا ينفعهم شيئاً ولا يزيدهم إلا طغياناً و كفراً .

قوله تعالى : « وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون » فيه التفات من سياق التكلم بالغير إلى التكلم وحده لأنّ الأفعال المذكورة سابقا المنسوبة إليه تعالى كالخلق و إرسال الرسل و إنزال العذاب كل ذلك ممّا يقبل توسط الوسائط كالملائكة و سائر الأسباب بخلاف الغرض من الخلق والابجاد فإنّه أمر يختصّ بالله سبحانه لا يشاركه فيه أحد

و قوله : « إلا ليعبدون » استثناء من النفي لاريب في ظهوره في أنّ للخلقة غرضاً و أنّ الغرض العبادة بمعنى كونهم عابدين لله لا كونه معبوداً فقد قال : ليعبدون و لم يقل : لأعبد أولاً كون معبوداً لهم .

على أنّ الغرض كيفما كان أمر يستكمل به صاحب الغرض و يرتفع به حاجته والله سبحانه لا نقص فيه ولا حاجة له حتّى يستكمل به و يرتفع به حاجته ، ومن جهة أخرى الفعل الذي لا ينتهي إلى غرض لفاعله لغو سفيّ ويستنتج منه أنّ له سبحانه في فعله غرضاً هو ذاته لا غرض خارج منه ، و أنّ لفعله غرضاً يعود إلى نفس الفعل (١) و هو كمال للفعل لا لفاعله ، فالعبادة غرض لخلقة الإنسان و كمال عائد إليه هي و ما

(١) فالله تعالى خلق الإنسان ليثيبه والثواب عائد الى الانسان وهو المنتفع به والله غنى

عنه ، و اما غرضه تعالى فهو ذاته المتعالية وانما خلقه لانه الله عزاسمه . منه .

يتبعها من الآثار كالرحمة والمغفرة وغير ذلك ، ولو كان للعبادة غرض كالمعرفة الحاصلة بها والخلوص لله كان هو الغرض الأقصى والعبادة غرضاً متوسطاً .

فان قلت : ما ذكرته من حمل اللام في « ليعبدون » على الغرض يعارضه قوله تعالى : « ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم » هود : ١١٩ ، وقوله : « ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والانس » الأعراف : ١٧٩ فان ظاهر الآية الأولى كون الغرض من الخلقة الاختلاف ، و ظاهر الثانية كون الغرض من خلق كثير من الجن والانس دخول جهنم فلا محيص عن رفع اليد من حمل اللام على الغرض و حملها على الغاية .

قلت : أما الآية الأولى فالإشارة فيها إلى الرحمة دون الاختلاف ، وأما الآية الثانية فاللام فيها للغرض لكنّه غرض تبعي و بالقصد الثاني لا غرض أصلي و بالقصد الأول وقد تقدّم إشباع الكلام في تفسير الآيتين .

فان قلت : لو كان اللام في « ليعبدون » للغرض كانت العبادة غرضه تعالى المراد من الخلقة ، و من المحال أن يتخلف مراده تعالى عن إرادته لكن من المعلوم المشاهد عياناً أن كثيراً منهم لا يعبدونه تعالى وهذا نعم الدليل على أن اللام في الآية ليست للغرض أو أنها للغرض لكن المراد بالعبادة التكوينية كما في قوله : « وإن من شيء إلا يسبح بحمده » أسرى : ٤٤ .

أو أن المراد بخلقهم للعبادة خلقهم على وجه صالح لأن يعبدوا الله يجعلهم ذوي اختيار وعقل واستطاعة ، و تنزيل الصلاحية والاستعداد منزلة الفعلية مجاز شائع كما يقال : خلق البقر للحرث ، والدار للسكنى .

قلت : الأشكال مبنية على كون اللام في الجن والانس للاستغراق فيكون تخلف الغرض في بعض الأفراد منافياً له وتخلّفاً من الغرض ، والظاهر أن اللام فيهما للجنس دون الاستغراق فوجود العبادة في النوع في الجملة تحقق للغرض لا يضرّه تخلفه في بعض الأفراد نعم لو ارتفعت العبادة عن جميع الأفراد كان ذلك بطلائاً للغرض ، والله سبحانه في النوع غرض كما أن له في الفرد غرضاً .

وأما حمل العبادة على العبادة التكوينية فيضعفه أنها شأن عامة المخلوقات لأموجب لتخصيصه بالجن والإنس مضافاً إلى أن السياق سياق توبيخ الكفار على ترك عبادة الله التشريعية وتهديدهم على إنكار البعث والحساب والجزاء وذلك متعلق بالعبادة التشريعية دون التكوينية .

وأما حمل العبادة على الصلوح والاستعداد بأن يكون الغرض من خلق الجن والإنس كونهما بحيث يصلحان للعبادة ويستعدان لها أو لتعلق الأمر والنهي العباديين فيضعفه أن من البين أن الصلوح والاستعداد إنما يتعلق به الطلب لأجل الفعلية التي يتعلق به الصلوح والاستعداد فلو كان الغرض المطلوب من خلقهما كونهما بحيث يصلحان للعبادة أو لتعلق الأمر والنهي العباديين فقد تعلق الغرض أو بالأحرى بفعلية عبادتهما ثم بالصلوح والاستعداد لمكان المقدمية .

ففي حمل العبادة على الصلوح والاستعداد اعتراف بكون الغرض من الخلق أو بالأحرى وبالذات نفس العبادة ثم الصلوح والاستعداد فيعود الإشكال لو كان هناك إشكال .

فالحق أن اللام في «الجن والإنس» للجنس دون الاستغراق، والمراد بالعبادة نفسها دون الصلوح والاستعداد، ولو كان المراد هو الصلوح والاستعداد للعبادة لكان ذلك غرضاً أدنى مطلوباً لأجل غرض أعلى هو العبادة كما أن نفس العبادة بمعنى ما يأتي به العبد من الأعمال بالجوارح من قيام وركوع وسجود ونحوها غرض مطلوب لأجل غرض آخر هو المثول بين يدي رب العالمين بذلة العبودية وفقر المملوكية المحضنة قبالة العزة المطلقة والغنى المحض كما ربما استفيد من قوله تعالى : « قل ما يعبدكم ربّي لولا دعاؤكم » الفرقان : ٧٧ . حيث بدّل العبادة دعاء .

فحقيقة العبادة نصب العبد نفسه في مقام الذلة والعبودية وتوجيه وجهه إلى مقام ربّه، وهذا هو مراد من فسر العبادة بالمعرفة يعني المعرفة الحاصلة بالعبادة .

فحقيقة العبادة هي الغرض الأقصى من الخلقة وهي أن ينقطع العبد عن نفسه وعن كل شيء ويذكر ربّه .

هذا ما يعطيه التدبر في قوله تعالى : « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون »

ولعلّ تقديم الجنّ على الإنس لسبق خلق الإنس قال تعالى : « والجانّ خلقناه من قبل من نار السموم » الحجر : ٢٧ ، والعبادة هي غرض الفعل أي كمال عائذ إليه لا إلى الفاعل على ما تقدّم .

ويظهر من القصر في الآية بالنفي والاستثناء أن لاعناية لله بمن لا يعبدّه كما يفيدّه أيضاً قوله : « قل ما يعبؤ بكم ربّي لولادعأوكم » .

قوله تعالى : « ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون » الإطعام إعطاء الطعام ليطعمه ، وكلّ قال تعالى : « والذي هو يطعمني ويسقين » الشعراء : ٧٩ ، وقال : « الذي أطعمهم من جوع » الإيلاف : ٤ فيكون ذكر الإطعام بعد الرزق من قبيل ذكر الخاصّ بعد العامّ لتعلّق عناية خاصّة به وهي أنّ التغذية أوسع حوائج الإنسان وغيره وأخصّها لكونه مسبوقاً بالجوع وملحوقاً بالدفع .

وقيل : المراد بالرزق رزق العباد والمطعم ما أريد منهم أن يرزقوا عبادي الذين أرزقهم وما أريد أن يطعموني نفسي .

وقيل : المراد بالإطعام تقديم الطعام إليه كما يقدر العبد الطعام إلى سيّده و الخادم إلى معّذومه فيكون المراد بالرزق تحصيل أصل الرزق والإطعام تقديم ما حصلّوه والمطعم ما أريد منهم رزقاً يحصلّونه لي فأرثق به وما أريد منهم أن يقدموا إليّ ما أرثق به وأطعمه .

قوله تعالى : « إنّ الله هو الرزّاق ذو القوة المتين » تعليل لقوله : « ما أريد منهم من رزق » النخ والالتفات في الآية من التكلم وحده إلى الغيبة لإنهاء التعليل إلى اسم الجلالة الذي منه يتبدى كلّ شيء وإليه يرجع كأنّه قال : ما أريد منهم رزقاً لأنّي أنا الرزّاق لأنّي أنا الله تبارك اسمه .

والتعبير بالرزّاق - اسم مبالغة - وكان الظاهر أن يقال : إنّ الله هو الرازق للإشارة إلى أنّه تعالى إذا كان رازقاً وحده كان رزّاقاً لكثرة من يرزقه فالآية نظير قوله : « وما أنا بظلام للعبيد » .

و ذو القوة من أسمائه تعالى بمعنى القويّ لكنّه أبلغ من القويّ ، والمتين أيضاً

من أسمائه تعالى بمعنى القوي .

والتعبير بالأسماء الثلاثة للدلالة على انحصار الرزق فيده تعالى وأنه لا يأخذه ضعف في إيصال الرزق إلى المرتزقين على كثرتهم .

قوله تعالى : « فإِنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا ذُنُوبًا مِثْلَ ذُنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونَ »
الذُنُوبِ النَّصِيبِ ، والاستعجال طلب العجلة والحث عليها ، والآية متفرعة على قوله :
« وما خلقت الجنَّ والإنسَ إِلَّا ليعبدون » بالازم معناه .

والمعنى فإذا كان هؤلاء الظالمون لا يعبدون الله ولا عناية له بهم ولا سعادة من قبله تشملهم فإنَّ لهم نصيباً من العذاب مثل نصيب أصحابهم من الأمم الماضية الهالكة فلا يطلبوا مني أن أعجل لهم العذاب ولا يقولوا متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ،
وأيَّان يوم الدين .

وفي الآية التفات من الغيبة إلى التكلم وحده وهو في الحقيقة رجوع من سياق الغيبة الذي في قوله : « إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ » ، انخ إلى التكلم وحده الذي في قوله : « وما خلقت » انخ لتفرع الكلام عليه .

قوله تعالى : « فويل للَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ » تفرع على قوله :
« فإِنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا ذُنُوبًا » انخ وتنبيه على أن هذا الذنوب محقق لهم يوم القيامة وإن أمكن أن يعجل لهم بعضه ، وهو يوم ليس لهم فيه إلا الويل والهلاك وهو يومهم الموعود .

وفي تبديل قوله في الآية السابقة للذين ظلموا من قوله في هذه الآية : « للَّذِينَ كَفَرُوا » تنبيه على أن المراد بالظلم ظلم الكفر .

﴿ بحث روائي ﴾

في المجمع وروي بالإسناد عن مجاهد قال : خرج علي بن أبي طالب معتملاً مشتملاً في قميص فقال : لمَّا نزلت « فتولَّ عنهم فما أنت بملوم » لم يبق أحد منَّا إلا أيقن بالهلكة حين قيل للنبي : « فتولَّ عنهم » فلمَّا نزل « وَذَكَرْ فَإِنَّ الذِّكْرَ يَنْفَعُ

المؤمنين « طابت نفوسنا ، ومعناه عظم بالقرآن من آمن من قومك فإن الذكرى تنفعهم عن الكلبي .

أقول : ورواه في الدر المنثور و روى أيضاً ما في معناه عن ابن راهويه و ابن مردويه عنه عليه السلام .

وفي التوحيد بإسناده عن ابن أبي عمير قال : قلت لأبي الحسن موسى بن جعفر عليه السلام : ما معنى قول رسول الله صلى الله عليه وآله : اعملوا فكل ميسر لما خلق له ؟ فقال : إن الله عز وجل خلق الجن والانس ليعبدوه ولم يخلقهم ليعصوه وذلك قوله عز وجل : « وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون » فيسر كلاً لما خلق له فويل لمن استحب العمى على الهدى .

وفي العلل بإسناده إلى أبي عبد الله عليه السلام قال : خرج الحسين بن علي عليه السلام على أصحابه فقال : إن الله عز وجل ما خلق العباد إلا ليعرفوه ، فإذا عرفوه عبدوه ، فإذا عبدوه استغنوا بعبادته عن عبادة من سواه .

وفيه بإسناده إلى أبي بصير قال : سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عز وجل : « وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون » قال : خلقهم ليأمرهم بالعبادة .

أقول : و روى القمي في تفسيره مثله مرسلًا ومضمراً ، وقد مر في تفسير الآية ما يتضح به معنى هذه الروايات ، وأن هناك أغراضاً مترتبة : التكليف والعبادة والمعرفة .

وفي تفسير العياشي عن يعقوب بن سعيد عن أبي عبد الله عليه السلام قال : سألته عن قول الله : « وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون » قال : خلقهم للعبادة . قال : قلت : قوله : « ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك و لذلك خلقهم » فقال : نزلت هذه بعد ذلك .

أقول : أي نزلت « ولا يزالون » الخ بعد « وما خلقت » الخ يريد النسخ ، وفي تفسير القمي : وفي حديث آخر هي منسوخة بقوله : « ولا يزالون مختلفين » و المراد بالنسخ البيان ورفع الإبهام دون النسخ المصطلح ، وكثيراً ما ورد بهذا المعنى في كلامهم

عليهم السلام كما أشرنا إليه في تفسير قوله تعالى : « ما ننسخ من آية أو ننسها » الآية البقرة : ١٠٦ .

والمراد أن الغرض الأعلى هو الرحمة الخاصة المترتبة على العبادة وهي السعادة الخاصة بالمعرفة .

و في التهذيب بإسناده إلى سدير قال : قلت لأبي عبد الله عليه السلام أي شيء على الرجل في طلب الرزق ؟ فقال : إذا فتحت بابك وبسطت بساطك فقد قضيت ما عليك .

تمّ والحمد لله



السورة	الموضوع	نوع البحث	الصحيفة
الاحقاف ١٤-١	بحث فلسفي و دفع شبهة	فلسفي	٢٠٧
الفتح ٧-١	كلام في الايمان وازدياده	قرآني وغيره	٢٨١
الحجرات ١٠-١	كلام في معنى الاخوة	قرآني واجتماعي	٣٤٣
الذاريات ٥١-٢٠	كلام في تكافؤ الرزق والمرزوق	عقلي	٤٠٨

ص	س	الخطاء	الصواب	ص	س	الخطاء	الصواب
٧	٩	وهي واقعة	وهو واقع	٦٣	١٣	كان	كاف
١٧	٧	فريق في الجنة فمنهم شقي و		٧٠	٢	فيها	فيهما
		وفريق في السعير وسعيد		٧٣	١٣	المعصية	المطصية
	١٠	يحترزوا	يتحرزوا		٢١	عنه ساعة	ساعة
٢١	١٩	١٤٧	٦٠	٧٨	٢٢	١٩٤	١٩٣
٢٦	٢	وما	والذي	٧٩	١٥	٨٣	٨٢
٢٧	١	»	»		١٦	اسرى	اسرى ٨٥
	١٠	»	»	٨٥	١	الزخرف	الزخرف مكيّة
	١٦	»	»	٨٧	٨	٢	١
٢٨	٧	هناك	هناك غيرها		٢٠	٢	٢٢
	١٣	شريعته	شريعة	٩٣	١١	الايات	الآية
٢٩	٢١	تدعوهم	ما تدعوهم	٩٨	١٣	(٢٦)	(٣٦)
٣٤	٣١	الحجة	المحجة	١٠٧	١٧	وقال	قال
٤٢	٢٣	النبي	زائد	١٠٨	١٧	تشرکوا	تشرکوا
٤٥	١٨	عامه	عامّة	١٢٨	٩	يرتفع	يرفع
٤٨	٧	ابحاث	ايجاب	١٣٨	١٦	فرقناه	فرقناه
٥٢	١٦	تصلحوا	تصلوا		١٧	انزل	نزل
٥٣	٧	فال	قال	١٤٧	٩	١٤	٢٤
٥٧	٢	والله	الله	١٤٨	١٥	٢٦	٤٦
٥٨	١	بعباده	لعباده	١٥٠	٢٢	البقرة: ١٤٣	آل عمران: ١١٠
٥٨	١٢	سنة	سنة	١٥٦	٥	قيل	وقيل
٦٢	١٠	آية	آياته	١٥٨	٢٢	لا اظن	ما اظن

ص	س	الخطاء	الصواب	ص	س	الخطاء	الصواب
١٦٤	١	ست	سبع	٢٢٦	١٥	خصفة	حفصة
١٧٢	٢٠	السخرمة	السخرية	٢٣٠	٩	١٠٣	١٠٢
١٧٦	٢١	فذرني	وذرنى	٢٣٧	٢	وما	والذي
١٧٦	٢٢	١٣	١٢	٢٤٣	٥	القتل	القتل بالسيف
١٧٨	١٥	فضلها	فضلوا	٢٤٤	٣	٤	٥
١٨٣	٣	الصالحين اهل	الطالحين اهل	٢٤٨	٦	شجاعه	شجاعة
١٨٥	١٤	معارك	من معارك	٢٥٥	١٥	وعلى	وهو على
١٨٦	٥	البيان	البيان يظهر	٢٥٥	١٦	ماخوذة	ماخوذ
١٨٧	٢	٤٠	٤١	٢٥٧	١١	٢٣	٢٤
١٩١	١٩	القيامة	يوم القيامة	٢٥٩	٤	المتقلب	المتقلب هو المتقلب
١٩٩	٣	والارض	والارض وما بينهما	٢٦٣	٣٢	٣٥	
١٩٩	١٤	ارايتم	قل ارايتم	٢٦٩	٨	اولئك	اولئك الضعفاء الايمان
٢٠٣	٩	عن	من	٢٧٠	١٦	هذا	هذه
٢٠٤	١٩	انزله عليك	انزل اليك	٢٧٠	٢٠	فلا	ولا
٢٠٦	١٣	٢٩	٢٩	٢٧٣	٦	عزيزا	عليما
٢٠٧	٢١	محترم	محرم	٢٧٧	١٨	ان	لأن
٢١٠	١٧	كشملة	كمثله	٢٧٩	٢٢	قليل النصر	قليل النظير
٢١٣	١٩	لا يخلو	لا تخلو	٢٨٤	٦	تفيد	يفيد
٢٢٣	٤	فتقول	وتقول	٢٨٧	١٢	الفتح	الفتح العظيم
٢٢٣	١٤	فتارة	وتارة	٢٩٢	٣	يرجع	ترجع
٢٢٦	٣	غناء	عناء	٢٩٨	٣	التعزيز	التعزيز

ص	س	الخطاء	الصواب	ص	س	الخطاء	الصواب
٢٩٨	٢٣	ومن	من	٣٥٠	٢٠	ويترتب	ويرتب
٢٣	٨		٨٠	٣٦٠	٢١	بسيبة	بسيبة
٣٠٠	٥	عبدالله	عبدالسلام	٣٦٧	٢٢	تذكر	يذكر
٣٠٣	١١	للايملك	فلايملك	٣٧١	٧	سورة الحجر	سورة الحجر
٣٠٦	١	اول	ادل	٣٨٠	١٧	منقول	مغفول
٣١٣	١٨	٣١	٢١	٣٨٣	١٣	وانا	وما انا
٣١٩	٢٠	وفي الكافي		٣٨٧	١٢	والله	بلى والله
٣٢٠	١٩	ينتهى	ان ينتهى	٤٠٤	٧	تذكرون	تذكرون
٣٣٢	١٨	٤	٤٠	٤٠٦	٢١	٢١	٢٥
٣٣٣	٢١	٢٠	٣١	٤٠٧	٢٣	٢٥	٢١
٣٣٦	٩	للحرمة	للحومة		١٨	فقط	فقط او إلى الله
١٩		لادغام	لادغام				

